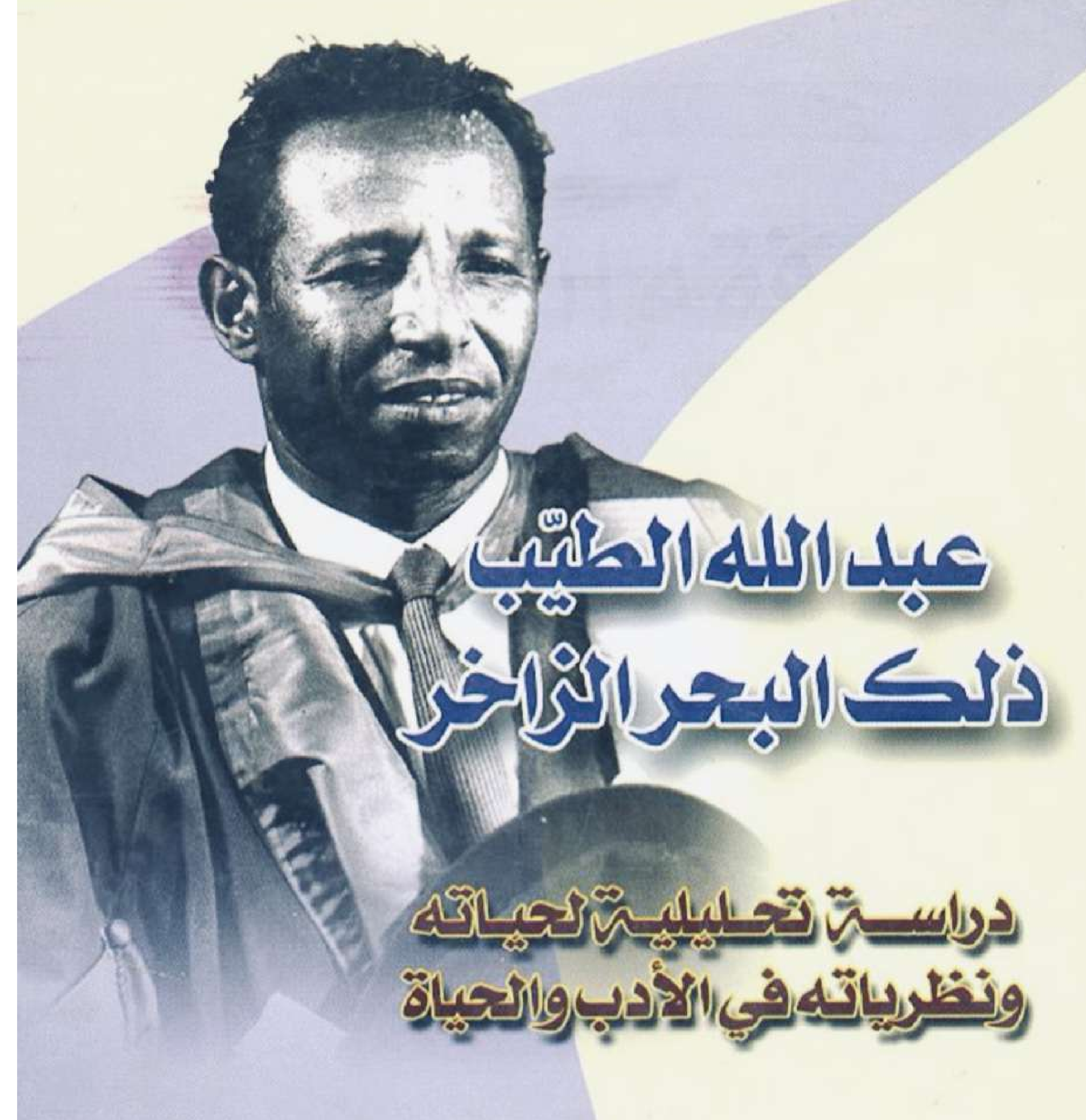


عبد الله الطيّب ذلك البحر الزاخر

دراسة تحليلية لحياته ونظرياته في الأدب والحياة

المؤلف:
أ.د. زكريا بشير إمام

استاذ الفلسفة والفكر الإسلامي بالجامعات السودانية
مدير جامعة جوبا سابقا

الخرطوم: يونيو ٢٠٠٤م

عبدالله الطيِّب
ذلك البحر الزاخر

دراسة تحليلية لحياته ونظرياته في الأدب والحياة

المؤلف

أ.د. زكريا بشير إمام

أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي بالجامعات السودانية

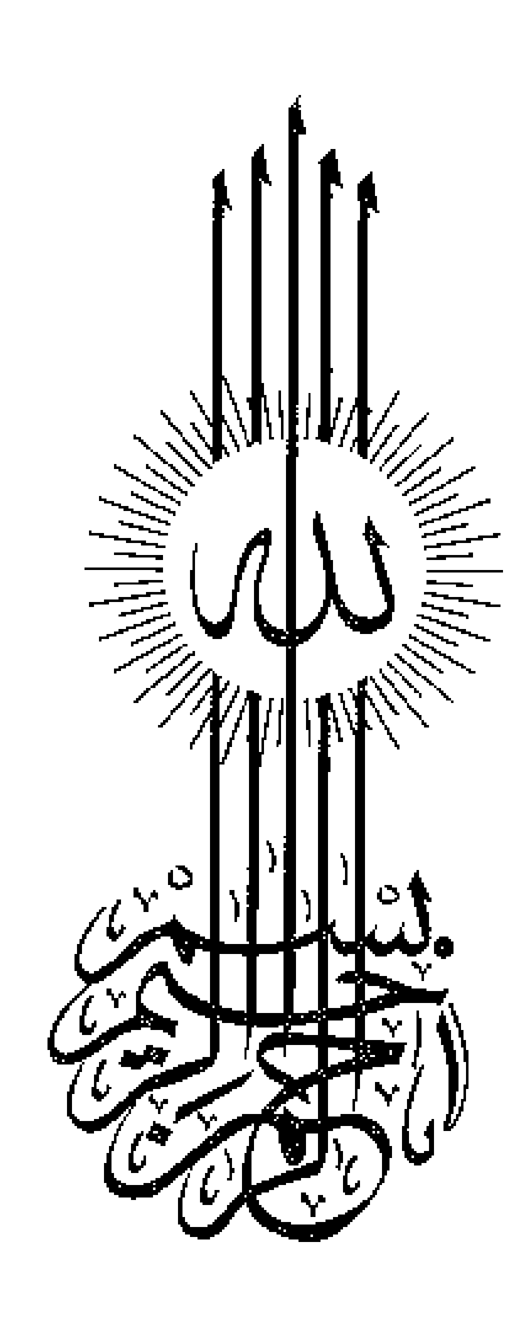
مدير جامعة جوبا سابقاً

الخرطوم : يونيو ٢٠٠٤

- اسم المؤلف : البروفسير/ زكريا بشير إمام
- عنوان الكتاب : عبدالله الطيب ذلك البحر الزاخر
- الخرطوم : شركة مطابع السودان للعملة المحدودة
- عدد الصفحات : ٤٥٢ صفحة
- التاريخ : يونيو ٢٠٠٤م
- الوصفات : أدب عربي - شخصية عبدالله الطيب وتاريخ حياته - فكر عبدالله الطيب وفلسفته في الحياة - شخصيات سودانية - الأدب الجاهلي - التعليم في السودان - تاريخ جامعة الخرطوم - الأدب العربي والأدب الإنجليزي.

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م



فاتحة كل خير

الإهداء

أهدي هذا الكتاب بكل فخر إلى روح أستاذنا العلامة
البروفسير/ عبدالله الطيب
وإلى السيدة الفضلى جريزيلدا (جوهرة) زوجته المكرمة
ورمز حبه وإلهامه
وإلى أم أيمن د. مزاهر محمد أحمد عثمان
زوجتي الغالية .. صاحبة العقل والعزيمة وأم البنين.
إعترافاً بمؤازرتها وإسهاماتها الجليلة
في رحلة الحياة وأسفارها الطويلة

المؤلف

الفهرس

الفصل الأول
عبدالله الطيب :
نشأته وتطوره الفكري والأدبي

الفصل الثاني
عبدالله الطيب : ذلك البحر الزاخر

الفصل الثالث

عبدالله الطيب : الرجل والبيئة والإيقاع

الفصل الرابع
عبدالله الطيب والشعر العربي

الفصل الخامس
عبدالله الطيب وأبو العلاء المعري

الفصل السادس
عبدالله الطيب و الطيب المتنبيء

الفصل السابع
عبدالله الطيب و أبو تمام

الفصل الثامن
عبدالله الطيب : والحنين المستحيل

الفصل التاسع
خاتمة وتعقيب

تقديم
بقلم بروفيسور/ عبدالرحيم علي إبراهيم *

الحمد لله حمداً كثيراً، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه صلاة تحل بها العقد وتفرج بها الكروب وتقضى بها الحوائج، وتنال بها الرغائب وحسن الخواتيم.

ورحمة الله الواسعة على أستاذنا عبدالله الطيب فقد كان محباً لرسول الله، راجياً لشفاعته في الآخرة وأشهد أن قصيدته برق المدد وهي آخر ما ألف من الشعر، وكان بتمامها فرحاً سعيداً كأنه كان يخشى ألا يمهله الأجل، فحرص على تحسينها وتصحيحها ونشرها - فيها أوضح العبارة على ذلك الحب الذي كان يرى أنه مدخل إلى الدين كله، إلى النجاة وإلى الفوز وإلى سعادة الآخرة بل كان يرجو به الشفاء والصولة على الأعداء بل يتوسل به لكل مراد قريب أو بعيد.

لقد كرمني الأستاذ الصديق البروفسير زكريا بشير بتقديم كتابه الجامع عن عبدالله الطيب، وأدركتني هيبة أمام هذا التشريف، فطال ترددي وطال انتظاره وصبره ثم أقدمت على كتابة هذه السطور! ولعل ما أدركني من الهيبة مصدره أن كلا الرجلين الراحل والمؤلف عزيز علي، لا أستطيع أن أفي ولو ببعض حقه. ومصدره كذلك أن هيبة الموت التي غمرتني بوفاة ركن ركين في حياة جيلي كله، كانت أعظم وأجل في خاطري من أن أعترف بها، أو أحيل شعوري تجاهها إلى كلمات وعبارات - كانت كما قال المتنبيء :

طوى الجزيرة حتى جاءني نبأ

فزعت فيه بآمالي إلى الكذب

عظمة الموت، وعظمة الميت، الذي - رحمه الله - كان رمزاً في القرن الذي انصرم للأصالة التي لم يطامن من شموخها وثباتها كل رياح التقليد والفرنجة ولا كل مظاهر التمدن ولألاء الحضارة الغربية التي أغارت على عالمنا الإسلامي والعربي بزيف من البريق في كل مجالات الأدب والثقافة والفن وأساليب الحياة.

وقف عبدالله الطيب كالطود الأشم، في وجه تلك الرياح الهوج، وأوى إليه إلى ركنه

* بروفيسور عبدالرحيم علي إبراهيم مدير معهد اللغة العربية الدولي للناطقين بغيرها ومدير جامعة إفريقيا العالمية (سابقاً).

عنه : تارة يسمونه بالكتب الصفراء، وتارة بالرجعية وآخرون أنكروا الحضارة الغازية وانكمشوا، وأصابتهم منها عقدة نقص، ولم يقصر المستعمرون في تأكيد تلك العقدة وتعميقها، بأنواع السياسات والإجراءات، وفي ذكريات الراحل من ذلك أوصاف دقيقة معبرة.

فأين وقف عبدالله الطيب من ذلك ؟

كان الراحل كأنما أعده الله لدور يقوم به في ذلك الجيل من الناس، كان ذكاء وقاداً ونفساً أبية، كأنه أراده الشاعر حين قال :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً

وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

ونشأ في بيت علم ودين فأشرب حب النبي (ﷺ) وحب الكتاب، وأوتي ملمة في البيان والحفظ قلما يجود بها الزمان، فانكب على الآداب العربية، حتى بدت له أسباب الثقافة الإنجليزية أوغل في دراستها، وحفظ من أشعار الإنجليز القديمة والحديثة ما أهله ليكون ناقداً فذاً.

ثم إنه تولدت له من الجمع بين هاتين الثقافتين، ملكات جديدة في النقد والفهم، وهو أمر معهود فيمن يجمع فناً إلى فن، ومنهجاً إلى منهج، وبمثل ذلك قال ابن خلدون.

ومن طرائف ذلك وعجائبه أنه حاول تشطير بعض الشعر الإنجليزي على عمود الشعر العربي وقارن بين أوزان الشعرين مقارنات طريفة وعميقة تدل على ذوق في الموسيقى والإيقاع لا يتأتى إلا للأفذاذ.

ومن مظاهر اهتمامه بالثقافة الإنجليزية أنه ربما اطلع على كثير من هزلها واستوعب غير قليل من دعاباتهم، وأمثالهم، وقد ساعده على ذلك أنه تزوج بامرأة منهم ودخل في المجتمع الإنجليزي مداخل لا تتاح إلا بالمصاهرة التي يبدو أنها فتحت له كذلك مغاليق من المجتمع لا تتاح بالاطلاع على الكتب والمقالات. وقد كان يروي في مجالسه وبين تلاميذه من الأخبار والمعلومات ما لا يسجله بقلمه، وفيه ما يدل على اتصال واسع وتفاعل عميق مع أشخاص وأصدقاء في المجتمع الإنجليزي والفرنسي والألماني، - ومنذ زمن بعيد - بما أتاح له نافذة من العلم بذلك المجتمع لا يقترب منها الدارسون الأجانب إلا نادراً.

وتدل بعض مؤلفات عبدالله الطيب ومقالاته على أنه حرص في شبابه على تجريب واستيعاب أنماط الحياة الأوربية في الرياضات والألعاب والفنون والمسرح - حتى إنه

الركين طوائف من أبناء الجيل كانوا يحسون بالحاجة إلى الاستناد والاستظهار بمن يدفع عنهم، ويملأ نفوسهم الحائرة بالثقة والطمأنينة إلى تراثهم وعزة أمتهم، وبالقدرة الهائلة على دفع الأباطيل التي ظل يثيرها أعداء الحضارة الإسلامية، غارة بعد غارة.

ولذلك أحبه تلاميذه كلهم حباً عميقاً، لا سيما منهم من كان يرى فيه هذه الرمزية، ويلتمس في أدبه وحضرته ومحاضراته تلك الطمأنينة الواثقة بالتراث الإسلامي، بالأدب العربي، وبعمق جذور الأمة وأصالة معدنها، وبراءتها من كل نقص يحوجها إلى الاعتذار أو الانطواء أو الفرار إلى حضارة الآخر وتراثه وإدعاء الانتماء إليه.

نعم: لقد كانت شخصيته - كما وصف المؤلف - جاذبة بحيويتها وروح المرح والدعابة المطبوعة فيها، وكانت فيوض علمه ونوادر معارفه، وتنوع مصادره، كلها شدّت إليه أبناء الجيل الذين لم يشاركوه مذهبه في الأصالة، بل خالفوه وعابوا عليه ووصفوه بالجمود والرجعية حتى أولئك كانوا يجدون فيه حلاوة وأريحية تشدهم إليه - ولكن حب الطائفة الأولى وهي الأكثر في بلادنا كان أعمق وأعظم. ولم يكن تلاميذه وحدهم الذين أحبوه، فقد كان أعظم شخصيات السودان شعبية، وأوسعهم قبولاً لدى العامة من الناس، فقد دخل بتفسيره للقرآن، الذي سلك فيه بالعامية السودانية مسلكاً متميزاً - دخل إلى قلوب الناس وإلى بيوتهم فلا زالت النساء في القرى والشيوخ والشباب في أرجاء السودان يتحلقون ليسمعوا التفسير، وأحاديثه في السير فلما مات كأنما في كل بيت في السودان مأتم وحداد.

وما أبلغ ما سمعت يوم تشييع جنازته، والناس متصرفون بعد الدفن، وقد توالى الخطباء والمشيعون، لكن امرأة في أفواج المنصرفين تقول لأختها: " الناس بعد ده يسدوا الرادي ويسدوا التلفزيون" أي: بعد وفاته يسدّ (يغلق الناس المذياع والتلفاز) فكانت مقالتها أبلغ عندي وأوجع لنفسي الحزينة من كل مقالات الخطباء!

ومن غاص في ما وراء مظاهر المحبة والإعجاب التي ما كانت لتخفى، والتي عبر عنها عامة الناس بعد وفاته أبلغ تعبير، من غاص وتأمل يجد أن الجيل الذي سجل تجربته الأستاذ المرحوم عبدالله الطيب في حقيبة الذكريات وفي مقالات أخرى كثيرة، كان جيلاً مصارعاً عاش منذ العشرينيات بدايات تجربة التعليم الأفرنجي في بخت الرضا، وكلية غردون وما بعدها وامتدت تجربة ذلك الجيل في تلاميذهم، حين انقسم الجيل نفسه، فكان منهم مفتونون بالحضارة الأوربية ذابوا فيها وأنكروا تراث حضارتهم، وتجهموا له وازوروا

ليصف في بعض كلامه لعبة الويست من ألعاب الورق بلفظ بليغ وعبارة واضحة وتفصيل دقيق مدهش.

وكأن المرحوم في شبابه أراد أن يبرهن أنه وإن كان ابن الشيوخ الزهاد في الدامر قادر على كل ما تلقي به الحضارة الغربية في طريقه من تحد، سواء من ذلك ما كان جداً أو هزلاً، وما كان تحدياً بالفكر أو بقدرة الجسد، فكان أولاً في السباقات وفي العوم والرياضات مثلما كان في اللغة والعلوم، والله قادر! ولله في خلقه شئون.

فلما تصدى عبدالله الطيب للثقافة الأفرنجية مدافعاً عن ثقافته وعن تراثه، لم يكن يتصدى بنصف علم، ولا بنصف معرفة ولا بجهل كما يفعل كثير من أبناء الجيل، بل كان في معرفته أعمق وأقدر وأعظم إلماماً من كثير من المقلدين الذين ما أن اطلعوا على قصائد قليلات، وقرأوا كتيبات معدودات، وجرت على ألسنتهم اللغة بكلمات محدودات حتى ألقوا السلم، وقالوا أتينا للثقافة الأجنبية طائعين.

لكن ذلك الجهباذ الأشوس رافع لواء العربية، ما أكثر ما رأيته وسمعته في مجالس من أهل العلم يفند أقوالاً من مزاعم المستشرقين، وحجج الطاعنين، بقول من قولهم وحجة من تناقضاتهم، فلذلك أعجبنا به وأحببناه. وكان سيفاً من سيوف الله.

لما عهد إلي الأستاذ الصديق بروفسير زكريا بشير بهذه المقدمة، لم أكن أعلم أنه قد بادر كل تلاميذ الأستاذ الراحل عبدالله وسبقهم بكتابة سفر ضخم شامل، فيه سلاسة واسترسال، ونهج فيه نهج الاستطراد والأريحية فأشبه بذلك منهج الراحل نفسه حين يأخذ في كتابة السير والذكريات. وقد كان ولا يزال كل تلاميذ الراحل يحدثون أنفسهم بكتابة سيرته أو يتناول جوانب من أدبه، لكن زكريا سبقهم إلى ذلك، وهو فيمن أن يسبق لأنه ربطته بالراحل آصرة العشيرة والموطن، ووثقت علاقته به كلية الآداب التي هي عشيرة الراحل، وقبيلته ورابطته.

كما أن الود الخاص الذي ذكره المؤلف مع ما نعلمه في زكريا من عاطفة جياشة وشخصية ودودة، مع طاقة وافرة في التأليف وصبر عليه كانت كلها عوامل حاسمة في خروج أكبر سفر يخرج بعد وفاة الراحل يتناول سيرته وأدبه، تناولاً عميقاً وسهلاً، في آن، وبذلك سجل البروفسير زكريا سطور الوفاء لذكرى أعز الراحلين على أبناء السودان قاطبة.

ولا أزال أذكر كلمات الراحل، وقد طلب منه التحكيم في بعض مقالات الأستاذ زكريا تمهيداً لترقيته إلى الأستاذية فقد أثنى عليها ثناءً جميلاً وقال فيما قال إنه يكتب بنفس ممدود ! فوجدت هذا النفس الممدود في هذه المجلدات التي سطرها صاحبها تصديقاً لقول عبدالله الطيب عنه .

والبروفسير زكريا – بعد – ممن نالوا جائزة الشهيد الزبير وهي أعلى الجوائز العلمية في بلادنا ، فكان بذلك زميلاً للمرحوم عبدالله في هذا التكريم، وهو مع عاطفته الجياشة الدافقة فيلسوف مفكر ناقد، ومؤلف مطبوع، أحمد له هذه المبادرة وأسأل الله أن يجزيه خيراً.

إن الراحل عبدالله الطيب ليستحق هذا الوفاء من تلاميذه فقد كان من أبر الناس بتلاميذه وأصدقائه، يزورهم ومعه أفكار وآراء ونصائح ، ويتفقدهم في كل أمورهم، ويسعى في حاجاتهم. لا أنسى إذ دخلت السجن مع زميل من تلاميذه هو الدكتور جعفر ميرغني، إنه سعى حتى أطلق سراحنا ثم وقد كنا فصلنا من الجامعة سعى حتى دخل على الرئيس النميري فأعادنا إلى الجامعة. ورأيته يتوسط في شأن بعض تلاميذه وهم بعيدون خارج البلاد ! فما كان أبره وما كان أصدق وده، عليه رحمة الله الرحمة الواسعة ما ذكر الشعر ودُرِس الأدب وقُرِيء القرآن ومُدِح النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم إنا لله وإنا إليه راجعون ولا نقول إلا ما يرضي الله ربنا وإنا لفراقه لمحزونون.

والحمد لله رب العالمين

في كل حين ومناسبة ويستفيدون منها في كل يوم فائدة علمية ومتعة ذهنية وتراثاً إنسانياً أدبياً وعلماً خالداً رفيعاً.

ووجدت أبياتاً لحافظ إبراهيم، في رثاء الراحل محمود سامي البارودي، فبدت لي أكثر ملاءمة في رثاء الراحل المقيم أستاذنا العلامة عبدالله الطيب - رحمه الله رحمة واسعة:

يقول حافظ إبراهيم يرثي محمود سامي البارودي، وهو صاحب قلم وقوافي وعلمٌ من أعلام الشعر العربي الحديث.. بل هو واحد من فحول الشعراء المحدثين مثله في ذلك مثل عبدالله الطيب :

لبـيـك شـاعـراً ضن الزمـان به
على النهى والقـوافي والأناشـيـد
تجـري السـلاسـة في أثناء منطقـه
تحت الفـصـاحـة جري الماء في العـودِ
فـي كـل بـيـت لـه مـــــاء يرفُّ بـه
يغـار من ذكـره مـاء العناقـيـد
لو حنطوك بشـعـر أنت قـائله
غنيت عن نفـحـات المسك والعـود
حليـتـه.. بعـد أن هذبتـه بسنا
عِـقْـدٍ بمدح رسـول الله منضـود
لبـيك يا خـيـر من هز اليـراع ومن
هز الحـسـام ومن لبى ومن نُودي
إن هُدَّ ركنك منكوباً فـقـد رفـعتْ
لك الفـضـيلة ركناً غـيـر مـهـدود

هرعت إلى قلمي لأكتب مقالاً أرثي به أستاذي العلامة وصديقي وزميلي الذي طالما وقف بجانبي في ظروف عصيبة، مرت بي في إبّان ثورة شعبان، وقبلها عندما كنت طالباً بجامعة الخرطوم. وكان حبل الود والقربى وحبل العشيرة والأهل في "الدامر الغربي" تربط بيننا وتوثق عهود الود والمحبة وكذلك رابطة العلم والثقافة وحبٌ في الله غير

مقدمة المؤلف

عندما نُعيَ إليَّ أستاذي الجليل عبدالله الطيب، وأنا بالدوحة بقطر، أصابتني لوعة شديدة وأسى فاجع مؤلم، فلم أكن مهيئاً لفراقه، خاصة وقد تركته في آخر زيارة لي في الخرطوم، وقد طرأ عليه تحسن واضح وسألته إن كان قد عرفني فأغمض عينيه في إشارة بالإيجاب. وخرجت من عنده وقفلت راجعاً إلى الدوحة وكلي أمل في أن يستعيد عبدالله الطيب عافيته وحيويته التي طالما أمتعتنا وملأت الدنيا بهجة وسعادة. وتكلمت مع مرافقه الحارث الحلفاوي فقال متهللاً إن عبدالله سوف يستعيد كامل صحته قريباً، وعندما سمعت خبر الوفاة التاع القلب وأحسست فراغاً أشبه بفراغ فؤاد أم موسى.. وكنت أمني النفس أن أتفرغ بعض الوقت للالتقاء به أياماً أو أسابيع أسمع منه تلك الأحاديث الشجية وتلك المساجلات الرائعة العبقرية التي طالما أعجبتني وأرضت حاجة عميقة في نفسي ورياً لظمأ الروح والعقل سواه بسواه. ولكني كنت أرجيء ذلك إجازة بعد إجازة وكأنني أتصرف في الزمن وفي الآجال، وهذه من غفلة الإنسان ومن خداع الزمن أن يتصرف الإنسان وكأنه يستطيع تنفيذ رغباته وتحقيق آماله متى وأنى شاء. ولكن الزمن حاكم مطاع وسيد مهيمن، وما لم ينتهز الإنسان الفرص، ويجاري المواسم، فإنه بلا شك يفوت عليه الكثير من الإنجاز والأعمال ولأول وهلة تذكرت أبيات لبيد بن أبي ربيعة العامري:

بلينا وما تبلى النجومُ الطوالعُ
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وما الناس إلا كالديار وأهلها
بها يوم حلوها وغدواً بلاقعُ
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه
يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطعُ

ولكني رأيت أن لبيداً لم يكن سوى شاعر جاهلي، على دين الوثنية العربية، التي لا تؤمن بخلود الروح ولا بحياة بعد الموت، فكيف يظن بالراحل المقيم عبدالله الطيب أنه يحور رماداً ليس إلا. فعبدالله الطيب وأمثاله من المؤمنين الموهوبين يبقون - بعد رحيلهم - في آثارهم الخالدة ما بقيت حياة على وجه هذه البسيطة.. آثارهم الحية التي يذكرها الناس

والفجيعة التي أذهلتني عندما نعى الناعي انتقاله إلى الدار الآخرة، وفي النفس شوق إليه وحاجة لم تنقض. ولكنني أردت أيضاً أن أعطي القاريء، وخاصة الجيل الناشيء من أبنائنا وتلاميذنا ملامح عريضة وموجزة لعبقرية هذا الرجل، وعلمه الموسوعي الواسع، الذي عزّ أن يوجد مثله على مدى الأزمان والعصور. وهنا تشابكت أمامي الطرق وتشعبت المسالك وتعددت المناهج والمشارب، فعبدالله الطيب ليس شخصاً واحداً ولكنه شخوص كثيرة، وعلومه ليست بعلم واحد ولكنها علوم كثيرة غزيرة، وأعترف أنني لم أكن قد أحسنت التقدير إذ ظننت أنني أستطيع أن أنجز مثل هذا التقديم الموجز لعلوم عبدالله الطيب. فوجدت نفسي - جرّاء ذلك التقدير الخاطيء - في ورطة عظيمة.. فاستوحشت وصعب عليّ أن أكتب رثاءً سطحياً لفظياً لرجل في قامة عبدالله الطيب.. واستعنت بالله، وسألته سؤالاً ملحاً أن يسهل عليّ أمر هذه المحاولة، إعطاء تعريف جامع شامل لعلوم عبدالله الطيب وإهتماماته الأدبية الثرة ونبوغه في علوم اللغات ولا أقول العربية وحدها.

ولا أشك أن المولى عز وجل قد استجاب لدعائي فسهل عليّ ما كان صعباً وانبسط أمامي ما كان مشكلاً - خصوصاً وأنا لست من أهل الاختصاص في علوم العربية ولا في الأدب والشعر العربي - فجلست - وعلى مدى أكثر من ستة أشهر أدرس آثار عبدالله الطيب وكتبه التي تيسرت لي من مكتبتي الخاصة وكذلك وجدت - بحمد الله - كثيراً من مؤلفاته في مكتبة جامعة قطر الغرّاء بالدوحة. وأرسلت إلى إبني د/ يحيى زكريا أن يشتري لي بعض كتبه ويرسلها من الخرطوم. بالرغم من ذلك فهنالك بعض كتب ومؤلفات عبدالله الطيب لم أستطع الحصول عليها، خاصة كتابه (من نافذة القطار).

مهما يكن من شيء، فإن هذا الكتاب الذي هو الآن بين يدي القراء هو جهد المقل. وإني لأرجو من الله عز وجل أن يمكنني من كتابة المزيد من الدراسات عن فكر عبدالله الطيب وعن فلسفته في الحياة إذا كان في العمر بقية. كما أنني أرجو أن يكون فاتحة خير لدراسات عميقة عن هذا العالم العبقري. ذلك أن عبدالله الطيب ليس فقط شخصاً فذاً أو عالماً موهوباً ولكنه رسالة سامية وفكرة خالدة. فعبدالله الطيب حامل لواء الثقافة العربية الإسلامية في السودان وفي العالم العربي. وهذه الثقافة اليوم تعاني - كما عانت بالأمس - خطر التهميش والاقصاء بل وخطر الاستئصال من بعض الدوائر التي تعادي العروبة والإسلام وما أكثرها منذ نهاية القرن المنصرم واستهلال هذا القرن الحادي والعشرين..

مذموم، وذكرى جهاد ونضال في سبيل نصرة الفكر الإسلامي والعروبة والثقافة الإسلامية التي كانت – يومئذ – تعاني من التهميش إن لم تكن المعارضة والإقصاء في جامعة الخرطوم.

ولكن المقال طال وطال، وأنا أحاول أن أستقصي مجالات فكر عبدالله الطيب وآثاره الأدبية. فوجدتني أكتب هذا الكتاب الذي هو اليوم، بحمده تعالى، بين يديك أيها القاريء الكريم! وليس هذا الكتاب يغني عن دراسة منهجية ولا هو بمستقص لكل مجالات ذاك الفذ العلامة، وذلك الحبر الفهامة وأنّى له ذلك، وصاحبه غير متخصص في المجالات الرحيبة التي إرتادها عالمنا القدير عبدالله الطيب، وهو الأديب والشاعر المطبوع وعالم اللغة والبيان، الألمعي حامل لواء العربية ليس في السودان فحسب، ولكن في العالم العربي أجمع، ومن ألقت إليه "شيوخ يعرب" بأسرارها، في قصيدته خمر البيان (١) :

ألقت إليّ شيوخ يعرب سرّها
فأنا المُجلّي في البيان الأول

أوتيت كل كريمة مكنونة
غرّاء فيها الجوهر المُتَنَخّلُ

خمرٌ من الشعر الرصين خبأتُها
ما مِثلُها البردان أو قطربّلُ

ولقد إعترف له الدكتور طه حسين بذلك، عندما قدّم لكتابه (المرشد) الجزء الأول منه.

كما إعترف له بذلك شعراء السودان، وأدباؤه وعلماؤه فنال جائزة الشهيد الزبير محمد صالح للإبداع العلمي، الكبرى. كما كان نيله لجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي إعترافاً عالمياً بمكانة هذا المبدع الموهوب. وهو بذلك يعتبر فخراً للسودان وللعروبة جمعاء.

قلت في بداية هذه المقدمة أنني عندما جلست لأنعي أستاذي المحبوب العلامة عبدالله الطيب، كنت في البداية أرمي إلى التعبير عن مدى الفقد الذي أحسست به وتلك اللوعة

---

(١) عبدالله الطيب – ديوان أصداء النيل – الطبعة الخامسة ١٩٩٢م – صفحة ٦٩ – دار جامعة الخرطوم للنشر.

قطر، الذي أعارني بعض المراجع من مكتبته الخاصة، وشكري موصول إلى الأستاذ عادل محمد عبدالعزيز الذي قام بطباعة الكتاب على الحاسوب كما قام بتنسيقه وتصميمه على هذه الصورة الرائعة والمشرفة والشكر أيضاً للأستاذ النعيم العبيد. والشكر موصول للبروفيسور عبدالرحيم علي إبراهيم مدير جامعة إفريقيا العالمية سابقاً، والمدير الحالي لمعهد اللغة العربية الدولي للناطقين بغيرها، لتكرمه بتقديم هذا (السفر)- كما أشار- والعبارات الطيبة التي ذكرها في حقنا، بالإضافة إلى تفضله بتقديم بعض الإقتراحات والتصويبات. والشكر أجزله للإبن البار والفيلسوف الصغير محمد زكريا بشير لمناقشاته التي دائماً هي مصدر أنسي وإلهامي. والشكر أيضاً لإبننا الأستاذ الماحي سليمان آدم لمراجعته وتنقيحه وتحقيقه وترتيبه للمسودة الأخيرة وبذله الوقت والجهد.

كذلك فإني أتقدم بشكري وتقديري لزوجتي العزيزة، التي لم تتحمل انشغالي طيلة الفترة التي كنت أعكف فيها على كتابة هذا المؤلف فحسب بل قامت بمراجعة المسودة الأولى، وكانت تتابع باهتمام شديد تقدم العمل في إنجاز هذا الكتاب!

أخيراً وليس آخراً لابد من التقدم بشكر من نوع خاص للأستاذ/ أحمد موسى/ المدير العام لبنك أم درمان الوطني لدعمه المالي الذي لولاه لما ظهر هذا الكتاب إلى حيز الوجود، فله من الشكر أجزله وأعمقه.

فلهم جميعاً مني جزيل الشكر والتقدير.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ونصلي ونسلم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

جعله الله قرناً مباركاً . فمعارك عبدالله الطيب ليست كلها معارك شخصية من أجل نيل الإعتراف والتقدير لرجل عبقري يستحق كل إعتراف وتقدير . ولكنها معارك من أجل الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية النبيلة ، والمحافظة على مجد العروبة وعلى ميراث الحضارة الإسلامية الشامخ التليد .

ومن الضروري جداً تعريف الأجيال الناشئة بهذا العالم الفذ وبالرمزية الخالدة التي يقف عبدالله الطيب ، شامخاً كالطود العظيم ، في الدفاع المستميت عنها وعن أحقيتها في البقاء والتقدير !

ولعبدالله الطيب فلسفة مهمة جداً ونظرية رائعة في أصول التربية والتعليم في العالم الإسلامي ، ودعوة حارة أن تؤسس تلك الأصول على دراسة :

(١) القرآن الكريم وحفظه ،

(٢) الشعر العربي ، جاهليا وإسلاميا وأندلسياً ،

(٣) العلوم الحديثة التي تقوم على الرياضيات والعلوم التجريبية الحديثة .

كما يدعو إلى الإعتزاز :

(٤) بالوطن وبالهوية العربية وبالثقافة العربية الإسلامية والإلمام الشامل بتفوقها الكبير على الثقافة الغربية والآداب الغربية .

(٥) ويدعو كذلك إلى الإنتماء الوطني للسودان ، باعتبار انه وطن عربي إسلامي أصيل في عروبته وإسلاميته ، وموطناً أصيلاً للغة العربية وللخيول العربية الأصيلة ، وكذلك لأنه موطن الهجرة الإسلامية الأولى لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم !

(٦) يعتز عبدالله الطيب بالنبي العربي ، وبتراث المدائح النبوية بما فيها من صبابة نبيلة بحب هذا الرسول الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين وخير الخلق أجمعين ، صلى الله عليه وسلم :

مـــــولاي صلي وسلم دائمـــــاً أبداً
على حـــبـــيـــبك خـــيـــر الخلق كلهمُ

وفي الختام لا يفوتني إلا أن أتقدم بالشكر أجزله لكل الذين ساعدوا في إخراج هذا الكتاب إلى النور : الأستاذ/ أحمد القطان ، مدير مكتبة جامعة قطر ، والأستاذ صالح دفع الله ، من مكتبة جامعة قطر ، والدكتور/ معاوية عبدالمجيد – وحدة اللغة الإنجليزية بجامعة

الفصل الأول

عبدالله الطيب :

نشأته وتطوره الفكري والأدبي

عبدالله الطيب :
نشأته وتطوره الفكري والأدبي

١- البيئة والمنشأ:

نشأ عبدالله الطيب في الشمال الأوسط، ولد بناحية التميراب من قرية أم الطيور، غربي الدامر، أو بالدامر الغربي كما يحلو له أن يسميها وكان ميلاده في ٢ يونيه ١٩٢١م في هذه الحلة التي ولد فيها أيضاً أبواه وأبوهما من قبل عبدالله وجلال الدين أبناء الطيب رحمهم الله أجمعين. وعمودية التميراب أرض زراعية يغمرها النيل عندما يفيض في الصيف، إذا أربى في فيضانه.

وأهل عبدالله الطيب كانوا جميعهم من أنصار المهدي عليه السلام وقد أفنت الفروسية أكثرهم - فيما روى عبدالله الطيب - وهم يقاتلون إلى جانب الأنصار[١]

منهم من صحب المهدي من قدير وأسر بالنجومية، ومات الفقيه عمر بن الطيب مع الزبير باشا في الغرب، والفقيه أحمد في شيكان. وقتل الفقيه عبدالرحمن بأبي طليح شهيداً ويصف عبدالله الطيب جده لأبيه عبدالله بن الطيب بأنه :

"كان سيداً مطاعاً، ذا تدبير وحزم وشكيمة وجد وبتدبيره أمّن قومه عام ١٣٠٦هـ من المجاعة، (سنة ستة) .

أما أخوه، أخو عبدالله بن الطيب الجد، جلال الدين بن الطيب أبو الوالدة عائشة رحمها الله، كان قد سمع الرسالة من محمد الخير الأغبش، وكان يقرأ الراتب (راتب المهدي) إلى أخريات أيامه وكان طريقهما وأهلهما الشاذلية .

ويقول عبدالله الطيب إن والده قد نشأ يتيماً لأمه فريداً، إذ توفت والدته (التومة بنت فضل الله الشم "الأشم") وهو صغير (أي والد عبدالله الطيب). ودرس القرآن بمساجد آبائه وجوّده ببربر عند الشيخ ود الفكي علي رضي الله عنه، وقرأ "الشاطبية" وحفظها وهاجر إلى الأزهر وكان بقاؤه ثمّ قليلاً إذ لم يلائمه طقس القاهرة الرطب، ولحق بكلية غردون وتركها ١٩٠٦ من السنة الثالثة، على جودة كانت منه في دروسه، كما أخبر بذكر الشيخ مجذوب جلال الدين. .

---

(١) مقدمة (أصداء النيل) ص ٣٨، الطبعة الخامسة، دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٩٢ .

ثم صار والد عبدالله الطيب إلى التدريس، في أوائل العشرينيات وكان أول عمله بالمدرسة الأولية بكسلا وبها أقام الفتى عبدالله الطيب خمس سنوات يقول عنها إنها (لازلن من أطيب ذكريات العمر) وصار من بعد ذلك إلى مقرات وإلى أبي حمد والدامر ١٩٣١م وبالدامر الغراء أمضى عبدالله الطيب آخر سنوات المدرسة الأولية وصار إلى الأميرية الوسطى ببربر ١٩٣٢م.

توفي والد عبدالله بن الطيب وهو بالسنة الثانية الوسطى عام ١٩٣٣م وكان سبب وفاته من الكبد، ويقول عبدالله الطيب عنه إنه "كان قد رق للعبادة أشد رقة، ولم يزل إلى أخريات سنواته يتلو القرآن بالسحر، وكان له متقناً وبه صيتاً، نديّ الأداء[1]"

ثم يذكر عبدالله الطيب بعد ذلك إنه "رزيء" بعد ذلك بفقد عدد من أقاربه الأقربين:

- بعد عام من وفاة والده، توفي أخوه وشقيقه حسن، غرقاً بالمترة بأم الطيور.
- ثم توفيت جدته لأمه، بخيته بنت حواء. وبنت خلف الله ود بدير، وكانت رباطابية من أرتل الشريق ذات شخصية قوية وكانت بعد وفاة والده ركناً للعائلة كلها رحمها الله.
- ثم لحقتها بعد أسابيع لم تبلغ الأربعين يوماً والدة عبدالله الطيب، وكان حينئذ في السنة الثانية من المدرسة الثانوية.
- ثم فقد بعد ذلك شقيقتين وعدداً من الأدنَين والأقارب إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولا شك أن هذه الرزايا والمصائب قد تركت في نفس الفتى عبدالله الطيب آثاراً عميقة من الأسى و الحزن والكمد الدفين، ظلت تلك الآثار خطوطاً عريضة، بعيدة الغور في نفسه ولازمته طيلة حياته كلها، مما طبع محياها بمسحة حزن وأسية لا تكاد تخطؤها العين الفاحصة من طلابه وأحبابه وزملائه.. حتى وهو يبتسم. كما قال الشاعر:

إذا رأيت نيـــــــوب الليث بارزةً

فــــلا تظنن أن الليث يبــــتسم

ويبدو من كلام عبدالله الطيب، في "من حقيبة الذكريات" أن وفاة شقيقه حسن الذي كان صنو روحه، وتوأمها، كانت نقطة تحول فاجع في حياته كلها، ويقول عبدالله الطيب في ذلك[2] "كنت أنشل عند البير التي وراء حجرة الطعام (السفرة) بالداخلية لأغسل ملابسي، وجاء أحدهم يحمل ظرفاً فيه رسالة وفتحتها وقرأت:..

---

(١) مقدمة ديوان "أصداء النيل" ص ٣٩، مصدر.

(٢) عبدالله الطيب: من حقيبة الذكريات، ص ١٠٤ - دار جامعة الخرطوم للنشر الطبعة الأولى ١٩٨٣ الخرطوم.

ومـــــــا المال والأهـلـون إلا ودائـع

ولا بـد يـومــــــــــاً أن تُـرد الـودائـعُ

وإذا بحسن قد غرق في المترة يوم الاثنين ... سقطت مني دمعة كبيرة جداً، وتماسكتُ تجلداً. كان موت حسن كارثة:

قالت الخنساء -رحمها الله ورضي عنها إذ كانت ذات صحبة:

يذكـــرني طلوع الشـــمس صـــخـــراً

وأذكـــره لكل غـــــروب شـــــمس

ولو لا كـــثـــرة البـــاكين حـــولي

على إخـــوانهم لقـــتلت نفـــسي

ومـــا يبكون مـــثل أخي ولكن

أسلي النفس عنه بالتـــــأسي

ولا سلوان ولا أسوة. ولكأن كل مصيبة تنوء بها منذ ذلك الحين إلى اليوم إنما كانت من عواقب ذلك الحادث المشئوم الجسيم، ماتت الوالدة (عائشة) بعد وفاة الجدة بخيتة بنت حواء في أقل من نصف الشهر الواحد...

ويظهر أن عبدالله الطيب كان جد لصيق بأمه (عائشة) هذه، خاصة بعد وفاة أبيه، وكان يحبها حباً شديداً غزيراً: يقول عنها والمحبة تشف من وراء كلماته الندية:

" كانت الوالدة نقية اللون، صفراء طويلة جميلة قالوا وكانت أمها تخاف عليها العين"(1)

يقول عبدالله الطيب إن والدته كانت موزعة الولاء بين الأنصار والختمية وكانت موزعة المحبة بين والدها الأنصاري الشيخ جلال الدين بن الطيب وبين هوى والدتها نحو الختمية يقول عبدالله الطيب، إنه سمعها وهي تقص خبر المهدية وتقول (بإعزاز):

مدافع الباشا ضربن رشْ زي الموية وسط القش

أما والده فقد كان أقرب إلى الختمية مع تطرق نحو الشاذلية، وعندما كان مدرساً في كسلا كان مقرباً جداً من أحمد الميرغني الكسلاوي، وهذا سبب له شيئاً غير قليل من الحسد والغيرة مما دفعه لترك كسلا والانتقال في سلك التدريس إلى أبي حمد ومقرات. موطن الرباطاب أهل جدته لأمه.

(1) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

وقد كان جده عبدالله بن الطيب فقد كان أيضاً شديد التمسك بالختمية . أما جلال الدين أخوه فقد كان شديد التمسك بالأنصارية محباً للمهدي يواظب قراءة راتب المهدي، عليه السلام!

أما الجدة بخيتة بنت خلف الله ود أحمد ود بدير فقد كانت تكره الأنصار، وكادت أن تُقتل بواسطة الجهادية من جنود خليفة المهدي عبدالله التعايشي، عندما إجتاحوا بلاد الجعليين وقد كانت حبلى فهددها أحدهم ببقر بطنها بحربته، كما يروي عبدالله الطيب وهكذا يبدو أن الأسرة كانت موزعة الولاء بين الأنصار والختمية . إلا أن غالبية شيوخ المجاذيب كانوا شديدي الولاء للأنصار، وظلوا كذلك بعد زوال دولة الخليفة عبدالله التعايشي ولهذا السبب كانت علاقتهم جد متوترة مع حكومة الإنجليز، ولم يظفروا فيها بأي اهتمام أو تنمية بل كان مصيرهم - وكذلك مصير الجعليين عموما - هو التهميش من قبل الإنجليز، فيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية أو الخدمات، خاصة التعليم، وإلى عهد قريب قبل حكومة الإنقاذ كانت مناطق الجعليين - خاصة غرب النيل - تخلو من المدارس الثانوية وكذلك من الخدمات الضرورية، وإلى اليوم لا يوجد كبرى للعبور من عطبرة أو الدامر إلى أم الطيور.

مهما يكن من شيء، فقد كان والد عبدالله الطيب شديد الميل والمحبة للسادة الختمية، بحسبان أنهم من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويروي عبدالله الطيب، أنه عند وفاة والده " جاء خلفاء السادة الختمية - اثنين أو ثلاثة منهم، احسب أن منهم الخليفة محجوب وأنهم أنشدو براق الختمية الشهير:

على أحمد والآل والصحب دائما

أذكر هذا، وفي أصواتهم رقة وشجو حزن عميق بعيد ودمعت عيناي بالحزن الشديد.. "[1].

أما شقيق جده عبدالرحمن ود الطيب فقد استشهد في أبي طليح مع الأمير ود حلو وكذلك أخوه الأكبر محمد ود الطيب كان قد أسر في النجومية (تجريدة الأمير ود النجومي التي حاولت التقدم نحو مصر).

(١) المرجع السابق: ص ١٠٧ .

عبدالله الطيب وحساده:

وفي موضوع الحسد، والشيء بالشيء يذكر، كان عبدالله الطيب يعاني كثيراً عنه كونه كان مبرزاً جداً، يحرز الأولية في الترتيب دائماً، وكان في هذا التبريز لجد محسود ويذكر عبدالله الطيب في ذلك قصصاً منها إن بعض زملائه تعرض له بالضرب، دون أي مناسبة. كما كان بعض مدرسيه يحسدونه على تميزه وتبريزه في الترتيب. ومرة جاء أحد هؤلاء المدرسين الذين كانوا يحسدونه على تميزه وخلعه من مرتبة (الألفا) يعني العريف بلا سبب ظاهر. وعندما قبل في التجهيزي "بالداخلية ومجاناً" قال له واحدٌ من هؤلاء المدرسين الحساد "إنك لا تستحق ذلك" بالرغم من أنه كان يتيم الأب والأم ومن أسرة كبيرة ومحترمة ولكنها كانت آنذاك أسرة فقيرة – أسرة المجاذيب. وكان الفقر هو الظاهرة السائدة آنذاك، خاصة بعد مجيء الكساد الكبير في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، إبان الحرب العالمية الثانية، فيما يروي! وظل عبدالله الطيب يشتكي من الحساد وعدم وفاء الأصدقاء والخلان طيلة حياته، كما ظل يحس في قرارة نفسه أنه الوحيد المفرد:

من قصيدته (هل أعرف النعماء)، يقول عبدالله الطيب، شاكياً دهره[1]

ليت شعري هل أعرف النعماء
فألاقي عما زرتْ عزاء
كل يوم يجن ليلٌ جديد
لا أرى في سواده قمراء
ما توسمت مزنةً تحمل الغيث
أمامي إلا سَفَتْ نكباء
وحبيب أبحته سر قلبي
عله يمنح الرضا والوفاء
يرتع الأرذلون في جنّة الخلد
وأصلى السموم الرمضاء
ألبس الوجه منظراً خالب اللون
ودس الخلائق النكراء

---

(١) عبدالله الطيب: سقط الزند الجديد، ص ٤٧ دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٧٦م.

وصـــــديق أعـــــددته للبــــلايا

صــــار عنـدي مع البــــلاء بلاء

وفي قصيدة (حسان عبقر) وهي مهداة إلى ابن عمه الشاعر والأديب محمد المهدي المجذوب، يقول عبدالله الطيب في مطلع تلك القصيدة[1]:

مـرحي لكنّ حـســانَ وادي عـبـقـر

اللابســات من الندى المتــقطر

الســابحــات إلى الســمــاء برودها

شـدو القـريض على الجـمـال المُسكر

مـــرحي لكـنّ فكم تـولى خــاطرٌ

منكن رد حــيــاة قلب مُــهـدّر

أدركن أســمــال النفــوس فــإنهــا

تبكي على أمل الهــوى المتــعــثــر

وأرقن من عليــاء العــزاء مُــدامــةً

تشـفي غليل فـؤادي المتــســعــر

ثم يقول فيها مستعطفاً (حسان عبقر) أن يطرن به بعيداً من واقعه التعس البائس:

أبنات عــبــقــر والقـريض مـزامـر

تبـعــثنهــا في كل قلب مــبـصــر

أصـعـدن لي نحـو السـمـاء وطرن بي

حــتى أبُلّ صــداي عند الكوثر

فــهناك مــسـبح كلِّ قلب طاهر

خـالٍ من الســحــر العلي مـعطر

يا شـعــر يا شـمـس الحــيــاة وجنة

الســارين في ليل الزمــان المنكر

إني ســـأنبت في رياضك جنّة

سكري بألحــان الطيــور السُّــمــر

---

(1) المرجع السابق، ص ٥١.

ثم يأخذ في التشكي والتظلم؛ يقول مخاطباً الشاعر ابن عمه محمد المهدي المجذوب:

دعني أقاسمك الحياة إذا غدت
سوداء تقذف بالوغى والعثير
ولقد تراني ضاحكاً متهللاً
والنفس في آلام حزنٌ مُسعَرِ
هذا قضاء الله فينا إننا
ترضى رضاء الخانق المتحسرِ
أنا لنعتنق الخطوب ودوننا
بحر السعادة فاض غير مكدر
ونسير في ظلم الزمان وحولنا
أطياف وقت مشمس أو مقمر
ماذا لقيتُ من الجمال سوى الأسى
تلو الأسى والمدمع المتحدر

ويمضي - ربما في عتاب ابن عمه الشاعر محمد المهدي المجذوب قائلاً:

سمعاً أخي ففي فؤادي عبرةٌ
سأريقها من دمعي المتحير
أفردت وحدي للزمان وكيده
وسُقيتُ مُرد مائه المتكدر
ورأيت أهواء البرية شُرّعاً
أنيابها نحو الحضيض الأعفر
وخشيتُ أن أبقى هنالك حاسراً
بين الشراهة والعديد الأكثر
فأسيح معي نحو السماء مرتلا
لحن العفاء على الزمان المعسر

وفي قصيدته "عظني" تلمح نفس الشعور باليأس ونفس التشكوى من زمان بائس ومن دهر عابس يقول عبدالله الطيب في "عظني"[1]:

(١) عبدالله الطيب: سقط الزند الجديد، ص ٥٨.

عظني فـبأني في ظلام دامس
أبكي على رسم الحياة الطامس
فلعل لي مما وعظت هداية
تُذكي الرجاء على فؤاد يائس
عظني ففي أنغام صوتك رنة
تجتاز لبّي مثل نار القابس
ويمدها من نور طرفك رائشٌ
يندس بين خواطري وهواجسي
وتصوغها آيات وجهك سورة
غراء تبهرُ كالنهار الشامس
هذي جراح تستطيع شفاءها
في قلب منحطم المطالع يائس
فانشر عليها من روائك بهجة
تمحو بها أثر الزمان العابس
يا من تقلبّ في السعادة ناعماً
وأطلّ من روض الشباب المائس
ما حب الإيمان عندي غير ما
أُسقيه من جفنك المتناعس
فأسكب فإن معين حسنك غاسلٌ
ما بيَ فيه من الشقاء الخالس

فيم يحسد الفتى عبدالله الطيب ؟!

يعْجبُ الإنسان ويتساءل فيم يُحسد الفتى عبدالله الطيب . . وهو يتيم الوالدين – رقيق الحال . . فقير ، قليلُ العدة والعتاد؟؟ وفيم يُبغض ويعادى؟ ألأنه بارزٌ في الدراسة ، حازمٌ في تحصيل المعرفة ، من كان دوماً يحرز الأولية في الدراسة ، في كافة المراحل ، أفي ذلك يُعادى فإن ذلك مما يُوجبُ الحب للفتى ، كما قال المتنبيء رحمه الله :

أعـادي على مـا يوجب الحب للفـتى

وأهـدأُ والأفـكـارُ فـيَ تجـــــول

ســـوى وجع الحـســاد داوٍ فـــإنه

إذا حـل في قـلـب فـليس يحـــول

ولعل لسـان حـال البروف عـبدالله الطيب هو نفسـه التي تعبرُ عنه أبياتُ أبي الطيب المتنبيء في هذا الصدد:

مـا أعـجب الدنيـا وأعـجـبـه

أني بما أنا شـاكٍ منه مـحـسـود

مهـما يكن من شيء، فـعبدالله الطيب كان فتى موهوباً منذ البداية، برنجُياً أولاً في الدراسة، حفيظاً للعلوم وللقرآن الكريم وللشعر العربي، عيون الشعر العربي منذ أيام الجاهلية ومروراً بالعصور الإسلامية والأندلسية، وحتى قصائد المديح من لدن (بانت سعاد) لكعب بن زهير بن أبي سلمى، ومدائح عبدالرحيم البرعي (اليمني)، ومحمد البوصيري وحتى مدائح الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين والسيد محمد عثمان الميرغني الكبير.. وهذا هو الذي جر عليه حسد الحساد وسخائم المنافسين، خاصة التبريز في الدراسة ونيل الحظوة عند كبار المعلمين والتفوق في الدراسة من بربر الأميرية الوسطى وإلى كلية غردون التذكارية وحتى جامعة لندن ونيل الدكتوراه فيها - ثم إن عبدالله الطيب بعد ذلك تبوأ مناصب عليا في جامعة الخرطوم، عميداً لكلية الآداب فيها لفترة طويلة نابهة ثم أخيراً مديراً لجامعة الخرطوم، ذلك المنصب الرفيع الذي طالما تاقت إليه نفس البروف عبدالله الطيب، وطاعن دونه بالسنان والقلم والقوافي حتى ناله في عام ١٩٧٤م متوجاً حياته العلمية المهنية به. ها هنا تكمن الشهرة والامتياز والعبقرية التي طالما جرّت عليه حسد الحساد وضغائن العداة والعواذل!

فعبدالله الطيب اليتيم الفقير، عبدالله المفرد والوحيد الحزين لم يكن يُلحظ عليه حتى في أيام نشأته الأولى وأيام الدراسة أي مهانة أو مذلة أو مسكنة لما تميزت به نفسه من مصابرة ومجالدة، وإحساس قوي بالتميز والتفرّد والعزة، منشؤها - ولا شك - هو ذلك الاعتزاز بالأهل والعشيرة النبيلة الشماء، ذات النسب والحسب وذات التراث العلمي والديني العريق الذي هو عماد شهرة أسرة المجاذيب، المشهورة بعمران المساجد وتلاوة

القرآن والذكر وكذلك بالقصيد واللغة والعلوم وحب المصطفى صلى الله عليه وسلم والتغني بمدحه وإقامة الليالي والموالد تعبيراً دافقاً عن هذا الحب الآسر الخالد.

وكان عبدالله الطيب شديد الإيمان بالعين، وهو دوما يروى حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم): "العين حق، تُدخل الجمل القدر والرجل القبر"، أو كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وعبدالله الطيب يعزو وفاة والده إلى الأجل المحتوم وكذلك "العين" وقد ظل يؤمن بالعين، في شبابه وحتى آخر أيامه.

يقول عبدالله الطيب إن العين كادت أن تتبعه والده المتوفى في ١٩٣٥م وذلك أنه في مناسبة تأبين شيخهم الفكي عبدالله النقر– قد أنشد قصيدة همزية بصوت جهير، وأداء قوي وثقة نفس، وكان مطلع هذه القصيدة الهمزية:

لقــــد كنت خــــريفــــاً للبــــرايا

إذا مـــا كـــان صـــيف أو شـــتـــاء

فمرض بعد إلقاء هذه القصيدة مرضاً شديداً، يقول عبدالله الطيب في ذلك[1]:

"وأصابتني العين بعد ذلك الإنشاد فأحسست بوجع ثم بحمي ثم بغيبوبة.. وأشرفت على الهلاك، ومضت الأيام والأسابيع – أربعة أو ثلاثة. وانكسرت أي صرت كالمقعد فوق العنقريب لا أستطيع حراكاً"

ويقول عبدالله إن والده أيضاً عليه رحمة الله– كان شديد الخوف من العين "وكان إذا أخذني معه يُكثر من الاستعاذة يخاف عليّ العين. وقالوا نفذت فيه هو العين، فتوفي"[2].

عوامل تكوين شخصية عبدالله الطيب:

لو سألنا عن العوامل الأساسية في تكوين شخصية عبدالله الطيب الإنسان البارز الموهوب والعبقري الفذ، لاستطعنا – دون صعوبة كبيرة – أن نشير إلى العوامل التالية:

(١) العامل الوراثي

(١) المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٢) المرجع السابق، ١٠٨.

(٢) البيئة والجغرافيا
(٣) الأسرة والتاريخ
(٤) التنشئة والتعليم
(٥) رحلة الحياة والتجربة

(١) العامل الوراثي :

لا شك أن العامل الوراثي شديد التأثير في تكوين الغالبية العظمى من الأفراد والأشخاص، وفي تشكيل خصائصهم الذهنية والوجدانية والسلوكية. وكلما كان هذا العامل قوياً وعبقرياً، كلما كان تأثيره كبيراً وتشكيله للشخصية حاسماً، لأن كل السلالات ليست متساوية في القوة والعنفوان، فإن بعض السلالات ضعيفة الأثر ولكن البعض الآخر يتصف بالإيجابية فبعض الأعراق ضعيفة في أصلها، وبعضها الآخر يتصف بالتوهج ، وبقوة الاندفاع والانطلاق، وبقوة الخصائص الذهنية والعصبية والانفعالية وكذلك بالعنفوان الجسدي والشبقي. فمثل هذه الأعراق يكون لها تأثير قوي وحضور فاعل جداً في الذرية والولد.

ولا شك أن عشيرة المجاذيب، وهم شيوخ الجعليين وبركتهم كما يقال، هي من العشائر الفتية القوية التأثير والاندفاع والحماسة؛ المشهورة بالشجاعة والبأس الشديد :

١- أولاً هي فرع من قبيلة عظيمة قوية هي قبيلة الجعليين الذين ينتمون إلى الفضل بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن الحارث بن النضر بن مضر بن عدنان، فيما يزعمون، والناس مصدقون في أنسابهم، كما يقول العلامة ابن خلدون!!

٢- وثانياً فهم بيت العلم والقرآن واللغة والشعر بين أولاد عرمان. ولقد أسسوا المساجد العريقة، وأوقدوا نار القرآن، ووضعوا قواعد الشرف العالي والكرم والإيواء والإطعام ورفعوها عالية منذ عهود في دامرهم العتيقة. (النار أوقدها عيسى بن قنديل بن حمد بن عبدالعال) والنار هنا هي نار القرآن في مسجد المجاذيب بالدامر، والتي ظلت متقدة منذ أن أوقدها الحاج عيسى، وهو - في رأي عبدالله الطيب - معدن البركة من آل عبدالعال، ولقد أوقد تلك النار بعد عودته من الحج وبعد رجوعه من دنقلا التي أقام فيها زماناً.

٣- وثالثاً اشتهر المجاذيب بالكرم والضيافة والإيواء وكانوا يملكون أراضي واسعة، شرق

النيل وغربه، وكذلك على ضفتي الأتبراوي، ناهيك عن أراضي الوديان الشاسعة إلى الشرق من الدامر، وهو ما يسمى بأراضي العتمور. . وكانوا يقومون بزراعة تلك الأراضي، ويحصلون منها على كميات وفيرة من الحبوب، تساعدهم في تقديم الطعام للحيران، الذين يقصدونهم من كل أقاليم السودان من الجنوب والشرق والغرب وكذلك من الحبشة وارتريا والصومال وكذلك تشاد وغيرها من الأقاليم البعيدة.

فالعصبية العروبية الهاشمية ومحتد العلم وعراقة التدريس ونبل الكرم والضيافة وكذلك الفروسية والنجدة، هي بعض الخصال الكريمة التي توارثها المجاذيب كابراً عن كبار.

وليس في هذا الذي نقول أي تأييد للنعرة العنصرية البغيضة التي تفضل بعض الأعراق على بعض، وتقول كما قال إبليس: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" فهذه قصة بالية، وهي حجة أوهى من بيت العنكبوت، فالبشر كلهم لآدم وآدم من تراب. ولكن أيضاً ففي البشر كلهم نفحة من روح الله، وسر من أسراره الربانية وهي لطيفة الروح الإلهي والشرارةُ والربانية في كل أعراق البشر. فبعض هذه الأعراق تعززُها وتوقرها وتنميها وتزكيها وبعض الأعراق تهملها وتدسها ولا حتى تعترف بها ولا تعهدها بالنماء والرعاية، فتضمر وتخبو ثم تتقلص إلى أقصى درجة، فتظل تلك الأعراق ضاوية ضامرة مضمحلة، لا تكاد ترتفع من أفق الحيوان، ولا تعرف شيئاً اسمه العزة القسعاء أو الرفعة الشماء أو المجد التليد. وذلك نتيجة كسبهم ثمار خمولهم وجهلهم وعدم استجابتهم لداعية الحياة والرفعة والشرف. ولكن فيما عدا ذلك فالله قد خلق كل البشر أسوياء أعزاء، ذوي كرامة وعزة، لأنه أودع فيهم جميعاً شرارة روح القدس وطهارته وعزته.

قال تعالى:

﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ (الشمس: ٧-١٠)

وقال تعالى:

﴿وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى فأما من اعطى واتقى، وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾ (الليل: ٣-١٠).

فالمسألة هي مسألة كسب وكد وكدح ونضال وسعي لإعمار الحياة وإحقاق الحق ونبذ الباطل. ها هنا تتفاوت الأعراق والسلالات وتتمايز، وليس لله عشيرة جيدة ولا شعب مختار ولا عرق آري ممتاز هو أفضل الأعراق وخيرة البشر وليس لله أبناء وليس له أحباب بمعايير غير معايير الإيمان والتقوى - تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا - فهو رب العالمين وإله الكونين والثقلين. فإذا سعت بعض الأعراق نحو المجد وسمت نحو الآفاق العالية من الشرف والمجد، فهذا هو كسبهم وبه تميّزوا وإذا اختارت أعراق أخرى الخمول والإرتكاس إلى درك الحيوانية البهيمية، وأنكروا أصولهم الربانية وفطرتهم الإلهية، فهذا أيضاً كسبهم واختيارهم:

﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾ (القلم: ٣٥-٣٦)

٢- عامل البيئة والجغرافيا:

عاشت عشيرة المجاذيب في المنطقة المحصورة بين (خور التلّواب) شمال عطبرة و(خور المكابراب) جنوب الدامر على ضفاف النيل، شرقية وغربية، وكذلك على ضفاف الأتبراوي وهذه المنطقة كانت تُرزق مرابيع النجوم (أي الخريف عندنا) جودُها فرهامها منها (كما قال لبيد بن ربيعة العامري):

رزقت مرابيع النجوم وصابها
ودقُ الرواعدِ جودُها فرهامُها
من كل سارية وغادٍ مُدْجِنٍ
وعشيةٍ متجاوبٌ أرزامُها

ويذكر كاتب هذه السطور وقد عاش طفولته في هذه المنطقة الساحرة، أن الأمطار في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين كانت تهطل غزيرة، رزامة بالرعود والبرق وكانت السواري (أمطار الليل) لا ننام منها إلا قليلاً.. خوفاً من رعدها وصواعقها ومن شدة ظلامها وقوة أصواتها! وكانت الخيران تسيل بمياه مندفعة، وكذلك النيل يفيض بالمياه الغزيرة التي تهدد المساكن والمدن والبوادي في بعض السنين. وما زال كاتب هذه السطور يذكر فيضان عام ١٩٤٦ عندما حاصر النيل منزلنا العامر في مدينة بربر، حي (المنيدرة). وكانت تلك الأمطار تسقي العتمور في الناحية الشرقية من بربر وعطبرة والدامر وكذلك كانت تسقي الأودية كلها، فنبت العشب الغزير والكلأ، وكذلك الأشجار ألفافا. وكانت

(ام الطيور) أو الدامر الغربي، كما يحلو لعبدالله الطيب أن يسميها - كانت غابة غناء وأيكة خضراء وكانت الطيور تجيء إليها من كل حدب وصوب، مهاجرة إليها من بلاد بعيدة.. ثم تغير كل ذلك، فاحطوطب العشب ونضب الماء، وتصحرت الأودية واقفرت في الستينيات والسبعينيات وإلى منتصف الثمانينيات. ولكن الأمطار عادت الآن.. ومنذ عام ١٩٨٨م أصبحت الأمطار ومناسيبها تزداد سنة بعد سنة ولله الحمد. وعادت الأرض جميلة مخضرة مرة أخرى ونبت العشب ونبت الشجر وعادت الطيور مرة أخرى تغرد أحلى الألحان وأعذب التغاريد! ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ كما قال تعالى.

فالنيل وأشجار النخيل الباسقة على ضفاف الأتبراوي، والأشجار والأعشاب على شطآنه، والأودية تمور بها المياه وتندفع - كما كانت تفعل مدافع الريان في ديار بني عامر، عشيرة لبيد بن ربيعة. كل ذلك كان جزءاً من تلك البقعة الجميلة الآسرة التي عاش البروف عبدالله الطيب فيها طفولته، والتي ظل يصبو اليها ويحن حيثما ذهب وأين ما حل على ما سترى..

- يقولون إن للروح عشق واحد وحب واحد وبيت واحد هو ذلك البيت الذي ولدت فيه وترعرعت، والذي كان مسرحاً لصبابات الصبا وملاعبها ولهوها.. ذلك هو الوطن الأول وذلك هو الحبيب الأول وما الحب إلا للحبيب الأول:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول

ويقول ابن الرومي:

وحبب أوطان الرجال إليهمو
مآرب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو
عهود الصبا فيها فحنوا لذلك

للروح مهدٌ واحد، وللقلب بيتٌ واحد هو ذلك الوطن الأول.. أما الجسد فله بيوت كثيرةٌ وأوطان كثيرة، يمر بها الفتى ويبقى فيها لبعض الوقت، طال أم قصر، ولكنه يظلُّ يحن للوطن الأول: يقول عبدالله الطيب في قصيدة (ندم الشباب)[1] :

---

(١) أصداء النيل، ص ٧٤.

لو لا اصطحابي عُصبة باطلية
لقد قاد نفسي للصلاح أميرُها
هم صرفوني بعد أن كنت سالكا
مهايع قد يهدي إلى الرشد نورُها
فأصبحت في وادي خبال وشقَه
من الغي مزجور بنحس طيورها
ولما تُقم لي في ذرا المجد قبة
ولا نار صدق كل عافٍ يزورها
تمنيت أني في مرابع إخوتي
ودومة ذاتُ السيل دوّى خريرُها
وتهزَج أنواح السواقي وتستقي
لدى النيلِ غراءُ الثنايا بدورُها

وفي قصيدة " بدامر الصدق "(١) :
بدامر الصدق لي رهطٌ وأصحاب
وبالتميرابِ لي أهل ومنتابُ
ومنزل كان فيه والدي عتا
عليه ملحادثات الظفرُ والنابُ
يا حبذا النيل إذ رقَّ الأصيل وإذ
ماء السواقي على الروضات سكاب
وفتية قد تلوا يس في سحر
وغيرهم في حشايا الليل ما ثابوا
وغدوة يصبح القمري ساجعها
قوافياً ما لهن الدهر إعراب
وحبذا النجمُ عند الفجر مرتقياً
تلقاء وجهك والظلماء تنجابُ

(١) المرجع السابق، ص ١٨٢ .

وقـــاريء بردة المخــتـــار مـــرتقب
وقت الأذان خـــبـــيـــر ليس يرتاب
جـــاد الحـــيـــا منزلاً قـــد كنت آلفُـــهُ
بدومـــة الغـــرب لا ذامٌ ولا عـــابُ
وأقـــبـــراً مـــســتكناً في حنادســهـــا
أبٌ وأمٌ وآمـــــــــــــــال وآرابُ

"فدومة الغرب" بالتميراب، بأم الطيور، أو الدامر الغربي كما يسميها هي الوطن الأول وهي لذلك الحب الأول، والمنزل الأول الذي تحدثنا عنه . ولقد كان البروف عبدالله الطيب كثيراً ما يحن إلى "دومة الغرب" هذه "ذات السيل دوّى خريرها" وهو في لندن، تلك المدينة الأثيرة عنده، ولكنه بالرغم من ذلك يحس فيها بالغربة وبالحنين الشديد إلى الأهل والعشيرة:

بلـندن مـــالي من أنيس ولا مـــال
وبالنيل أمـــسى عـــاذري وعـــذالي
ألا ليت شـــعـــري هل أبيتن ليلة
بكثـبـــان داري والأحـــبـــة أحـــوالي
وهل أســمــعن الدهر تغـــريد طائر
وبالفــجــر ترجـيع المؤذن والتـــالي

والشيء بالشيء يذكر، فحنين عبدالله الطيب إلى أهله وإلى داره في "دومة الغرب" بالتميراب يذكر بحنين الشاعر السوداني حسين بازرعة إلى أهله ووطنه في رائعته التي غرد بها بلبل السودان الفنان عثمان حسين:

أي طائر مـــرتحل، عـــبـــر البـــحـــر
قـاصـد الأهل حـملتُو أشـواقي الدفـيـقـة
ليك يا حـــبـــيـــبي للوطن لتـــرابه
لشـطـآنه، للـدار الـوريـقـــــــــة

فالوطن الأول والحبيب الأول، للبروف عبدالله ولكثير من الناس هو موطن الأسرة، ومنزل الأم والوالد والأخوة والأخوات والعشيرة والأحباب وحيث "مآرب قضاها الشباب هنالك، وحيث أحباب الطفولة البريئة واللهو وآمال الرمال . . "

ومن تكن له مثل ذاكرة البروف عبدالله الطيب الأسطورية فهو لا يكاد ينسى شيئاً من ذكريات الطفولة والصبا .

ومهما يكن من تأثير الوراثة والبيئة ، فإنهما لا يشكلان شخصية المرء الناضجة تماماً ، يؤثران فيها إلى أبعد حد ولكنهما لا يحددانها بشكل تام ونهائي ، كما زعم بعض الفلاسفة وخاصة الفيلسوف الأمريكي "هوسبر" (Hospers) ، صاحب أستاذي الفيلسوف الأمريكي ، ذائع الصيت (ويلفرد سيلرس) Welfrid Sellars ولطالما قرأنا ، في مقدمات الفلسفة بكلية الآداب ، بجامعة الخرطوم الكتاب المهم من تأليف هذين الفيلسوفين الأمريكيين :

Hospers and Sellars:

Readings in Ethical Theory .

ويأتي موضوع الحتمية الأخلاقية فيه كواحد من أهم مواضيعه : هل العوامل الوراثية العرقية والبيئة تحددان أخلاق الفرد وسلوكه بصفة كاملة وتامة أم لا . يجيب (هوسبرز) (Hospers) بالإيجاب عن هذا السؤال ولكنني لم أقتنع يوما ما أن رأي هوسبرز هذا يمكن أن يكون صحيحاً ، وكذلك أستاذي الذي درست عليه الفلسفة في جامعة بتسبيرج بولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة (ويلفرد سيلرس) Sellares لم يكن مؤمنا بهذا الرأي ، لأنه كان فيلسوفاً كانطياً يؤمن بأن الذات الإنسانية عاقلة وحرة غير ان (كانط) يؤمن في نفس الوقت أن "حرية الإرادة" (The freedom of the Will) من تلك المقولات التي نسميها بالنقائض (The Antinomies) والتي لا يمكن البرهنة عليها أو إقامة الدليل على وجودها . .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذين العاملين : الوراثة السلالية والبيئة عوامل تؤثر كثيراً جداً في تشكيل شخصية الإنسان الناضجة ، ولكنهما لا تحددان ولا تحتمان هذه الشخصية بصورة مطلقة وكاملة . والمجال هنا لا يتسع بالطبع للخوض في تفاصيل هذه المسألة الهامة ، فإن ذلك جدل فلسفي طويل جداً !! رحم الله أستاذي الفيلسوف ويلفرد سيلرس ، فقد كانت محاضراته صعبة وممتعة في الوقت ذاته ، وكان الطلاب يحضرونها من خارج جامعة بتسبيرج من طول الولايات الأمريكية المتحدة وعرضها من نيويورك وحتى كاليفورنيا . . فقد كان ويلفرد سيلرس أعظم فلاسفة أمريكا ، عندما كنت طالباً أحضر للدكتوراه في الفلسفة هنالك ما بين (٦٩-١٩٧٣م) وتُعرف كتابات سيلرس

(Sellars) بأنها بالغة الصعوبة والتعقيد وأنه كان يتعمّد ذلك ويقول خصومه إنها كانت آلية للدفاع عن النفس أمام الخصوم الفكريين Self-defense mechanism .

ويأتي العامل الثالث ولعله الأكثر أهمية في بناء وتكوين الشخصية الناضجة لدى الفرد ألا وهو عامل الدراسة والتنشئة والتربية والتعليم. فكيف كان تعليم البروف عبدالله الطيب؟!!

(٣) العامل التعليمي والتربوي في حياة عبدالله الطيب :

إلى حد كبير تكوّن الجزء الأكبر والأهم من شخصيته في وقت مبكر في حوزة المجاذيب العلمية الغراء، وعلى ضفاف النيل في دومة الغرب الخضراء وفي ديار آل الطيب بن عبدالله بن الطيب في التميراب وفي ضواحي أم الطيور، كان والده الطيب بن عبدالله عالماً متضلعاً في علوم القرآن الكريم، واللغة العربية وعلومها، وكذلك الشعر العربي وخاصة أشعار الجاهليين والمدائح النبوية، وكان شاعراً فذاً ولكن يبدو أن معظم أشعاره قد فقدت، كما أنه توفي وهو صغير السن نسبياً، عن سبع وأربعين أو دون ذلك! كما كان تأثره بعد والده بأستاذه وقريبه الشيخ مجذوب جلال الدين. ويقول عبدالله الطيب أنه تأثر بالشيخ مجذوب جلال الدين كثيراً وقرأ عليه الأدب واللغة والعروض والتجويد. قال عبدالله الطيب[١] إن الشيخ مجذوب جلال الدين يوماً سأله : لم يقدم أبا تمام ويؤثره على سائر الشعراء ويعترف عبدالله الطيب أنه كان كذلك في شبابه. وأستشهد بأبيات أبي تمام التالية دليلا على علو كعبه في الشعر والبلاغة :

لا تنكروا ضــربي له من دونه مــثـــلا
شــــــروداً فـي الـنـدى والبـــــــاس

فـــــالله قــــد ضـــــرب الأقل لنوره
مـــثـــــلاً من المشكاة والنبــــــراس

يقول عبدالله الطيب إن الشيخ مجذوب جلال الدين استحسن ذلك منه، وأمن على تفرد أبي تمام، ولكنه أردف قائلاً إنه ليس لأبي تمام مثل قول أبي الطيب المتنبي :

ومن نكد الدنيـــا على الحـــر أن يرى
عـــدواً له مـــا من صـــداقـتـــه بُدُّ

(١) مقدمة (أصداء النيل) ص ١٩ .

ولأبيات أبي تمام هذه قصة، كان خالي الأستاذ النابهة محمد أحمد عثمان النعيمة (والد زوجتي د. مزاهر) كثيراً ما يذكرها ويتندر بها معجباً بأبي تمام وبما له من عبقرية وشاعرية وبديهة حاضرة عجيبة:

يذكر أن أبا تمام امتدح الخليفة العباسي بقصيدة شبهه فيها بحاتم في الكرم وإياس في الذكاء والأحنف (بن قيس) في السماحة والحكم. فانبرى أحد عذال أبي تمام قائلاً:

"يا هذا ما زدت على أن شبهت أمير المؤمنين بجماعة من أجلاف العرب!!"

فارتجل أبو تمام الأبيات أعلاه على الفور في لحظة نادرة من الذكاء والتوقد التلقائي الذي يجري كلمحة من نور أو كقدحة من برق.

لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلاً شروداً في الندى والبأس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلاً من المشكاة والنبراس

والإشارة هنا إلى آية النور البديعة من سورة النور: قال تعالى:

﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ (النور: ٣٥)

وسورة النور عظيمة بليغة، ولطالما ألهمت العلماء والفلاسفة والمتصوفة بآراء بديعة وبأفكار نورانية متلألأة. ومن هؤلاء الإمام الغزالي[1] الذي ألف كتاباً رائعاً بديعاً عجيباً من وحي سورة النور هذه وخاصة آية النور التي ألهمت أبا تمام الرد على خصومه وعذاله والذين أرادوا إحراجه أمام الخليفة العباسي!

وإلى جانب تأثر عبدالله الطيب بأستاذه وقريبه الشيخ مجذوب جلال الدين، الذي درسه أيضا في كلية غردون التذكارية، فقد درس على يد الشيخ الفقيه عبدالله النقر بن أحمد بن جلال الدين. ويقول عبدالله الطيب إنه كان دائم النظر والقراءة لديوان

(١) أنظر كتاب الغزالي: مشكاة الأنوار.
وكذلك أنظر: د. زكريا بشير إمام: الفلسفة القرآنية النورانية عند الغزالي (كتاب) الناشر: مكتبة الفلاح - دبي ١٩٨٩م.

عبدالرحيم البرعي الذي كان في مكتبة والده الشيخ/ الطيب بن عبدالله بن الطيب ولقد ترك له والده أيضاً :

- كتاب الكامل للمبرد
- كتاب البيان والتبيين للجاحظ
- ذلك إلى جانب ديوان البرعي

ويقول عبدالله الطيب إنه كان دائم القراءة والنظر في هذه الكتب، كما كان يحفظ الكثير من قصائد البرعي، وكذلك قصائد الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم. وكان ربما أنشد[1] من ديوان البرعي :

بانت عن العدوة القصوى بواديها

وبالأبرق الفرد اطلال قديمات

ويقول عبدالله الطيب أنه أيضاً كان يحفظ :

- قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير أبي سلمى
- والبردة والهمزية لمحمد البوصيري
- ومعلقة عنترة بن أبي شداد وكذلك لاميته المشهورة "حكم سيوفك"
- كما كان عبدالله على إلمام واسع بأشعار العرب، من جاهليين وإسلاميين ومعاصرين
- وكان على علم ممتاز بعلم القراءات وأحكام التجويد وكذلك بأحكام النحو العربي وكان كذلك يحفظ ألفية ابن مالك
- وعلى إلمام ممتاز بعلم العروض

ولقد كانت زيارة الشاعر والأديب والمفكر المصري علي الجارم مناسبة استعرض بها التلميذ عبدالله الطيب، الطالب النابهة آنذاك بالمدارس العليا علومه وقراءته في اللغة العربية والشعر العربي :

عندما مثل عبدالله الطيب للامتحان الشفهي أمام الشاعر علي الجارم، سأله أن يقرأ شيئاً من محفوظاته فاندفع ينشد لامية أبي العلاء :

طربن لضوء البارق المتعالي

ببغداد وهذه ماالهن ومالي

(١) مقدمة ديوان "أصداء النيل".

يقول عبدالله الطيب ولم تكن تلك القصيدة مما أملاه أستاذ الأدب أو حاضر عنه. وربما أراد أستاذ الأدب العربي بالكلية أن ينبه إلى ذلك، ولكن علي الجارم لم يأبه لذلك وطلب من عبدالله الطيب الاستمرار في الإنشاد[1]، وسأله عن معاني بعض الكلمات والتعابير. ثم طلب منه أن ينشد شعراً آخر، فأنشأ ينشد:

مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال

وفي النوم مغنى من خيالك محلال

يقول عبدالله إن علي الجارم نسيّ أمر الإمتحان برهة وتولى هو بأدائه البارع أمر الإنشاد:

فيا وطني إن فاتني بك سابق

من الدهر فلينعم لساكنك البال

وإن أستطع في الحشر آتك زائراً

وهيهات لي يوم القيامة أشغال

يقول عبدالله الطيب أن علي الجارم بعد ذلك سأله إن كان ينظم الشعر، فأنشده عبدالله الطيب بعض قصائده فأعجب بها علي الجارم أيما إعجاب!

وأهل السودان يذكرون قصيدة علي الجارم الطنانة:

بغداد يا بلد الرشيد

ومنارة المجد التليد

يا بسمة لما تزل زهراء

في ثغر الخلود

وعندما احتفل السودانيون في نادي الخريجين، أنشد عليهم قصيدته:

أخلقت يا حسناء وعدي[2]

وجاراه فيها الأستاذ أحمد محمد صالح بقصيدته:

فينوس يا رمز الجمال

وزينة الألباب عندي

---

(١) عبدالله الطيب: من حقيبة الذكريات، ص ٦٤.

(٢) عبدالله الطيب، من حقيبة الذكريات، ص ٦٤.

وإليك أيها القاريء بعض أبيات قصيدة علي الجارم الشهيرة "بغداد يا بلد الرشيد" ، وفريدة علي الجارم "بغداد يا بلد الرشيد" كانت من محفوظاتنا وأناشيدنا التي تعمرُ أيامنا على عهد الدراسة بالشجي وبالتوهج والأماني بعودة ذلك المجد التليد :

بغــــــداد يا بلد الرشـــــــيـــــــد
ومنـارة المجـــــــد التلـيـــــــد
يـا بســــــــمـــــــــةً لمّا تـزل
زهـراء فـي ثـغـــــــــر الخـلـود
يا مـــــوطن الحب المقـــــيم
ومـــــضـــــرب المثل الشـــرُود
يا سطر مـــجـــدٍ للعـــروبة
خُـطَّ فـي لـوح الـوجـــــــــود
يا راية الإســــلام والإســــلام
خـــــفــــــــاق البُـنـود
يابنة دجلة قـــــد ظمـــــئت
لرشف مـــبـــسمك البـــرود
يا زهرة الصـــحـــراء، ردي
بـهــجـــة الدنيـــا وزيـدي
يـا جـنـة الأحـــــــــلام طـال
بقَـــومنا عـــهــدُ الرقـــود

***

بـغــــــــــداد يـا دار الـنـهـى
والـفـن يـا بيت القـــصـــيــد
نـبـت الـقـــــــريض عـلـى
ضـــفــــافك بين أفـنان الـورود
بغـــداد أين البـــحـــتــري
وأيـن أيـن إبـن الـولـيـــــد

ومجالس الشعراء في بيت
إبن يحيى والرشيد
أين القيان الضاحكات
يسن في وشي البُرود
الساحرات الفاتنات
النُجُل من هيف وغيد
الساهرات مع النجوم
الآنفات من الهجود

***

كم جاش جيشك بالفوارس
من أساورة وصيد
للنصر في أعلامهم
صلة بأبناء الغمود
مُلْكٌ إذا صورته عجز
الخيال عن الصعود

***

الفلسفات عرفتها
والعلم طفل في المهود
كم موئل للمستجير
ومنهلٌ للمستفيد
بغداد، يا وطن الأديب
وأيكة الشعر الغريد
جددت أحلامي وكنت
صحوت من عهد عهيد

***

يا أمة العرب اركضي
ملء العنان ولا تهيدي

سـودي، فـآمـال المنى
والعبـقـرية أن تسـودي
هـذا أوان الـعـدْو لا
الإبطاء والمشي الوئيـد
المجـد أن تـتـوثـبي
فـإذا وثبت فـلا تحـيـدي
وتُحلقي فـوق النجـوم
بـلا شـبـيـه أو نـديد
وإذا شـدا الكون المفـاخـر
كنت عنوان النشـيـد
لا تـتخطى حـد العُـلا
مـا للمـعـالي من حـدود

أما في جانب العلوم الحديثة، فقد كان عبدالله الطيب بارعاً:
- في علوم الرياضيات، وكان يحرز الدرجة الكاملة،
- وكذلك الجغرافيا، التي كان يحبها كثيراً،
- وأما اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي فقد كانا يخلبان لبه ويقول إن اللغة الإنجليزية وآدابها هو العلم الأكثر جدةً في الكلية آنذاك!!

عبدالله الطيب والإنجليز:

يبدو أن علاقة عبدالله الطيب بأساتذته من الإنجليز كانت عموماً طيبةً، خاصة في المرحلة الثانوية، ويقول عبدالله الطيب أنه استفاد بصفة خاصة من دروس المستر هارت ومنه تعلم الكثير عن الأدب الإنجليزي خاصة عن:
- ليتون استرتش
- وإدوارد لير
- وشارلس لام
- ووليم هازلت

- وشكسبير
- وجمع من شعراء الإنجليزية العظام

ولكنه عندما ذهب إلى بخت الرضا مدرساً لم تعجبه شخصية المستر (غريفث) ولا طريقته في أمر إعداد مديري المدارس الأولية، يقول عبدالله الطيب في ذلك[1] :

" كان المستر غريفث رجلاً متسيطراً من بُغضاء من عرفنا من رجالات الاستعمار القديم . . كانت أيامنا ببخت الرضا مع المستر غريفث ومعاونيه حقاً أيام بلاء وتمحيص "

ولكن عن المستر براون يقول عبدالله الطيب :

" وكان المستر براون ذكي القلب، متقد الذهن، ذا نشاط وتفان في العمل وإصلاح . . "

وكان الإنجليز يطبقون العقوبات الجسدية بالخيزرانة (The Cane) وبالجلدة (The Rod).

ومن أقوالهم في ذلك :

Spare the rod, spoil the child

كما كانوا يستعملون التيلة (The cat) وكان المستر براون مع ذلك شديداً على الطلاب في أول أمره وربما كان ذلك نسبة لحداثة سنه حتى أن الطلاب كانوا يهتفون بسقوطه :

Down down with Brown

ولكنه لان كثيراً فيما بعد : يقول عبدالله الطيب :

" على أن المستر براون كان من خيرة المدرسين، ومن أجود من شاهدناهم ونحن تلاميذ وأساتذة من رجالات التعليم أيام الحكم الثنائي . . وقد صار ناظر مدرسة حنتوب الثانوية بعد خبرة وطول تجارب "

وعبدالله الطيب يعتذر للمستر براون عن شدته وما بدر منه من قسوة إزاء الطلاب في عنفوان شبابه، قبل أن تصقله التجارب فيصير أكثر رحمة . . قال كانت قسوته من باب الحزم :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً
فليقس أحياناً على من يَرحمُ

وعبدالله الطيب كأنه أيضاً يلتمس العذر لسلبيات المستر (براون) مستشهداً ببيت النابغة الذبياني :

---

(١) عبدالله الطيب : من حقيبة الذكريات، ص ٦٧ .

ولست بمستبق أخاً لا تلمُّه

على شعث أيُّ الرجال المهذبُ

وواضح من كل هذا أن عبدالله الطيب يكن وداً للمستر براون وتقديراً، وله في قلبه، نقطة عطوفة، وإن كان رأيه في الإنجليز عموماً لخصه في البيت (لشوقي):

وللمستعمرين وإن ألانوا

قلوب كالحجارة لا ترقُّ

وفي عام ١٩٣٦ اكتشف الفتى عبدالله الطيب أبا الطيب المتنبيء ونسخ قصيدته الرائعة:

لهوى النفوس سريرةٌ لا تُعلم

عَرَضاً نظرت وخلتُ أني أسلمُ

ثم حفظها. كما بدأ يكتشف الشعر الإنجليزي:

ويقول إنه أعجبته قصيدة شارلس لام (Charles Lamb) والتي يقول فيها:

I have had play mates, I–have had companions in my days of child-hood, in my joyful school . All, all are gone, the old familiar faces.

وعلى كل حال، ومهما يقال عن عروبية عبدالله الطيب، وعن إسلاميته، فلا شك أنه كان عميق التأثر بالثقافة الإنجليزية، عظيم الإلتفات إلى عظم الإرث الإنجليزي في ثقافة السودان، واسع الاطلاع والإلمام والهضم لهذه الثقافة، ولعلي أستطيع أن أقول إنه ندر في العالم العربي أن يوجد نظير لعبدالله في عظيم إلمامه وسعة استيعابه للثقافة الإنجليزية وآدابها، وخاصة الأدب الإنجليزي والشعر الإنجليزي: ولكن بالرغم من ذلك ظل عبدالله الطيب يؤمن بتفوق الثقافة العربية الإسلامية، وتفوق اللغة العربية وآدابها، وخاصة الشعر العربي، على أعظم ما أنتجته الثقافة الإنجليزية ورموزها العظام، ليس من باب التعصب الأعمى، ولكنه رأي مستنير قائم على أركان متينة من الدراسة والنظر والتمحيص. فعبدالله الطيب مفكر حرٌ، يقول ما يعتقد ويؤمن، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، رضى من رضى وسخط من سخط!!

والمكوّن الإنجليزي، في ثقافة عبدالله الطيب، وفي شخصيته مكوّن كبير، وذو تأثير بالغ في حياته، ولذلك المكوّن إيجابياته وسلبياته الواضحة جداً، لدى تلاميذه ومريديه – في إتجاهاته الفكرية والوجدانية والسلوكية. وأظنه قد تأثر بعض الشيء بالمستر بروان،

الملقب بالنمر، ونشاطه وحيويته وتوقد ذهنه واشتداد حركة الحياة في وجدانه - فعبدالله الطيب - كالنمر تماماً، دائم الحركة متوثباً، مناضلاً ومصادماً يحب الحركة، والنظام والإنجاز، ويكره الركود والانغلاق، فهو أبداً مقبلٌ على الحياة، مقبل على الفكر والنشاط، دائب الحركة والتدفق والانسياب، وكأنه - كما وُصف - نهر عملاقٌ هادرٌ. وبالرغم من ذلك، فعبدالله الطيب كان يحذر الإنجليز كثيراً، وكان يراقب السياسة الإنجليزية في السودان، ويتوافق معها في الحدود المتاحة له، دون أن يكون ذلك على حساب هويته أو ثقافته العربية الإسلامية. وكنتُ أستغل مكانتي الأثيرة عنده، وأطالبه بالتصدي بإيجابية أكثر لمهام البعث الإسلامي والنهضة العربية، ولكنه كان دائماً يعتذر عن ذلك قائلاً إنه سوف يستهدف من جهات بعينها (I will be targeted by them) دون الإفصاح عن من هم أولئك الذين يشير إليهم بـ (Them)، ولكني أظن أنه يقصد بذلك الإنجليز!! والواقع أن عبدالله الطيب لم يكن يهوى الانغماس الشديد في دهاليز السياسة وأنفاقها المظلمة وكان يرى دوره أساساً كمحاضر ومربي وكأكاديمي وباحث في المقام الأول!!

والواقع أيضاً أن عبدالله الطيب كان رجلاً حذراً جداً في معاملة الناس جميعاً. يدركُ بل يؤمن أن البشر ينطوون على شر كثير ولذلك وجبت الوقاية والتقية. ولكنه بالرغم من ذلك كان مقاتلاً ومناضلاً شرساً فيما يؤمن أنه الحق والصدق الصراح. وكان كثيراً ما ينصحني بالتريث وبعدم الاندفاع. وكان دائماً يستشهد بحكيم العرب، زهير بن أبي سلمى:

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه
يهدّم ومن لا يظلم الناس يُظلم
ومن لم يُصانع في أمور كثيرة
يُضَرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

فالمصانعة إذن في البيت أعلاه لا تعني السلبية والخور أو الانهزامية والاستسلام ولكنها نوعٌ من الحيلة والخدعة، وهي بذلك سلاح لا يقل مضاءً عن السيف أو السنان!

لم يذكر عبدالله الطيب الكثير عن أستاذه - بالثانوية - المستر ولیامز، ويبدو أن السبب في ذلك هو شخصية المستر وليامز ذاتها، فقد كان على النقيض من المستر براون (النمر) إذ أنه لم يكن يختلط بالطلاب، . . بل كان يعيش بعيداً عنهم - في شيء أشبه بالعزلة أو الحجاب وكان حاذقاً وشديداً، ويوقع أشدّ العقاب بالأولاد الأشقياء (عشرون جلدة

كاملة) هذا كان قانونه ؛ ولكنه كان نادراً ما يطبقه – على ما ذكر عبدالله الطيب . ويظهر أن هذا القانون الصارم بالجلد عشرون جلدة للطلاب الخارجين عن نظامه ، كان المقصود به الردع أولاً وأخيراً . فالمستر وليامز كان يتخذ النظام وفرضه أساساً للعملية التربوية فهو كان نظامياً كالمستر براون أو أشد:

Disciplinarian to the extreme

مع اختلاف كبير في أسلوب الرجلين: أما المستر براون فقد كان على اتصال دائم بالطلاب ، بالقول وبالنموذج الفعلي ، وكان يُشارك الطلاب في كل شيء ، خاصة في الرياضة والأكل . وكان يأكل الكسرة والأدام (الملاح) مع الطلاب السودانيين ، ولا يشتكي من ذلك! . . وصحيح أن النمر كان شديداً في شبابه وعنفوانه ، ولكن التجارب وربما الهتاف Down Down with Brown الذي كان الطلاب يكتبونه على الجدران ، وشدة العداء له ولأساليبه من الطلاب في البداية ، قد أقنعته بتغيير أسلوبه في البطش ، وإيقاع العقوبات بالطلاب . وربما أصبح في تقدم عمره أكثر إدراكاً للشخصية السودانية وللثقافة السودانية ، وأن أولئك الطلاب كانوا يأتون من عوائل عريقة ويتمتعون بشيء غير قليل من الأدب والتهذيب ، من بيوتهم ومن أسرهم ، وأن ذلك مؤشر إلى عمق وحكمة أساليب التربية الإسلامية التي تقوم على المحبة والاحترام والتوقير للوالدين وللمربين ، وكذلك تقوم على الإقناع والقدوة الحسنة ، وعلى الترغيب في توازن دقيق مع الترهيب ، من غير إفراط ولا تفريط . وإن كان هنالك بعض أوجه القصور في التربية السودانية ، مما يؤدي إلى التسيب وعدم الانبعاث الفوري للعمل وللإنجاز . وهذا ما كان يُضايق المستر براون ، وخاصة التراخي في الوقت والمواعيد ، والمماطلة في إنجاز الأعمال في المشاريع مما يسميه الإنجليز بالتلكّع Procastination. فهذا التلكّع سمة سودانية عند الكثير منهم ، بل هو صفة بدوية . لكنه بالتأكيد ليس بصفة إسلامية ؛ فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أسطورياً في حبه للعمل والإنجاز ، وسرعة التوجه إلى العمل وفوريته . وكان يعمل بجد في خارج البيت في التدريس والعبادة وفي سن القوانين ، ووضع النظم والترتيبات الإدارية . ولذلك رسم ملامح السلوك الراشد . هذا عندما يكون في المسجد ، ولكنه عندما يأتي إلى البيت كان أيضاً يعمل في " مهنة أهله " يُشارك زوجاته بصورة نشطة وإيجابية ومشرقة في كثير من الأعمال المنزلية ، وربما شارك في أعمال النظافة للبيت ، وفي طهو الطعام وما إلى ذلك ، كما كان يشارك في الأنس والمؤانسة مع أهله ، يرفع معنوياتهم

ويشاركهم الحديث ويشيع جواً من البهجة والسرور عليهم. وكما كان يقصد إلى إدخال السرور والبهجة على زوجاته، كلهن، ويشارك كذلك في اللهو المباح واللعب، خاصة مع عائشة زوجته المحبوبة، صغيرة السن. فربما شاركها في اللهو بألعابها أو سابقها في الجري. وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يحب الأطفال والصبيان، ويداعبهم خاصة الحسن والحسين ويلهو معهم اللهو البريء البسيط بلعب الأطفال. وربما تأخذ الجارية الصغيرة (أي البنت الصغيرة) يده الشريفة فيذهب معها. هاشاً باشاً، بسّاماً ضاحكاً: غير أنه كان لا يضحك إلا تبسماً، ولا يأخذ في القهقهة أو الاسترسال في الضحك بصوت عال؛ (فإن كثرة الضحك تميت القلب) وكان صلى الله عليه وسلم يقول: أنا نبي المرحمة، أنا نبي الملحمة أنا القتول الضحاك، رحيماً ضاحكاً مع المؤمنين والمستضعفين مقاتلاً فتاكاً بالمستكبرين والظالمين والطواغيت.

عبدالله الطيب والمستر سكوت

خلف المستر سكوت المستر وليامز على نظارة أو إدارة المدرسة الثانوية، وكان على خلاف المستر وليامز لا يؤمن بالنظام بنفس الصرامة التي كان يطبقاها المستر وليامز والمستر بروان في أول أيامهما، فألغى المستر سكوت التيلة (The rod) والطَّلْبة والتيرم جميعاً:

يقول عبدالله الطيب في وصف المستر سكوت[1]:

"كان المستر سكوت من أهم رجالات من مارسوا التعليم في السودان الحديث. ولعله أن يكون أهمهم جميعاً، بعد المستر جيمز كرى، الذي كان على يديه أول تدوين مصلحة المعارف، وإنشاء كلية غردون التذكارية، كان مجدداً وذا ثورة وصاحب أفكار"

ويصف عبدالله الطيب المستر سكوت وصفاً دقيقاً[2]:

"كان صغير الجسم، منحني أكتاف الظهر حسن طلعة الوجه، قصير سبائب شعر الرأس يمشطها على طبيعة استدارتها في الرأس فينحدر منها قليلاً على أعلى جبهته وليس بأغم، أفلت من أن يكون أغماً وليس بأنزع!.. يخالط لونه صفرة تعرضه للحركة وللشمس، يتكلم بنبرة واضحة، وتمثُّل للمعني في الأداء وتعبير الوجه مع مبالغة ما. وفي عينيه بريق ذكاء، وعلى خديه أسارير ابتسام، ويلوى فمه العريض يتأمل، ويضحك

(١) عبدالله الطيب: من حقيبة الذكريات. ص ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق. ص ٢٢٨.

ضحكة تحتسبها مفتعلة، يخالطها من أنفه غنّة، وجرس زفير خفي قصير، ساخر متهكم . . "

كان أسلوب المستر سكوت مثل أسلوب المستر براون "النمر" عندما كبر ونضج وصار نمراً أليفاً بعض الشيء . كان يحب أن يختلط مع الطلاب، ويعيش معهم ويؤثر فيهم، وفي أفكارهم وسلوكهم وذلك بالمعايشة والمخالطة، يسمع منهم ويناقشهم. وكان يهتم بالرؤساء، لأنهم الأكثر تأثيراً على الطلاب، وربما يدعوهم إلى منزله لتناول الشاي. وكان هذا انقلاباً هائلاً في علاقة الأساتذة الإنجليز بالطلبة في المدرسة الثانوية!!

- "الخواجة دا نمس، يريد أن يكشفكم" . . هكذا كان الطلاب يتهامسون عن المستر سكوت وعن أسلوبه اللين المبتكر الإيجابي مع الطلاب.

- "دا قسيس كبير" . . أعملوا حسابكم!!

ومهما يكن من أسلوب المستر (سكوت) فلم يُفلح في تحبيب الاستعمار الإنجليزي إلى قلوب الشبيبة السودانية، وقد كان الطلاب أكثر الطلائع الوطنية وعياً وفكراً مستنيراً. وكانوا كلما رأوا المستر سكوت يتودّد إليهم، ذكروا أبيات لشوقي - رحمه الله:

وللحرية الحمراء بابٌ
بكل يد مضرجة يُدق

وللمستعمرين وإن ألانوا
قلوبٌ كالحجارة لا ترق

ومن خُدع السياسة أن
تُغروا بألقاب الإمارة وهي رق

عزتْ إباءهم حتى تلظت
أنوف الأسد واضطرم المدق

وضج من الشكيمة كل حر
أبّي من أمية فيه عتق (عرق)؟

وعندما طلب منهم المستر سكوت أن يكتبوا مقالاً نقدياً عن الحياة في المدرسة الثانوية، كتب الطلاب آراءهم بجرأة ولم يتهيبوا شيئاً. أما الفتى عبدالله الطيب، فقد كتب كراساً كاملاً "أطلق لنفسه فيها العنان" وقال ما كان يحب أن يقول غير عابيء بأية نتائج أو محاسبات قد تأتي من إدارة المدرسة، أو من المستر سكوت، كما ذكر . لم يكن المستر

(سكوت) من خريجي كمبيردج أو أكسفورد كما كان غالب المدرسين الإنجليز. وكان في تعليمه "مزاج لاهوت" كما ظن عبدالله الطيب.

كان المستر سكوت عميق الإيمان بتفوق الحضارة الغربية على الحضارة العربية الإسلامية، وكان لا يُخفي ذلك بل كان يجادل عنه بقوة، ويحاول إقناع الطلاب به. ولكنهم كانوا يقارعونه الحجة بالحجة. عندها كان المستر سكوت يلجأ إلى الإرهاب الفكري:

– أنتم متعصبون (Bigots)، والـ (Bigotry) معناها التعصب الأعمى. وكان يقول لهم أنتم بس متعصبون، ويضحك "قه قه قه قه".

ومع ذلك كان المستر سكوت كبير الإعجاب بمناكفة الطلاب السودانيين، بحجاجهم القوي وتحديهم له ولحججه الواهية ولماذا لا يكون هو المتعصب؟!!

– الخواجة ده نمس، أعملوا حسابكم منه: كانوا يتهامسون ويوصي بعضهم بعضاً. وكانوا قد كشفوا "موية" الخواجة وعرفوا مراده، فلم يكن يقدر أن ينال شيئاً من عقيدتهم ولا من آرائهم وإعتزازهم بدينهم وحضارتهم، مهما حاول!!

يقول عبدالله الطيب إن ثقافتهم العربية الإسلامية كانت عالية ومتنوعة ونقدية تحليلية:

* كانوا يعرفون عن تيارات التشكك في الدين والعقيدة، ومحاولة بعض التيارات الماركسية التشكيك في وجود الله!

* كما كانوا يتحدثون عن القدر وعن حرية الإرادة عند الإنسان، وعن الإلحاد.

* وعن كفريات المعري وزندقته وكفريات الآخرين في التراث.

* وعن مساجلات طه حسين والرافعي،

* وعن كفر بشار بن بُرد، ومجون أبي نواس

* وعن التصوف الشاطح ومقولة الحلاج "ما في الجبة إلا الله"

* وكانوا قد قرأوا عن النظرية الداروينية وعن نشأة الحياة من البحر، ثم تطورت إلى أعلى وأعلى في سلم الأجناس.

ولذلك لم تكن محاولات سكوت تشكيك الطلاب في دينهم وعقيدتهم بمجدية، ويقول عبدالله الطيب إن دراسة المستر سكوت لم تكن محكمة بل كانت جوفاء لذلك لم يستطع أن يصل إلى قلوب الطلاب في شيء[1].

---

(١) عبدالله الطيب: من حقيبة الذكريات، ص ٢٣٠.

" وكان المدرس يمضي فيها كمن يمشي حافياً على شوك يريد أن يكون مؤثراً ولا يستطيع ، ومن أجل نوع في نفسه من عدم الإطمئنان ، قالوا إنه كان ملحداً " .

يقول عبدالله إنه لم يتأثر كثيراً بالفكر الإنجليزي ، فكان يراه سطحياً غير عميق ولا مبرهن عليه ولا يرتقي إلى الرتبة العلمية .

وكان قد كره قصة (بلد العميان) وكانت هذه القصة ضمن "بُغاضات" (من بغض) كتاب المطالعة للصف السادس ، وكذلك كان يكره صورة هـ . ج . ويلز التي كانت معها ، ولا كانت تعجبه قصة ويلز "الرجل غير المرئي" ويقول عنها أنها - في رأيه - مسروقة من " طاقية الخفاء " التي في "ألف ليلة وليلة" في حكاية الحسن البصري الجميلة !

وقرئت على الطلاب قصة "آلة الزمان" The Time Machine من تأليف الكاتب (هـ . ج . ويلز) ، ويقول عبدالله الطيب إنها قرئت عليهم بإيعاز من المستر سكوت ، ولم يصل منها شيء إلى قلوبهم . يقول عبدالله[1] :

" تاريخه الكبير (يعني المستر هـ . ج . ويلز) عمل عظيم ، وتعرض فيه لأخبار المسلمين . ونال- الكلب- من شخصية السيدة عائشة ، يريد بذلك الطعن في رسولنا عليه الصلاة والسلام . وقرأنا ذلك نحن بكل غفلة ، وأعجب بعضنا بها لروح ما كانت فيه من التشيع ، فقد تعرَّض الخبيث الملعون لما كان من تصدي أم المؤمنين في خبر موقعة الجمل لقتال أمير المؤمنين "

يقول عبدالله الطيب إن إنطباعه عن شخصية (هـ . ج . ويلز) وعن إلحاده ومغالطاته السفسطائية - في ذلك العمر الغض - جاءت صحيحة فأكدها له اطلاعه على كتابات المستر كنقزلي مارتن (Kingsley Martin) في كتاب ذكريات حياته ، وتجاربه عن هـ . ج . ويلز (H.G. Wells) فأتت تلك الكتابات على نفس الصورة والرأي الذي خرج به الفتى عبدالله الطيب ، عندما كان طالباً يافعاً في المدرسة الثانوية برغم المستر سكوت ومحاولاته إلى النقيض من ذلك ! !

يقول عبدالله الطيب إن إستراتيجية المستر سكوت الماكر ، كانت تعمد على مهاجمة حصون المقاومة الفكرية لدى الطلاب ، والتي كان يمثلها الدين واللغة ووجود الأمة وميراثها القديم . كان يهاجم تلك الحصون في الصميم ؛ واتبع في ذلك أسلوباً دقيقاً غاية في الدهاء :

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٣٠ .

ألم نقل إن الخواجة "ثمس"، وإنه استطاع أن يكشف مكامن القوة في شخصيات الطلاب، باستدراجهم إلى كتابة مقالات نقدية عن حياتهم في المدرسة الثانوية ؟!

* كان يعتمد أسلوب مناقشة الطلاب في آرائهم الحقيقية، بعد أن يستدرجهم للبوح بها والتعبير عنها بصدق وشجاعة، ثم يحاول ويأخذ بعد ذلك في تشكيكهم في تلك القناعات وهزها بطريقة عقلانية جدلية؛

* وكان يحاول أن يُعرف الطلاب بجوانب من الفكر الأوروبي، والأدب والفن والتفكير الفلسفي والتفكير الديني والتشكيك - بالحجة والبرهان - على كل أمر مسلم به وقديم،

* كما كان يحاول أن يبرر السياسات الاستعمارية بأنها لخدمة الشعوب المتخلفة، ومن أجل إدخال الحضارة والتقدم في حياة تلك الشعوب!

وكان يعطي الطلاب :

* اختبارات من الكتاب المقدس، وذلك من النص الذي ترجم على عهد الملك جيمس الأول :

The Kings Authorized Version

وفي ذلك إشارات (في قصة رثاء داود ليوحنا) إلى بنات الفلسطينيين The daughters of the palestin. ويبدو أن هذه الإشارات فيها ما يجرح شعور العرب والمسلمين. وتغاضي المستر سكوت عن ذلك، فيما يبدو.

* وسئل المستر سكوت عن ترجمة

The daughters of the uncircumcised

فقال : يعني "بنات الغلفا"، وضحك ضحكته تلك الساخرة المحبوسة، يعني لا تظنوا أنكم وحدكم تعرفون هذه الأشياء الحساسة. أنا أيضاً أعرفها.

وكان يقرأ للطلاب من كتاب أوسكار وايلد، خاصة قصة الأمير السعيد :

The Happy Prince

Vanity of vanities, said the preacher

Vanity of vanities all is vanity

* وكان يقرأ قصائد في الحب وأشياء أخرى!

وكان في كل ذلك يرمي إلى التأثير على تفكير الطلاب؛ وإدخال الفكر الغربي إلى نفوسهم وقناعاتهم، حتى يتمكن في النهاية من اضعاف انتمائهم الإسلامي واضعاف ثقافتهم العربية والإسلامية في نفوسهم وهزها من القواعد!

المستر سكوت ونظرية أصل الأنواع عند دارون:

كان تدريس نظرية (دارون) في أصل الأنواع، وفي النشوء والارتقاء، من المواضيع المفضلة للمستر سكوت، وكان يخصص حصصاً بأكملها لتدريس هذه النظرية والدفاع عنها! ويقول عبدالله الطيب إن نظرية النشوء والارتقاء ونظرية أصل الأنواع، واحتمال أن يكون الإنسان قد انحدر من أنواع أخرى، معروفة لديهم من قراءاتهم في التراث العربي.

يقول أبو العلاء المعري:

" جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على أثر آدم " .

ويقول عبدالله الطيب أن العقاد قَبِل مقولة أن أصل الناس قرود بلا أدنى تشكك، وهو أمر غريب هذا من العقاد (وهو المفكر العملاق!).

وكاتب هذه السطور وزملاؤه في المدرسة الثانوية، قد تعرضوا لشيء كثير من التشكيك، مثل ما فعل المستر سكوت أو أسوأ، من بعض أفراد قلائل ممن كانوا على دين الماركسية أو العلمانية في مدرسة بورتسودان الثانوية. وكأن هذا المنهج كان سياسة مقررة في عصر الاستعمار. وحتى في فترة ما بعد الاستقلال إلى نهاية الخمسينيات من القرن المنصرم! والسؤال الآن هو: من الذي كان يقف وراء تلك السياسات الخرقاء؟! وماذا كان يأمل أن يحقق من أهداف من ورائها؟ وما الفائدة التي يمكن أن تجنى من سلخ الناشئة من دينهم وعقيدتهم وهويتهم الثقافية؟! ولمصلحة من كان يتم كل ذلك؟!

أسئلة كلها حائرة!! وهل يا ترى ما زالت هذه السياسة الخفية الباطلة تزاول في السودان أو في أقطار أخرى من العالم العربي الإسلامي؟!!

انتهى الفصل الأول وهو مقدمة هذا الكتاب، أردنا أن يكون مختصراً جداً في التعريف بشخصية عبدالله الطيب وفي ذكر بعض وقائع من حياته وملامح يسيرة من سيرته. هذا ولقد أجلنا الحديث عن العامل الأخير من العوامل المكونة لشخصيته وهو العامل المتعلق بتجاربه في الحياة وبسيرته العلمية والمهنية إلى الفصل الأخير.

سبحانك اللهم ونحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين،،،،

الفصل الثاني

عبدالله الطيب :

ذلك البحر الزاخر

الفصل الثاني
عبدالله الطيب: ذلك البحر الزاخر

أكتب هذا الفصل لأرثي عبدالله الطيب، الذي وصفه بعضهم[1] - بالنهر الثالث في السودان، صنو النيلين الأبيض والأزرق، وهو وصف بديع، ولكن، قلت في نفسي إن عبدالله الطيب الذي عرفته أكثر من ذلك، إنه بحر زاخر، بحر مغدق بالخيرات وبالآلاء وبالكنوز التي لا تقدر بأثمان ولا تقاس بالأموال، مهما غمت وكثرت، فهو كنز فريد، ومن هنا كان فقده أليماً، وكانت لوعة فراقه عظيمة، ولو أريقت عليه الشؤون وأجريت عليه الدموع أنهاراً وقلّ له!

وأنا بالذات، إذ أنعي عبدالله الطيب، إنما أنعي نفسي، أي الذي هو في مقام نفسي، كما قال الشيخ الرئيس إبن سينا. فأنا - في بعض أحوالي - بضعة من عبدالله الطيب، وعبدالله في بعض شمائله واتجاهاته إنما هو بضعة مني، إذ هو الشيخ وأنا التلميذ الذي تأثرت به تأثراً غيّر مجرى حياتي في أكثر من منعرج. وهو - بعد ذلك - تربطني به ليس فقط قرابة الدم، إذ أن كلينا ينحدر من "الدامر الغربي" فأهله من التميراب، شمال أم الطيور، وأجدادي (العبداياب وسلالة الملك عبدالدائم ود الملك عدلان ود الملك عرمان، عميد عموم الجعليين) إنما ينحدرون من أم الطيور الجنوبية. ومعظم أجدادي وأجداده يرقدون هنالك في ذلك الدامر الغربي، سقا الله جوانبه بالغمام والرحمة. كذلك تربطني بعبدالله الطيب، غير رابطة الأستاذية، مودة ومحبة أحفظها على مدى الأيام ما حييت وأعزها أيما إعزاز، وهو الذي غمرني بالمحبة والرعاية منذ أن تعرفت عليه في مكتبه الأول العامر إلى جوار ذلك المدرج الحبيب (١٠٢)، في عمارة كلية الآداب الأولى في جامعة الخرطوم، وكذلك كان يرعى زوجتي وأولادي كما يرعى الوالد الرؤوم أبناءه وأحفاده، فكيف لأحد أن ينسى مثل هذه المودة وتلك الرعاية، وذلك الحب الذي كان يربطني به على تفاوت في السن والمكانة الاجتماعية، فقد كان هو آنذاك ملء السمع والبصر، ولم أكن سوى طالب فقير مغمور، ليس ورائي أو أمامي أحد غير الوداد وحبٌ في الله غير مذموم.

إنني أكتب لأرثي فريد زمانه، وواحد أيامه، الإنسان النبيل، والوجدان المَوّار بمعاني

---

(١) مقال للأستاذ عبدالمنعم عبدالله المكي نشر في جريدة الراية القطرية - الثلاثاء ٢٤ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ الموافق ٢٠٠٣/٦/٢٤م.

الحياة والفكر، الذهن الثاقب والنجم الزاهر، وتلك الفصاحة التي لم أراها عند أحد ممن عرفت في كل الدنيا، عرباً وعجماً. فقد كان كلامه الدرر المنثور، وكان شعره اللحن الشجي العبقري؛ وكأنه تلقّاه عن مزمار من مزامير داؤود عليه السلام، كما كان تواضعه الجم ومحبته للناس، وجوده وكريم بذله وعطائه بالرأي وبالود وبالنصيحة يبذلها، وبالإهتمام والرعاية تغيض عنه كما يفيض الضوء عن الشمس، والنور عن القمر، طبعاً وجبِلّةً، وكرماً وجوداً بالسليقة والجوهر، بلا مَنّ ولا أذى، ولا إرادة واعية منه، فكل إناء بما فيه ينضح! وتفوح منه تلك الشمائل كما يفوح العبير من الورد، وهل يمكن للورود والزهور أن تمنع عبيرها أو تكف عطرها عن أحد؟!.

كذلك فإني عندما أرثي عبدالله الطيب، فهذه سنة سنها الرحمن في كتابه العزيز، إذ أنه تعالى رثى الخلق كلهم، ورثى الخليقة والكون طُرّاً:

﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ (الرحمن: ٢٦)

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ (الكهف: ٤٥)

﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ (الزمر: ٣٠)

﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين مت فهم الخالدون﴾ (الأنبياء: ٣٤)

﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ (النصر: ١-٣)

إذن فنحن حين نرثي عبدالله الطيب، فإنا نرثي أنفسنا، فإن الفناء هو سبيل الأولين والآخرين، ولو كان في الأرض خالداً، لكان محمد صلى الله عليه وسلم، ولكان إبراهيم عليه السلام، وكان إخوانهم من الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء.

إذن فلا بأس علينا إن نحن رثينا عزيزاً علينا، غيبه الموت ونحن لمّا نشبع بعد من لقائه، ولا قنعت نفوسنا من نواله وعطائه، الذي كان بهجة الدنيا وزهرة الأيام، ولو كان لنا أن نتمنى خلود أحد من أساتذتنا في هذه الدنيا، لتمنينا خلوده، ففي النفس حاجة من علمه لم تقض، وفي الفؤاد اشتياق إلى وداده، وظمأ إلى أفكاره العبقرية، لمّا ينطفي بعد، وفي النفس لوعة إلى نوره وطلعته البهية الباسمة دوماً لم تنقض، فعبدالله الطيب، كان النجم الثاقب في سماء جامعة الخرطوم وفي أفلاكها الفكرية والثقافية لا يدانيه طالع أو كوكب في تلألئه، وضوئه الساطع المنير.

وأنا أتمثل فقدي إياه، أتذكر أبيات صناجة العرب وحكيمها، لبيد بن ربيعة العامري:

بلينا ومــــا تبلى النجـــوم الطوالعُ
وتبــقى الجبـــالُ بعـــدنا والمصـــانعُ
فـــلا جـــزع إن فـــرق الدهرُ بيننا
وكل فـــتىً يومــــاً به الدهر فـــاجعُ
ومــا المرءُ إلا كـــالشـــهـــاب وضـــوئه
يحـــور رمـــاداً بعـــد إذ هو ســـاطعُ

عبدالله الطيب الذي عرفته:

وأنا بعد ذلك أريد أن أسجل روزنه عن عبدالله الطيب الألمعي الذي عرفته، فلقد تقاطعت حياتي معه أولاً في جامعة الخرطوم، طالباً، ثم أستاذاً بها، وبين هذا وذلك نعمت بلقائه أياماً صافيات جميلات عامرات بالفكر والود والثقافة في بريطانيا، عندما كنت طالباً في الدراسات العليا بجامعة درم، بشمال إنجلترا وكذلك لستر وليدز. وامتدت بنا اللقاءات في مجال التعليم العالي ومجالسه العامرة فقد كان إلى رحيله عن الدنيا رئيساً لمجلس جامعة الخرطوم، التي كان أيضاً من أعظم من تولى إدارتها في تاريخها الطويل.
كان آخر لقاء لي معه قبل مرضه الأخير في قاعة الصداقة عندما كرمتنا الدولة بمنحنا جائزة الشهيد الزبير محمد صالح وأوسمة العلم والآداب الذهبية، ولسبب غامض أصررت عليه أن يتكرم علينا بإلتقاط صور تذكارية تجمعنا في تلك المناسبة، فوافق مسروراً، والتقطت لنا زوجته الوفية جريزيلدا (Grisleda)، صوراً متعددة، ولكني لم أتلق منها تلك الصور، وأتمنى على الله أن تكون تلك الصور مازالت محفوظة عندها.

وكان آخر لقاء فكري بيننا، في تلك الندوات الشهيرة التي عقدها الوزير إبراهيم أحمد عمر، عندما كان وزيراً للتعليم العالي والبحث العلمي، عن " العولمة وآثارها على الأوضاع في السودان " والتي امتدت إلى عدة ليال.

لسبب من الأسباب تحدث الدكتور عبدالله الطيب في تلك الندوة عن مشكلة جنوب السودان، وكان من رأيه أن هذه المشكلة لا تحل إلا بالدعوة إلى انفصال الجنوب عن الشمال فقال بالحرف الواحد:

(مثلنا ومثل جنوب السودان، مثل من يقبض على أذني مرفعين (ذئب) فهو لا يستطيع

أن يفكه مخافة أن يفترسه إذ هو أطلقه)، وأردف قائلاً: (والرأي عندي أن نقول للدول الكبرى، وخاصة أمريكا وبريطانيا وكذلك الأمم المتحدة، تعالوا امسكوا مرفعينكم هذا وخلّصونا منه)، فضج الحاضرون بالضحك، بعضهم، وبعض آخرون ضجوا بالشكوى والتذمر، خاصة بعض الحاضرين من أهل الجنوب ومنهم صديقي العزيز ورجل الدولة البارز موسيس مشار. وأما أنا فقد أصابتني صدمة من هذا الرأي، إذ أنني شديد الغيرة على الجنوب وشديد التمسك بوحدة السودان، شريطة أن تكون هذه الوحدة طوعية وأن تتحقق بالوسائل السلمية، فانبريت أطلب الكلمة، وأصرُ عليها إلى أن اضطر أخي وصديقي العزيز إبراهيم أحمد عمر أن يعطيني إياها، فقلت: (الأستاذ عبدالله الطيب هذا أستاذي الذي أجله وأهابه مهابة كبيرة جداً، وما كنت أحلم أني سوف أجادله أو أختلف معه علناً قبل اليوم، إلا أنني لا أستطيع إلا أن أخالف ما قاله بخصوص مشكلة جنوب السودان، ومثلي ومثله في هذا الموقف مثل أرسطو وأفلاطون: فقد كان أرسطو يجلّ أفلاطون إجلالاً عظيماً، ولكنه في الوقت ذاته كان يختلف معه في كثير من المسائل الفلسفية، وعندما اضطر إلى مخالفته علانية، قدم لذلك باعتذار لطيف ذكي، صار مثلاً في مثل هذا الموقف بين الأستاذ والتلميذ الذي يختلف معه:

قال أرسطو:

(أفلاطون أثير عندي وحبيب، وكذلك الحقيقة، ولكن الحقيقة أحب إليّ من إفلاطون)

وبعد ذلك أوردت رأيي عن ضرورة الحفاظ على وحدة السودان.

وفوجئت، كما فوجيء الكثيرون، بالأستاذ عبدالله الطيب يعقب على رأيي ويقول إنه لا يقبل بأن يُمثل له بإفلاطون (ذلك الفيلسوف الوثني!)

فأُسقط في يدي، وكنت آمل أن ألقاه مرة أخرى وأشرح له مقالتي، وما أظن أن معناها قد غاب عنه، ولكنه لم يرض مني أن أعقب عليه، وأن أخالفه وأخطئه علناً، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر الله لي هذه الصراحة التي طالما كان يعيبها عليّ.

والواقع إن هذه الصراحة هي من تأثير الجبلة والوراثة فكان أبي مثالاً لها، حتى إن أهلي كانوا يقولون (بشير علي محمد إمام كأنه قد بلع حبوب الصراحة)، فقد كان، كما يقول الخواجات (Outspoken) وكذلك كنت أنا في شبابي.

وكان عبدالله الطيب كثيراً ما يذكرني ببيت الشاعر الجاهلي، زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يُصانع في أمـــور كــثـيـــرة

يضـــــرس بأنيــــاب ويـوطأ بمنسـم

ولم تكن ندوة "آثار العولمة" هي المناسبة الوحيدة التي "ضايقت" فيها البروف العزيز عبدالله الطيب، فقد كانت هنالك مناسبة أخرى:

عندما كان عبدالله الطيب عميداً لكلية الآداب في الستينيات من القرن المنصرم، كنت طالباً بها بقسم الفلسفة، ولوجودي في قسم الفلسفة قصة، كان البروف عبدالله عاملاً حاسماً فيها، ذلك أنه قبل بتحويلي من كلية العلوم، قسم الرياضيات، الذي يؤدي إلى كلية الهندسة، في دقائق معدودة، فقد كنت غير سعيد بوجودي في كلية العلوم، لم أجد نفسي فيها، فقد كانت نزعتي أدبية فلسفية، ولم أكن أتصور أن أصير مهندساً، فدخلت عليه في مكتبه العامر بالمبنى القديم بكلية الآداب بجوار المدرج (١٠٢)، وكانت تلك أول مرة أقابله فيها وجهاً لوجه، وأتعرف عليه عن كثب.

قلت يا بروف أنا فلان الفلاني، طالبٌ بكلية العلوم - القسم الهندسي، ولكني غير سعيد بها، ولا أجد نفسي فيها، وأريد أن أتحول إلى كلية الآداب، فقال: "نعم، هذا ممكن، دعنا نشوف ناس الفلسفة، اذهب إلى بروفسير تولم بوم Prof. Toulimbaum واعطه هذه المذكرة". فذهبت إليه ووجدته جالساً على مكتبه، وأعطيته مذكرة عبدالله الطيب، فقبلني على الفور. وهكذا كنت أول طالب بجامعة الخرطوم يحول من العلوم إلى الآداب، لأنها صارت سابقة (precedent) في مجلس السنيت، واستفاد منها بعد ذلك كل من د. محمد عبدالحي، الله يرحمه، ود. جعفر ميرغني وآخرون غيرهم. وهذه هي واحدة من تلك التقاطعات التي كانت بيني وبين عبدالله الطيب والتي غيرت مجرى حياتي كما ذكرت.

دخلت عليه مرة في ذلك المكتب العزيز المهيب، مكتب عميد كلية الآداب، وكان ذلك بعد معركة انتخاب مدير جامعة الخرطوم بعد ثورة أكتوبر، وكان عبدالله مرشحاً لذلك المنصب الرفيع، ولكنه لم يفز في الإنتخابات. وأظن أن الذي فاز كان د. عمر عثمان عميد كلية الاقتصاد، فوجدته في حالة من الغضب والهيجان، وعبثاً ما حاولت تهدئة خاطره واقناعه، أنه أرفع بكثير من ذلك المنصب. وقلت له في صراحتي التي تقترب أحياناً من حد الإفراط، إذ لم أرع فارق السن وفارق المكانة الإجتماعية بيني وبينه، غرني في ذلك المحبة المتبادلة بيننا فقلت:

"يابروف عبدالله ، شنو يعني منصب مدير جامعة الخرطوم بالنسبة إليك ، انت بروفيسور قدر الدنيا كلها ، ومعروف عالمياً كشاعر عظيم وكعميد للأدب العربي بعد طه حسين ، ماذا تريد من منصب مدير جامعة الخرطوم؟؟!!، ، .

وأظن أن تلك الصراحة بل تلك الجرأة فاجئته مفاجأة كبيرة بل باغتته ، أو كما يقول الخواجات (he was quite taken aback by it) فمال إلى الخلف على كرسيه ، هنيهة ، ثم اندفع إلى الأمام مرة أخرى وعيونه لمعت بتوقد يمازحه شيء من الإحمرار : (أيوه أنا دايره ، دول البقو مديرين أحسن مني!؟؟؟) لقد هجا بروف عبدالله الطيب بعض أساتذة كلية الطب بجامعة الخرطوم ، الذين لم يؤيدوا ترشيحه لمنصب المدير ، بقصيدة عصماء جاء فيها :

وأطبـــة تركـــوا العـــلاج وأقـــبلوا يز
جـــون من مـــرض القلوب ضـــروباً

لم تكن مثل هذه المواقف من عبدالله الطيب غريبة ، فهي في الواقع تمثل واحداً من أهم مفاتيح شخصيته الفذة .

لقد كانت بعض تلك التقاطعات بين دروبنا ، حاسمة جداً في مجرى حياتي :

بعد ثورة شعبان عام ١٩٧٣م ، قررت حكومة نميري فصلي من جامعة الخرطوم ، وكان هذا القرار صعباً جداً على أستاذي وصديقي عبدالله الطيب . وعندما أراد أن يُعلمني بهذا القرار ، دعاني وزوجتي (د . مزاهر) إلى طعام الإفطار ، يوم الجمعة في منزله الذي هو الآن مكتب مدير جامعة الخرطوم ، والذي يطل على النيل الأزرق ، ووجدنا زوجته الإنجليزية (جيريزلدا) قد وضعت الإفطار في الحديقة المطلة على النيل الأزرق مباشرة ، وكانت جلسة ممتعة ، أقرب إلى السحر منها إلى الحقيقة ، وكان عبدالله مشرقاً وكان قلبه مفعماً بالفخر وبالمعاني الموارة الزاخرة ، وطال بنا الأنس ومطارحة الكلام والشعر والنثر ، والأدب والتاريخ والفلسفة ، وتاريخ جامعة الخرطوم وأيامها وأخبارها ، ومن هم الذين كانوا يناصبونه العداء من الحساد والعواذل ، وعندما أشرت إلى وقت صلاة الجمعة إنه قد أزف جاء وجلس أمامي وقال :

(يا زكريا : كنت قد أرسلت لك برقية في بربر لتعود إلى عملك في جامعة الخرطوم ، ولكن بعض هؤلاء المنافقين سربوا الخبر إلى ناس الأمن ، وهؤلاء جاءوا إلى مكتبي وأبلغوني قرار النميري : ألا ترجع إلى جامعة الخرطوم ، ! دحين ما في فائدة ، فلو رجعتك

رفتوك ورفتوني معاً، ولكن أرى أن تذهب إلى الخارج، للتدريس في بعض الجامعات هنالك، ولقد رتبت الأمر فاتصلت بالسفراء من دول نيجيريا والأمارات العربية المتحدة، وقرظتك كثيراً لهم وإن شاء الله يكون خير ولعله خير). فصمت بُرهة، ثم التقطت أنفاسي بعد هنيهة وقلت: (لعله خير إن شاء الله) لأنني ما كنت أبداً أفكر في فراق حبيبتي الخرطوم، وكنت قد عدت آنذاك حديثاً من الولايات المتحدة وأوروبا، بعد غيبة دامت أكثر من سبع سنوات، وغيبتني حكومة نميري عامين آخرين في سجن كوبر!

وفعلاً ذهبت إلى جامعة الملك عبدالعزيز لمدة عامين تقريباً ثم إلى بريطانيا، حيث نشرت أول كتبي وكان باللغة الإنجليزية (The Meccan Crucible) ولقد أهديت هذا الكتاب إلى عبدالله الطيب، لأنه هو الذي أشار علي بكتابته باللغة الإنجليزية، وكان هذا الكتاب أول اتصالي بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولقد يسر الله لي بعد ذلك فأتبعته بثلاثة كتب أخرى[1]، ولا عجب فالمصطفى البشير صلى الله عليه وسلم هو العروة الوثقى وعلاقة الحب الكبير بيني وبين العلامة عبدالله الطيب. (وبلغ اللهم روحه الشريفة، صلوات طيبة منيفة، اللهم صلى عليه وسلم تسليماً).

المفاتيح الرئيسة لشخصية عبدالله الطيب:

المفتاح الأول: شعوره بتفوقه وبتفرده على الآخرين، ذلك التفوق الذي لم يحظ بالإعتراف به من الأوساط العلمية في جامعة الخرطوم، ولا من الأوساط الوطنية، فلم يكن عبدالله الطيب ينتمي إلى أي من الأوساط الوطنية ولا كان منتمياً إلى الحركات العقائدية من يسار إشتراكي أو يمين إسلامي، ولذلك كان يغرد خارج السرب كما يقال، وهذا قلل من فرص الإعتراف به وبعبقريته وكأن لسان حاله يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا!

ليوم كريهة وسداد ثغر

---

(١) هذه الكتب الثلاثة هي بعناوين:.

(1) the Hijra: Story and Significance..
(2) Sunshine at Madina..
(3) War and Peace in the Life of the Prophet Muhammaed (still being prepared for publication).

وكلها نشرت بواسطة المؤسسة الإسلامية بليستر - بريطانيا، ماعدا الأخير الذي مايزال قيد النشر لديهم.

المفتاح الثاني : وشعور عبدالله بالوحدة، واحساسه بعدم التقدير لموهبته وعبقريته كان دافعاً إلى شكاياته دائماً في أشعاره. وربما عزز هذا الشعور بالوحدة والعزلة، قلة الأصفياء والأصدقاء الحميمين في حياته، إذ أنه عاش وحيداً منذ باكورة شبابه إذ توفي معظم أفراد أسرته المقربين في فترات متقاربة من صباه وشبابه، جده لأبيه ثم والده ووالدته وبعض أخوانه وأشقائه، فعاش حياته كلها ينتابه شعور عميق بالوحدة والغربة ولقد انعكس ذلك بظلال كثيفة على حياته ووجدانه، بل على الكون كله وأحدث خطوطاً داكنة الظلال في جنبات روحه وأرجاء نفسه. فصار الأسى سجية وطبعاً، وصارت الوحدة والعزلة هي كل مايحيط به. ففي أول مقطوعة من "أصداء النيل" نجد تعبيراً عن هذا الشعور الغريب بالوحدة والعزلة والغربة:

يقول عبدالله الطيب في ذلك:[1]

قــضى الله أني هكـذا الدهر مـــفــرد
ومــا عن قــضـــاء الله للمـــرء مَــزْحَــلُ

تــداولــنـي الأيــام بــالمكــــر والأذي
ومــالي إلا مَــعــقـلَ الصــبـر مـعـقــلُ

ألا أيهــــا القلب الذي ظل نابضــــاً
ســـيـــسكتك الدهر الذي ليس يَغْــفَلُ

ويا أيهـــا النفس اللجـــوج تـثـــبـيـة
زمــــــانك هـذا بالكـرام مـــــوكـل

فكأنه كان يرثي نفسه بهذه الأبيات العجيبة!

وفي مقطوعة ثانية من "أصداء النيل[2]" نجد نفس الإحساس بالوحدة والغربة:

طربت لذكـــــر النيل إذ شطّ منزلي
بلندن حــــولي كل أعـــجم رطـان

وهيــجني صــوت البــلابل صــدحــاً
وأســـراب طيـــر ذي وصـــيع وإرنان

(١) ديوان أصداء النيل طبعة دار جامعة الخرطوم - الطبعة الخامسة ١٩٩٢م.
(٢) أصداء النيل قصيدة (الصابر) ص ٤٤.

ألم ترني أصبحت في الناس مفرداً

وخان وما خُنت المودة خُلاني

فراق أحباء وثكل عشيرة وإخفاق

آمال وهجرة أوطان

ومثل هذه الأبيات كثيرة جداً في شعر د. عبدالله الطيب في كل دواوين شعره.

– يقول في رثاء شقيقته الكبرى وقد نكأت بموتها كل الجروح قبلها[1]

أعالج لبي أن يطيش من الأسى

وأمنع جفني أن تسيل شكاتي

فليت الردى الظمآن لما أرادها

يبل صداه من دماء عداتي

أأختي قد شط المزار فبيننا

مسير على الأيام والسنوات

وعندك في مثواك أهل أحبه

سوى الطين والأحجار والظلمات

أب لم تريه حل قبلك ثاوياً

لدى غرف لاتشبه الغرفات

وأمٌ سقتك العيش في زهرة الصبا

وولت ولم تمتعك بالنظرات

كدأب الليالي في أخ لك سابق

تخطفنه بالحَيْن مُختَصَرات

ذكرتك لما أن هممت بعودتي

وقلت أراها طلقة البسمات

فلما تلقيت النَّعي تبادرت

أماني من جفني منسكبات

فهل لك في تلك الصفائح ملعب

ترين به اترابك الفرحات

---

(١) أصداء النيل، قصيدة (لا تأس) ص ٦٠ .

لقـــد طغت الدنيـــا علينا بجـــورها
وخلت جـمـيـع الشـمل رهن شتـات

فلن أتـسلى عنك أنك نُغـــبـــةُ
لظمـــآن من ريب الحـــوادث آتي

ولـــن أتـــسلــى عـنـك إلا بـأنـنـي
فـــقـــدتك حـتى تسـتـقـــرّ رفـاتي

إذا ابتـسم الريحـان فـاستفت روحـه
ذكـــرت شـــذى انفـــاسك العطرات

كــــــــــفى ألماً ألا أراك وإنـنـي
من الحـــزن قلبي دائمُ الحـــســـرات

وهكذا استحكمت حلقات الأسى والحزن والوحدة على الفتى عبدالله الطيب، طالب الدراسات العليا بلندن، الفتى العميق الوجدان، المشبوب العاطفة، بحب الأهل والوطن:

جـــادَ الحـبـيـبا منزلاً قـــد كنت آلفـــه
بدومـــة الغـــرب لا ذامٌ ولا عـــاب

وأقــبـراً مـــســتكناً في حنادسـهـــا
أب وأم وآمــــــــــــــال وآراب

الشـعــر دمع الذي لا دمع يسـعــده
مما تـوالتـــه بالأرزاء أحـــقـــاب

وســامـــر المفــرد الأسـوان في بلد
ناء وقـــد عـــز ندمـــان وأكـــواب

المفتاح الثالث: مفتاح آخر في حياة هذا العبقري، شعوره أنه لم ينل التقدير الذي تستحقه عبقريته وموهبته، والفنان الكائن في أشعاره وإبداعاته كلها، وكذلك إحساسه بأنه مستهدف، وإنه محسود، وأن له أعداء يتربصون به الدوائر. ففي قصيدته (لا تأس) نفس الشعور بالأعداء والعواذل والحساد ونفس الشعور بعدم التقدير وعدم النُصرة:

لا تأس فـــالناس أعـــداء اللبـيـب وكم
قـــد أنذرتك فلم تحـفل بهـــا النُذرُ

وكم صبرت على مُرّ الحوادث

والحر الكريم على البأساء يصطبرُ

هم العدو لهم كيد وألسنة

ينفذن بالوخز ما لاتنفذ به الإبرُ

يا أيها الوطن الساعي تدفعه كف

الخيانة والأعداء والقدرُ

إني كمثلك أبغي النصر مجتهداً

وكيف بالنصر لاعون و لا وزرُ

المفتاح الرابع : مفتاح آخر عظيم لشخصية عبدالله الطيب، هو حبه للإيقاع والموسيقى، وما حبه للشعر العربي إلا من حيث أنه نظم بديع عبقري، لا نظير له في أي لغة من لغات البشر، وبذلك تنفرد العربية وكذا الشعر العربي.

وفي "المرشد" لا اهتمام لعبدالله الطيب إلا السعي الدؤوب للكشف عن هذا التدفق وهذا الايقاع البديع المعجز في الشعر العربي.

ولقد ذهب كثير من الدارسين (للمرشد) أنه موسوعة صعبة ، وأنه مثل عبدالله الطيب فيه الكثير من الوعورة في الألفاظ ، إذ أنه (أي عبدالله الطيب) رجل بدوي قد مرد على حب شعر العمالقة من شعراء العربية خاصة شعراء الجاهلية ، وشعرهم لا يخلو أبداً من ألفاظ غريبة.

ولكن لا بأس بالألفاظ الغريبة ، في رأي عبدالله الطيب : (فالغريب حليةُ الشعر ، نص على ذلك نقاده من أوائلهم أبو الأسود الدؤلي ومن أواخرهم إبن الأثير).

فجوهر الشعر، عند عبدالله الطيب، هو الإيقاع، ولا بأس بالألفاظ الغليظة الغريبة التي ينبو عنها السمع.

وحقيقية، فإن وجه صعوبة (المرشد) ليس في كثرة الألفاظ الغريبة ولكن لأن الإهتمام فيه منصب أساساً على النظم في الشعر، بحوره وقوافيه، وما لم تتوفر للناظر في (المرشد) إلمام طيب بأسس النظم في الشعر العربي وتعلُّم العروض والقوافي، فإنه لا محالة يجد فيه تلك الصعوبة الكبيرة التي يشكو منها البعض.

وعبدالله الطيب نبه لذلك في خطبته التي قدم بها (المرشد) في الجزء الأول منه فليس عليه من ملامة.

فحب الشعر والبداوة مفتاحان عظيمان في شخصية عبدالله الطيب.

وعندما كنا ندرس عليه في كلية الآداب فقد كنا في البداية نجد صعوبة كبيرة في متابعة تدفق إستشهاداته الغزيرة بالعشرات من أبيات الشعر العربي، وخاصة الشعر الجاهلي. ولكننا فطنا إلى أن انصراف همه إلى دراسة النظم وبحور الشعر وقوافيه وأن هذا هو الاهتمام الذي يستبد به، وأنه لم يكن يعبأ كثيراً لا بالمعاني ولا بالأفكار، وقليلاً ما كان يتوقف ليشرح لنا العوامل التي تشكل وجدان الشاعر الجاهلي، أو القضايا الفكرية والحياتية التي كانت تستحوذ عليه، أو البيئة التي هي مصدر الإبداع والإعجاز في تعبيره عن الحياة وعن القيم وعن المشاعر وعن الجمال، خاصة جمال المرأة، والبكاء على الأطلال، والوقوف عليها يذكر الحبيبة وفراقها، وما يجد من ذلك من صبابة وشوق، وجمال الترحال وأهمية الحرية والفخر والعزة في نفس العربي الجاهلي. وقليلاً ما كان يتوقف لشرح المفردات العربية الصعبة، وهي كثيرة جداً في الشعر الجاهلي، كما هو معروف.

فقد كان عبدالله الطيب في رحلة دائمة إلى الصحراء، وإلى بادية العرب وجزيرتهم، وفي شوق إلى ذلك الإيقاع، والنظم الفريد الذي كان العماد الفقري لعبقريتهم بين الأمم، فلم تكن للعرب حضارة ولا صناعة ولا علوم، وكان البيان والنظم والإيقاع هو العبقرية التي ميزتهم بين الشعوب والأمم، وكذلك التغني بمكارم الأخلاق، وعلى رأسها الكرم والشجاعة.

كان عبدالله الطيب لا يفتأ يرحل كل يوم إلى أسواق الشعر في بلاد العرب وإلى أسواق النظم والشعر هنالك (عكاظ وذي المجاز، وذي المجنة)، وكنت أنا لا أفتأ أرحل إلى بلاد الحكمة والفلسفة في أثينا وفارس والهند والسند، وما وراء ذلك، وأتأمل حكمة الشعوب من لدن حكماء الصين والهند والسند، وأقارن وأجادل بكل ذلك في سوق الجدل الواسع في جامعة الخرطوم آنذاك، فبينما كانت فتنة عبدالله الطيب النظم والقوافي والقصيد، كانت فتنتي الجدل في عمومه والمنطق بشكل خاص، وبينما كان عبدالله الطيب يحوّم في أقصى تخوم الإيقاع والبيان والإبداع، كنت أحاول أقصى تخوم العقل وأصول الجدل في أنواع الألفاظ وأجناسها، والموضوع وما يُحمل عليه، والجوهر والخاصة والعرض والماهية، أي كنت أنظر في الألفاظ من حيث دلالتها على الأمور الموجودة في الوضع الأول (أي في الوجود من حيث هو).

وإنما يُقال المحمول على الموضوع من حيث :

* الجـوهر
* الكمـية
* والكيفية
* الأصالـة والإضافة .
* والمكـان
* والزمان
* والوضع (فوق أو تحت)
* والملك (هذا كتابي)!
* والفعل
* والانفعال

فهذه هي أنواع التصورات الممكنة لما هو موجود[1]. فالمعرفة الإنسانية إنما في الأصل تصور، ثم هي بعد ذلك تصديق (أي أحكام وقضايا هي التي تكون مداراً للصدق أو الكذب)، وهذه هي أصول كل منطق من حيث هو (تصور وتصديق). ولذلك فالمنطق هو صنو النحو، ولا عجب في ذلك، فاللغة إنما هي مفتاح الوجود والدالة عليه ولذلك كانت الأسماء هي مفاتح المعرفة، بمعنى أنها الوسيلة والطريق الدال عليها :

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ (البقرة : ٣١)

والأسماء بعد ذلك أصناف ، فمنها :

* المتفقة ،
* والمتواطئة ،
* والمشتقة ،
* والمترادفة ،
* والمتباينة .

ومهما يكن من أمر النحو والمنطق، فهما ولا شك إخوات (أو إخوان) رضعاءُ لا يمكن لأحدهما أن يقوم مقام أخيه ، وأيهما فقدنا كان الفاجع البين الفقد (رحم الله ابن الرومي!) .

---

(١) هذه هي المقولات العشر (The Categories) عند أرسطو؟ .

ولذلك لم يكن تقاطع دروبي مع أستاذي العلامة، (وأين أنا منه، علماً وفضلاً وسعة في القريحة، وقوة في العارضة)، لم يكن هذا التقاطع يمضي بعيداً، فهو تقاطع إلى لقاء، ولقاء إلى تقاطع في تدفق دائم وجريان مستمر، فالنهر إنما يصب في البحر، وماء البحر إنما يغمر النهر بالسيول والأمطار فهذا دوران أزلي.

وإنما قصدت وصف العَلَمَ والعالِم العلامة، والخبير الفهامة، وصناجة العرب في هذا العصر، إنما وصفته بالبحر لأن البحر في طبيعته أقرب إلى العلم والعلم أقرب إلى الكلمات، والكلمات أقرب إلى اللوقوس (Logos) واللوقوس أقرب إلى الناموس (Nomos)، وهذه هي السنن، سنن الله التي تحكم الكون والعقل واللسان وكذلك النفس والاجتماع، قال تعالى:

﴿ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ (لقمان) ٢٧

وقال تعالى:

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ (الكهف: ١٠٩)

المفتاح الخامس: خلفيته الأسرية في عشيرة المجاذيب، وهم علماء صالحون من قبائل الجعليين، وهم كذلك حفاظ العشيرة ورموزها في العلم والتقوى والفضائل، وكذلك الشعر والمديح في محبة المصطفى، والقرآن الكريم الذي كان سدى الدنيا ولحمها في دامر المجذوب، هذا اللحن الخالد، ظل يحدو عبدالله الطيب ويدندن في أعماقه في طوال حياته وعرضها مهما تقلبت الأيام واختلفت البلدان:

أيا دامر المجذوب لا أنت

قرية بداوتها تبدو ولا أنت بندر

وأما بدواة عبدالله الطيب، فليست في معنى البداوة التقليدي، بمعنى الخشونة وإيثار حياة البادية على حياة الحضارة والعلم والفنون، فقد كانت شخصية عبدالله الطيب أبعد ما تكون عن تلك المعاني، فقد كان أنبل الناس، وأحلى الناس، وأكثرهم رقة ولطفاً ومحبة لحياة الأنس والتأمل والإيقاع، ومحبة الجمال في كل آفاقه، وكذلك جمال النفس والخلق ومكارم الأخلاق.

فلقد عاش عبدالله الطيب الحياة الغربية، وسبر أغوارها وعرفها كما لم يعرفها أحد من

السودانيين ، ولا أقصد مظاهر الحياة في المدن الغربية الكبرى ولكن معرفته بالفكر الغربي وبالآداب والفنون الغربية وبالشعراء الغربيين أمثال :

* شكسبير
* تي . اس . إليوت
* توماس هاردي
* لورد بايرون
* وودورث
* وكيت
* وليم بلبيك
* وشيلي وغيرهم كثير

ولقد بين كيف كانت إقتباساتهم من الشعر العربي ، وكيف تأثرو بالجاهليين من أمثال :

* أمريء القيس
* وذي الرمة
* ولبيد بن ربيعة العامري وغيرهم من الشعراء في عصر الإسلام!

المفتاح السادس : لا يوجد أدنى شك أن القرآن الكريم كان هو المفتاح الرئيس لشخصية البروف عبدالله الطيب ، وإنه كان يتلو الكتاب المعجز ، آية الآيات ومعجزة المعجزات ، في بيانه وبلاغته وجمال أسلوبه الذي يأخذ بالقلوب والوجدان آناء الليل وأطراف النهار .

قال تعالى : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (الحشر : ٢١) .

وقال تعالى :

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الاسراء : ٨٨) .

وهو المعجزة الخالدة والتحدي الأعظم الماثل للكافرين والمنافقين في كل العصور والأزمان أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فلم يستطعوا ، وأنى لهم ذلك ! !

والبروف عبدالله الطيب تيقظ عقله وحواسه ووجدانه جميعاً ، منذ نعومة أظافره على إيقاع القرآن الكريم وهو يدخل عليه من كل أقطار نفسه ، هذا القرآن الندي الجميل الساحر ، هو أعظم ورثة ورثها . . من أجداده وجيرانه وأقاربه ومن المسجد . . وقبل كل

أولئك من ذلك الوالد الحبيب، ذي الصوت الندي، يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار، وخاصة في السحر من الفجر. "إن قرآن الفجر كان مشهوداً". فلا شك عندي أبداً أن القرآن الكريم هو أكبر مؤثر في شخصية عبدالله الطيب، ولكن السؤال هنا: هل حفظ عبدالله الطيب القرآن كله وهل كان راسخاً في هذا الحفظ؟!

لا أشك أن عبدالله الطيب قد حفظ القرآن الكريم كله في فترة من حياته!! ولكن هل استطاع عبدالله الطيب الحفاظ على هذا الحفظ في كل مراحل حياته؟! على كل حال، لم أشهد عبدالله الطيب يؤم الناس في الصلاة، في الكلية ولا مرة واحدة ولا شك أنه كان يصلي منفرداً في مكتبه، ولذلك لا أكاد أذكر أنني سمعته يقرأ القرآن تالياً إياه في الصلاة. وعبدالله الطيب يقول إن صوته ليس ندياً في ترتيل القرآن الكريم كنداوة صوت أبيه. وذكر أكثر من مرة، أنه لم يكن يتبع نظام التسميع السائد في الخلوة، بدامر المجذوب. وعبدالله الطيب يسخر من أسلوبه في حفظ القرآن وتسميعه ويقول إنه أسلوب غير منظم وفوضوي، يقصد أنه لم يكن يلتزم بالطريقة التي كان الحيران يتبعونها في حفظ القرآن في الخلوة: يقول عبدالله الطيب في ذلك[1]:

"لا أدري كيف صرت إلى شرافة سورة محمد، ولا شرّفت (الرحمن) ولا (تبارك) قبلها. كنت فوضوياً، كأنما أثب وثباً: (الدّخان)، (يس): أذكر لوحي في (يس) ولكنني لا أذكر شرافتي لها!؟؟ لا أذكر (ص) ولا (الصافات)..".

ولا شك أن هذه الفوضوية في منهج الحفظ للقرآن عند عبدالله الطيب، هي التي جعلت زميله في الخلوة، الأستاذ محمد أحمد الهواري، يحتج عليها احتجاجاً شديداً، قائلاً[2]: "قرايتك دي قراية جن في جن".

ويذكر عبدالله الطيب أنه دارس زميله محمد أحمد الهواري في حفظه من البقرة وإلى سورة الأعراف. وهذه المدارسة لم تقنع زميله، فيما يبدو ولذلك قال له.

المفتاح السابع: من المفاتيح المهمة فى حياة عبدالله الطيب، التصوف. فقد كان البروف شديد التأثر بأهله وشيوخه من المجاذيب، وبشكل خاص كان شديد التأثر بوالديه - عليهما رحمة الله الواسعة.

وكان والد عبدالله، كما ذكرنا - أميل إلى الختمية والشاذلية، على خلاف عموم

---

(١) عبدالله الطيب: من حقيبة الذكريات. ص ١٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٩.

المجاذيب الذين كانوا أنصاراً للمهدي من الذين بايعوه في قدير، وقاتلوا تحت أمراء المهدية وبعضهم استشهد كما رأينا - وبعضهم أخذ أسيراً في النجومية!

هل كان عبدالله الطيب أميل إلى الأنصار أم إلى الختمية؟ لا أعرف على وجه التحديد، وعلى طيلة صحبتي عبدالله الطيب طالباً وزميلاً في كلية الآداب، لم تجيء مناسبة توضح إلى أي الاتجاهات والطرق الصوفية، كان يميل، غير أنه ذكر أن والدته (عائشة) رحمها الله كانت أقرب إلى الأنصارية أما جدته الرباطابية "بخيتة" فقد كانت أميل إلى الختمية.

ومهما يكن من أمر إنحياز عبدالله إلى هذه الطائفة أو تلك وهذه الطريقة أو غيرها، فقد كان عظيم التأثر بالجو الصوفي حوله، مندمجاً فيه أشد الاندماج، يحفظ كثيراً جداً من أذكار السادة الصوفية، ختمية وشاذلية وغيرهم، كما كان يحفظ الكثير المثير من مدائح المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وخاصة مدائح الشيخ محمد المجذوب، والشيخ محمد البوصيري وعبدالرحيم البرعي - كما ذكرنا - وكثيرين غيرهم، ابتداء من قصيدة كعب بن زهير بن أبي سلمى المشهورة (البردة الأولى):

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يفد مكبول

التي أعجب بها الرسول، صلى الله عليه وسلم أيما إعجاب، فقام من مجلسه إلى حيث كان يجلس كعب بن زهير وألبسه بردته الشريفة. من هنا كانت "بانت سعاد" هي البردة الأولى التي نسج على منوالها البرعي والبوصيري ومئات من شعراء المدائح من بعدهم، تأليفاً أو تشطيراً!

على أن صوفية عبدالله الطيب، لم تكن في جوهرها صوفية روحانية بحتة.. نعم كانت روحانية قلبية وجدانية بلا شك، ولكنها كانت أقرب إلى التصوف العقلاني السني، يخلو من تلك العاطفة المشبوبة، كما يخلو من الشطحات التي أودت بحياة بعض رجال التصوف كالحلاج وغيره.

المفتاح الثامن: هو زوجته الوفية جيرزيلدا وحبه لها فلاشك أن جريزيلدا، (ومعناها الجوهرة) لاغرو أنها (عندما أسلمت) أسمت نفسها "جوهرة"، لعبت دوراً أساسياً في إظهار عبقرية عبدالله الطيب، وساعدت كثيراً في توفير الحنان والأمن النفسي والأنس، وهيأت البيئة الصديقة والمرفأ الهادي المطمئن لعبدالله منذ زواجهما في الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن العشرين. "فجوهرة" سيدة إنجليزية غير عادية، تمور بالحيوية

والنشاط، وتحمل بين جنباتها قلباً كبيراً، وعقلاً كبيراً، وتلك الثروة الفكرية والوجدانية والبدنية التي تميز "الإنجليز" كشعب فعال، يملك موارد هائلة في الفكر والشعور والحركة. فهي شخصية فعالة مليئة بالحركة. زاخرة بالفكر والوجدان الموار، وذلك الأنس والحوار والكلام الحلو العذب الذكي، الذي لا يكف ولا يصمت، ولا يسكت عن الكلام المباح، كما كانت عادة شهر زاد. فهي تدرك حاجة البروف عبدالله الطيب إلى الكلام الذكي المرح الجميل، كما تدرك تقديره للكلام الجميل والحوار المشع، فذاك غذاء عقله وروحه الموارين، الذي لا غنى له عنه آناء الليل وأطراف النهار، خاصة، وقد قاسى منذ فترة مبكرة جداً في حياته مرارة الفقد والوحشة، إذ اختطف القدر معظم أفراد أسرته المقربين منذ نعومة أظفاره، كما أسلفنا.

ويبدو أن عبدالله بعد أن تعرف على تلك الشابة الإنجليزية (جريزيلدا أي الجوهرة)، صادفت منه إستعداداً للمحبة والوداد، ولحب ليس بالواني.

ففي قصيدته الرائعة (شكوى وعزاء) التي كتبها ١٩٥٥م، أي بعد وفاة شقيقته في عام ١٩٤١م، نراه يشير إلى المعاني العميقة والمحبة الروحانية التي كانت تربطه بجريزلدا (أي الجوهرة)[١]:

مضى الزمان وقد عدنا إلى وطن
فلم نجد غير تثبيط وإيهان

وعقنا النيل إذ يروي بسلسله
وغلُ العزيمة ذو زيف وبهتان

لولاك أنت لكان العيش أجمعه
سحابة من حميم آسن آني

نصرتني حيث لا خل ألوذ به
وحين خان ذوو ودي وأعواني

فكيف أجزيك إحساناً بكفران
هيهات حتى يضم القبرُ أكفاني

آويتني حين لا قربى ولا نسب
إلا الوداد وحبٌ ليس بالواني

---

(١) أصداء النيل (شكوى وعزاء) صفحة ٢٠٤.

وحطتني منك بالعطف الجميل فقد
رفت بزهر الرضا والبشر أغصاني
لك التحيات أهديها وتكرمة
من الفؤاد وموموقات أوزاني
فأبقي على الود إني سوف أحفظه
على الليالي وإن همت بطغيان

وفاء عبدالله الطيب لجريزيلدا (زوجته) ووفاؤها له :

ولقد شهدنا وشهدت الأيام، أن عبدالله الطيب ظل وفياً مخلصاً لزوجته (جريزيلدا)، فلم يتزوج عليها ولم يتخذ غيرها حبيباً أو صديقاً، برغم أنها لم تمنحه الولد، وظل أهله يصرون عليه بالزواج من أجل الذرية، حتى "ضم القبر أكفانه" والحقيقة أن شخصية (جريزيلدا) شخصية فذة نادرة، جوهرة ثمينة غالية، فلقد استطاعت أن تمنح عبدالله الطيب جل ما يحتاجه الرجل العبقري الموهوب من سكينة ومودة ورعاية شاملة، لم أر إمرأة كانت تحيط زوجها بالحب والأنس، وبالمودة والرعاية الرؤوفة الرحيمة الواعدة الذكية، كما كانت (جريزيلدا). كانت تحيط به وبحياته الخاصة والعامة، كما يحيط السوار الجميل بالمعصم، ليست حياته وحدها، فقد امتدت رعايتها إلى رعاية أسرته الخاصة، أخواته وأبنائهن وبناتهن الذين كان عبدالله يحبهم بديلاً عن ذريته التي لم ينجبها، بل امتدت رعايتها إلى أسرته الكبيرة وعشيرته الواسعة، فكانت تذهب معه إلى دار المجذوب، التي هي أقرب إلى القرية بذاوتها بادية (بالرغم من بيت عبدالله بخلاف ذلك) بل وكانت تذهب معه إلى الدامر الغربي في (التميراب)، وهي قرية موغلة في الريف الشمالي غرب النيل وهي ضاحية أم الطيور، موطن آل أمام، ولقد عاش كاتب هذه السطور في أم الطيور الجنوبية (كانت قديماً تسمى الدبيبة)، وكانت حقاً غابة غناء في ذلك الزمان من طفولتي، في أواخر الأربعينيات من القرن المنصرم، يمشي فيها المرء لأميال لا يكاد يرى فيها ضوء الشمس، وكانت بحق (أماً للطيور) فالمرء كان يرى فيها من أنواع الطيور البديعة الصداحة بألوان من الألحان والموسيقى الرائعة، وأطياف من الألوان الزاهية الغريبة مالا يرى في غيرها من القرى والبلدان، وأغلب الظن أن معظم تلك الطيور كانت طيوراً مهاجرة من أوطان بعيدة، كانت تتخذ من "أم الطيور" ملجأ وجنة وملاذاً، إذ

كانت أم الطيور في تلك الأيام الخالية، قليلة السكان آمنة هادئة ساكنة، فكانت لذلك جُنّة وملاذ لتلك الطيور التي كانت تزورها في الصيف وفي الشتاء خاصة.

تأقلمت (جريزيلدا) اللندنية على الحياة السودانية تماماً، وكانت تتزين كالسودانيات بالحناء وبغيرها، وكذلك تأقلمت على الونسة السودانية، وبالعامية المعروفة في شمال السودان الأوسط.

مرة كنا نناقش البروف عبدالله الطيب، في رأيه الذي يدعو إلى فصل جنوب السودان عن شماله، ويصر بشدة بأن ذلك هو الحل الوحيد لمشكلة جنوب السودان المزمنة، هنا فوجئنا جميعاً بـ (جريزيلدا) تدخل في النقاش وبالعربية العامية (الدارجة) قالت:

- "مشكلة جنوب السودان دي مش حتحل، ولا الجنوب سوف ينفصل، فالجنوبيون هم معكم دائماً ولن يتركوكم (هم سيك.. سيك معلق فيك) كما يقول المثل السوداني، فضحكنا وانحل المجلس.

قلت إن (جريزيلدا) كانت تحيط بحياة عبدالله الطيب من جميع أقطارها، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياته الخاصة والعامة كذلك.

فعندما تطرق باب منزل عبدالله الطيب العامر في ضاحية بري ضمن مساكن أساتذة جامعة الخرطوم، تكون هي أول من يستقبلك على الباب قائلةً:

(تفدلوا.. تفدلوا.. عبدالله موجود).

وتُجلس الزائر في المجلس الأنيق ويلتفت حوله، فإذا لمسات (جريزيلدا) الفنانة الرسامة في كل مكان، في اللوحات على الحائط، وفي الفرش الذي تجلس فيه ونوع السجاد والألوان والإتيكيت، وباختصار في كل شيء، فهي هنالك في ذلك المنزل حيث ما يلتفت، ثم هي بعد ذلك حاضرة بشخصها وروحها وعقلها ووجدانها، وسرعان ماتأتي بالضيافة، المشروبات والشاي والقهوة وبسرعة شديدة وحرارة ودفء، كما يفعل السودانيون عندما يستقبلون الضيف بالترحاب وبالدفء وبالضيافة العاجلة غير الآجلة. ثم تأتي وتجلس في المجلس تشارك بالكلام وبالتعليق في كل موضوع يطرق، وباللغة العربية الفصيحة منها وبالعامية، وهي تعرف المجتمع السوداني جيداً، الوسط الأكاديمي، والسياسي والإقتصادي وكذلك الوسط الدبلوماسي والسياسة الداخلية للحكومة وكذلك الخارجية.

هي إنجليزية (English) بكل ما تحمل الكلمة، وخاصة تلك الحيوية والثراء

(Resourcefulness) الذي يميز الإنجليز، والذكاء وحب الأنس والسمر وحب الجديد والمخاطرة وحب النجاح وإشباع الذات وإرضائها (Self-fulfillment) وحب الحياة الواسعة الجميلة الثرة، كل ذلك تضفيه (جريزيلدا) على مجلس البروف، الذي هو عامر بنفسه، بغناء العلم واللغة والشعر والموسيقى والتاريخ والعلوم كلها، علوم الشرق والغرب، وعلوم الفرنجة، خاصة الأدب الإنجليزي.

فلقد عَرَفَ عبدالله الطيب الغرب وحياة الغرب وعلوم الغرب وحضارته وآدابه، كما لم يعرفها أحد من السودانيين قديماً وحديثاً، وكان في ذلك "فلتة"، كما كان "فلتة" في علوم العربية والإسلام.

كانت (جريزيلدا) لا تكتفي بتزيين حياة عبدالله الخاصة وإضفاء الكثير عليها حتى الألوان والأصوات والأضواء، والفكر والسلوى، ولكنها كانت تفعل ذلك بحياته العامة كذلك.

كانت تأتي معه إلى المكتب يومياً، لا تكاد تتغيب أبداً سواء عندما كان عميداً لكلية الآداب، أو مديراً لجامعة الخرطوم، وكانت تفعل بأثاث المكتب المتواضع في عمادة كلية الآداب الأفاعيل، فتغير النظام وتبدل ألوان الأقمشة والستائر، فيصير كل ذلك صبغة إنجليزية زاهية جميلة، وكذلك كانت تفعل بمكتبه ومنزله عندما صار مديراً لجامعة الخرطوم، وبما أنها كانت فنانة رسامة، فهي لا تنسى أبداً الجدران، فتزينها باللوحات الجميلة الأخاذة، وكنا لا يفوتنا شيء من ذلك نلاحظه بالإعجاب، ونشارك في الاستمتاع بالألوان والجمال، وترتاح نفوسنا (لجريزيلدا) ونرضى منها ما تُضفيه على حياة البروف العزيز الغالي، ولا غرو في ذلك إذ كنا نودها من ودنا لأستاذنا عبدالله الطيب، ولم يكن عبدالله الطيب أستاذاً لنا فحسب، بل كان قريباً ونسيباً وحبيباً ووالداً، وكنا نزوره بحرية وبلا مواعيد في منزله العامر أولاً في حي المطار، وثانياً في بري، فنسعد أيما سعادة بوده وضيافته وبتلك الأحاديث الحبيبة العجيبة العبقرية التي كانت أشبه بالألحان الحلوة الندية، علماً وشعراً وجمالاً وامتاعاً وغرابة، وكان عبدالله الطيب عربياً بدوياً في كرمه إذ كان يخدمنا على إجلالنا له، وعلو مكانته في قلوبنا، كان يخدمنا بنفسه، وكان يفعل ذلك بمودة عجيبة وفي كثير من الأحيان كان يخدمنا (حافياً) وكان لذلك وقعاً عميقاً في سويداء القلب وفي صميم حياتنا محبة وإجلالاً وكرامة. كانت تربطني بعبدالله الطيب روابط كثيرة كما قلتُ:

(١) أولاً : رابطة القربى : فقد كان كلانا ينحدر من أم الطيور ، من قبيلة الجعليين ، كان هو من المجاذيب شيوخ الجعليين وسادتهم في العلم والدين والمجاذيب هم فخذ من فخذان الشاعيناب (من شاع الدين) عميدهم . وأنا من آل إمام ينتسبون إلى الملك عبدالدائم إبن الملك عدلان إبن الملك عرمان ، ملوك أم الطيور (أول مملكة للجعليين في الدامر الغربي) والملك عدلان هو أخ لكل من المكوك ، مُسلَّم والأخوان مكابر وشاع الدين وزيد وعلي وغيرهم وأظنهم أكثر من سبعة أخوان تسمى بهم بطون قبيلة الجعليين إلى اليوم .

(٢) وثانياً : نحن ننتمي إلى نفس البيئة في الشمال الأوسط ، أم الطيور ، الدامر ، بربر ولقد درست في نفس المدرسة الوسطى التي تخرج فيها عبدالله الطيب (مدرسة بربر الأميرية الوسطى) التي بناها اسماعيل باشا ولد محمد علي باشا ، من أوائل المدارس الوسطى التي بنيت في السودان .

(٣) ثم كانت تربطنا محبة التراث العربي الإسلامي ومحبة المصطفى (ﷺ) فقد شارك عبدالله مع المستر جولوم (Guillaume) في ترجمة سيرة ابن هشام إلى الإنجليزية . وكان هو الذي اشار علي بكتابة سيرة المصطفى (ﷺ) باللغة الإنجليزية ، ولقد وفقني الله سبحانه وتعالى في ذلك فكتبت أربعة كتب بالإنجليزية في فقه السيرة كما ذكرت آنفاً .

وحقيقة فقد كان هنالك أكثر مما أستطيع التعبير عنه بالكتابة ، " الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها إئتلف وما تنافر منها اختلف " أو كما جاء في القول المأثور ، فقد كان هنالك توافق وجداني وروحي كبير يربطني بعبدالله ، إضافة إلى علاقة الطالب المجتهد ، بالأستاذ المرموق العبقري ، فقد كنت الأول في كلية الآداب ، في السنة الثانية (The Inter-mediate) ونلت جائزة شل لأحسن أداء أكاديمي ، وكنت كذلك الأول في السنة النهائية ، خامسة شرف فلسفة ورياضيات ، وكذلك نلت جائزة جامعة الخرطوم لأحسن أداء أكاديمي في السنة النهائية لكلية الآداب .

مهما يكن من شيء ، فالحديث ذو شجون وكلامي عن دور (جريزيلدا) في حياة عبدالله الطيب كثير جداً ، ويمكن أن يخصص له كتاب خاص في ذلك فلقد كان تأثير (جريزيلدا) على حياة عبدالله الطيب كبير جداً ، إذ كانت عاملاً كبيراً في إنجازاته الهائلة وفي تحقيق النبوغ والموهبة التي كانت كامنة في نفس عبدالله الطيب ، وربما هيئت له أسباب

الراحة والأمن والطمأنينة ، والسكينة والمودة ، ويقولون أن من أسباب النبوغ و التفوق البيئة المحبة الآمنة ذات المرافق ، وكل ذلك كانت مما هيأته (جريزيلدا) لعبدالله الطيب ، إضافة إلى أنها كانت تشارك في مؤلفاته المشهورة للطلاب في بخت الرضا بالرسوم المعبرة والألوان والأشكال ، وهكذا انطبق المثل العربي على كل من عبدالله الطيب (وجريزيلدا) (وراء كل عظيم إمرأة عظيمة) .

ولم تكن (جريزيلدا) مجرد إمرأة ، وإنما كانت مفكرة وشاعرة وفنانة إنجليزية من الطراز الأول ، ولا عجب أن منحتها ملكة بريطانيا وسام (العضو في الإمبراطورية البريطانية) : (Member of the British Empire) (The M. B. E.) .

ولا أستطيع أن اختتم هذا الجزء الخاص بتأثير (جريزيلدا) على عبدالله الطيب إلا بذكر صلة (الحارس الحلفاوي) بتلك الأسرة الكريمة ، فقد كان نعم المرافق المحب الأمين لها ، وكذلك كان تبن (الزغاوي) ، ولا زالت صورة (جريزيلدا) وهي تجلس أمام مكتب عبدالله الطيب إلى جوار (الحارس الحلفاوي) عندما يكون عبدالله الطيب في اجتماع مجلس كلية الآداب عالقة في ذهني ، فقد كانت جريزيلدا تجلس على الباب أمام المكتب مع الحارس ، حتى ينتهي الاجتماع ، ثم تدلف إلى المكتب ، منتهى الوفاء ومنتهى المودة والرعاية .

المفتاح التاسع : حبه لأسلوب الحياة البريطانية .

وأحد أبرز مفاتيح شخصية عبدالله الطيب حبه لأسلوب الحياة البريطانية والإنجليزية خاصة وليس في ذلك شك ، فمازلت أذكر أنه كان يرتدي (الرداء) أو الـ(Short) حتى وهو قد تقدمت به السن وكان عميداً لكلية الآداب بجامعة الخرطوم ، وكنا نستنكر ذلك ولكننا لم نكن نجرؤ على البوح به .

ولكن المسائل الأكثر جوهرية هو أن عبدالله الطيب كان يحب الجوانب المشرقة في أسلوب الحياة الإنجليزية : The English Life-Style

فلقد عرف الإنجليز بكثير من الصفات الإيجابية التي بها سادوا العالم ومنها :

* العقلانية الصارمة المفرطة ، وكذلك الروح العلمية الموضوعية .
* ضبط النفس والصبر وتوخي الصدق في المعاملات وفي الأخلاق الشخصية .
* النشاط وحب العمل والإندماج فيه لساعات طويلة مع الصبر على الأعمال الفكرية والذهنية الصعبة والاهتمام البالغ بالتفاصيل الدقيقة .
* الجلد والصبر في المواقف الصعبة .

* حب الوطن والمملكة والعلم الإنجليزي The Union Jack .
* حب اللغة الإنجليزية والثقافة الإنجليزية والعمل على بثها في العالم .
* حب المخاطرة والتغلب على الصعاب والتحديات .
* حب الحياة الكريمة والسعة في المال وتنوع الحياة وثرائها .
* الشجاعة الأدبية والجسمانية والجلد في الحروب والمعارك .
* الدهاء والحيلة الواسعة : "This will do the trick" .
* الخيال الواسع والقدرة الكبيرة على الإبداع والابتكار وحل المشكلات (very in-novative, and very creative) .

لقد كان عبدالله أعرف الناس بخصال الإنجليز الإيجابية ، وأكثر الناس إعترافاً بها وتقديراً لها . ولا غرو في ذلك فقد كانت هنالك عوامل كثيرة ، تضافرت في حياته فجعلته محباً للثقافة الإنجليزية ، وأهمها :

١) زوجته وحبها وإخلاصه لها كما ذكرنا آنفاً ، وكذلك العشرة الطويلة معها التي امتدت لما يقارب نصف القرن من الزمان .
٢) دراسته الطويلة في كلية غردون التذكارية ثم في جامعة لندن وتدريسه في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية School of African and Oriental Studies (SAOS)
٣) معايشته للثقافة والأدب الإنجليزي ودراسته المتقنة له ويظهر ذلك جلياً في نقده للشعراء الإنجليز وكشفه للنواحي التي تأثروا فيها بالأدب العربي والشعر العربي .
٤) كان عبدالله الطيب يسافر كل صيف إلى بريطانيا ويجلس هناك الصيف كله .
٥) وكانت صلة عبدالله الطيب بالمجلس الثقافي البريطاني بالخرطوم وثيقة جداً .

عموماً كانت غالبية النخبة السودانية المثقفة أقرب إلى حب الإنجليز من كراهيتهم ، وذلك طبيعي ، التأثر بالثقافة الإنجليزية ، ولأن المثقفين لا ينسون فضل أساتذتهم من الإنجليز ، وبعضهم كانوا أهل علم وأدب وخلق وفضل كبير . ولقد ذكر عبدالله الطيب جملة منهم في كتابه "من حقيبة الذكريات" ومن منا لا يذكر بعض أساتذته من الخواجات بالفضل والعرفان!

ومن ناحية عامة فالبعض يرى أن الشخصية السودانية تتناقض وتتصادم مع الشخصية

الإنجليزية خاصة، ولكنني لا أرى ذلك : فالشخصيتان تتفقان في بعض السمات والخصائص الرئيسة برغم الخلاف في غيرها :

١) فلقد عُرف السودانيون بالشجاعة واعترف لهم بذلك الأعداء قبل الأصدقاء (انظر اعترافات تشرشل - رئيس وزراء بريطانيا الشهير إبان حملة كتشنر في كتابه (حرب النهر) (The River War) . (والذي تشرف البروف عبدالله الطيب بتقديم عبدالله محمد سليمان له). وكذلك عُرف الإنجليز خاصة بالشجاعة والبأس والخديعة في الحروب، وبذلك استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على معظم أرجاء الأرض، في القرنين التاسع عشر والعشرين حتى وصفت الإمبراطورية البريطانية بأنها الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس.

٢) عُرف السودانيون بالصبر والموضوعية، وكذلك الإنجليز.

٣) عرف عن السودانيين - عموماً - كراهيتهم للغش والكذب والظلم، وهي ذات الصفات التي تميز الشعب الإنجليزي عموماً.

٤) وعُرف عن السودانيين حبهم لقيم الوفاء للوطن وللأهل والعشيرة، وكذلك الإنجليز في حبهم للعلم الإنجليزي وللقومية الأنجلوساكسونية وللغة الإنجليزية.

٥) وعُرف السودانيون بحب العلم وتوقير العلماء، وكذلك الإنجليز، وما ساد الإنجليز العالم إلا بالعلم والمعرفة.

٦) وعُرف السودانيون بحب البساطة والطبيعة وكذلك الإنجليز.

هذه بعض الصفات الأساسية التي تتفق فيها الشخصيتان السودانية والإنجليزية، ولا تتصادم أو تتناقض، ولكن بالطبع هنالك صفات أخرى تختلف فيها الشخصيتان :

١) عرف عن الإنجليز حبهم للعمل والمثابرة الكبيرة في ذلك، ولكن يقال عن السودانيين أنهم لا يصبرون كثيراً على الأعمال الصعبة، ولا يحبون العمل اليدوي أو البدني الشاق، ولا أدري إن كان هذا صحيحاً أم لا. فالمزارع السوداني يعمل من أول النهار حتى آخره، والسودانيون في خارج السودان قد أثبتوا جدارة كبيرة ونجاحات عظيمة في شتى المجالات .

٢) يمتاز السودانيون بالكرم الشديد وكذلك التكافل، ويحفظ للبريطانيين أن لهم نظام للتكافل الإجتماعي وذلك هو نظام الفوائد الإجتماعية (Social Benefits) في حالات التبطل أو الشيخوخة أو العجز عن العمل.

٣) يعرف عن السودانيين إعتزازُهم بأصولهم العرقية وبالشَرف والعِرض . وكذلك كان الإنجليز في العصر الفكتوري ، على عهد الملكة فكتوريا ، ولكن هذه القيم اهتزت بعنف في العصور الأخيرة في بريطانيا والغرب عموماً ، وخاصة في القرنين العشرين والحادي والعشرين .

٤) عرف عن السودانيين الأدب والتواضع وعدم تحبيذ الإعتداء على الآخرين ، ولكن الإنجليز لهم نعرة عنصرية قوية ، ولهم تعالٍ على باقي الشعوب واعتزاز شديد واستكبار بالعرق الأنجلوساكسوني ، وكذلك بالحضارة البريطانية ، ولقد اعتدوا على كثير من شعوب الأرض ، وأذلوهم واستعمروهم بقوة الحديد والنار ، وكان لهم إسهام كبير في استرقاق ملايين البشر من القارة الأفريقية السمراء في القرون الثلاثة الماضية ، وأسسوا مجدهم على قهر الآخرين وظلمهم ونهب ثرواتهم ، وإن كانوا يزعمون أنهم يحملون في ذلك مهمة حضارية .

وفي شخصية عبدالله الطيب حب للإنجليز ولكنه حبٌ في حدود فهو لا يُعلي من شأن الحضارة الغربية أو الإنجليزية على الحضارة العربية الإسلامية ، انظر إليه كيف يعبر عن فخره واعتزازه بآداب العربية وبالشعر العربي خاصة ، مقارنة بالآداب الأوربية عامة وبالشعر الإنجليزي خاصة يقول عبدالله الطيب في ذلك :

" هذا وقد قلبت نظري في كثير من الدواوين العربية والإنجليزية ، واستقر في نفسي – بعد الموازنة – أن الشعر العربي ليس كمثله مما قرأته في الإنجليزية شيء ولا شعر شكسبير " .

هذا الافتخار بالشعر العربي وبالثقافة العربية الأصيلة لم يمنع عبدالله الطيب من إبداء الحب والإعجاب بالحضارة الإنجليزية ، ففي قصيدته " لندن " قال :

أيا خليَّ هل دمعك ... من لندن هطال
ففي لندن من نفسك ... يا ابن النيل أطلال
وكم شاقك من لندن ... أبكار وآصال

وإذ يسمر في الحانة

يوم السبت عمال

ومقهى بالشباب المرح

الأعطاف مثنهال[1]

وذاك المسرح العامر

فيه الفن يختال

فدمع العين في الخرطوم

من جفنك همال

غريب أنت في الخرطوم

لادار ولا مال

عسى تسعدك الأيام

إن العيش آمال[2]

فهذه لندن، موارة بالنشاط والحيوية وبالشباب المرح، العظيم الجمال، وهذه الحياة الثقافية الثرة، وهذه المسارح والفنون والآداب والأضواء والألحان، ومن منا من الذين درسوا في بريطانيا وأقاموا في لندن سنوات، لم تبهرهم في باديء الأمر هذه الحياة الإنجليزية الموارة الصاخبة الجذابة، وهذا الاستقلال والحرية والجمال والشباب وهذا البهرج والأضواء؟؟

وما أكثر ما خابت الآمال عند عودة الشباب السوداني المثقف إلى الخرطوم، يحدوه الشوق إلى الأهل والعشيرة، ويروم الإسهام في خدمة الوطن، ولكنه يفاجأ بالعجز وحتى اليأس ويكون لسان حاله لأول وهلة:

غريب أنت في الخرطوم

لا دار ومال

وهو إحساس مرير جداً، تجرعنا مرارته جميعاً عندما عدنا من أوروبا والولايات المتحدة نحمل أعلى المؤهلات، فيصبح الصبح، (فلا مال ولا دار)، على الأقل كان لذلك الشباب مال ودار في بلاد الغرب، ولكنه تخلى عنها ليعود ليخدم الوطن، وكان حول

(١) أي أهل (ملان).
(٢) أصداء النيل، صفحة ٩٢.

المفاجأة أن الوطن (لا خيل عنده يهديها ولا مال" ولا حتى كلمات طيبة يهديها، كما قال الشاعر العربي (المتنبيء):

لا خـــيل عندك تهـــديهـــا ولا مـــال

فليـسـعـد النطق إن لم يسـعـد الحـال

ولذلك نرى هذه الطيور المهاجرة إلى الوطن، يحدوها الشوق والأمل في الإسهام والمشاركة، سرعان ماتعود إلى أدراجها، تعبر عنهم قصيدة عبدالله الطيب (إلى لندن)، وفي قصيدته الأخرى (مزدوجة في نعت لندن) يفصح عبدالله الطيب عن إعجابه الشديد بالحياة في لندن، وخاصة ظاهرة قطار الأنفاق (التيوب The Tube):

أمـــا ترى لندن والتـــيـــوبا

يجـــعل كل نازح قـــريبـاً

خـــيـــوطه كـــأنهـــا العـــروق

فـــيـــهـــا الحـــيـــاة والدم الدفـــوق

إن ذكـــروا الصـــرح وســـور بابل

وافـــتـــخـــروا ببـــرج بيـــزا المـــائل

والهـــرم الأكـــبـــر عند الجـــيـــزة

شـــيـــده العـــزيز والعـــزيزة

فـــإنه عـــجـــيـــبـــة العـــجـــائب

يعـــجـــز عن وصـــفـــه كل كـــاتب

لندن قـــد أبدع فـــيـــك لام

فـــحظ مـــثلي العيّ والإفـــحـــام

يا فُـــرضـــة البـــحـــر وعـــزّ الأرض

ويا مـــدينة الجـــمـــال المحض

فـــهـــل رأيت الطرف الأغـــرا

وقـــائمـــاً أبلج مـــشـــمـــخـــرا[1]

---

(١) الاشارة هنا إلى تمثال (نلسون) القائد الإنجليزي الذي هزم نابليون في معركة (ووترلو) البحرية الشهيرة!! .

مــاشــئت من إبداع شــاكــســبــيــرا

في مـــثل (هـمليت) ومـــثل (ليـــرا)

هـذا هـو الـفـن وهـذا الـشــــعــــــر

فـــيــا لقــومي جــهــلوا لـم يدروا

ولاشك أن هذا الإعجاب والانبهار، إنما يعكس مرحلة الدهشة الأولى، عندما زار لندن لأول مرة، وكذلك حال الانبهار الأولي بالحضارة الإنجليزية، ولكن عبدالله الطيب قد انتهى إلى الفخر بقومه وبالثقافة العربية وبالشعر العربي، كما رأينا - وانتهى إلى أن الشعر العربي لا نظير له في أشعار الإنجليز والعالم قاطبة.

ومهما يكن من شيء، فإن إعجاب المرء بتراثه الثقافي والحضاري، لا يمنعه من تذوق ثقافات أخرى، وحضارات أخرى. ولقد استقر الحال أخيراً بعبدالله الطيب في الخرطوم، وصار له فيها دور وأموال، وحياة عريضة في رئاسة جامعة الخرطوم ومجمع اللغة العربية فيها، كما صار له تلاميذ وأحباب بالآلاف المؤلفة، وأُعطي أعلى الأوسمة ومنح جوائز نفيسة وكبيرة، وأخيراً نال جائزة الزبير محمد صالح التقديرية وهي أعلى الجوائز قيمة مالية وأدبية في السودان. وكذلك كُرم أخيراً ونال جائزة الملك فيصل في الدراسات الإسلامية، وهي جائزة عالمية رفيعة، كما أن قيمتها المالية كبيرة جداً، فلم يعد يشتكي من الخرطوم ولم يعد يستطيع أن يقول عن نفسه:

غـــــــريـب أنـت فـي الخـــــــرطـوم

لا دار ولا مـــــــــــــــــــال

وعندما توفيّ عبدالله الطيب في يونيو المنصرم لعام ثلاثة وألفين ميلادية، سار في جنازته أكثر من ثمانين ألف من المسلمين، على رأسهم رئيس الجمهورية ومعظم الوزراء وكبار القوم وجماهير الشعب السوداني، وليس لمثل هذا من يقال عنه أنه في الخرطوم غريب لا دار ولا أهل ولا مال!!.

جدلية الأدب العربي والأدب الإنجليزي عند عبدالله الطيب:

قلنا إن عبدالله الطيب يعرف الأدب الإنجليزي معرفة مطلقة، وإنه يتكلم الإنجليزية كما يتكلمها جهابذة العلماء والكتاب والمفكرين الإنجليز، وأنه يتذوق الشعر الإنجليزي بصورة كبيرة جداً، لذلك تجده ينتقد كبار الأدباء والشعراء الإنجليز، وحتى وليم شكسبير لم يسلم

من نقده وغمزه ولمزه ، ففي مقدمة ديوانه ((أصداء النيل)) يقول عن الأديب والشاعر الإنجليزي العظيم شكسبير :

(غير أني آخذ على الشعر الإنجليزي ، التطويل وضعف النغم وكثرة التفصيل والتفريع مما لا حاجة إلى حاق البيان الوجداني الشعري إليه : فمن هذه الجهة كان تفضيلي للشعر العربي ، هذا شعر المسرحيات الذي في شكسبير أكثره من منهج الخُطب ، وهو صنف من البلاغة عالٍ ، إلا أنه أبداً مفتقر إلى أن يستعان عليه بالتمثيل حقيقة أو حكماً ، وهذا يُقصرُ به ، ولقد عرضنا لبسط شيء من هذا المعنى[1] في مقدمة كتابنا (مع أبي الطيب) فليرجع إليه من يشاء) .

ولقد أسهب عبدالله الطيب في نقده للشعر الإنجليزي في (المرشد) وكذلك في كتابه (مع أبي الطيب) وأيضاً في كتابه (ختام نحن مع الفتنة بأليوت)[2] .

والشاعر (توماس ستيرنز إليوت (Thomas Stearns Eliot) ، ولد عام ١٨٨٨م ، بسينت لويس ، ميسوري ، بالولايات المتحدة الأمريكية وتوفي عام ١٩٦٠م ببريطانيا ، تلقى تعليمه الجامعي في هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية ومن ثم في السربون في باريس وأكسفورد ببريطانيا ، واختار التجنس بالجنسية البريطانية واستقر بعد عام ١٩١٥م في بريطانيا وهو أصلاً من عائلة بريطانية عريقة ، اشتهر إليوت بمنظومته الشعرية (الأرض المقفرة أو الأرض اليباب) (The Waste Land) كما أن له مسرحية مشهورة بعنوان : " جريمة قتل في الكاتدرائية " (Murder in the Cathedral) .

ذهب الدكتور عبدالله الطيب إلى القول بأن معظم الرؤى الشعرية والصور البيانية في (الأرض المقفرة) هي من باب ما يسمى (بالسَرَق المُورّى) أي السرقة المخفية ، ويرى جازماً أن الصور الأساسية في (الأرض المقفرة) هي ما أخذه (إليوت) من معلقة لبيد بن ربيعة العامري ، وكذلك هي مما أخذ من كل من أبي تمام في حماسته وذي الرمة وكذلك أمرؤ القيس .

وحقيقة فإن التشابه كبير بين السطور الأولى في معلقة لبيد بن ربيعة العامري والأبيات الأساسية (في الأرض المقفرة)

واستعرض الأبيات العشرة الأولى من رائعة لبيد :

---

(١) أصداء النيل، ص ٢٠ .

(٢) عبدالله الطيب في ختام نحن مع الفتنة بإليوت ، الدوحة ٢٠٠١م ، نادي الجسرة الثقافي الإجتماعي.

عفت الديّارُ محلها فمقامها

بمنى تأبد غولها فرجامها

فمدافعُ الريّان عري رسمها

خلَقاً كما ضمن الوحيُّ سِلامُها

وجلا السيول عن الطلول كأنها

زبرٌ تجد متونها أقلامُها

دمنٌ تجرّم بعد عهد أنيسها

حِججٌ خلون حلالُها وحرامُها

رزقت مرابيع النجوم وصابها

ودق الرواعد جودُها ورهامُها

من كلّ سارية وغادٍ مدجنٍ

وعشية متجاوب إرزامها

فعلا فروع الإيهُقان وأطفلت

بالجهلتين ظباؤها ونعامُها

والعَين ساكنة على أطلائها

عوذاً تأجل بالفضاء بهامُها

بل ماتذكر من (نوار) وقد نأت

وتقطعت أسبابُها ورمامُها

ورمى دوابرها السفا وتهيجت

ريح المصايف سومُها وسهامها

تجتاف أصلاً قالصاً متنبذاً

بعُجُوف أنقاء يميل هيامها

ثم دعنا نستعرض بعض أبيات منظومة (الأرض المقفرة) لإليوت :

(The Waste Land: The Burial of the Dead)

April is the cruelest month, breading

Lilacs out of the dead land, mixing

Memory and desire, stirring

Dull roots with spring rain
Winter kept us warm, covering Earth
In forgetful snow, feeding
A little life with dried tubers
Summer surprised us
What are the roots that clutch
What branches grow
Out of this stony rubbish?
Son of man
You cannot say or guess
For you know only
A heap of broken images
Where the sun beats
And the dead tree gives no
Shelter, the cricket no relief,
And the dry stone no sound of water

ترجمة أبيات إليوت إلى العربية:

ولقد قام دكتور/ عبدالله الطيب بترجمة أبيات قصيدة إليوت (الأرض المقفرة) أعلاه، على النحو التالي:

١- إبريل أقسى الشهور، منبتاً
٢- زهرة ليلى من الأرض الميتة، مازجاً
٣- الذكرى بالشهوة، مثيراً
٤- الجذور الفاترة بمطر الربيع
٥- كان الشتاء قد حفظنا في دفء، مغطياً
٦- الأرض في الجليد الناسي، مطعماً
٧- حياة قليلة بأنابيب جافة

٨- فاجأنا الصيف .

٩- ما الجذور التي تمسك ، ما الأغصان التي تنمو؟

١٠- من هذه القمامة الحجرية؟

١١- يا إبن آدم!

١٢- إنك لا تستطيع أن تقول بيقين أو ظن

١٣- لأنك إنما تعلم فقط .

١٤- كومة من ظلال متكسرة

١٥- حيث الشمس تصك

١٦- وحيث الشجرة الميتة لا تعطي

١٧- مأوى ولا الصرصور راحة

١٨- ولا الحجر اليابس صوت ماء . . . . . !

وحقيقة فإن الدكتور عبدالله الطيب محق فيما ذهب إليه من غرابة الإلتقاء والتشابه ، في الأفكار والصور والرؤى الشعرية ، بين "إليوت" ومعلقة لبيد العامري ، وقد عدد الدكتور هذا الإلتقاء والتشابه بين الشاعرين ، لبيد وإليوت على النحو التالي :

١- قول إليوت في عنوانه The Waste Land

وقول لبيد : عفت الديار محلها فمقامها

٢- قول إليوت في عنوان الفصل الأول : The Burial of the Dead وقول لبيد (عرّي رسمها) . (وجلا السيول عن الطلول) أي كشفت الأرض الميتة ، وعرتها من الأرض والنبات الذي كان يدفنها (أي الأرض الميتة) .

٣- ذكر "إليوت" أمطار أبريل وقساوتها (وأبريل هو شهر الربيع في بريطانيا) وقول لبيد (رزقت مرابيع النجوم) أي أمطار الربيع المبكرة .

٤- قول "إليوت" بأن الأمطار تنبت زهور ليلي (Lilacs) وقول لبيد بأنها تنبت (فروع الأيهُقان) أي الجرجير البري .

٥- ثم إنصراف "إليوت" من أفكار الربيع إلى مطر الصيف في قوله (فاجأنا الصيف) وقول لبيد (ورمى دوابَرها السفا ، وتهيجت ريح المصائف سومُها وسهامها) .

٦- تذكُر "إليوت" للحبيبة بعدما أن سقاها القهوة وتقطعت أسبابها ورمامها ما أشبه بقول لبيد :

بل مــــا تذكـــــر من نوار وقــــد نأت

وتقطعت أســبــابهــا ورمــامـــهــا

يقول عبدالله الطيب هنا: (هل هذا مجرد توافق خواطر؟).

٧- وقول "إليوت":

And the dead tree gives no shelter

والشجرة الميتة لا تعطي مأوى

ما أشبه هذا بقول لبيد عن البقرة الوحشية تبحث عن طلبها:

تجــتــاف أصــلاً قــالصــاً مــتنبــذاً

بعــجــوف أنقــاء يميل هيــامـــهــا

ولقد ترجم وليم جونز (William Jones) (مترجم المعلقات إلى الإنجليزية) بيت لبيد هذا البيت أعلاه على النحو التالي:

She Shelters herself under the root of a tree

أي أوت نفسها تحت قعر شجرة.

٨- أخيراً وليس آخراً: هل ذكر "إليوت" "مفاجأة الصيف" مجرد توافق خواطر؟

ولقد رأينا كيف أن لبيد ذكر الصيف بعد أمطار الربيع:

ورمى دوابرَها الســفـــا وتهــيــجت

ريح المصــايف ســومُهــا وســهــامـهــا

ولا شك أن تلك الموافقات كلها غريبة جداً، وتوحي بأن هنالك رؤية شعرية مشتركة بين (إليوت) ولبيد، وليس هذا بغريب فلقد ترجم (سير ويليام جونز) معلقة (لبيد) وسائر المعلقات السبعة إلى الإنجليزية في فترة مبكرة من التاريخ الإنجليزي، وذلك في أيام حياته في القرن الثامن عشر (١٧٤٦-١٧٩٤م) خصوصاً وأن (سير وليم جونز) كان أستاذاً مستشرقاً من جهابذة المستشرقين في جامعة أكسفورد التي تعلم فيها (تي. أس. إليوت)!!.

معذرة يابروف عبدالله الطيب:

ولكن وبالرغم من ذلك، وكل الذي ذكرناه أعلاه، فإنني أرجو المسامحة من أستاذي عبدالله الطيب، إذ أنني أختلف معه في الجزم بأن (إليوت) أخذ كل ما أخذ عن (لبيد بن ربيعة العامري) وأن قصيدته الشهيرة (الأرض المقفرة أو الأرض اليباب) ما هي إلا صدى لمعلقة لبيد بن ربيعة، أعتذر لأستاذي عبدالله قائلاً إن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، وإن اختلاف التلميذ مع أستاذه النابغة الملهم لا يقدح في تلك العلاقة المقدسة، التي هي محل الوفاء والتقدير أبد الحياة، ولكني أقول كما قال أرسطو لأستاذه إفلاطون:

(ولكن الحقيقة أحبُّ إلينا من البروف عبدالله الطيب)، ذلك أن العناصر التي كونت شخصية (تي. إس. إليوت) الأدبية والفلسفية والفكرية، وإن عوامل نبوغه وإبداعه لاشك أعمق بكثير من أن تُرجع إلى تأثره بلبيد العامري، حتى ولو ثبت ذلك ثباتاً قاطعاً، وهو الشيء الذي لم يستطع البروف عبدالله إثباته كلياً وإن رجَّح التأثر والتأثير ونحن معه في ذلك.

فقد كان (تي. إس. إليوت) بلاشك ابن عصره، والبيئة الثقافية التي نشأ فيها، وأي بيئة كانت تلك التي نشأ فيها (إليوت) وتعلم فيها وكونّت شخصيته الفكرية والفلسفية والإبداعية؟:

- هارفارد أولاً في بداية القرن العشرين.
- ثم السربون في فرنسا، حيث كانت المدرسة المثالية ترفض أن يكون الوجود كله مادياً، كما ترفض أيضاً الثنائية بين الذات والموضوع، وبين العقل والمادة، وترى أن للوجود بعداً رابعاً لم تستطع نظريات الفن التقليدي أن تعبر عنه، بإعادة إنتاج الواقع المادي ذي الثلاثة أبعاد، مهما ارتقى ووصل القمة، كما حدث له عند شكسبير، الذي استطاع أن يولّد ويجسد بعداً ثالثاً للوجود، استطاع أن يصل به إلى أعماق النفس الإنسانية وأن يعبر به عن أعمق أنواع الرعب والشهوة فيها:

"The art of Shakespeare, which consists of the generation of a "third dimension" of the actual world by creating a – network of tentacular roots reaching down to the deepest terrors and desires"(1)

---

(1) Eliot: "Ben Jonson" in the Scared Wood, Essays on Poetry and Criticism reprinted in London: Methnem 1960.

ويستمر "إليوت" في نفس المقالة عن (Ben Jonson) فيعبر عن إعجابه باتجاه جونسون (Ben Jonson) إلى محاولة التعبير عن "بعد رابع" في الوجود بنفس الروح التي سعى فيها ريمان (Riemann) إلى التعبير عن مفهوم غير مفهوم أقليدس (Euclid) عندما نشر نظرياته عن الهندسة المغايرة لهندسة أقليدس أو الهندسة اللا إقليدسية :

"The Non-Euclidian Geometry"

يقول إليوت :

The worlds created by artists
Like Ben Jonson are like systems of
Non-Euclidian geometry, they are not fancy
Because they have a logic of their own;
And this logic illuminates the actual world, because
It gives it a new point of view from which to inspect it"

ويعني هذا أن الفنانين من أمثال "بن جونسون"، على خلاف شكسبير وغيره من الواقعيين، فإنهم يعتبرون من المثاليين الذين يبحثون عن إسقاط أو إبراز خيالي لعالم بديل للعالم الواقعي، هذا العالم البديل يمنحهم منبراً لنقد العالم الواقعي ولفحصه، إنهم يبحثون عن تصور بديل للعالم بنفس المنوال الذي حاول منه (Riemann) أن يبحث عن تصور وهندسة بديلة لهندسة إقليدس تُسمى الهندسة اللا أقليدسية Non-Euclidian Geometry .

يقول "إليوت" إنهم يبحثون عن "بعد ثالث"، ولعله يريد أن يقول إنهم يبحثون عن بعد رابع للواقع المادي بنفس الطريقة التي حاول فيها اتش. جي. ويلس (H. G. Wells) أن يبحث عن "بعد ثالث" للوجود المادي وهو الزمن، وذلك عندما صمم "آلة للزمن" أو "سفينة الزمن" The Time Machine وينبغي أن نشير هنا إلى تأثر "إليوت" البالغ بالحركة التكعيبية في الفن والأدب (The Cubic Movement) والتي كانت منتشرة إنتشار النار في الهشيم، في جامعة السربون، في العقد الأول من القرن العشرين (حوالي ١٩١٠م)، في باريس وفي أوروبا كلها. في نفس الوقت الذي كان "إليوت" يدرس الفلسفة والأدب في مجال الدراسات العليا والإستشراق في تلك الجامعة، والحركة التكعيبية (The Cubic Movement) كانت تبحث، ليس عن المشاطرة أو

التمـــثيل (Empathy or Representation) للواقع المادي للوجـود، ولكنهـا كـانت تبحث عن التجريد أو "The Abstraction" مما يكون أكثر فعاليـة في إبراز ذلك "البعد الرابع" في الفن المرئي أو الأدب البيـاني "visual art or literary art" ذلك البـعـد الرابع الذي كـثيراً ما تغنى به أولئك التكعيبيون "These Cubists"، في السربون في العـقـدين الأول والثاني من القـرن العـشرين - فـهم يرون أنه، أي البـعـد الرابع، يفتح إمكانيات لا متناهـية للأدب البياني والفن المرئي سواء بسواء، إلى الحد الذي وصفوه بأنه البعد اللامـتنـاه "The dimension of the Infinite" هذا البعد الرابع هو الذي يمكّن الفنان من طرح الرؤى والشعـور، وتركـيـبهـما تجاه مـوضـوع التـجـربة، ويرى أولئك التكعيبيون أنهم يحتاجون إلى بعد أكثر من البعد الثالث

"They needed a dimension greater than the third dimension to express a synthesis of views and feelings toward the object . . this is possible only in a -poetic- dimension in which all the traditional dimensions are superseded"(1)

ويبدو أن "إليوت" قد ركب تلك الموجة التي ترى أن التجربة الشعرية هي بعد رابع، يُضفي على الواقع المادي فيعبر عن شيء حقيقي، شيء مثالي ولكنه شيء لا يفتقر إلى الوجود، فهو ليس خيالياً ولكنه نوع من الوجود العقلي، لأن المادي والعقلي هما جانبان من الوجود، عند أولئك التكعيبيين، الذي يرفضون حصر الوجود في البعد المادي وحده. فالوجود عندهم مادي وعقلي في الوقت نفسه، وهذا جزء من رفضهم للثنائية التقليدية عند كل من "ديكارت" "ولوك"، وكل أولئك الفلاسـفـة الذي يفـصلون بين "الذات" و"الموضوع" فصلاً حاداً. هؤلاء التكعيبيون هم أقرب إلى (إيمانويل كانط) بل وهم حتى أقرب إلى إفلاطون، الذي يرى ضرورة صعود النفس من الكهف في جدل صاعد، إلى خارج الكهف (راجع مثال الكهف في الجمهورية) (The Allegory of the Cave) أي إلى بعد رابع مثالي خارج الواقع المادي المحسوس، وكذلك فإن (كانط) يرى ضرورة أن يصنع الذهن ويألف نوعاً من الفهم التركيبي خاص به (Synthetic Construction) من معطيات التجربة حتى يستطيع أن يتصور الأشياء في - حد - ذاتها، خارجاً من التجربة أي

---

(1) Jewel Spears Brooker AND Joseph Bently, Reading the WasteLand, page 26, 27. Published by the University of Massachusetts Press/Amherst, 1990.

من محتويات التجربة The contents of phenomena لأن الأشياء في – حد – ذاتها (The things-in-themselves) ليست جزءاً من (الفينومنا) الظاهرة ولكنها جزء من الـ (Nuemena) أي (النومينا) الفكرة !

ونعود إلى موقف البروف عبدالله الطيب وإصراره على (السَرَق المُوَرّي) عند " إليوت " ، من لبيد وحماسة إبي تمام ، وكذلك رؤى ذي الرُمة أو حتى أمرؤ القيس . فإن العرب ، جاهليون وغيرهم ، إنما يلجؤون إلى التجربة الشعرية ليعبروا عن جانب واقعي من الوجود لايمكن التعبير عنه إلا في الرؤى الشعرية ، وهم بذلك يعتبرون الشعر بعداً رابعاً للوجود ، وليس شيئاً خيالياً صرفاً فالبعد الشعري للوجود هو كالبعد الزمني عند اتش . جي . ويلس (H. G. Wells) ، لأن التجربة الشعرية هي تجربة في الوجدان ، تجربة في الذكرى . فالعربي الجاهلي وغير الجاهلي يقرأ في الأطلال أكثر مما يقرأ في الجانب المادي القح (The Crude Materialistic Reality) . فعندما يرى امرؤ القيس أو لبيد أو أي من أصحاب المعلقات السبعة أو الطوال العشر ، عندما يرون الأطلال فإنهم يبصرون ذلك البعد الوجداني الرابع الذي هو عندهم أكثر وجوداً وأكثر تعبيراً عن الحقائق من الأطلال نفسها :

أمر على الديار ديار سلمى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب مُن سكن الديارا

ويقول أمرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فإن تلك الذكريات إنما هي جزء من الوجود ، ولكنها في بعد وجداني في الذاكرة وفي النفس . بعد رابع ، ولكنه حقيقي ، بل أكثر حقيقة من تلك الأطلال لأنه هو الذي يثير لاعج الذكرى ، فيهيج الوجدان إلى الصبابة ، وإلى لوعة فراق الحبيب – بعيد تلك اللحظات التي نعم فيها ببرد الحب ولذة الوصال من المحبوبة :

يقول عنترة الفوارس :

هل غـادرَ الشـعـراءُ من متـردمِ
أم هل عـرفتَ الدارَ بعـد توهمِ

يادار عـبلة بالجـواء تكلمي
وعِمي صباحـاً دار عبلةِ واسلمي

حـييت من طلل تقـادم عـهـده
أقـوى وأقـفـر بعـد أم الهـيثـم

وما من شاعر جاهلي إلاويبكي على أطلال الحبيبة ، وبذلك تكون التجربة الشعرية عند أولئك العرب الرومانسيين بعداً رابعاً، ولكنه بُعدٌ حقيقيٌ أكثر وجوداً وواقعاً من تلك الأطلال في – حد – ذاتها. ولعل " إليوت " – كما يرى البروف عبدالله الطيب – قد اقتبس هذا المعنى عندما ذهب إلى أن الوجدان، وليس الزمن – كما زعم إتش جي. ويلس (H. G. Wells) – هو البعد الرابع للوجود. وحقيقة فإن الوجدان والذكرى إنما هي شديدة الإلتصاق مع الزمن، وللمفهومين صلة عضوية لا تخفى على اللبيب، وإنما تعلم الأوربيون الرومانسية والبكاء على الحبيبة والتعلق بالصبابات من شعراء العرب في أسبانيا، وحتى شعر الترابدور (Trapadur) إنما عرف في أسبانيا المسلمة (الأندلس)، ومنها انتقل إلى باقي عواصم أوروبا، فليس ببعيد أن يكون " إليوت " ، وغيره من الرومانسيين، قد اطلعوا على التراث الشعري العربي، وقد تُرجم إلى اللغات الأوروبية منذ القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين، في معاهد قرطبة وأشبيلية وتوليدو وغرناطة، وغيرها من مدن أسبانيا المسلمة، التي قامت فيها العديد من معاهد الترجمة، ونقل التراث اليوناني والعربي إلى اللاتينية والعبرية.

مهما يكن من أمر تأثر (تي. إس. إليوت) بالشعر العربي أو عدمه، فإنه بلاشك قد تأثر تأثراً عميقاً بتيارات الفلسفة والفكر الأوروبي والأمريكي. فقد بدأ دراسته في هارفارد في السنة الأولى (as a freshman) عام ١٩٠٢ وأكمل أطروحته للدكتوراه فيها عام ١٩١٠م، وفي أثناء ذلك قضى عامين حاسمين في أوروبا، عاماً في أكسفورد كان الأكثر تأثيراً، وعاماً في السربون كان لا يقل كثيراً عن عامه في أكسفورد، وفي هارفارد درس "إليوت" على أيدي أساتذة عمالقة :

١ - جورج سانتيانا George Santayana .

٢- جوشيا رويس Josiah Royce .

٣- برتراند رسل Bertrand Russell .

٤ - هارولد جوكم Harold Joachim .

وفي السربون درس على يد الفيلسوف الفرنسي الكبير هنري بيرجسون (Henri Bergson)، وكانت أطروحته للدكتوراه تحت إشراف جوشيا رويس (Royce) عن الفيلسوف المثالي إف . إتش . برادلي (F. H. Bradley) ممثل الفلسفة المثالية في بريطانيا .

ونحن نذكر هنا الجانب الفلسفي الأكثر أهمية في التكوين الفكري لشخصية (تي . إس . إليوت) لأنه ربما ظل مجهولاً لكثير من قراء "إليوت" بالعربية ، ولا أقول أنه ظل مجهولاً للبروف عبدالله الطيب (رحمه الله) ، لأن عبدالله الطيب درس الفلسفة الغربية أيضاً في جامعة لندن ، وله إلمام طيب باتجاهات الفلسفة الغربية عموماً والإنجليزية خاصة وقد كان على إلمام طيب بفلسفة الوضعيين المنطقيين The Logical Positivists وعلى رأسهم (أيير Ayer) . ومهما يكن من أمر ذلك ، فإن "إليوت" تأثر تأثراً عميقاً بفلسفة برادي ، وكذلك بفلسفة برتراند رسل ، وطبعاً فإن الفلسفتين كانت على شفى نقيضين ، وقد انحاز "إليوت" إلى (برادلي) ، وحاول جهده رد إعتراضات راسل عليه ، فقد كان (إليوت) أقرب فلسفياً وفكرياً من فلسفة (برادلي) التي تؤمن بوحدة الذات والموضوع ، وبأهمية التجربة المباشرة في إدراك العالم بل إزدواجية بين "الذات" والموضوع ، بل وفي وحدة كلية ، يقول برادلي عن التجربة المباشرة (Immediate Experience) :

"We- in short- have experience in which there is no distinction between my awareness, and that of which it is an awareness" (1)

وهذا يعني أن تتلاشى الفروق بين الذات والموضوع ، ويصيران شيئاً واحداً في تجربة كلية موحدة .

ولقد تأثر "إليوت" بهذه الفلسفة المثالية التي ترفض التفرقة الحادة بين "الذات" "والموضوع" ، وبذلك ترفض الثنائية بين الذات والموضوع ، كما ترفض النظرة المادية الممعنة في الشيئية ، والتي تعترف فقط بالبعد المادي للوجود . وترفض أن تعترف بجانب عقلي للوجود . و "إليوت" يقول أنه يقيس التجربة المباشرة ، عندما ينغمس في رؤية بعض

(1) Bradley: Essays on Truth and Reality, Oxford Uni Press 1914, Pup .159-160.

الأعمال الفنية الفائقة حتى لا يعود يفرق بين ذاته وشعوره أو وعيه، وبين اللوحة التي ينشد إليها ويندمج فيها! وهذا بالتأكيد من تأثره بالفيلسوف المثالي برادلي. أما برتراند راسل، الذي كان إليوت وزوجته يقيمان في منزله في أكسفورد، فقد كان تأثره به قليلاً نسبياً.

وفي أثناء إقامته في السربون، وتعرفه على "الجماعة التكعيبية" "The Cubic Movement"، تعمقت الفلسفة المثالية في شخصيته أي "إليوت"، وبعد أكثر وأكثر عن المادية القحة في الفن والأدب والفلسفة. وازدادت نزعته المثالية الرومانسية، والتي كانت تقترب من التصوف العقلاني. وهذا يفسر لنا انجذابه إلى الفلسفات الشرقية، وخاصة الهندية منها، ولذلك نراه يدرس اللغة السنسكرتية! هل درس "إليوت" شيئاً من اللغة العربية؟!.

هذا غير معروف، وإن كان لا يحتاج إلى اللغة العربية لكي يلم بأطراف من الشعر الجاهلي، كما تمثله المعلقات السبع، لأنها كانت مترجمة ومتوفرة في مكتبة أكسفورد، ترجمة الأستاذ المستشرق البارز وليم جونز (William Jones) والذي كان هو الآخر أستاذاً بارزاً في جامعة أكسفورد. ونستطيع أن نقول أنه من المستبعد ألا يكون إليوت قد تعرف على شيء من كتاباته (أي ويليام جونز)، وهو الذي سعى إلى تجاوز الفلسفات المادية السائدة في أكسفورد وكمبردج، وكذلك في هارفارد على الجانب الغربي من الأطلسي، فذهب بعيداً يبحث عن قيم العطاء والمشاطرة وكذلك التحكم:

Give, this is the privilege of man
Sympathize, this the privilege of (a special man)?
Control, this is the privilege of the gods.

أمنح، هذا مايميز الرجل العادى.
تعاطف، هذا مايميز الرجل المتميز.
تحكم، هذا مايميز الرب.

وهكذا يخرج إليوت من مناظير الحضارة الغربية كلية وينزح بفكره إلى الهند:

- إلى نهر الجانج The Ganges River
- وإلي جبل الهيمافانت (Mount Himavant)
- وهكذا إلى منظور هو منظور المناظير جميعاً - منظور قديم أزلي أقدم من مناظير الحضارة الغربية!!.

هذه القيم، قيم الحب والعطاء والتحكم من أجلها، قيم تبدو بعيدة في أمريكا الرأسمالية، وربما أقرب في أوروبا ذات الصبغة الإشتراكية نوعاً قليلاً؛ (التكافل الإجتماعي والفوائد الإجتماعية "Social Benefits" ربما)، ولكن الوجود في الشرق الهندي له معنى، هو الإندماج في الوجود العلوي، وفي الطبيعة التي تشكل أقدار الناس، الحياة والموت، العطاء والأجل، والمحبة والمشاطرة، والتوحد مع الطبيعة، ومع أصوات الطبيعة. وإن الوجود الفردي إنما يتحقق بالخروج من الطبيعة المحدودة. ومع صعوبة إدراك هذه الحركة تجاه الهند وقيم العطاء والمودة والتحكم الحكيم، يبدو أن "إليوت" كان يبحث عن فلسفة ذاتية، من خارج الحضارة الأوروبية تسعفه في التعامل مع زوجته ومن يحب!! والله أعلم، وربما أن "إليوت" كان يبحث - بصورة خجولة - عن قيم روحية خارج إطار الفلسفة الرأسمالية الغربية.

البروف عبدالله الطيب ووليم بليك (William Blake):

يرى عبدالله الطيب (رحمه الله رحمة واسعة) أن "إليوت": ليس وحده في هذه الإتهام (بالسَرق المُوري) من تصويرات الشعر العربي ومن رؤاه، فإن (وليم بليك) (William Blake)، في واحدة من أعظم قصائده، يقتبس من الشعراء العرب بعض التصويرات الفنية البديعة (ويكون بذلك قد تورط في السرقات الأدبية الخفية "التي أشرنا إليها آنفاً).

قلنا أن للعلامة عبدالله الطيب عقيدة جازمة أن الشعراء الإنجليز قد اقتبسوا كثيراً من معاني ورؤى وصور الشعر العربي عموماً، والجاهلي على وجه الخصوص.

ولقد رأينا كيف أنه تابع "تي. إس. إليوت" في سرقاته الخفية (السَرَق المُوري) من لبيد العامري، وذي الرمة، وكذلك أبي تمام وامرئ القيس. ولكن عبدالله الطيب يعتقد أن إليوت، ليس هو الوحيد الذي اقتبس من الشعر العربي فهناك: أندرو مارفيل، ووليام بليك، وتوماس هاردي، وشيلي.

فعن (أندرو مارفيل)؛ يقول أنه اقتبس فكرة قصيدته "خواطر في حديقة" (Thoughts in a Garden) عن قصيدة لأبي العلا المعري (وقد ترجمت بعض دواوينه إلى الإنجليزية في فترة مبكرة) يقول أندرومارفيل، في قصيدته:

Society is all but rude

To this delicious solitude

Annihilating all that is made

To a green thought in a green shade

"الرفقة هي كل شيء، ولكنها موحشة، مقارنة بعزلة ممتعة. إذ تبيد - الرفقة - كل ما جاء من خواطر غضة في ظل ظليل".

يقول عبدالله الطيب أن هذه الأبيات في (شعر أندرو مارفيل) قريبة الشبه بأبيات في قصيدة لأبي العلاء المعري:

ذراني وكتبي والرياض ووحشتي

أكون كوحشي بإحدى الأمالس.

يسوّف أزهار الربيع تعلّةً

ويأمن في البيداء شر المجالس

والحقيقة أن الشبه كبير بين أبيات (أندرو مارفيل) أعلاه وأبيات أبي العلا المعري، خاصة إشارته أنه (ويأمن في البيداء شر المجالس) التي وصفها (أندرو مارفيل) بأنها غير مهذبة (rude) : (Society is all but rude).

وليم بليك وأبي الطيب المتنبيء:

وعبدالله الطيب لا يحب أن يصف أبا الطيب "بالمتنبيء" لأن لفظة "المتنبيء" كانت في البداية من باب النبذ والإتهام له، ولكنه يفضل أن يشير إليه بأبي الطيب.

ويرى عبدالله الطيب أن وليم بليك (William Blake)، على رومانسيته الفذة، وعلى ماينسب إليه من الأصالة، قد اطلع على ترجمة من قصيدة أبي الطيب الرائعة:

وردٌ إذا ورد البحيرة شارباً

ورد الفرات زئيره والنيلا

ما قوبلت عيناه إلا ظنتا

تحت الدجى نار الفريق حلولا

وعبدالله يقارن هذه الأبيات بأبيات (وليم بليك)

Tiger, tiger, burning bright
in the forests of the night

ويترجمها عبدالله الطيب على النحو التالي :

يا نمر ... يا نمر

ذا اللهب الوهاج

في غابات الظلام

توماس هاردي وسرقاته:

توماس هاردي، الشاعر الإنجليزي، كتب قصيدة بمناسبة بلوغه الثمانين من العمر، وعبدالله الطيب كثيراً ما يورد قول أبي عثمان الجاحظ : (إن الشعر لا يستطاع ترجمته) أو "ترجمة الشعر لا تستطاع" ولكنه بالرغم من ذلك يعطي الترجمة التالية لقصيدة توماس هاردي، بمناسبة عيد ميلاده الثمانين :

أيتها الدنيا لقد وفيت لي

وفيت لي

وعلى وجه الإجمال قد برهنت

أنك حقاً كما قلت عن نفسك

منذ إذ أنا طفل مستلق

عند جانب من المرج انظر السماء

كثيرون أحبوني بإفراط ملح

وكثيرون بهدوء ناعم

بينما آخرون أبدوا لي الإحتقار

إلى أن هووا تحت التراب

إنني لا أعد أكثر مما ينبغي

يا ولدي أكثر مما ينبغي

فقط حوادث باهتة اللون أو نحو ذلك

هكذا قلت للعقول التي مثل عقلي

ومن جانبي ، لم يفتني الإنتفاع بذلك

وبه تمكنت أن أقاوم المشقة والوجع
الذي قد يجيء به كل عام

وعبدالله الطيب يرى أن (توماس هاردي) هنا يحاكي قول الشاعر العربي الجاهلي الحكيم (زهير بن أبي سلمى):

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

وقول الآخر (لبيد العامري):

لقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الناس كيف لبيد

عبدالله الطيب بين الأعداء والأصدقاء:

تعج دواوين عبدالله الطيب الشعرية، خاصة أصداء النيل، من مر الشكوى من حسد الحساد، وكيد الأعداء والمتآمرين، ليس بسبب سوى تفوقه العلمي، وتفرده في الأداء وفي السجايا والأخلاق، كيف لا وهو سليل الأسرة المرموقة من سادة الجعليين - ألا وهم مجاذيب الدامر، وبركة الجعليين من أحفاد عبدالعال (بركة الجعليين). ويشهد كاتب هذه السطور أن عبدالله الطيب كانت له خصومات وعداوات كثيرة في جامعة الخرطوم، عندما كان عميداً لكلية الآداب وكذلك عندما صار مديراً لها.

والأسباب الحقيقية وراء تلك العداوات والخصومات أن جامعة الخرطوم كانت منذ ميلادها في عام ١٩٥٦م، كجامعة مستقلة، تتميز بإدارة قوية متضخمة من الإداريين والفنيين، وكان هؤلاء إلى حد كبير يغيرون من السلك الأكاديمي بالجامعة لأسباب منها:

(١) كانت للأكاديميين مخصصات كثيرة، لا يتمتع بها الإداريون، ومن ذلك الإبتعاث الفوري إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان لنيل الماجستير والدكتوراه، مصحوبين بأسرهم.

(٢) كانت مرتبات الأكاديميين أعلى من مرتبات الإداريين، وكذلك كانت ترقياتهم سريعة جداً في البداية: كان المعيار الوحيد للترقي هو الأبحاث، واستطاع بعض النابغين من الأساتذة أن يترقوا إلى درجة الأستاذية في فترة قياسية وهم صغار السن (منهم المرحوم بروفيسور محجوب عبيد، وكذلك البروفيسور محمد عبدالكريم وغيرهم كثيرون).

(٣) ربما كان من عيب بعض الأكاديميين أنهم كانوا ينظرون إلى الإداريين بأنهم أقل منهم في القدرة الأكاديمية، أو أنهم من الذين فشلوا في الإنضمام إلى السلك الأكاديمي، لأنهم لم يستطعوا الإنضمام إلى صفوف الشرف العليا أو لم يستطعوا إحراز درجات عالية كالدرجة الأولى شرف أو الثانية العليا شرف.

(٤) من ناحية ثانية، كان الأكاديميون يشتكون من أن الإداريين يحسدونهم، لذلك كان هؤلاء الإداريون يحاولون إساءة معاملتهم، أو حتى اضطهادهم في المعاملات المالية وفي شروط الإبتعاث. بل كانوا لهم بالمرصاد، فالذي لا ينتهي من إحراز المؤهلات التي ابتعث من أجلها في الوقت المحدد، يعامل في أحيان كثيرة بجفاء شديد، فلا يمدد له مهما كانت الإعتبارات، وقد يفصل من الجامعة، وكذلك الذين يتجاوزون مدة الإنتداب إلى جامعات خارجية. مهما يكن من شيء، فقط كان معظم الإداريين لا يحبون عبدالله الطيب، وكان هو أيضاً لا يحبهم، وكان يرى أن المراتب العليا في الإدارة، كالوكيل ونوابه، ينبغي أن يتولاها أكاديميون، وكانت من أسباب هذه الخصومات التنافس على منصب مدير جامعة الخرطوم، وكان هذا المنصب – في الستينيات – من أعظم المراكز في الدولة. ويمكن أن يعد في مصاف رئيس القضاء أو نواب رئيس الجمهورية، وكان عبدالله الطيب قد حرم منه لفترات، لأنه كان بالتصويت. ولكنه تقلده أخيراً، وفي فترة متأخرة في حياته الأكاديمية (أي في السبعينيات) بينما كان عبدالله الطيب حاملاً للدكتوراه منذ عام ١٩٥٠م من جامعة لندن وبتفوق كبير. وكانت أبحاثه تملأ الأفق ونبوغه وإسهامه في الحياة الثقافية في الدولة لا يختلف عليه اثنان، وبالرغم من ذلك لم يصبح عبدالله الطيب مديراً للجامعة إلا في عهد الرئيس نميري ولمدة قصيرة لم تتجاوز السنتين.

يقول عبدالله الطيب في قصيدة (لا تأس):

١- لا تأس فالناس أعداء اللبيب
قد أنذرتك فلم تحفل بها النّذرُ

٢- وكم صبرت على ضر الحوادث والحر
الكريم على البأساء يصطبرُ

٣- وكم ومَقْتَ صديقاً بين أضلعه
جمر العداوة لا ينفك يستعرُ

٤- وناصح لك واري القلب من حسد

يبغي أذاك فما يبقي ولا يذرُ

٥- أوليته منك سمع المطمئن له

وقد تطاير من مكروهه الشررُ

٦- هم العدو لهم كيد وألسنة

يتفذن بالوخز ما لا تنفذ الإبرُ

٧- يا أيها الوطن الساعي تدفعه

كفُّ الخيانةِ والأعداءُ والقدرُ

٨- قد نام أبناؤه عن كل مكرمة

أما الخنى فعلى كثبانه سهروا

٩- إني كمثلك أبغي النصر مجتهداً

وكيف بالنصر لا عونٌ ولا وزرُ

ومثل هذه القصيدة المتشائمة ، شديدة اللهجة ، سيئة الظن بالناس كلهم بلا شك ، تفسر لنا بعض المعارضة وبعض الخصومة الشديدة التي كانت تقابل عبدالله الطيب.

وبسبب هذه الخصومات التي كان الناس ، بعضهم أو معظمهم من جامعة الخرطوم ، يحملونها لعبدالله الطيب ، لم يستطع أن ينافس في نيل منصب مدير جامعة الخرطوم الذي كان يري - وبحق - أنه أولى الناس به .

وفي قصيدة "دعهم "[1] وقد كانت سابقة لقصيدة "لا تأس" ، يعبر عبدالله الطيب عن يأسه من تأييد هؤلاء الحساد :

١- دعهم جميعاً فما في ودهم أرب

وإنما وُدّهم مكنونه كذب

٢- لقد صحبتهم دهراً فما حدبت

منهم عليك أوان الحاجة الحُدُبُ

٣- فلست منهم ولاهم منك في خلق

هيهات هيهات لا قربى ولا نسب

وفي قصيدة "خواطر مقيدة" ، يبادر عبدالله الطيب الجميع بالعداوة وبالغمز واللمز

(١) أصداء النيل، ص ٦٠ طبعة جامعة الخرطوم.

"شيوعيين" و"أخوان مسلمين"، ولا يرى في الدنيا خيرا، فهل مثل هذه القصيدة مما يؤلف قلوب الناس في جامعة الخرطوم حوله؟ هؤلاء الشيوعيون كانوا يناصبونه العداء وكذلك العلمانيون، فما باله يستعدي "الأخوان المسلمين"؟! وكانت ثلة كبيرة منهم تكنُّ له كل المحبة، وكل الوداد وتعتبره علامة العصر؟ وكثير منهم كانوا ممن يُعتبرون من تلاميذه المحبين، فلماذا يستعديهم ويجابههم بالعداوة والشر؟

يقول عبدالله الطيب في قصيدة "خواطر مقيدة"(١)

١- ويا للناس أعداء تراءوا
بأصناف المحبة والوداد

٢- ولو كشفتهم لوجدت منهم
سواد الحقد في علق الفؤاد

٣- وكيف تتوق للعلياء نفس
إلى الآثام مسلسة القياد

٤- وكيف يبلغ الإنسان خيراً
ونهج الخير أشوس لا يرام

٥- ومن طلب المحبة فهي أمر
تقطع دونه الهمم العظام

٦- وما يبغي الشيوعيون إلا
وقود الحرب إن قالوا (السلام)

٧- وما يبغي الهدى "الأخوان"
يوماً وإن لبسوا مسوحهم وأموا

٨- فلا تخدعك ألسنة عذاب
بواطنهن فيهن السِّمام

٩- ودع عنك السياسة إن منها
ربيعاً نبته القومُ اللئام

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٧.

والأسئلة حول هذه القصيدة كثيرة تتدافع :

* لماذا يشك عبدالله الطيب في الناس كلهم ؟

* ولماذا يرى أنهم جميعاً غير صادقين في صداقاتهم له؟! ولماذا يبادر بإبداء العداوة للجميع يساراً ويميناً ؟

* ولماذا يهاب الانغماس في السياسة ويرى أن الساسة كلهم قوم لئام ؟

وحقيقة ، فقد كان عبدالله الطيب محاطاً بكثير من القلوب ، التي كانت توده بصدق وبإخلاص ، لا تبتغي عنده جزاء ولا شكوراً ، إلا المودة في القربى والإعجاب به وبعلمه ، وبقدراته الفذة في علوم اللغة والبيان والشعر . هذه الأسئلة وغيرها كثيرة تمضي بلا إجابة ، ولعل بعض تلاميذه المقربين يستطيعون أن يلقوا عليها بعض الضوء .

أنا شخصياً كنت من الذين يودونه كثيراً لأسباب ذكرتها آنفاً .

قال أبو تمام :

وحبب أوطان الرجال إليهمو
مآرب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهموا
عهود الصبا فيها فحنوا لذلك

حياك (بربر) صوب العارض الغادي
وجاد واديك ذا الجنات من واد[1]
فكم جلوت لنا من منظر عجب
يشجي الخليّ ويروي غلة الصادي
كثبانك العفر ما أبهى مناظرها
أنس لذي وحشة .. رزق لمرتاد

(١) القصيدة لمحمد سعيد العباسي (الجعلي الجموعي) وهي : حياك (مليط)، ولقد وضعت "بربر" في مكان "مليط" وأرجو أن تكون القافية سليمة ، ففي بربر السلوة وفي الدامر الخلوة، والبروف وأنا كلانا ينتمي إلى بربر والدامر. عبدالله الطيب وكثير من مشاهير السودان ، منهم اللواء محمد نجيب والأزهري وعبدالله خليل ، وكذلك شخصي الضعيف درسوا في مدرسة بربر الأميرية الوسطى.

وبـاسق الـنـخـل مـلـؤ الـطـرف يـلـثـم
من ذيل السـحـاب بلا كـد وإجـهـاد

كـــأنه ورمـــال حـــوله أرتفـــعت
أعـــلام جـــيش بناها فـــوق أطواد

ففي بربر السلوة وفي الدامر المخلوة، كما يقول الشاعر السوداني:

هذه بلاد عريقة من بلاد الإسلام والعروبة في السودان، وهي البيئة التي عاش فيها البروف عبدالله الطيب وكذلك مدرسة بربر الأميرية الوسطى التي درس فيها.

أصدقاء عبدالله الطيب:

بالرغم من شكوى عبدالله الطيب بأنه وحيد متوحد، فقد كان له أحبابٌ كثرٌ كما أسلفت، وأنه لم ينتم لا إلى اليسار ولا إلى اليمين، ولا انتمى إلى الحركة الوطنية ولا إلى السياسة عموماً، وبالرغم من كل ذلك، فلقد كان له إخوة أعزاء وأصدقاء حميمين، وكذلك طلاب وتلاميذ ومريدين بالآلاف (وانظر إلى الآلاف التي خرجت تشيع جثمانه إلى مثواه الأخير).

ولكن عبدالله الطيب لم يذكر إلا القليل منهم في أشعاره، ولكنه على كل حال، فلقد ذكر من أصدقائه كل من:

١- السفير جمال محمد أحمد.

٢- الدرديري محمد عثمان.

٣- د. أحمد الطيب.

ففي قصيدة "كنت حريصاً أن أراه ففاتني"[(١)] يقول:

نعـوا لي درديري فـأحـسـست حـسـرة
على فـــقـــده تنغلُ فيّ انغـــلالهـــا

وكـان صـديقـاً لي وكـانت مـودتي له
فـــوق أن يُلفى البــعـــاد أزالهـــا

وكنت حـــريصـــاً أن أراه فـــفـــاتني
كـــذلك المنايا حين ترمي نبـــالهـــا

---

(١) أنظر كتاب عبدالله الطيب: مع صديقين!.

وكم قد قرأنا الشعر أسمع صوته

يؤكد معنى لفظة وظلالها

وشعر "شيلي" نختار منه غناءه

لقُبَّرة جوُّ الصفير خلا لها

فتشدوا إذا تسموا وتسموا إذا شدت

وتُفرغ في لحن شدته انفعالها

لأعلى فأعلى في سماء رحيبة

بها وجدت ملء الجناح مجالها

وهذه إشارة إلى منظومة شيلي في (القُبَّرة): (بضم القاف والياء المشددة المفتوحة)، وإشارة إلى قول طرفة بن العبدفي (القُبَّرة)، خلا لك الجو فبيضي واصفري.

ومن مثل درديري عفافاً ونجدة

وعزة نفس لم تجد من أزالها

وكان أديباً ناقداً لمحاته

تفيد عبارات البيان كمالها

وذا فطنة حتى لو أن فطانة

بها أحد نال السماء لنالها

وكان أخا الأخوان فيه رؤية

وحزم إذا ما كلمة الحق قالها

وقد كان درديري سخياً بماله

إذا معشر بُخل بمال آمالها

نعوا لي درديري فقد ساء رزؤه

فؤادي وأجرى عبرتي وأجالها

سقى قبر درديري سحاب مجلجل

برحمة ربي ما تُغبَّ سجالها

وهكذا، فليس الناس كاذبي الود كلهم، كما في قصيدته "دعهم" التي استعرضناها أعلاه، ولا كلهم على كثبان الخني سهروا، كما في قصيدته "لا تأس" التي استعرضناها

أيضاً أعلاه، ففيهم مثل الدرديري كثرٌ في بلادي السودان، يشهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء.

ومن الذين كان البروف يودهم كثيراً السفير جمال محمد أحمد، والذي كان أيضاً وزيراً للخارجية في السودان:

ففي قصيدته التي رثا فيها جمال محمد أحمد قال:

ذكــرت جـمــالاً صــديقي درج
وكم لجـمــال الحـيــاة ابتـهــج
وكــان فــتى ذهبي المحـيــا
يُرى فــيــه ضــوء الحـيــاة انبلج
وعــشنا زمــاناً وراء البــحــار
وجـمــر الشـبــاب شديد الوهج
ونقــرأ في شــغـف لا غــلّ
بـذوق سـلـيـم وفـكـر نـضــج
نعــوا لي جـمــالاً صــديقي الفطن
وجــئت الصــلاة فــقــالوا دفن
بكـيـت عـلـيــه بـدمع غــزير
وقـلـبي لموت جـمــال حـزن

كذلك رثا عبدالله الطيب كل من صديقه د. أحمد الطيب وعبدالرحمن الأمين، قال في رثاء د. أحمد الطيب (وهو من الغبش، غربي بربر) وكان عبقرياً وذا ذكاء نادر يشع نوراً من عينيه الواسعتين الجميلتين، وكنا لا نمل سماعه، كذا كان حالنا مع البروف عبدالله الطيب، الذي كان إذا حاضرنا في المدرج ١٠٢، نتمنى أن لا يكف عن الشجو والغناء، فقد كانت محاضراته عن الشعر الجاهلي هي أشبه شيء بالغناء الشجي.

هل تذكـرن أحـمـد يا جـمـال
كــان فــتى أديـبـا
مـهــذباً أريـبـا
وكــان حــقــاً بيننا مـحـمـودا

وذا ذكـــــــــــــاء نــادر

وذا بيـــــــان ســــــاحـــــر

كم أعــجب الطلاب إذ يُحــاضــر

ونـاقــــــــداً قــــــد كــــــان

مـــــــقـــــــتـــــــدراً فـنـانـاً

وطـالما أنـشــــــدته الألحـــــانا

هل تذكــرن أحـمـــد يا جـمـــال

الــذكـــــــــريـات نــور

حـين دجـــــــا الـديـجـــــور

وامـتـــدت الغـــابة والعـتـمــور

الــذكـــــــــــــــريـات زاد

إذ ذهـــــــب الأنـــــــــداد

وهكذا كان هؤلاء الأصدقاء جماعة صدق ورابطة فكر، وأنداد الجمال والفن والأدب، كانوا زمالة علم وسياحة في سبيله، في ديار الغرب. وكانت لهم تجربة واحدة عظيمة، هي تجربتهم وهم يتلقون العلم وراء البحار ويتفاعلون مع الحياة الغربية، والثقافة الأجنبية، أخذا وعطاء، وتفهماً ونقداً وابتلاء، كانوا زملاء (Peers)، في واحدة من أعظم روابط التعلم والتفكير والتأقلم في حياة غربية في كل شيء، فسبروا أغوارها واخذوا الجميل الحلو منها، ولكنهم حافظوا على هويتهم العربية، وثقافتهم الإسلامية وانتمائهم السوداني الأصيل. والذي كان يجمعهم هو العلم والفكر والحياة في ديار الغربة حيث (لا أنس و لا مال) بلندن و لا أهل ولا عشيرة: (من قصيدة مزدوجة في نعت لندن)[1]

في هول أرض صيـفـهـا شـتـاؤها

ملبـد بسـحـبـهـا سـمـاؤها

فـســرت لا أعــقل في الطريق

صــفــراً من العــدو والصديق

أفــــرق من شيء ومن لا شيء

لا أنـا الجـــانـي ولا البـــريء

(١) أصداء النيل، ص ١١٣ .

أعـطـش لا أهـدي إلـى شـــــــراب

بين الوجـــوه البـــيض كـــالغُــراب

أخــــــــتلس المـدخل في المطـاعـم

خـــشـــيــــة طرف عـــاذرٍ أو لائم

وتلك هي محنة الغريب الأفريقي أو العربي في لندن، والعنصرية مرض إنساني لئيم، وقد كانت فاشية في بلاد الإنجليز في الماضي، ولكنها الآن خفت كثيراً وكذلك في الولايات المتحدة الأمريكية.

شخصية عبدالله الطيب الحقيقية:

عندما تتأمل مكونات شخصية عبدالله الطيب الأسرية الجينية (Genetic) منها والبيئية، تجد أنها في جوهرها قَبَس من نوار المجاذيب، ومن نورها، قبس نوراني فريد، مشبع بالروح وبالصوت القرآني، وذلك الحنان والعاطفة المشبوبة، وذلك الحنين إلى المجد وإلى السمو النوراني، وهل من مجد إلا عزة الله ورسوله وهل من مجد إلا مجد محمد (صلى الله عليه وسلم) وصحبه الأماجد

بلغ اللهم روحه الشريفة صلوات طيبة منيفــــة

اللهم صلي وسلم وبارك عليه

والشيخ محمد المجذوب ود الشيخ قمر الدين، عمدة المجاذيب وشاعرهم ومادح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ملأ تلك البطاح، وتلك الفيافي الملاح الفساح، وعطرها بمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبمدائحه الخالدة على سر الأيام، تبوح بالحب إلى طيبة، وإلى القبة الخضراء، والمسجد الأزهر، وما تزال أمي (وهي الآن في الخامسة والتسعين من عمرها - بارك في أيامها النافعات) تنشد أبياتاً تقول أنها للشيخ محمد المجذوب، ولقد حفظتها عنها ولا أدري إن كانت سليمة القافية والأوزان، تقول الوالدة (زينب عثمان النعيمة الجعفرية النسب بارك الله في عمرها المبارك):

كـل بـيـت أنـت ســـــــاكـنـه

غــيـــر مـــحــتـــاج إلى سُــرج

كل مـــــريض انـت عـــــائده

قـــــــد أتـاه الـلـه بـالـفـــــرج

كل وجـــه أنت نـاظـره
قـد أشـرقت أنوارُه بـالـبلـج
وجـهك المأمـول حـجـتنا
يـوم يأتي الـناس بـالحُـجـج
أنت سـيـدنا وهـادينـا
إلى طريق غـيـر منعـرج
بلغ اللهم روحـه الـشـريفـة
صلوات طيـبـة مُنيـفـة

اللهم صلي وسلم وبارك عليه[1].

فعبدالله الطيب وهج من نور الرحمن، دائماً مشرقاً مبتسماً متألقاً فرحاً، بما آتاه الله من نور الإيمان، ومن نور العلم والبيان، وأنواره شتى، وبحاره زاخرة بالألحان والأشجان، وباللآلىء والمرجان، وهو ذاته جوهرة نفيسة، جوهرة خضراء (أي سمراء) علق بها من تراب الغرب شيئاً ما، ومن ظلامه غشاوة، سرعان ما تذكر وهو من هو وإلى من ينتمي، وسرعان مازالت تلك الأتربة وانجلت تلك الغشاوة:

قال تعالى:

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مُبصرون﴾ (الأعراف ٢٠١)

قال تعالى:

﴿فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل ربِّ زدني علماً﴾ (طه: ١١٤).

ذلك أن عبدالله قد صاحب عصبة من الطلبة في لندن، فلم يصبه منهم سوى السوء والندم والخسران، وهو ابن الأكرمين الصالحين الذين يتلون القرآن آناء الليل وأطراف النهار.

ففي قصيدته (ندم الشباب) يقول البروف عبدالله الطيب:

(١) هذا مطلع قصيدة الشيخ محمد مجذوب قمر الدين، المسماة (صلاة مولد النفحات) تقرأ مرتين في مسجد المجاذيب بالدامر، يومي الأحد والخميس.

١ – لولا اصطحابي عصبة باطلية

لقد قاد نفسي للصلاح أميرها

٢ – ولم تُلْفِنِي ريح العشي لحانة

أُعاقر كأساً كم يَخِرُ عقيرها

٣ – ولم اتخذ من تبعة السوء خُلَّةً

يمرقني جنح الظلام سعيرها

٤ – هم صرفوني بعد أن كنت سالكاً

مهايع قد يهدي إلى الرشد نورها

٥ – فأصبحت في وادي خَبَالٍ وشُقة

من الغي مزجور بنحس طيورها

٦ – إلا لعنت هذي الأعادي وفرقت

عباديد في الدنيا وقل نصيرها

وعن هذه "العصبة الباطلية" قال في قصيدته بعنوان "دعهم" التي استعرضناها سابقاً

دعهم جميعا فما في ودهم أرب

وإنما ودهم مكنونه كذب

لقد صحبتهم دهراً فما حدبت

منهم عليك أوان الحاجة الحُدب

فلست منهم ولاهم منك في خلق

هيهات هيهات لاقربى ولانسب

إذن، فإن الفترة التي اجتالت الفتى عبدالله الطيب في شبابه، إنما كانت من نُزُوغ الشباب وطيشه وبسبب الصُحبة السيئة لتلك العصبة الباطلية، التي أشار إليها في قصيدة "ندم الشباب" أعلاه فهي من لذات الشباب التي لا تشابهه ولا يشابهها، فقد خلق كريم النفس محضاً ضريبته.

يقول عبدالله الطيب في قصيدته (لذات الشباب)[1] :

---

(١) أصداء النيل، ص ٥٧ .

يقـــولون لي مـــاذا تريـــد من العـــمـــر

سـوى المال والغـيـد النواعم والخـمـر

أجـل تلـك لذات الشـبــــــاب وربما

وصلت إليـهـا بعـد سـيـر على الجـمـر

وإني لأسـتـحي من الهُـجـر والخَنَى

إذا مـا رمــاني ذو الـعــداوة بالهــجر

خلقت كـريم النفس مـحض ضـريـبتي

إذا خـلط الـقــــوم الرياء مع المكـر

فإذن كانت تلك الفترة في حياته التي غشيته فيها غاشيات من لذات الشباب، قد كانت فترة عابرة، سحابة صيف سرعان ما انجلت عن معدنه الأصيل، وتربيته الروحانية القوية المشعة: فهو من الذين اتقوا وهؤلاء لهم من إيمانهم وتقواهم جنة وأي جنة!

وهكذا عاد عبدالله الطيب إلى سجيته الأصلية، كما تكونت في دامر المجذوب، حيث نار القرآن، وسجايا القرآن وحيث القوم لا يشقى بهم جليسهم، محبة لله ولرسوله، وحياة ملؤها الحب الرباني والمحبة المحمدية الصادقة.

(وبلغ اللهم روحه الشريفة صلوات طيبة منيفة)

(اللهم صلى وسلم وبارك عليه).

وحيث القرآن يتلى في الغلس، وبكرة وعشية، وآناء الليل وأطراف النهار، وحيث المحبة الأسرية التي لا تفنى على مر الأيام، وحيث الطبيعة الحانية الخضراء، المفعمة بالألحان وتغريد الطير، وخرير المياه والنواعير ذات الألحان الشجية في شواطيء النهر المتدفق، في أم الطيور وشجر السيال، وحيث النيل يتدفق بالصبابة والعطاء، يحبهم ويحبونه(حبذا النيل)[1].

حـبـــذا النيل منزلاً ونخـــيل النيل

والليل مـــقــمـــراً والنجـــوم

ورمـــال كـــــــأنهـن إضـى َدارج

مــــــوهـنا بـهـن الـنسـيـم

(١) المصدر السابق صفحة ٧٤.

وربـاع يشـــــاد فـــــيــــهن بالـذكـــر

وتـــتـــلـــى يــــــــس أو حــــم

وقـــــبــــوز ثوين في ذلك القــــفـــر

ســــقـــتـــهن بالذهاب الغـيـــوم

وفي قصيدة (سفر الصداقة) يقول :

ويـاحـــبــــذا الـدامـــر والمسـجـــد

العـــامـــر والبـــئـــر بهـــا مـــريم

وبلغ اللهـم، قـــراؤهـا الفـــصـــيح

والمعـــــتـــــمل[1] الأعـــــجم

وفي قصيدته (أمس زرنا "أم دجاج ")[2] يقول عبدالله الطيب :

حـــبـذا بربر إذا قـــرشك كـــالكنز التليـد

وســمـاك صـوته الأخـرق بيـدي ويعـيـد

حـبـذا خـبـر (بركـدال) ومـبيض اللبن

بيـــعك الماضي من عـــمـــرك بالآن غبن

وقال عبدالله الطيب في قصيدة (روض النيل)[3]

فـــذكـــرتني قـــمـــاري العـــشـيـــر إذا

ناحت على عـــشـــر ورق شـــجـــيـــات

قـــد كنت في دامـــر المجـــذوب في بلد

فـيــه الكرامـة والسـوح الرحــيـبـات

ومـــعـــشـــر من أولى صـــدق ومكرمـــة

تضـــمـــهم في ذرا مـــجـــد أرومـات

وفـيـــه من قـــرأوا عـــمـــراً ومن درســوا

متن الرســـالة والدنيـــا دجـُــينات

وقــــاري بردة المخــتـــار مـــرتقب

وقـت الأذان خـــبـــيـــر ليس يرتاب

(١) أصداء النيل: ١٣٥ .

(٢) المصدر السابق ١٦١ .

(٣) المصدر السابق ١٨٠ .

إذا تلوا ســـور القـــرآن حي لـهم
مــيت الظلام إذ النوام أمـــوات
وجلجلت جنبـات العـرش وارتجـفت
لهـا الملائكة والسـبع السـمـوات

وفي قصيدة (بدامر الصدق)[1] نجد العلامة عبدالله الطيب (رحمه الله رحمة واسعة) يكشف عن ذاته، وهواه الأصلي، وانتماؤه الذي لا محيد عنه، إلى تلك البيئة الروحانية التي كانت مهد روحه وشقيقة نفسه:

بدامـر الصـدق لي رهط وأصـحـاب
وبالتـمـيـراب لي أهل ومنتـاب
ومنزل كـــان فـيــه والديَّ عـتـا
عليــه المحــدثات الظُّفْر والنـاب
ياحبـذا النيل إذ رف الأصيل وإذ مـاء
السـواقي على الروضـات سكاب
وفـتـيــة قـد تلوا يس في سَحَر
وغـيـرهم في حشـايا الليل مـا ثابوا

ولقد كان عبدالله الطيب يقضي جزءاً من إجازته السنوية بالدامر وبالتميراب قريته المحبوبة في أم الطيور، وكانت زوجته جريزيلدا (Grisleda) تصحبه إلى الدامر وأم الطيور، وتندمج في حياة الأهل والعشيرة، كما تنسجم مع البيئة المحلية القروية، وكأنها قد ولدت هنالك وترعرعت، وهذا من عظم حبها وإخلاصها لزوجها، كما أنه علامة حقيقية على عمق وجدانها وإنسانيتها، وذكائها الإنجليزي العظيم، حتى أنها أي (جريزيلدا) قد أتقنت الحديث باللغة العربية العامية التي تميز السودان الأوسط كأحسن ما يكون الإتقان، وياعجبي لما يمكن أن يصنعه الحب!

وكان عبدالله الطيب كذلك يندمج في حياة المسجد الذي هو محور الحياة في حي المجاذيب بالدامر، فكان يشارك في الدروس، وفي إنشاد الشعر، وأهم من ذلك كله،

(١) المصدر السابق ١٨٢ .

كان يشارك في إنشاد المدائح النبوية التي كان يتقنها كل الإتقان، ويحسن الإنشاد بها كل الإحسان .

وللعلامة عبدالله الطيب قصائد كثيرة في حب المصطفى منها قصيدة طويلة في (أصداء النيل) بعنوان (قصيدة نبوية)[1] يقول فيها :

سلام على المختار ساكن يثربا

نبي الإله أريحيا مهذبا

ونهدي له حرَّ الثناء كأن شذى

المسك أو يلفى من المسك أطيبا

نبي تبعناه على كل حالة برغم

الذين عادي ومن كان كذبا

به قد هدى الرحمن للرشد بعدما

تخبطن في ظلماء ومغرباً

ألا يا رعى الله الذين توسدوا

لدى العدوة القصوى صعيداً مطيباً

أولئك قومي لايزال لذكرهم

رنّيٌ إذا ما صادح الفجر أطربا

أراهم أمامي آخر الليل موهنا

شخوصاً تراءى أبعدين وأقربا

بأيديهم الألواح فيهن أسطر

كتاب الإله هادياً من تنكبا

وما فتئوا قوماً تسيل دماؤهم

مخافة مقروف من العيش أجربا

بلندن مالي من صديق أعده

لعثرة دهري إن تنكر أو كبا

ومالي من ردءٍ فتلفيني به

أردّ شبا ألب عليّ تألبا

---

(١) أصداء النيل، ص ١٩٤ .

وهكذا – في آخر المطاف – رجع عبدالله الطيب إلى أصوله الطيبة الذكية، وتكشّف له أن الإنتماء إلى الثقافة الإنجليزية وإلى البيئة الإنجليزية، ليس بذي طائل، إذا جد الجدّ وذهب الهزل، وجاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

قال تعالى: ﴿فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ والعلامة عبدالله الطيب يختتم قصيدته، التي قالها في عام ١٩٥١م، والإنجليز مازالوا يحكمون السودان، ولقد أهمل الإنجليز منطقة الدامر، وعطبرة، وبربر، بل ومناطق الجعليين عموماً، فلم يسعوا إلى تطويرها أو إعمارها، لأن أهل هذه المنطقة، وأغلبهم من الجعليين، ما كانوا يخضعون للإنجليز، وما كانوا يُحبون الاستعمار، بل كانوا يكرهونه ويقاومونه بكل الوسائل المتاحة، والقصيدة لذلك لا تخلو من تعريض بالاستعمار، وأنه جور أحل بأهل الدامر.

ويقول عبدالله الطيب، مادحاً الرسول صلى الله عليه وسلم ومعرّضاً بالإنجليز والاستعمار، وفاضحاً الظلم الذي "تغلب" على أهله الأعزة الأماجد:

لعل رســـــول الله أرغب من دعـــــا
إلى الله قلبـــاً في الأنام وأرحـــبــــا
وأصـــدقــهم في حـجـــة الله لهـجـــة
وأقطعـــــــهم إن صــــــارم باتر نبــــا
وأكـــرمــــهم جـــداً وأكـــرمــــهم أباً
وأكـرمــهم خــالاً وعـــمــاً ومنســـبــاً
يُعين به الرحــــمن قـــومــــاً أعـــزة
أذلهم جـــور عليــــهم تَغَلّـــبـــــا
(عليـــه من المولى ســـلام ورحـــمــة)
(أخف من النكبـــا واذكى من الكبـــا)

والشطر الأول من البيت الأخير هو للشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين.

وفي الختام، استقر المقام بالعلامة عبدالله الطيب في وسط الحياة العلمية والتربوية والثقافية في السودان، وتحقق له ذلك الطموح العزيز أن يصير مديراً لجامعة الخرطوم – الحسناء الغراء – التي طالما وصفت بأنها "جميلة ومستحيلة". فقد ظلت متأبية على عبدالله الطيب أن يصير مديراً لها، ولكنها جاءت طائعة ودودة، تخطب وده في عهد

الرئيس نميري. وصار عبدالله الطيب - ربما أعظم مدير للجامعة في تاريخها الطويل ، ولم يأت من بعده من يبزه في ذلك ، فقد كانت فترته كمدير للجامعة - على قصرها - حافلة بالإنجازات العظام ، وتبرجت جامعة الخرطوم في أزهى الحلل وأجمل الزينة ، وبلغت شهرتها العالم ، كجامعة مجيدة ، رفيعة المستوى ، عالمية المناهج والتوجهات ، فاستقطبت أعظم الأساتذة من بريطانيا والسويد وفرنسا وألمانيا وسائر أقطار العالم ، خاصة علماء أوروبا الشرقية والهند وباكستان وحتى جنوب أفريقيا ، وقليل من الأمريكان. وكلها كانت معترفاً بها عالمياً وفي كل تخصصاتها ، خاصة الطب والهندسة والعلوم البحتة (انظر إلى تفوق كل من المرحوم د. محجوب عبيد و د. محمد عبدالكريم و د. عبدالملك عبدالرحمن ود. الزبير بشير طه ، ود. تاج السر مصطفى والعشرات وغيرهم).

عندما ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، لنيل الدكتوراه من جامعة بتسبيرج في ولاية بنسلفانيا ، فوجئت بالرئيس الأعلى للجامعة يستدعيني ، وتوجست شراً ، لأنني جئت متأخراً حوالي الثلاثة أسابيع من بدء الدراسة ، لأن السفارة السودانية في لندن آنذاك أبدت بعض الشكوك في توجهي للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان ذلك في بداية حكم ثورة مايو في سبتمبر ١٩٦٩م.

ولكن المقابلة جاءت على غير ما توقعت ، فقد رحب بي ذلك الرئيس الأعلى لجامعة بتسبيرج وقال بالحرف الواحد:

(سمعت بأن طالباً سودانياً من جامعة الخرطوم إلتحق بقسم الفلسفة بهذه الجامعة ، فوددت رؤيته لأعبر له عن إعجابي وتقديري لجامعة الخرطوم وهنالك سببان لذلك:

(١) الأول: أن جامعة الخرطوم جامعة متميزة جداً ومعترف بها عالمياً ، وربما هي واحدة من أعظم الجامعات الإفريقية والشرق أوسطية.

(٢) وهنالك سبب آخر شخصي لإعجابي بجامعة الخرطوم ، وهي أنها استوعبت صديقي البروفيسور البارز الفيلسوف والفيزيائي المعروف تولمبيوم (Toulimbaumn) السويدي الأصل ، فقد كان أستاذاً في جامعة أوسلو بالسويد ولكنه فقد منصبه لاعتبارات غير موضوعية والآن البروفيسور تولمبيوم سعيداً جداً ومستقراً في عمله في جامعة الخرطوم ، وكان كثيراً ما يكتب لي مشيداً بمستوى الجامعة الأكاديمي وخاصة مستويات الطلاب الجيدة جداً في العموم ،

وبعد ذلك أخبرني أنه أصدر توجيهات إلى قسم الفلسفة بإعفائي من:

١/ إختبارات اللغة الإنجليزية ومطلوباتها .

٢/ إختبارات تحديد المستوى The Aptitude Test .

وقال لي :

" يمكنك الالتحاق بالدراسة فوراً ومباشرة "

(Good luck to you, and have a good time).

ولقد كانت تلك المقابلة بداية عظيمة لحضوري إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان لها وقع السحر في نفسي وفي معنوياتي ، وأزالت كل المخاوف التي كانت تعشعش في ذهني ، عن سلوك الأمريكان المتعالي ، والذي يمكن أن يتميز بالعنصرية : فقد كان الرجل ودوداً إلى أقصى درجة ولطيفاً ، ومتواضعاً تواضع العلماء العظام ، ولذلك كانت تلك المقابلة أعظم هدية لي كطالب جديد في الجامعة ، قادم من أفريقيا السمراء ، ومهدت لي الطريق وأزالت كل العقبات . وكانت أعظم لفتة في إعدادي للإنغماس في الحياة الجامعية الأمريكية (Best Orientation) ، ذكرت تلك الحادثة والدكتور عبدالله الطيب جالس في الصف الأول في اجتماعات المجلس القومي للتعليم العالي . وكان وزير التعليم العالي حينذاك صديقي العزيز البروفيسور إبراهيم أحمد عمر ، فاهتز عبدالله الطيب لسماعه الإطراء على جامعة الخرطوم ، من الرئيس الأعلى لجامعة بيتسبيرج ، وكنت قد ذكرت تلك القصة في معرض دفاعي للإبقاء على اللغة الإنجليزية ، كواحدة من لغات التدريس في الجامعات السودانية إلى جانب العربية ، خاصة في الكليات العلمية والتقنية . وهي أيضاً اللغة العالمية ، ولغة الإنترنت ، وأن الإبقاء على اللغة الإنجليزية كوسيط للتدريس في جامعة الخرطوم ، هو أحد أعظم عوامل تميز جامعة الخرطوم ، وسمعتها العالمية وفي قدرتها على جلب علماء وأساتذة متميزين من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والهند وباكستان .

ولم أكن بالطبع أجهل أهمية التدريس باللغة العربية ، كلغة عظيمة ، لغة القرآن والحضارة وكذلك لأنها اللسان القومي (The Mother Tongue) ، وغني عن القول أن الطلاب إنما يتعلمون بصورة أحسن وأجود عندما يكون اللسان القومي هو وسيط التدريس .

الفصل الثالث

عبدالله الطيب :

الرجل والبيئة والإيقاع

الفصل الثالث
عبدالله الطيب: الرجل والبيئة والإيقاع

عبدالله الطيب: الرجل والبيئة والإيقاع

في هذا الفصل، ندرس المكونات الرئيسة في شخصية عبدالله الطيب :

١ - عبدالله الطيب الرجل والمكوّنات الجينية الوراثية والسوسيولوجية .

٢- عبدالله الطيب والبيئة : المكوّنات البيئية، تعليمية وطبيعية وبشرية .

٣- عبدالله والإيقاع : القرآن والمديح والشعر في حياة عبدالله الطيب . أي النظم والإيقاع والموسيقى والأنغام، وتأثيرها البالغ في حياة عبدالله الطيب .

وكاتب هذه السطور يدعي أنه يمتلك استبصار خاص في هذه المسائل جميعاً ذلك أنه - وبتوفيق عجيب، يكاد يعيش نفس هذه المكونات في حياته :

* فهو ينتمي إلى نفس السلالة البشرية من قبيلة الجعليين ومن بطن وعشيرة قريب جداً من البطن التي ينتمي إليها عبدالله الطيب .

* وعاش في نفس البيئة ذاتها بربر وعطبرة والدامر وأم الطيور في القرية التي تلامس " التميراب " التي عاش فيها عبدالله الطيب السنين الأولى من طفولته . " فالتميراب " هي أم الطيور الشمالية والدبيبة، قرية آل إمام، هي "أم الطيور الجنوبية " .

* وعشيرة عبدالله الطيب هم المجاذيب من زريبة شاع الدين وهم بركة الجعليين، وأهل العلم والتقوى والفضل منهم . وأهلي هي ذرية الملك - يعني الملك - عبدالدائم بن الملك عدلان، ود الملك عرمان - عميد عموم الجعليين، ولكن أمي تنتمي إلى " آل النعيمة " وهم قوم جعافرة من ذرية الحسين بن علي، كانت هجرتهم قد بدأت من وادي فاطمة من بطاح مكة وإلى أربد بشرق الأردن، ثم المنصورة بمصر ثم حجازي الجعافرة في مركز قنا . وأخيراً استقر بها المقام في مدينة بربر من ولاية النيل في شمال السودان، وهم أهل قرآن يحفظونه جيلا عن جيل ويرتلونه آناء الليل وأطراف النهار . وكانت لهم خلوة مشهورة يُحفظ القرآن للصبية ببربر وعلى رأسها الشيخ ود ونس، من الرباطاب . وكانت - تقيم في منزل جدي عثمان النعيمة، ذلك البيت العام الفخم الذي يقع في أكثر من ستة آلاف متر مربع . والذي كان سوره المرتفع الشاهق يجعله يبدو كالقلعة للناظر إليه من الخارج، فكان راكب الجمل لا يستطيع أن يرى ما بداخله نسبة لعلو سوره .

عبدالله الطيب الرجل سليل المجاذيب :

عملياً لا يمكن الحديث عن عبدالله الطيب كرجل من دون الحديث عن " جعلية عبدالله الطيب " . ومن دون الرجوع إلى خلفيته الأسرية كسليل لواحدة من أعرق الأسر السودانية في شمال السودان ؛ تلك هي أسرة مجاذيب الدامر ، التي تسمى الدامر باسمهم فهي " دامر المجذوب " .

يا دامـــــر المجـــــذوب لا أنت
قـــرية بداوتهـــا تبـــدو ولا أنت بندر

فعبدالله الطيب لا يكاد يكف أو يفتر من ذكر قومه بدامر المجذوب ، أو " بالدامر الغربي " وهذه إشارة إلى قريته التي نشأ فيها والتي تسمى " التميراب " أو أم الطيور الشمالية ، بالشاطيء الغربي للنيل ، محاذية لدامر المجذوب بالضفة الغربية ومن هنا جاءت إشارته لها " بالدامر الغربي "

ألا حـي بـالـدامــــــــــر المنـزلا
تمنيـت بـالســــــعـــــد أن يؤهـلا
وســــــدراً وطـلحــــــاً وسنطا
مطلاً على النيل تحـسـبـه أجـبـلا(١)

وفي قصيدته " حنين "(٢)

أقــــول لخـــافق في الصـــدر ثارا
ودمع في مـــجــاري الخـــد مــارا
رويدكـــمــا فــدونكمــا ليــالٍ
أتسـتطيـعـان فـيـهن اصطبـارا
تذكــرت الشــمــال وســاكنيــه
وهـاتيـك المعــــاهد والـديـارا
وأهلاً قـــد هجـــرتهـُم طـويـلاً
وإخــواناً أحـبـيـبـة صـغـارا

---

(١) ديوان "سقط الزند" ص ٩٨ .
(٢) ديوان "سقط الزند" ص ٣٧ . قرأها على الشاعر علي الجارم عندما زار السودان .

رويدك أيهــــــــا الـقـلـب المُعنى

أمـــــا تـنفـك تـؤلمني ادّكـــــارا

تصـــور لي مســـــاكن كنت فـــيــهـــا

أباهي الدهر تيــهـــاً وافــتــخـــارا

وتذكـــرني مـــرابع مـــشـــرقـــات

ســقـيت بُهـا الصّـبـا صـرفـا عُـقـارا

حنان قــــرابة وصـــــفـــــاء ود

وأيامـــاً مـــضين بهـــا قـــصــــارا

وفي رثاء جده لأمه الشيخ (جلال الدين الطيب)، يذكر عبدالله الطيب [1] ذاك الود وتلك المحنة التي تميز عشيرة المجاذيب والروابط الروحية العميقة التي كانت تلفهم جميعاً:

نشـــر الموت برده فـــاحـــتـــواكـــا

ليت نفـــسي قـــبـــيل ذاك فـــداك

يا سليل الكرام من روح مـــجـــذوب

عـــــــزيز علىّ ألا أراكـــــــــا

ومـــسـيل الكتـاب كـالروح من فـيك

قـــويا لا يفـــضـــفض الموت فـــاكـــا

حـــينمـــا كـــانت الليـــالي من الهم

تبـــاعـــاً من كـــان يومي ســـواكـــا

يا منيـــــر الطريق في الزمن المظلم

من لي بومـــــضـــــة من سناكـــــا

هذه بعض العواطف والصبابة التي كان عبدالله الطيب ينطوي عليها، وهو شاب طرير العود غض الشباب. وللشباب – في العادة – قسوة وغفلة ولكن عبدالله الطيب، وهو بعيد في ديار الغربة "بلندن" ما يفتأ يذكر أهله بالتميراب ويحي ذلك المنزل في "الدامر الغربي"، ويحن لديار أهله المجاذيب، وأخوانه الصغار في "التميرات" لا تغره حياة لندن الصاخبة ولا يلهيه بهرجها ولا أضواؤها ولا مغانيها السافرة بالجمال والضياء ولكن

---

(١) سقط الزند ص ٥٤ .

هذا الشوق إلى الأهل وهذا الحنين إلى المرابع المشرقات يزداد قوة وشجى، فيشتد رنينه وتقوى ترانيمه في "أصداء النيل":

ففي قصيدة "ذكرى النيل" يحن عبدالله الطيب، من وراء البحار في "لندن" إلى ديار الأهل والأحبة بالخرطوم وبالدامر الغربي حيث شجر السيال والسنط والسدر، وحيث السواقي والنواعير ذات الألحان العذبة، (وقد غدت بألحان عبرى ثرة العين مثكال[1])

بلندن مـــالي من أنيس ولا مـــال
وبالنيل أمـــسى عـــاذري وعـــذالي

ذكـــرت التـــقـــاء الأزرقين كـــمـــا دنا
أخـــو غـــزل من خـــدر عـــذراء مكســـال

إذا الأبيض الزخّـــار هاج عـــبـــابه
له زجلٌ من بين جـــال إلى جـــال

ويا حـــبـــذا تلك السواقي وقـــد غـــدت
بألحـــان عـــبـــرى ثرة العين مـــثكال

ونخلٌ إذا مـــا البـــدر أشـــرق خلفـــه
أطل على الرائين كـــالعنق الحـــالي

وشـــوك الســـيـــال يلمع النور فـــوقـــه
طرائق مـــثـــل الذر يلمع في الآل

ألا ليت شـــعـــري هل أبيتن ليلة
بكتـــبـــان داري والأحـــبـــة أحـــوالي

وهل أســـمـــعن الدهر تغـــريد طائر
وبالفـــجـــر ترجـــيع المؤذن والتـــالي

ففي "لندن" ليس سوى الوحشة والقفر المطلق "لا أنيس ولا مال" ولا سلوى للروح بقرب الأحبة والأهل وجمال الطبيعة الغناء في "الدامر الغربي" حيث تغريد الطيور بالنهار وترجيع صوت المؤذن وتالي القرآن بالفجر وآناء الليل وبالبكور والآصال.

وحيث الكثبان القفر ينبت فوقها شجر السيال السنط وأشجار السدر الخضراء، ورحم

---

(١) أصداء النيل، ص ٥٠.

الله العباسي ، ذهب إلى مثل ما ذهب إليه عبدالله الطيب حيث تغنى أيضا بجمال الكثبان (وأي جمال فيها يا ترى) غير محبة الأوطان وعشقها :

حياك "مليط" صوبُ العارض الغادي

وجـــــاد واديك ذي الجنات من وادِ

كـثبـانك العـفـرمـا أبهى مناظـرها

أُنس لذي وحـــشـــه رزق لـمـــرتاد

قلت أي جمال في الكثبان القفر (وأي جمال للطبيعة إلا ذلك الجمال الذي كان صول كلية غردون التذكارية يراه في شارع "الظلط" وقد امتلأ بمياه الأمطار، على ما رواه عبدالله الطيب في مقدمة كتابه "سقط الزند ص ٩٧

ولكنه حب الوطن : (يقول ابن الرومي) :

وحـــبب أوطان الرجـــال إليـــهــــموا

مـــآرب قـــضـــاها الشـــبـــاب هنالك

إذا ذكـــروا أوطانهم ذكـــرتهــــمـــوا

عـــهـــود الصـــبـــا فـــيــهـــا فـحنوا لذلك

ويشتد الحنين بعبدالله الطيب ويشتد الشوق والصبابة إلى ربع آبائه الصيد : حب الأنس وحب عزاء الروح في تلكم الآيات تُتلى في "قبل الغلس"

يا رحـــمـــــــــة الـلـه عـلـى والـــد

لي كـــان يتلو السُّـــبع قـــبل الغلس

ورحــــمـــــــة الـلـه عـلـى ربع آبائي

عـــــــــــفـت آثـــــاره واندرس

يا حـــبــــذا الدامـــر والمســـجـــد

العــــامـر والبـــئـــر بهـــا مـريم

"وبـلـغ الـــلــهــم" قـــراؤهـــا

الفـــصـــيح والمعـــتـــمل الأعـــجم

مـــا أنا والعـــيش وقـــاســـيــتـــه

كـــأنـه الصـــــابُ أو العـلـقـمُ

وخلتْني لي سلف صالح
أغرُ من سبخيّ أو أكرمُ

يقرأ من جيد ما أنشأ
الماضون والشعر الذي احكموا

ويجتلي في هداك الدُجى
عرائس النظم التي أنظمُ

فعيشه في دار الغربة (بلندن) كأنه الصابُ أو العلقم، أما سالف حياته في دامر المجذوب وفي الدامر الغربي، فكانت حياة ملؤها الحب والإيقاع والأنغام والمسجد العامر والبئر بها مريم وذلك الانشاد الذي لا ينقطع والمديح الذي يعج بالصبابة والشوق والمحبة القصوى للمصطفى (صلى الله عليه وسلم).

كانت ليالي دامر المجذوب، خاصة ليلة الجمعة (الليلة الغراء) ويوم الجمعة وليلها كانت ليالي ملاح.. عامرة بالذكر والاجتماعات الحاشدة واللقاءات الجامعة في تلك السوح الفسيحة، العطرة بأنفاس القوم الحري بالمحبة والشوق.. وبالبخور السوداني العطر الفواح وكذلك كانت تلك الليالي عامرة بالقرى والطعام.. وشعار رجال الطرق الصوفية (لا دين بلا عجين) فقد كانت تلك الجموع الهائلة من الرجال والنساء والصبيان تُطعم كلها بلا استثناء، الغني والفقير، البعيد والقريب، العاكف في مسجد المجذوب والبادي.. وطعام الثريد المشهور (الفتة أم توم)، وكذلك الشاي بالحليب وفي بعض الأحيان " اللقيمات أو الزلابية " مع الشاي بالحليب، المعطر بالقرفة الهندية الأخاذة الرائحة.. ذكر وسمر وقري.. والروح سكرى بالهيام والمحبة للمصطفى: وكانت قصائد الشيخ محمد المجذوب قمر الدين، وكذلك مولد السيد محمد عثمان الميرغني الكبير، هي الموالد التي يتغنى بها الجميع هنالك في هيام وسكر وصبابة.

فكان حقاً على عبدالله الطيب أن يفتخر بأهله وأجداده. ففي (قصيدة نبوية) نجده يذكر أهله وأجداده الثاوون في ذلك الدامر الغربي (التميراب) متوسدين ذلك التراب الطيب:

ألا يا رعى الله الذين توسدوا
لدى العدوة القصوى صعيداً مطيبا

أولئك قومي لا يزال لذكرهم
رئي إذا ما صادح الفجر أطربا

أراهم أمـــامي آخـــر الليل مـــوهناً
شـــخـــوصـــاً تراءى أبعـــدين وأقـــربا
بأيديهم الألواح فـــيـــهن أسطرٌ
كـــتـــاب الإله هادياً من تنـــكا

الحديث عن قبيلة الجعليين :

نعود إلى الحديث عن " جعلية " عبدالله الطيب وقوة إنتمائه إلى عشيرته من الشاعيناب " أولاد الشيخ عبدالعال" بركة الجعليين. فمعروف عن الجعليين قوة احساسهم بتفوقهم على مجموعة القبائل العربية في السودان، خاصة المجموعة العدنانية والتي تضمهم إلى جانب :

- الشايقية
- الرباطاب
- الجموعية
- الجميعاب
- الانقرياب
- الميرفاب
- البطاحين
- العبدلاب وغيرهم

فهم عباسيون وهم ملوك الشمال وسادة العرب في السودان، ويماثل موقعهم ومكانتهم موقع ومكانة قريش وسط العرب في الجاهلية ولا يدينون بالولاء لأحد إلا للسادة الأشراف من عترة المصطفي (صلى الله عليه وسلم) من آل الميرغني وآل المهدي والأدارسة وآل الشريف الهندي وغيرهم من بيوت السادة الأشراف في السودان.

والجعلي - في غالب الأمر - إنسان جميل، كريم شجاع، وهو يحب المجد والسؤدد والسمعة الطيبة والثناء. وهو كذلك يشعر بالتفوق والتفرد على الآخرين، ولا يحمل ذلك على العنصرية لأن الجعليين أكثر القبائل العربية اختلاطاً بالقبائل غير العربية ومنذ أن تشتتوا شزر مضر على أثر حملة الدفتردار التركية عليهم إثر مقتل إسماعيل باشا ابن الطاغية محمد علي باشا - حاكم مصر آنذاك - ذهبوا شرقاً فاختلطوا بقبائل البجا والبني

عامر والحبشة وأرتريا وجنوبا دخلوا جبال النوبة وتصاهروا مع السكان الأصليين وكذلك دخلوا مناطق الدينكا في أعالي النيل ومنطقة البحيرات وكذلك بحر الغزال وتصاهروا مع قبائل الدينكا واليوم هنالك أفخذ من الدينكا تسمى "دينكا عالياب" وكذلك "دينكا زيداب" وملامح هؤلاء ملامح جميلة ورقيقة وكذلك شمائلهم فيها الكثير من الشجاعة والرجولة والعزة والاحساس العظيم بالشرف وبالعرض وبالتفوق على الآخرين وكلها من صفات الجعليين ومن شمائلهم ولكن يأتي شعور التفوق لا من العنصرية ولكن من الاتصاف بمكارم الأخلاق وجميل الشمائل ومنها :

* الشجاعة والنجدة .
* الكرم والسخاء .
* حب الجمال .
* وحب المجد والسؤدد
* وحب الحياة الواسعة الرغدة

ولذلك نجدهم أكثر ما يشتغلون بالتجارة ويهاجرون في سبيل المال والشرف والسؤدد . وهم يشعرون بإنتماء قوي للعروبة وللعباس ابن عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانت للجعليين ممالك في :

* أم الطيور
* المتمة
* العبدلاب في قري
* والعبدلاب في الحلفاية
* وأسسوا ممالك في مناطق كثيرة من السودان ، حيث ما يهاجرون يرتقون إلى المجد والسؤدد أعلى المراتب .

ولذلك ليس بمستغرب أن يعجب عبدالله الطيب كثيراً بأبي الطيب المتنبيء . ويردد مع ابن الاثير - أنه - أي أبا الطيب - خاتم الشعراء ومهما وُصف من وصف ، فهو فوق الوصف وفوق الاطراء[1] .

ويقول عبدالله الطيب أن أبا الطيب قال يمدح نفسه ويمدح مولاه :

---

(1) انظر عبدالله الطيب "التماسة عزاء بين الشعراء" .

لا تطلبن كــريماً بعـــد رؤيتـــه

إن الكرام بأشخاصهم بذا خُتموا

ولا تبــال بشــعــر بعــد شــاعــره

قد أفسد القول حتى أحمد الصم

وإلى جانب ابن الأثير، فإن الذهبي – فيما روى عبدالله الطيب – هو الآخر قد ذهب في "تذكرة الحفاظ" إلى أن أبا الطيب هو حامل لواء الشعراء.

ومن مثل أبا الطيب المتنبيء من يجرؤ على القول:

أنا الذي نظر الأعــمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

وعبدالله الطيب وزملاؤه من الشعراء والأدباء يحتفون كثيرا بأبي الطيب المتنبيء وينشدون أبياته المشهورة التي يفتخر فيها بريادته في الشعر العربي وإمامته فيه وأنه بحق حامل لواء الشعر العربي، ربما من بعد أمرؤ القيس، الذي وصف في القول النبوي المأثور أنه يحمل لواء الشعراء في نار جهنم:

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله

إذا القول قبل القائلين مقول

ومـا لكلام الناس في ما يريبني

أصول ولا للقائلية أصول

أعادي على ما يوجب الحب للفتى

وأهدأ والأفكار فيّ تجول

سوى وجع الحساد داوِ فإنه

إذا حل في قلب فليس يحول

وقريب من هذا قول أبي الطيب، الذي ذهب مثلا:

ما أعجب الدنيا وأعجبه

إني بما أنا شاكٍ منه محسود

فها هو المتنبيء كثيراً ما يشتكي من الحساد ومن الذين يكيدون له كيداً عند صديقه ومولاه سيف الدولة الحمداني . وخاصة منافسه الفحل أبو فراس الحمداني :

أعـيـذها نظرات منك صـادقـة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

يا أعـدل الناس إلا في مـعـاملتي
فـيك الخصـام وأنت الخصم والحكم

إن كـان يجـمـعنا حب لغرته
فليت أنا بقدر الحب نقـتـسـم

وها هو يهدد الأمير سيف الدولة بأنه سوف يندم عندما يهجره ويذهب إلى مصر .

لئن تركن ضـمـيـراً عن ميـامننا
ليـحدثن لمن فـارقـتـهـم نـدم

وعبدالله الطيب لا شك يسير في بعض أشعاره على خطى أبي الطيب الذي لا يكاد يمل من الإشادة به وبفحولته في الشعر :

* فهو يشتكي من الحساد ومن العواذل

* وهو يقول أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه ، وهيهات هيهات لا أحد في زمانه أن يجاريه في نبوغه أو شاعريته أو في إدراكه خفايا ودقائق اللغة العربية والشعر العربي معانيه وأوزانه وقوافيه ففي قصيدة (بدامر الصدق)[1] :

الشـعـر دمع الذي لا دمع يسـعـده
مما تواليـه بالأرزاء أحـقـاب

وسـامـر المفـرد الأسـوان في بلـد
ناء وقـد عـز نـدمـان وأكـواب

إني لعـمـرك مـا فـارقت مـقلـيـة
قـومي ولكنهـا الأقـدار تنتـاب

ومـا أردت حطام العـيش أطلبـه
ورب غـيـري له سـاع وطلاب

---

(١) أصداء النيل، ص ١٨٢، ١٨٣ .

ولكن نفاني جور طعمه مقر
وحاسدون من الأنذال عُيّاب
ومقردون إلى الإفرنج قد خلعوا
ثوب الحياء عبيدٌ قبل أرباب
وفي شبابي وإن ضن الزمان به
أخو حجاً لكنوز العلم كساب
مذاكر لكتاب الله معترف
من البيان إلى الغايات وثاب
حمالُ أعباء صبر لسن يحملها
من قلبه لسوى الرحمن رغاب
دعهم وغن بسيط الشعر مسلسة
قيادها لك أوتادٌ وأسبابُ

وفي قصيدته (إلى الخرطوم) التي كال فيها السباب والذم لأعدائه وحساده، يقول عبدالله الطيب إنه سوف يبقى - كالنيل - برغم كل شيء - بقاء النجم والصخر الصلاب:

وألسنة من الجهلاء هوج
تعثر حائرات في سبابي
عبأت لها طويل الحلم عنها
وآثرت الجميل من التغابي
سيفنى الأرذلون غداً وأبقى
بقاء النجم والصخر الصلاب

وكأن لسان حاله يقول:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

مهما يكن من شيء، فإن إعجاب عبدالله الطيب بأبي الطيب المتنبيء وحتى البحتري ليس بمستغرب لأنه يشبههم كثيراً في ذلك الاعتداد العظيم بالنفس وتلك العزة الفسعاء وذلك الفخر بالقدرات وبالموهبة الفطرية العظيمة. فعبدالله الطيب، مثل أبي الطيب المتنبيء يرى أنه ليس فقط عالم اللغات الأوحد في العالم العربي - ربما بعد طه حسن

والعقاد – ولكنه أيضاً الشاعر الفذ الفحل الذي يحمل لواء الشعر في العالم العربي بعد الجهابذة الكبار من أمثال البارودي وشوقي وحافظ، أما الأوائل من أمثال أبي الطيب والبحتري وأبي العلاء المعري وأبي تمام، فهو يحذو حذوهم ويتشبه بهم: ولسان حاله يقول:

وتشـــبـــهـــوا إن لـم تكونوا مـــثلهم
إن الـتـــشـــبـــه بالكرام فـــلاح

وعبدالله الطيب قد ذكر صراحة – في مقدمة ديوانه "سقط الزند" مدى تأثره بأبي العلاء المعري، ومن هنا جاءت تسمية ديوانه الذي يعبر فيه عن فترة الشباب وفورته الأولى وتطرفه في كل شيء.

وفي كتابه "القصيدة المادحة" أفرد عبدالله الطيب مقالة كاملة بعنوان "الدرعيات". ويكفي دليلاً على مدى تأثر عبدالله الطيب بأبي العلاء المعري أنه أنجز رسالته لنيل الدكتوراه في جامعة لندن (SAOS) في الأدب العربي دارساً لأشعار ابي العلاء المعري، وكان عنوان الرسالة:

"أبو العلاء المعري شاعراً"

Abu Al-Ala Al-Maari as a Poet

ويعرف عن أبي العلاء المعري أنه قضى شطراً من حياته الناضجة في عزلة طوعية تامة عن الناس والخلق، وكان سيئ الظن بالناس قاطبة.. وهذا يذكرنا بالطريقة التي كان عبدالله الطيب ينظر بها إلى كل الناس – في فترة طويلة من حياته، إذ كان سيىء الظن بالخلق جميعا ولذلك ما كان يتوانى من هجاء أهل الخرطوم – خاصة أساتذة جامعة الخرطوم الذين كانوا – بعضهم – يناصبونه العداء. ولكن هجاء عبدالله ما كان يعرف حدوداً يقف عندها. وما كان عادلاً في كثير منه.

ففي قصيدته "إلى الخرطوم[(١)]" يكيل الهجاء كيلاً إلى أهل الخرطوم (هل هو يقصد بعض أساتذة جامعة الخرطوم الذين كانوا يعادونه):

إلى الخـــرطوم من بعـــد اغـــتـــراب
وبعـــد بلى الشـــهي من الشـــبـــاب

---

(١) أصداء النيل، ص ١٩٩ – طبعة دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٧٣.

وما الخرطوم داري غير أني
غريب حيثما حلت ركابي

دفنت بها الحبيب من الأماني
وباينت القريب من الصحابي

وآثرت الكتاب على خليل
يرائيني بأصناف الكذاب

يحدثني عن الأشباه ولّوا
فحولي معشرٌ مثل الذئاب

وشُهْد من حطام العيش يدعو
نفوساً منتنات كالذباب

ولولا النيل والذكرى وصبري
وأني للمكاره ذو غلاب

لهاجرت البلاد فليس فيها
سوى ذلٍ ورجس واحتراب

أرى الخرطوم من قذر وعار
ومن دنس وإدهان وعاب

وزهو منافقين لهم نفوس
تبض من الخيانة والخلاب

وحساد إذا ما رحت أبني
تنادوا بالمعاول للخراب

وشغل بالسفاسف وازدهاء
بإيثار القشور على اللباب

فيا وطناً طويل الحزن أمسى
يدبر أمره غير الصواب

أرى نهر الجحيم طما ونادى
بنيك ألا هلم إلى شرابي

فـعـبـوا كلُّهمُ فيه عطاشا
فبشرهم بعاقبة العذاب
تناسوا كل مكرمة وفضل
ونحو المخزيات أولو هباب
وما يتزاجرون عن الدنايا
وقد برزت تبرّج كالقحاب
وسوّد كلُّ مأفون جبان
عقور النفس ملعون الإهاب
تحف به الخبَّات من الأفاعي
وتتبعه الخساس من الكلاب
بكيت على بلادي حين سارت
تخبط من يباب في يباب
تبيع الحق وهو أغرُّ نضرٌ
ببيع الوكس في سوق التباب

ألا رحم الله الدكتور/ عبدالله الطيب، فلا بد أنه قال هذه القصيدة في لحظة كان يعاني فيها من غضبة مضرية، وفي حالة يأس تام أن ينال موقعاً في السودان عامة وفي جامعة الخرطوم خاصة، ولا أشك أن معظم من وجه إليهم نيرانه الحارقة كانوا من أساتذة وإداريي جامعة الخرطوم من الذين كانوا يناصبونه العداء ويكيدون له كيداً. . ولا جرم أن عبدالله الطيب قد بالغ كثيراً في هذا الهجاء وتجاوز فيه كل الحدود. ولا شك عندي أن الأغلبية الساحقة من أساتذة جامعة الخرطوم هم علماء على قدر كبير من حسن الخلق ودماثة الأخلاق. ولئن كان هنالك بعض الأفراد القليلين من الذين ينطبق عليهم بعض ما قال عبدالله الطيب، فهم شرذمة قليلة وهم الشواذ، (والشاذ لا حكم له)، كما يقال في فلسفة التشريع.

وفي قصيدته التي استعرضناها أعلاه وعنوانها "لا تأس[1]" نرى عبدالله الطيب – يرحمه الله رحمة واسعة – يتمادى في هجاء أعدائه من أساتذة جامعة الخرطوم؛ الذين

---

(١) أصداء النيل، طبعة دار نشر جامعة الخرطوم – ص ٦٠.

حالوا بينه وبين ما يشتهي من إدارة جامعة الخرطوم الحسناء التي يحبها أيما حب:

لا تأس فـالناس أعـداء اللبيب وكم
قـد أنذرتك فلم تحـفل بهـا النذرُ

والتي يقول فيها أيضاً:

يا أيهـا الوطن السـاعي تدفـعـه
كفُ الخـيـانة والأعـداء والقـدر

قـد نام أبناؤه عن كل مكرمـة
أمـا الخني فـعلى كـثبـانه سـهـروا

إني كـمـثلك أبغي النصر مـجـتـهـداً
وكـيـف النصـر لا عـون ولا وزر

هنا أيضاً يغلط عبدالله الطيب غلطة كبيرة، إذ يقع في أغلوطة التعميم، كما يقول أهل المنطق.. وهذه الأغلوطة يتورط فيها من يرى اعوجاجاً في واحد أو أكثر من أعضائه أو مجموعته، فيستنتج أن كل المجموعة تتصف بذلك الإعوجاج.. وتلك الصفات الذميمة التي عند القلة منهم. ويسـمـون هذه الأغلوطة بأنهـا (The Fallacy of Gener-alization).

ولسان حال عبدالله الطيب هنا أنه لن يستطيع أن يحقق خططه الرامية إلى تطوير جامعة الخرطوم وبناء مؤسساتها الأكاديمية، طالما كانت تلك "العُصبة الباطلية" تسيطر عليها.. ولعله يستشهد بالأبيات:

مـتى يَبلغُ البنيـان يومـاً كـمـاله
إذا كنت تبنيـه وغـيـرك يهّـدمُ

العصبة الباطلية وتشريد عبدالله الطيب:

وحقيقة، فإن الهجاء اللاذع حداً الذي وجهه عبدالله الطيب، مهما كان قاسيا إلى تلك "العصبة الباطلية"، لم يكن بدون مبررات أو بدون أسباب:

(١) فلقد حرمته تلك "العصبة الباطلية" من أن يصير مديراً لجامعة الخرطوم لمدة لا تقل عن عشرين عاماً (من ١٩٥٣ إلى ١٩٧٣)، وقد كان من أجدر الناس بها وأحقهم وأقدرهم.. ومن طرائف الحقائق في هذا الأمر، أن عبدالله الطيب كان يحفظ قانون

الجامعة الأساسي، وكذلك القوانين الفرعية واللوائح، كان يحفظها عن "ظهر قلب" كما يقال. ليس هذا فحسب، بل كان يحفظ معظم أسماء الأساتذة الإنجليز وغيرهم من الذين أسسوا كلية غردون التذكارية التي صارت جامعة الخرطوم فيما بعد! ويحفظ كذلك معظم ممتلكات الجامعة وعقاراتها وأوقافها وكافة الأراضي التي منحت لها بواسطة الدولة. لا غرو إن استطاع أن يوظف تلك المعلومات الموسوعية في إدارة جامعة الخرطوم، عندما صار - أخيراً - مديراً لها. ولا غرو أن صار من أنجح وأقوى المديرين الذين عرفتهم الجامعة، في تاريخها الطويل (أسست كلية غردون التذكارية عام ١٩٠٢م).

ولم يقتصر الأذى الذي سببته تلك (العصبة الباطلية) في حرمان عبدالله الطيب من منصب مدير جامعة الخرطوم لفترة طويلة فحسب، ولكنها تعدت ذلك إلى فصله تعسفيا وتشريده من جامعة الخرطوم ومن السودان كله، فذهب إلى التدريس في نيجيريا ومن بعدها إلى جامعة الملك محمد الخامس في المغرب العربي (مراكش) فيما بعد حيث قضى فيها سنوات مليئة بالبذل والعطاء والشهرة أيضاً، واكتسب فيها شهرة عالمية.

ولم تكتف تلك "العصبة الباطلية" على حد تعبير عبدالله الطيب - بتشريد عبدالله الطيب (وتطهيره) وإنما إمتدت حملة التطهير تلك إلى أعظم وأبرز علماء جامعة الخرطوم ونذكر منهم: (١)

١- بروفسير/ دفع الله الترابي - عميد كلية الهندسة بالجامعة

٢- بروفسير/ عوض سالم الحكيم أيضاً من الذين تولوا عمادة كلية الهندسة ومن الذين أسسوا معهد الكليات التكنولوجية "الذي صار الآن جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا"

٣- بروفسير/ عثمان سيد أحمد - الذي صار وزيراً للتعليم العالي على عهد نميري.

٤- بروفسير/ فريد العتباني - أستاذ العلوم الاقتصادية والإدارية

٥- بروفسير/ زكي مصطفى - عميد كلية القانون

٦- بروفسير/ عبدالحميد جابر أبو العز ولقد كان نابهة عبقرياً في مجاله (الاقتصاد والتمويل والدراسات المصرفية) وهو كذلك من أسرة عريقة جداً.

(١) كانت "رابطة الأساتذة الاشتراكيين" تقف وراء الاتجاه والإجراءات الرامية إلى تشريد كبار أساتذة جامعة الخرطوم، وكان شعارها "تطهير الجامعة" من سدنة الفكر الرأسمالي الغربي، الذي يقف حجر عثرة أمام انتشار الفكر الماركسي في جامعة الخرطوم.

٧- وغيرهم (أبو سنينه، حجار، النذير دفع الله، د. يوسف سلفاب.. الخ الخ).

وهكذا تمكنت تلك "العصبة الباطلية" من تشريد وفصل عدد بارز ومؤثر جداً من علماء جامعة الخرطوم المؤسسين الآباء ومن هنا يمكن أن نتفهم - بعض التفهم - تلك الغضبة المضرية وذلك السخط الكبير الذي يتجلى في قصائد عبدالله الطيب، كلما يذكر السودان أو تذكر جامعة الخرطوم، والمرارات المؤلمة التي تجرعها بسبب كيد وعداوة تلك المجموعة من أساتذة وإداريي جامعة الخرطوم الذين كانوا لا يعادون عبدالله الطيب فحسب، بل كانوا يعادون كل كبار الأساتذة الذين كانوا يمثلون رموزاً لهوية الجامعة الوطنية أو الإسلامية.

ولئن كانت عداوتهم شديدة ضد عبدالله الطيب، فقد كان عبدالله الطيب يوجه ضدهم حملات إعلامية وأدبية وينظم الشعر في هجائهم، وكان شجاعاً لا يهاب أحداً ولا يكترث كثيراً لحملاتهم ضده، كما كان عبدالله الطيب محبوباً جداً في داخل الجامعة وخارجها، وكان أيضاً يتمتع بشعبية كبيرة وسط الجماهير التي كانت تتابع محاضراته وبرامجه الثقافية في الإذاعة والتلفاز بشغف كبير.

و عبدالله الطيب يعتبر واحداً من أعظم رموز الثقافة الإسلامية في السودان ومن الداعين إلى تعريب جامعة الخرطوم، ذات الإرث الأكاديمي الإنجليزي الغربي، ألم تؤسس جامعة الخرطوم ككلية تذكارية للجنرال غوردون، وبأموال إنجليزية وكنسية ؟؟. وكانت هذه الدعوة إلى تعريب جامعة الخرطوم - وما تزال - تشكل أمراً مزعجاً للغاية لمن يسمون "بسدنة الميراث الإنجليزي" لجامعة الخرطوم وهؤلاء يريدون أن تبقى جامعة الخرطوم أبد الدهر صورة للجامعات الإنجليزية، خاصة جامعات لندن وكمبردج وأدنبره، التي كانت ترتبط بها تاريخياً.

وبسبب تلك الاعتبارات، كانت تلك "العصبة الباطلية"، في الخرطوم وفي بريطانيا، تشن حربا لا هوادة فيها على بروفسير عبدالله الطيب.

ولقد جاءت الفرصة المواتية لعبدالله الطيب، عندما استولى جعفر نميري على السلطة.. ودعا إلى إجتماع لأساتذة جامعة الخرطوم لمناقشة أوضاع جامعة الخرطوم، التي كانت تحت الحصار المايوي في أواخر عام ١٩٧٢ أو أوائل ١٩٧٣م. ولكن عبدالله الطيب لم يذهب إلى ذلك الاجتماع.. بل ذهب مباشرة إلى القصر الجمهوري حيث كانت شخصيات صديقة لعبدالله الطيب قد رتبت له لقاء مع العقيد جعفر نميري آنذاك!!

وبينما كان أساتذة جامعة الخرطوم المناوئين لمايو الثانية (بعد طلاقها مع الحزب الشيوعي في اجتماعهم ذلك) ورد نبأ عاجل في الإذاعة السودانية بتعيين د. عبدالله الطيب مديراً لجامعة الخرطوم بأمر جمهوري بإمضاء العقيد جعفر محمد نميري! وهكذا صار عبدالله الطيب مديراً لجامعة الخرطوم أخيراً، وشرب أساتذة جامعة الخرطوم، خاصة الاشتراكيين منهم الموالين للحزب الشيوعي السوداني واحداً من أمر وأقسى المقالب، من د. عبدالله الطيب، وضربة بضربة والبادئ أظلم!!

عبدالله الطيب والجعليون:

لم يكن عبدالله ذا نزعة قبلية، فبالرغم من اعتزازه الشديد بقومه وشدة إنتمائه إلى آبائه وأجداده إلا أنه لم يكن يتعصب بصفة خاصة إلى "الجعليين" كقبيلة، وإنما كان يعتز بقومه وبعشيرته من المجاذيب، كونهم أهل علم وبيان وأهل قرآن ومساجد. ومعاهد للتعليم والتدريس، وللذكر والثقافة الإسلامية، وخاصة محبتهم للمصطفى (صلى الله عليه وسلم) ونظم الشعر والقصائد الخرد في مدحه.

ولقد سمعته مرة يعلق على نسب قبيلة الجعليين، وإدعائهم أنهم ينتمون إلى الفضل الأصغر، أي الفضل بن عبدالله بن عباس، لأن الفضل الأكبر (الفضل بن العباس) لم تُعرف له ذرية، بل كان بلا ذرية (كان عقيماً).

كان يعلق على ذلك النسب بصورة لا تخلو من نقد وتشكك: فمن ضمن الأسماء التي ترد في سلسلة النسب الجعلي العباسي أسماء:

* ياطل
* وهاطل

فقال:

"أظن أن هذه أسماء شياطين، فلم يُعرف في اللغة العربية أو القبائل العربية أسماء مثل هذه الأسماء!!!"

وأعترف بأنني (كجعلي، شديد الاعتزاز (من دون عنصرية) بقومي الجعليين قد أصيبت بصدمة لهذا التشكك في أنساب الجعليين، ولكن بالطبع لم يبوح بهذه المشاعر فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم. واستغربت لقوله أن هذه ليست أسماءً عربية.

فهاطل من المطر الهطّال،

" وياطل، يمكن أن تكون من "طلال" أو حتى من هلال ولكن من أنا حتى أجرؤ على مناكفة عبدالله الطيب في أمر يتعلق بعلوم العربية . . "

بالرغم من ذلك، فعبدالله الطيب يعاني من نزعة عربية قومية فهو شديد الاعتزاز بالعروبة، د. عبدالله الطيب شديد الإعتزاز بأصوله العربية وبالرغم من "سمرة لونه" فقد كان كثيراً ما ينسبها إلى العرب الأوائل، الذين لم يكونوا بيضاً كالأعاجم من الأوربيين أو من قبل بياض الشوام ذوي الأصول الفينيقية. فالعرب أقرب إلى السمرة أو السواد:

ولذلك كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول:

" إنما بُعثت إلى الأسود (يعني العرب) والأحمر من الناس (يعني الروم) "

وعبدالله الطيب يقول أنه يصف العرب بأنهم "خُضُر" اللون لأن اللون الأخضر إذا اشتد اخضراره فهو يميل إلى السواد.

قال تعالى: ﴿ومن دونهما جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان مدهامتان﴾ المدهامتان، أي السوداوتان من شدة التفافهما واخضرارهما.

يقول عبدالله الطيب[1]:

"قال حسان بن ثابت (شاعر رسول الله، صلى الله عليه وسلم) يمدح بني جمح، وكانت ألوانهم أقرب إلى السواد" أو من بني جُمح الخضر الجلاعيد فعد سوادهم خضرة، والخضرة من ألوان العرب . .

قال الفضل بن العباس اللهبي:

وأنا الأخضر من يعرفني
أخضر الجلدة من لون العرب

من يساجلني يساجل ماجداً
يملأ الدلو إلى عقد الكرب

فذكروا أن الفرزدق - وهو الفخور أقر له بهذا الفخر الذي افتخره!!

وقال ابن الرومي - يفضل العلويين - وكانت الخضرة أغلب على ألوانهم، في أوساط الدولة العباسية، بعد أن أكثر العباسيون من بيض الإماء، وأبيضت لذلك ألوانهم:

وعيرتموهم بالسواد ولم يزل
من العرب الأمجاد أخضر أدعج

---

(١) "أصداء النيل" ص ٣٢، م طبعة دار جامعة الخرطوم للنشر".

ومــــــــــا ذاك إلا أن تـزيـن جـلـودكـم

بـنـــي الــروم ألــوان مــن الــروم نُـعّــج

"نُعّج" أي بيض اللون!

وكان عمر بن الخطاب أسمر اللون، أي أخضر اللون. ولقد وُصف - رضي الله عنه - بأنه كان أدلم أدعج. وجاء في النهاية[1] في وصفة عمر بن الخطاب!

"أميركم رجل طوال أدلم." والأدلم هو الأسود الطويل!

رأى عبدالله في انتماء الجعليين إلى العروبة وإلى العباس عم النبي:

وعبدالله الطيب يتمرجح في تأكيد عروبة الجعليين، وتأكيد نسبهم إلى العباس عم النبي.

ففي بعض الأحيان يشكك في هذا النسب أو على الأقل يشكك في عروبة الجعليين الخالصة، فهو يظنهم قوماً هجيناً. عرباً اختلطوا بالنوبة وبالعنج وهم السودانيون الأصليون، الذين كانوا يعيشون على ضفاف النيل، قبل هجرة العرب إليها.

وأحياناً أخرى يذمُّ الذين ينكرون هذا النسب، ويوحي كلامُه أنه يعتقد أنهم عرب رغم سمرة ألوانهم، لأن العرب الأصليين كانوا سمراً أي خضراً، ومنهم العباس عم النبي وعمر بن الخطاب وعشيرة بني جُمح من أحباش قريش. ونراه في هذه الحالة يعرّض بكتاب من أمثال:

- كاتب الشونة
- نعيم شقير
- إبراهيم فوزي
- الشيخ الخضري

ولقد ذم عبدالله الطيب الكاتب والمؤرخ المصري إبراهيم فوزي، صاحب كتاب: "السودان بين يدي غوردون وكتشنر" ووصفه بأنه "جاهل"، لأنه أنكر نسب الجعليين إلى العرب عامة وإلى العباس خاصة.

قال إبراهيم فوزي:

"وبعيد عن الإحتمال أن يستوطن بنو العباس السودان في عنفوان دولتهم.. الخ"

(١) لعله يعني "البداية والنهاية" في الكبير لإبن كثير رحمه الله.

ورد عليه عبدالله – في حدة على النحو التالي :

"غاب عنه الجاهل أن الصحابة بلغوا دنقلة زمان عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومنهم من هاجر إلى شاطيء البحر الأحمر الغربي من بلاد السودان في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد تطر إبراهيم فوزي من حقده على الجعليين بوجه خاص وإنما كره منهم العروبة[1]"

ويرى عبدالله الطيب، إن تجني الكتاب المصريين على الجعليين، ومنهم إبراهيم فوزي كانت الشفونة. وكذلك نعيم شقير والشيخ الخضري وغيرهم يرجع إلى معارضة الجعليين للغزو المصري التركي بقيادة إسماعيل باشا، ابن محمد علي باشا.

كما يرجع إلى المقاومة العنيفة التي جابه بها الجعليون الجيوش الغازية.. وكذلك ما قام به ملك الجعليين – الملك نمر – من قتل إسماعيل باشا وحرقه مع أركان حربه وهم أحياء، بسبب الإهانة التي وجهها إبن الباشا، إسماعيل ابن محمد إلى الملك نمر وقذفه بالغليون في وجهه، أمام وجهاء قومه وعشيرته وشتمه إياه بأقذع الألفاظ: ولقد كان الجعليون هم القبيلة العربية الأكثر مقاومة للغزو المصري التركي في القرن التاسع عشر. وكذلك كان الإنجليز يكرهون الجعليين، بسبب شجاعتهم وتميزهم بالعزة والفخر والكرامة، ورفضهم الإنكسار أمام القوة العسكرية الغاشمة، سواء من الجيوش المصرية التركية أو القوات الإنجليزية. وإن كان بعضهم قد تعاون مع جيش كتشنر في البداية، لأنهم تعرضوا للإبادة والاضطهاد، من قبل الخليفة عبدالله التعايشي، خليفة المهدي على حكم السودان في عهد المهدية.

فمهما يكن من افتخار عبدالله الطيب بقومه من قبيلة الجعليين، ومن العرب جميعاً – وهو يعتقد أن بلاد السودان أصلٌ في العروبة، وأن بني إسماعيل هاجروا إلى الجزيرة العربية من السودان – ولا أعرف على ماذا استند أستاذي عبدالله في هذا الزعم الغريب، فمن الثابت أن إبراهيم عليه السلام هاجر بإبنه إسماعيل وبهاجر – مولاته – من فلسطين بسبب الغيرة والمنافسة التي كانت بينها وبين – سارة – ابنة عمه العبرية التي لم تكن في ذلك الوقت قد رزقت بالأبناء، لأن إسماعيل هو ابن إبراهيم عليه السلام البكر. ولقد ترك إبراهيم زوجته هاجر عند البيت المحرم ومعها إسماعيل وهو بعد طفل صغير.. وفي هذا نزل قرآن يتلى:

---

(١) أصداء النيل، صفحة ٣٠.

قال تعالى :

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (إبراهيم : ٣٧) .

كذلك فإن عبدالله الطيب ، يعتقد أن الخيل العربية الأصيلة موطنها الأصلي هو السودان ، وانها عبرت البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية .

مهما يكن من هذه الآراء الغريبة التي قال بها عبدالله الطيب ، فإنها تظل معلقة تفتقر إلى الأدلة والبراهين ، مثلها في ذلك مثل زعمه أن النجاشي كان بالسودان . وكانت مملكته على ضفاف النيل ولم تكن مملكة اكسوم . وهذه قضية أخرى قال بها عبدالله الطيب ، وتبعه في ذلك أساتذة سودانيون أجلاء ، منهم بروفسير/ حسن الفاتح قريب الله ، ود. جعفر ميرغني ولكني لا أجدها مقنعة البتة – ولكن هذا موضوع يطول وله موقع آخر إن شاء الله !

وكل ما حاولناه أعلاه ، هو أن نبين أن عبدالله الطيب – رحمه الله – لا يخلو من أفكار غريبة وغير مقبولة ، وكذلك معظم العباقرة والموهوبين ، ومن هذه الآراء رأيه عن الجنوب ، وعن ضرورة فصله من السودان ، وكذلك آرائه عن أن السودان أصلٌ في العروبة وأصل في موطن إسماعيل بن إبراهيم وأنه – أي السودان – أصلٌ كذلك في نشأة الخيول العربية الأصيلة . وأن النجاشي كان يقيم في السودان ، في دنقلة . وأن هجرة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأوائل كانت إلى السودان . ومن آرائه الغريبة اعتزازه الزائد بالعروبة ، وربما عدم حساسيته تجاه الأجناس الأخرى من غير العرب . ولكن ذلك لا يرقى إلى اتهامه – أي عبدالله الطيب – بالعنصرية ، فقد كان عبدالله الطيب أذكى وأجل وأرفع من أن يكون عنصرياً ، وهو الرجل المؤمن الذي يعشق المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وهو النبي الذي أبطل العنصرية والتفاخر بالآباء والأجداد ، كما أبطل حمية الجاهلية ودعوتها ووصفها بأنها دعوة منتنة ،

ولعبدالله الطيب قصيدة ، يتغزل فيها بفتاة زنجية : بعنوان "زنجية جنوبية[1]"

وجارية ما ثوبها غير بارق

وحقو من الأغصان والورق الخضر

---

(١) أصداء النيل، ص ٥١ .

لهـا لون كُـحْلي الحـرير وقـد طفت
من الابنوس مـوجـتـان على الصـدر
فـفض سـوام الطرف واعلم بأنهـا
عليهـا ثياب من طبيعـتهـا البكر
هي إبنة غـاب النيل كـوثرك الذي
سـقى الحِـقب الماضين تجـربة الدهر

ولقد عاش عبدالله الطيب زمناً طويلاً في بريطانيا، وفي لندن خاصة، وتعرّض شخصياً للتفرقة العنصرية. . وأصبح يحس بهويته السوداء، بالرغم من أصوله العربية وملامحه العربية الواضحة.

ففي قصيدته "مزدوجة في نعت لندن[1]" يقول:

أخـاف أن تصـدمني سـيـارة
فـالمشي يحـتـاج إلى مـهـارة
أعـطش لا أهدى إلى شـراب
بين الوجـوه البـيض كـالغـراب
أخـتلس المدخل في المطاعـم
خـشـيـة طرف عـاذر أو لائم
وقـد أظن نـظر النـواظر
أشـد وقـعـاً من شـبـا البـوادر
وحـادج بطرف من طرفـه
وباسم يشـعـرني بعطفـه
وذات طفل أسكتت صـغـيـرها
لما رأت من سـحنتي ديجـورها

كذلك، تغزل عبدالله الطيب في بنات لندن السمراوات من جزائر الوست انديز[2]:
يقول عبدالله الطيب:

---

(1) نفس المصدر، ص ١١٣.
(2) أصداء النيل، ص ١٠٦.

بنات انديز الحسان
السُمْرُ في الغلائل
تلطم أمواج صدورهن
صخر ساحل
شفاههن المفعمات
حُقل ُالمناهل
يهمسن بالفتنة في
الأذرع والأنامل
وسوقهن يلتمعن
كالسراب الجائل
شعورهن هدب النحل
على الجداول
يبسمن بالشوق الملح
في البريق الجاذل
من كل ذات يارق
وذات جيد عاطل
لحاظهن قد نفدن
منك في المقاتل

ولقد عاب عبدالله الطيب على صديق لبناني أو شامي، أنه باخت حماسته لقصيدة قالها عبدالله الطيب يتغزل فيها بفتاة من (كانو) بنيجيريا. وكان قبلُ متحمساً لها فما علم أن الفتاة سمراء أو سوداء، باخت حماسته بالكامل بالرغم من أن عبدالله لم يقل أنها سمراء أو بيضاء وإنما قال فقط أنها من "كانو" فاستنتج الصديق اللبناني أن الفتاة سمراء أو سوداء واستنكر على عبدالله الطيب المحاسن التي وصفها بها.. وكأن لسان حاله يقول أن السوداء لا يمكن أن تكون جميلة فاتنة!! ولقد استنكر عبدالله الطيب على ذلك الصديق اللبناني عنصريته فكيف يمكن أن نصف عبدالله الطيب بالعنصرية.

بالرغم من ذلك فعبدالله الطيب لا يخفي عروبته الشديدة بأنه يريد للخرطوم أن تكون

عربية – خالصة لا تزاحمها في ذلك الثقافات الزنجية أو الأفريقية الوثنية . وهو في ذلك مثله مثل مسز تاتشر التي كانت لا تفتأ تشتكي من خطر تفشي ثقافات الإسلام والشعوب الآسيوية في بريطانيا وتهديدها للطريقة البريطانية أو الثقافة البريطانية وأسلوب العيش البريطاني : (The British Way of Life) .

عبدالله الطيب، عاشق النيل:

عبدالله الطيب يعشق النيل عشقاً شديداً ، فهو أبداً متيم بحبه مفتون بجماله وألقه ، وتلك الحيوية العجيبة التي تميزه وكذلك الكرم والإغداق :

ففي قصيدته "ذكرى النيل" يقول[1] :

بلندن مالي من أنيس ولا مال
وبالنيل أمسى عاذريّ وعذالي

ذكرت التقاء الأزرقين كما دنا
أخو غزل من خدر عذراء مكسال

ينازعها كيما يجود وينثني
وقد كان محبوراً موانس آمال

ويا حبذا تلك السواقي وقد عدت
بألحان عَبري ثرة العين مثكال

ونخلٌ إذا ما البدر أشرق خلفه
أطلّ على الرائين كالعنق الحالي

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بكثبان داري والأحبة أحوالي

وهل أسمعن الدهر تغريد طائر
وبالفجر ترجيع المؤذن والتالي

وفي قصيدة "حبذا النيل[2]" :

(١) أصداء النيل، ص ٥٠ .
(٢) أصداء النيل، ص ٧٤ .

حبذا النيل منزلاً ونخيلُ
النيل والليل مقمراً والنجوم
ورمالٌ كأنهن إضي
دارج موهناً بهن النسيم
ورباع يشاد فيهن بالذكر
وتتلى "يس" أو (حَم)
وقبور ثوين في ذلك القفر
سقتهن بالذهاب[1] الغيوم
فرق الدهر بينهن عزّى
نفسه بعد عهدهن اليتيم

وهكذا فالنيل حياة تامة كاملة، وهو أيضا بيئة كاملة من الأنوار السندسية الزاهية والألحان العبقرية الشجية، والآمال والأماني والذكريات، والأهل أحياء وأموات. فحياة الناس في السودان الأوسط كلها تدور حول النيل. الزرع والضرع. والسواقي وألحانها، وآيات القرآن تتلى آناء الليل وأطراف النهار، والآذان في الفجر وفي العشية والمساء.. ثم أولئك الأحباب الذين عمروا تلك المغاني زمناً.. ثم مضوا وأصبحوا ذكرى وقبور مستكنات القفرات. وغابوا وما غابوا عن الذاكرة والوجدان.. وعبدالله الطيب كثيراً ما يذكر تلك القبور المسكنة في أم الطيور لأهل أمجاد وأحباب أعزاء.

إن النيل، بالنسبة لسكان شمال السودان هو "شريان الحياة" وهو في ذات الوقت روح الحياة وريحانها.. وهم يعيشون على استنشاق عبيره.. فالنيل تميز بعرفه وعبيره أهل الشمال والأوسط الذين يعيشون على ضفافه.. وأذكر أننا كنا نستروح ذلك العرف والعبير كلما عدنا إلى بربر لقضاء الإجازة.. وبمجرد الوصول إلى محطة السكة حديد وبمجرد أن ندلف إلى الشارع الكبير الذي يفصل بين حلة السكة حديد وحلة "المنيدرة" نشم تلك الرائحة العبقرية فتنتعش نفوسنا، وترتاح راحة عجيبة ونقول "نحن الآن وصلنا المنزل" "We are home now" وي آر هوم ناو.

---

(١) الذَهاب جمع ذهبة وهي الدفعة من المطر.

ألا يا حبـذا النيل[1] الخصيبُ

العيش من نهر

وذاك السُنبل الراعشُ

فيه نَفَسُ الفجر

ونطوي شقة العيش

مسوقين ولا ندري

وفي قصيدة "حنين إلى النيل" يقول عبدالله الطيب:

فيا ليت النيل يدنو فماؤه

أحبُّ إلينا من معتقة بكر

ومن كاعب حسناء لذ حديثها

تفاح من أثوابها بنةُ العطر

فمن مبلغ قومي السلام تحية

فقلبي لا ينفك منهم على ذكر

وفي قصيدة "بدامر الصدق" يقول عبدالله الطيب:

بدامر الصدق لي رهط وأصحاب

وبالتميراب لي أهل ومنتاب

يا حبذا النيل إذ رف الأصيل وإذ

ماء السواقي على الروضات سكاب

وفتيةٌ قد تلوا (يس) في سحر

وغيرهم في حشايا الليل ما ثابوا

وغدوةٌ يُصبح القمري ساجعها

قوافياً ما لهن الدهر إعراب

وحبذا النجم عند الفجر مرتقياً

تلقاء وجهك والظلماء تنجاب

---

(١) أنداء النيل، ص ٩٠ .

وقـــاريء بردة المخــــتـــار مــــرتقب

وقت الآذان خـــبــــيـــــر ليس يرتاب

جــاد الحـيــا منزلاً قــد كنت آلفـــه

بدومـــة الغــــرب لا ذام ولا عـــاب

واقـــبـــراً مــــستكنا في حنادسـهـا

أبٌ وأمٌ وآمـــــــــــــــال وآراب

الشـعـــر دمع الذي لا دمع يسـعـــده

مما توالتـــه بالأرزاء أحــــقـــاب

أرقت للنيل يهـــديه الكرى حُلُمــاً

عليــه أشـــرعـة كـــالطيــر تنساب

والأزرق الهــادر الجـيـــاش منحـدر

والأبيض الجـون ذو الآذى صــخـاب

فالنيل فهو حياة الناس كلها، وهو محور عيشهم وأمنهم، وآمالهم وأحلامهم، وكذلك أحزانهم وصباباتهم. وهو الوطن والدار والأهل والعشيرة. وهو الجمال والألحان والالوان، وكل آمال الفتى في العيش والحياة، ولذلك غنى عبدالله الطيب للنيل، كما تغنى شعراء كثر في شمال الوادي وجنوبه. ومنهم التجاني يوسف بشير، ومبارك المغربي وغيرهم. غير أن النيل بالنسبة إلى عبدالله الطيب هو الأهل والعشيرة والحياة كلها:

وفي قصيدة "إلى الخرطوم"[1] يقول عبدالله الطيب:

أحب النيل حين صــــفـــاء وشـــعـت

تهـــاويـل الأصـــيل على الروابي

تهب به الشُـــمـــالُ على شــراع

كـــســالفـــة الإوزة ذي انسـيـاب

ولو لا النيل والذكـــرى وصـــبـري

وإني لـلـمـكـارة ذو غــــــــــلاب

(١) "أصداء النيل" ص ١٩٩.

وحبُ مُحبّين إلى فؤادي
لهم منه الأثير من الشعاب
وإيماني بقومي في قراهم
أولي الإيمان والشيم العِراب
لهاجرت لبلاد فليس فيها
سوى ذل ورجس واحتراب
تدفق أيها النيل المفدى
وسل بين الأباطح والهضاب
عزاء النفس أنت إذا تفشى
ربا الآمال يأس كالضباب

وفي الحقيقة، فكل ديوانه "أصداء النيل" لا تكاد تخلو قصيدة فيه من ذكر النيل، ومن الصبابة يبديها له، والمحبة له يتغنى بها أيا غناء. فهو بحق أصداء للنيل، وما أصداء النيل إلا أصداء نفس الشاعر عبدالله الطيب، وإلا أصداء حياته، سواء أكان قريباً من النيل سعيداً بقربه، أو بعيداً عنه، في بلاد الضباب، شقياً ببعده!!

وديوان "أصداء النيل" هو الديوان الأوسع في شعر عبدالله الطيب، وقد دون فيه قصائد عنفوان شبابه العقلي والوجداني، ولذلك جاءت الكثير من قصائده مجلجلة مدوية وفيها الكثير من نزق الشباب ومن طيشه. ومن أباطيله وضلالاته وكذلك رشده ونضوجه وحتى ديوانه (سقط الزند) والذي يقول عنه أنه يمثل باكورة أشعاره، ومن هنا جاءت التسمية: "سقط الزند"، لا تكاد تجد فيه نفس الفتوة الشاعرية ونفس العنفوان العاطفي والشاعرية الجامحة التي نجدها في ديوانه "أصداء النيل"!

عبدالله الطيب والشجرة:

عبدالله الطيب مولع بالشجر، خاصة تلك الأنواع منها التي تعمّر ساحات "أم الطيور - التميراب" وتجعل أرجائها الخضراء واحة فيحاء ومنها:
- شجر السنط
- شجر السيال
- شجر السدرة

- شجر الطلح
- وعشب النال
- وشجر الطرفة (السلم)
- وشجر الدوم

وعبدالله الطيب لا يفتأ يذكر الشجر، كلما اشتاق إلى مهد روحه، وموطن أجداده وأحبابه من آل المجذوب، في الدامر الشرقي - دامر المجذوب، وفي الدامر الغربي "أم الطيور والتميراب":

جـاد الحيـا منزلاً قـد كنت آلفـه
بدومـة الغـرب لا ذام ولا عـاب

"والدومة" هو الحي الذي به نزل أهل الدكتور عبدالله الطيب، في شمال التميراب، ولا بد أنه سمي "بالدومة" لكثرة أشجار الدوم الشاهقة الشامخة فيه - وشجر الدوم ينتشر في كل أرجاء (أم الطيور) وفي حيهم الموسوم (بالدبيبة) تنتشر أشجار الدوم الشامخة حتى داخل الدار نفسها وتعشعش فيها الطيور المقيمة والمهاجرة، وكثيراً ما كانت توقظنا بالليل عندما يغشاها الكرى والأحلام فتنتفض وترتعش في نومها وتحدث تلك الشقشقة. وتلك الفرفرة التي توقظنا من النوم، عندما نزور أهلنا في أم الطيور، ولكننا من فرط التعب والركض أثناء النهار في مطاردة تلك الطيور الغريبة المهاجرة، سرعان ما نعود إلى النوم ونخلد فيه إخلاد الشجر نفسه، وهو يسكن سكوناً غريباً بالليل وكأنه - أي الشجر - ينام أيضاً، وربما تحلم كذلك كما تحلم الطيور النائمة فوقها!!

وعند عبدالله الطيب، ليست الشجر وحدها التي تنام وربما تحلم، كما تحلم الطيور التي تفزعنا في منامنا ليلاً، ولكن النيل أيضاً ينام[1]:

أرقت للنيل يهـديه الكرى حلمـاً
عليـه أشـرعةٌ كـالطير تنسـاب
والأزرق الهـادر الجيـاش منحـدر
والأبيض الجـون ذو الأذيّ صـخـاب
والسنط مـشـتـمل بالنّوْر خـافـقـة
أغـصانه والنسـيم الغض هبـاب

(١) أصداء النيل، قصيدة (بدامر الصدق)، ص ١٨٤.

وفي قصيدته "إلى الخرطوم[1]":

أحب النيل ذا التيار يطمو
ويلطم جانبيه بالعُباب

أحب النيل زمجر ثم لجّت
سواقيه الشجية في إنتحاب

سمعت بكاءها والعمر غض
يعللني بآمال عذاب

وعزّاني تنهّدها مُطيّفا
به سجع القماريّ الطراب

وبين السنط في الأسمال
شعث دلفن مع العشية لاحتطاب

ولقد كانت حياة الفتى عبدالله الطيب، في دومة التميراب، على أيام الصفا فيها، كانت أغلبها باكية حزينة، بل دامية أسية، لا يكاد يمر بها عام دون فقد عزيز أو ثكل حبيب. وأنظر إليه في الأبيات أعلاه، يبكي ويبكي معه الكون (ذاك الكون الصغير في دومة التميراب):

فالسواقي الشجية "في إنتحاب" ولقد سمع بكاءها ذلك الحزين المتنهد والعمر غض ولقد كان غناء السواقي الشجية بمثابة "العزاء" له في فقد من فقد من الأحبة والأعزاء، وكذلك سجع القماري الطراب ألم أقل أن الإيقاع والأوزان والقوافي، ومنها السجع هي شيء أساسي في وجدان عبدالله الطيب، وكذلك فإن غناء القماري ذي السجع الطرب كان أيضا بمثابة عزاء له في أحزانه الجديدة المتطاولة..

وبين السُنط في الاسمال شعث
دلفن مع العشية لإحتطاب

صورة معهودة وذائعة في أم الطيور، فعلى البنات الصبايا وهن جميلات وشعورهن طويلة جداً وملامحهن حلوة عربية وإن كانت خضراء كالليمون؛ كما يقول السودانيون..

(1) أصداء النيل، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

وهؤلاء الصبايا لا يبالين كثيراً ماذا يلبسن، ومن هنا كلمة عبدالله الطيب " في الأسمال شعث " . . وعلى هؤلاء الصبايا واجب تحضير وجبة العشاء وهي في الغالب يتم طهيها على نيران الحطب – في الساحة وفي " التُكُل " وتتكون من :

– الشاي باللبن

– اللقيمات (الذلابية)

– والروب

– واللبن الطازج (أي الحليب)

– وبعض الأحيان الأرز باللبن أو الفطير !

وبعض الأسر الميسورة ربما تحشي اللقيمات بالذبيب الشامي (العنب الجاف) ومعه عسل النحل الطبيعي . . وهو (هذا المحشي) لذيذ جداً وكنا عندما نذهب لزيارة أهلنا (آل إمام) في أم الطيور الجنوبية . (وكنا نكثر ذلك في العطلات المدرسية ، خصوصاً بعد زواج شقيقتي زكية من ابن عمها عبدالله محمد إمام) يأتي أهل الجوار كله من آل إمام ومن أصهارهم للسلام على (وليد بشير إمام) وبعضهم كنا نراهم لأول مرة . . ويأتون جميعاً . . كل واحد منهم يحمل وجبة العشاء ، ويصر الجميع أن نأكل من زادهم . . حتى بعد الشبع على الشبع حتى نكاد نبكي من كثرة الطعام (زاد الخبان له مكان) !

وعبدالله الطيب دائماً يوزع الفؤاد بين :

– الدومة في التميراب ، بالدامر الغربي ، حيث أهل أمه

– وحي المجاذيب ، بالدامر الشرقي – دامر المجذوب ، حيث المسجد العام وتلاوة القرآن والذكر ومديح المصطفى (صلى الله عليه وسلم)

– وكذلك لندن ، حيث نسبه من آل جون – أي الإنجليز أهل زوجه وحبه الكبير (جريزلدا) :

يقول عبدالله الطيب ، في قصيدته (يا جارة البين)[1] :

أمـــا تراني على الدنيـــا أخـــا جلـد

والناس جـهـدهم جـهل وتـخـذيل

إن أشـرق العـيـد لي في أرض (مـالطة)

بين النصـارى فـفي الأعـمـاق تهليل

(١) أصداء النيل – ص ٢٠٧ .

وبالسيالة[1] من قوم أحبهموا
لمحكم الآي إدغام وتسهيل
يتلون حرف أبي عمرو [2] إمالتهم
محض ُوما لرءوس الآي تقليل
من شانه قومه ألا يتيه بهم
فقومي الصُدّق الصيدُ البهاليلُ
يجري عليهم من النيلين منبعق
وفي أكفهمُ من جودهم نيل
هينون لينون إن ظن الغبي بهم
ضعفاً ففيهم لأهل البغي تقليل

ومن الأشجار التي يحبها عبدالله الطيب، إلى جانب ما ذكرنا أعلاه، شجر النخيل وشجر السيال:

ونخلُ إذا ما البدر أشرق فوقه
أطل على الرائين كالعنق الحالي
وشوك السيال ساطع النوّر فوقه
طرائق مثل الذر يلمع في الآل

وعبدالله الطيب يعجبه شجر السدر، وهي ضرب من شجر العضاه وهو كثير جداً بالسودان وأهل السودان يعتبرون من أجود أنواع عسل النحل التي ينتجها النحل من رحيق نوار وزهرات شجر السدرة.

يقول عبدالله الطيب في قصيدة (السدرة)[3]:

ألا تعجبك السدرة
ذات النبق الداني
ولما يبلغ النضج
فتجنيه يد الجاني

(١) لا بد أن اسم الحي (السيالة) لكثرة أشجار السيال فيه، كما سمى حي أهل عبدالله، بالتميراب (بالدومة) لكثرة أشجار الدوم فيه.

(٢) هذه قراءة (أبي عمرو) المنتشرة في السودان خاصة وهي تتميز بكثرة الإمالة.

(٣) أصداء النيل، ص ٨٨.

وقـد حف بأشـواك
وقـد لف بأغـصـان

وهـذا ظـلـهـا الـوارف
لـو اسـمع نـاداني

ولولا الشّـمـأل القـرة
لـبـيـتُ وآوانـي

وفي (النخلة)[1] قال:

يـا نـخـلـةً تميسُ قـد
شـاق الـعـيـون بُسرُها

تـلـوح كـالـغـادة زان
الـبـارقين نـحـرُهـا

وشـع فـوق الـنـيـل من
خـلـف الـفـروع بـدرهـا

عـالٍ قـريـبـاً أن يـرى
فـي راحـتـيـك تـمـرهـا

و عبدالله الطيب بذلك ، الرجل والعشيرة والبيئة، يظهر لنا جلياً أنه إنسان شاعر مرهف الحس، يعشق الجمال الطبيعي، ويعشق الأهل والوطن . وكذلك تلك البيئة الجميلة، حول النيل في السودان الأوسط . . في الدامر الشرقي، حيث حي المجاذيب، موطن آبائه المجاذيب وحيث المسجد الجامع العامر بذكر الله والعلوم وبالقصيد والألحان – وبمديح المصطفى . . وتلك الصبابات العميقة إلى المسجد الحرام في مكة ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في (طيبة) ذات القبة الخضراء وصبابات المجاذيب إلى المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، عميقة وندية .

عبدالله الطيب العربي الأصيل :

فعبدالله الطيب، في قرارة نفسه، مؤمن محب لله ولرسوله وينتمي بكل وجدانه إلى

---

(١) أصداء النيل، ١٠٢ .

بيئة الإسلام وإلى حضارة الإسلام وأما عشقه الأبدي فهو العربية شعرها ونثرها، أوزانها ونظمها وقوافيها.

وهو من بعد ذلك ومن قبل ذلك، عربي أصيل وبدوي أصيل لم تغير منه الحضارة ولا التمدن شيئاً من رجولته ولا من نخوة العربي الأصيل المستكنة في أعمق أعماق وجدانه: يقول في قصيدته (تذكر البداوة)[1]:

لقـــــد طال المطال على ارجـــو
لقـــاءك يا أمــيم ويا أمـــامـــا
تذكـــرت البـــداوة في دياري
وأيامــاً ســعــدت بهــا غــلامــا
وهافـــيـــة الفـــؤاد إلى بكراً
على إشـراقـهــا شـجــو اليـتـامى
وأي الـــزائــريـــن ألـــم داوى
بخـمــر جــمــاله هذا الهــيــامــا

ولقد عاش عبدالله الطيب حياته كلها وفيّاً (لذاته) العربية البدوية الأصيلة، كما داوم على وداده وحبه للعربية ونظمها وقوافيها وأوزانها.. وهو يعتقد جازماً أنه الوريث الشرعي لذلك الميراث العربي الفذ الغالي الذي فرط فيه الكثيرون فأصبح عبدالله الطيب "المجلي في البيان الأول"

وهو يتبجح في ذلك أيما تبجح ويحق له ذلك:
يقول في قصيدته (خمر البيان)[2]:

ألقت إلى شـيـوخ يعـرب سـرها
فـــأنا المجلي في البـــيـــان الأول
أوتيت كل كـــــريمة مكنونة
غـــراء فـــيـــهـــا الجـــوهر المتنخل

(١) أصداء النيل، ص ٦٣.
(٢) أصداء النيل، ص ٦٩.

حُسَّانةٍ مـا راءَ مـثل جـمـالهـا
غُـمـدان قـصـر التُّـبـعين ومـوكل

خـمـرٌ من الشعـر الرصين خبـأتهـا
مـا مـثلهـا البـردان أو قطربّلْ

أغلي بهـا إغـلاءَ من هو عـارف
بخـبـئـهـا إن رامـهـا من يجـهل

وأصـونهـا حـتى يعـزّ منالهـا
وأبيـحـهـا يوم الفـخـار فـأُجـزل

ألا رحم الله العلامة عبدالله الطيب رحمة واسعة وجعل قبره روضة من رياض الجنة، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين.

الفصل الرابع
عبدالله الطيب والشعر العربي
نظمه وأوزانه

الفصل الرابع
عبدالله الطيب والشعر العربي
نظمه وأوزانه

عبدالله الطيب والشعر العربي نظمه وأوزانه:

شخصية عبدالله الطيب، شخصية فريدة في أكثر من بعد من أبعادها المتضاعفة.. من هذه الأبعاد الكثيرة التي تذخر بها شخصيته حبه للجدل والحوار والأنس.. فهو إنسان من الدرجة الأولى الممتازة.. لا عجب أن يكون حبه للأنس وللحوار بهذه الدرجة القصوى. فلقد وصف الفلاسفة الإنسان بأنه مخلوق آنس "يحب الأنس"، كما أن القرآن الكريم وصف الإنسان كذلك بأنه ﴿أكثر شيء جدلاً﴾ (الكهف: ٥٤).

و﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾ (القيامة: ١٤، ١٥).

﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ (النحل: ١١١).

كما وصف الفلاسفة الإنسان:

بأنه حيوان ناطق..

قال تعالى:

﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ (الرحمن: ١ إلى ٤)

فالمغزى هنا أن الله خلق الإنسان، وعلمه البيان لكي يفقه القرآن ويتعلمه.

قال تعالى:

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ (القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠)

وكان أول شيء في برنامج التعليم الرباني للإنسان تعليمه الأسماء كلها. لأنه لا بيان ولا لغة ولا فكر بدون الأسماء ومن هنا يتسق القرآن اتساقاً داخلياً عجيباً:

* فأخص خصائص الإنسان النطق والفكر،
* ولذلك أنزل القرآن كتاباً عربياً مبينا، غير ذي عوج،
* وعلّم الإنسان الأسماء لكي يتقن البيان والفصاحة واللغة،
* ومن ثم يكون مؤهلاً لكي يتعلم القرآن،
* وهو دستور الحياة وما بعدها ودستور الكون، ما يُبصر منه وما لا يُبصر..!!
* وكل ذلك مسخر للإنسان بما في ذلك تعلُم القرآن وادكاره.

* وكذلك الكون كله مسخر للإنسان - سيد الخليقة،
* لأنه - أي الإنسان - يحمل في جنبيه شيئا من روح الله ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ (السجدة: ٩).
* وكل ذلك لكي يتأهل الإنسان من التمكُن في الأرض،
* ولكي يقوم بواجب خلافة الله في الأرض، والشهادة على العالمية.
﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ (البقرة: ٣٠)

بعض الناس يقولون إن شخصية عبدالله الطيب شخصية مثيرة للجدل - وأنه شخص "مناكف" أو "متلقي حُجج" بالتعبير السوداني، والصحيح إن عبدالله الطيب امتلك ناصية البيان العربي، كما لم يمتلكه أحد ممن عاش في هذا العصر ولا طه حسين.. ولا العقاد! ولذلك فهو يتبجح بذلك ويعبر عنه بأوسع الطرق وأبدع الأساليب. انظر إليه كيف يعبر بذلك:

ألقت إليّ شيوخ يعرب سرّها
فأنا المُجليّ في البيان الأولِ

أوتيت كل كريمة مكنونة
غراء فيها الجوهر المتنخل

فهو يقول إنه ورث العربية، القاها إليه أجداده من شيوخ "يعرب" فهو الأول المتجلّي في بيانها.. وكل الآخرين في المرتبة الثانية ولعمري فقد صدق أستاذي وما كان في ذلك دعيٌ:

فقد كان كالسيل المتدفق في الإعراب عن العربية.. عن سحرها وبيانها وعن قوافيها الواردات والشاردات، السليمات والتي تشتكي من عيوب الاقواء والإيطاء والإسناد والتضمين.(١)

* الإقواء: الإلتزام بقواعد النحو العربي في القوافي، حتى عند الوقوف بالسكون؟.
* الإيطاء: تكرار نفس القافية بعد ككل سبعة أو عشرة أسطر.
* الإسناد: وأنواعه كثيرة وهي الجمع بين ألفاظ متشابه ولكنها مختلفة الايقاع مثل "لدن" أو "لين" ونحو "لين ودون".. الخ.. الخ

(١) المرشد إلى "أشعار العرب" الجزء الأول ص ٤١ دار جامعة الخرطوم للنشر، عام ١٩٩١.

* التضمين : هو أن تعلق قافية البيت على ما بعدها، فلا تكاد تستقل بنفسها، كما في قول الفرزدق يصف إمرأة :

فلـــو أن ذراً أو أبـــاه رأى الـتـي
رأيتَ أبت عـيناه أن تتـأخـرا
إذن لرأى مـثل الذي ظل رانيـا
إلى فـرعـهـا داؤد حـتى تحـدرا
إليـهـا من المحـراب وهو على الذي
يُفـضّل فـيـه كل شيء مـسطرا

ونهاية البيت الثاني موصولة ببداية البيت الثالث :

حـتى تحـدرا إليـهـا من المحـراب

وهنالك بعض أنواع أخرى من عيوب القافية وهي :

* الإكفاء
* والإصراف
* والإجازه[1]

وليس هاهنا مجال للدخول في تفاصيل ذلك ولقد أوفى الدكتور عبدالله الطيب، رحمه الله، شرح ذلك بإسهاب كبير، فمن أراد المزيد فعليه (بالمرشد)!

مهما يكن من اتساع العربية عموماً، واتساع آفاق البيان والايقاع فيها، فإن عبدالله الطيب قد أحاط من ذلك بما عزّ أن يقدر عليه أحد من المعاصرين والذي يهمنا هنا أن نثبت أن عبدالله الطيب قد كرس حياته كلها لدراسة العربية وخاصة الشعر العربي وما فيه من روائع النظم والقوافي والإيقاع وأنه قد حقق في ذلك إبداعا كبيراً، وإنك - يا أيها القارئ العزيز - لواجد من ذلك بقدر ما تقدر عليه من التحصيل والفهم والإنجاز.

قلنا إن البعض يقولون إن عبدالله الطيب يحب "المناكفة" والصحيح إنه يحب الحوار والجدال. كيف لا وهو الذي حباه الله بتلك الحافظة الخيالية، وتلك العارضة الحجاجية التي عزّ أن يجود بها الزمن.. وقدرة على تذوق الجمال البياني.. والتغني بالألحان والأوزان.. والترنم بالشجي من القوافي وأصناف البيان.. وتلك القدرة العبقرية على التمييز بين أوزان الشعر العربي وأوزانه بحوره وعروضه.. الصحيح منها والمعتل.. ولا

(١) المرجع السابق ص ٤١.

الخليل بن أحمد . . كل ذلك جعله يعايش شعراء العربية الأقدمين منهم والمحدثين، الجاهليين منهم والإسلاميين . . فيجاريهم كما جارى الشنفري ويحاكيهم كما حاكى ابن رؤبة . . ولم يترك حتى الجن في أشعارها وأراجيزها، . . فجاراهم وحاكاهم ونسج على منوالهم ومواليهم . . ففي قصيدته "عمرو بن يربوع والسعلاة"(1) التي كنا نتغنى بها عندما كنا في المدارس الأولية الوسطى في بربر الغراء:

سرى ليلاً على ظلماء
لا تُسلك مرهوبة
وللريح دوي يُترك
الأنفس مرعوبة
ونار البرق من حين
إلى آخر مشبوبة
وللغيم ستور خلفها
الأنجم محجوبة

***

ولكني الفتى عمراً
شجاع القلب لا يخشى
يرى الإدلاج كالنوم
وظهر الفرس الفرشا
وقد يحسب ستر الغيم
من جرأته عرشا
ولا ترهبه الجن
إذا ما هرشت هرشا

***

تغنى وهو لا يشعر
بالجن حواليه

---

(1) أصداء النيل: ص ٢٨٢.

تنادوا وهو لا يبصرهم
قدام عينيه

بأصوات لها رنة
أجراس بأذنيه

وقالوا: وهْ وهه ويْهي
وهه ويهي وهه ويهي

ومعناها بلفظ الأنس
هذا المرء كذاب

وقال الجن ريرابو
تربرابو تربرابو

ومعناها بلفظ الأنس
نحن الجن المجاب

وشجعان وفرسان
على الأعداء وثاب

***

وقال الجن: تب تبري
ومعناها اقتلوا عمراً

كلوا من لحمه خبزاً
وصبوا دمه خمراً

كذا قد أجمعوا أمراً
فيا قبحاً له أو أمراً

ولكن الفتى عمراً
حصيف لم يكن غُمراً

ولكن الشيء اللافت للنظر . . والذي يشكل في الواقع ظاهرة علمية وشاهد من شواهد نبوغ عبدالله الطيب وابداعه هو هذا الحوار المتصل المتطاول له مع شعراء العربية، ابتداء بشعراء العصر الجاهلي . . بل وبدايات الشعر العربي، منذ كان نثراً وسجعاً ورجزاً وشعراً أشبه بالشعر الحر . . ومنذ كانت قوافيه تعاني من عيوب القافية التي ذكرها :

أقواؤها وإيطاؤها وإسنادها وتضمينها : فلم يترك عبدالله شاعراً من شعراء العربية لم "يناكفه" ويعلق على شعره، نقداً وتقويماً إعجاباً أو تعريضاً.

ولعل مؤشر إلمام عبدالله الطيب بالشعر العربي كله أنه يستنكر تقسيم الأدب العربي إلى جاهلي، وأموي وعباسي، ثم تقسيم العباسي إلى العصر الأول والثاني والثالث. ويقول إن الأدب العربي كله وحدة واحدة وإنما وصل إلينا من الشعر العربي المرحلة الناضجة فيه ابتداء من المعلقات السبعة أو الطوال العشر :

"ذلك أننا بإزاء درس الأدب العربي كله وإنما تهمُّنا فيه القمم.." (١)

ويرى عبدالله الطيب أن النقد الأدبي الصحيح هو أن يكون موضوعياً ولا يجنح تجاه المؤثرات الاجتماعية أو المذهبية. فاللغة العربية لغة كلاسيكية لأنها لغة الكتاب العزيز.. القرآن الكريم ولا ينبغي تشبيهها باللغات الأوربية الحديثة :

"لكن اللغة العربية لا تعلم من أمرها إلا من لدن هي ناضجة، فلا شيء يبرر تقسيمها إلى عصور إلا أن نكون نقلد طريقة الإفرنج في درسهم آداب لغاتهم. على أنهم حين يدرسون آداب اليونان والسلاطين وهي عندهم أصول ويسمونها "الأدب الكلاسيكي" لا يفعلون شيئاً من ذلك. هي لديهم كلٌ واحد من أوميروس (هوميروس) إلى سينكا، ولديهم نحوها نظرة تقديس.." (٢)

عبدالله الطيب يضع عنترة بن شداد في المقدمة:

وعبدالله الطيب يقول إنه يدرس الأدب العربي كله والشعر العربي كله، كوحدة واحدة، لأنه وابتداء من العصر الجاهلي أدب ناضج كله. وعبدالله الطيب يقول إنه معني بالقمم، وبعد كل قصيدة عن (المنخل اليشكري) يأخذ في الكلام المعجب بعنترة بن شداد، قبل الحديث عن الأربعة الكبار وهم (١) أمرؤ القيس، (٢) وزهير بن أبي سلمى، (٣) ولبيد بن ربيعة، (٤) وطرفة بن العبد. فهؤلاء هم الأربعة المقدمين عند الإمام الخطيب أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي (المتوفي ٥٠٠هـ) والذي كان معاصراً للإمام أبي حامد الغزالي وغيره من كبار الأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين.

أما عبدالله الطيب فهو يتكلم أولاً عن المنخل اليشكري، ويورد أبياته البديعة :

---

(١) المرشد إلى أشعار العرب، الجزء الرابع (القسم الأول)، ص ٣١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١٩.

إن كنت عـــاذلتي فـــســـيـــري

نـحـــو العـــــراق ولا تحـــــوري

والتي يقول فيها الأبيات الرائعات التي تدل على أن الجاهليين كانوا على مستوى رفيع من الرفاهية والمدنية . برغم جاهليتهم وضلالهم المبين :

ولقـــد دخلت على الفـــتـــاة

الخـــدر في اليـــوم المطيـــر

الـكـاعـب الحـــســنـاء تـرفـل

في الـدمـــقـس وفي الحـــريـر

ويرى عبدالله أن في هذه الأبيات غزل رفيع وإمتاع وترنم وشعر رفيع وتلذذ بالوصل والفوز بالحبيب .

ثم يدلف إلى الكلام عن الشاعر الجاهلي ذي الأصول الأفريقية العربية المهجنة :

هل غـادر الشـعـراء من مـتـردم

أم هل عـرفت الدار بـعـد تـوهـم

وفي شعر عنترة إمتاع وترنم ولكنه غير مقصود لذاته - أي ذلك الإمتاع والترنم وإنما يرمي عنترة إلى الدفاع عن نفسه وتبريرها وهو ذائب في نفسه، صادق في التعبير عن مكنوناتها. فالترنم مساوق للتعبير الذاتي مبطن له. والتبطين في الإنشاد الشعري هو أن تتواصل أصوات المنشدين، يبدأ الأول وقبل الانتهاء من انشاد أبياته يدخل عليه إنشاد الثاني لنفس الأبيات التي سبق إنشادها .

وكذلك قول عنترة :

ولقـد حـفظت وصـاة عـمي بالضـحى

إذ تقلص الشـفـتـان عن وضع الفم

في حـومـة الحـرب التي لا تشـتكي

غـمـراتهـا الأبطال غـيـر تغـمـغـم

إذ يتـقـون بي الأسنة لم أخـم

عنهـا ولـكني تضـايق مـقـدمي

يدعـون عنتـرة والرمـاح كـأنهـا

أشطـان بئـر في لبـان الأدهـم

مـــا زلت أرمــيــهم بثـغــرة نــحــره

ولبــــانه حـــتى تسـربل بالـــدم

فـــازور مــن وقـع القنا بلبـــانه

وشكا إلي بعـــبـرة وتحـمــحــم

لـو كـــان يدري مـــا المحــاورة اشــتكى

ولـكـان لـو عـلـم الكـلام مكـلــمي

ويدافع عبدالله عن عنترة بن شداد، ويدفع عنه تهمة التردد أو التراجع في الزحف (ولو كـان عنتـرة فـمن يخـيم "أي يتـردد من خـام يخـيم" لـم تكن الأقـاصيـص لتجـعلـه أبا الفوارس)[1].

والصحيح أن عنترة لم يكن يعرف التردد بل كان الإقدام هو عادته وطريقته، إلا أنه كان كذلك على علم بفن الحرب والكر والفر على عادة الجاهليين، وكان يقدم عندما يكون الاقدام مجدياً، ويحجم عندما يكون الإحجام هو الأمثل، ولكن الإقدام هو الأكثر شهرة عنه، يدل على ذلك قول رفاقه في السلاح:

ولقـــد شـفـى نفـسي وأبرأ سـقـمــهـا

قـــيل الفـــوارس ويك عنتـــر أقـــدم

ويقول عبدالله الطيب أن ابن الأنباري وضع معلقة عنترة في الترتيب الرابع وقدم معلقة عنترة بن شداد على معلقتي لبيد العامري و عمرو بن كلثوم، ولا يمكن اتهام ابن الأنباري بالتحيز لعنترة على حساب لبيد أو عمرو بن كلثوم، ولكن الحقيقة، وأنا أتفق مع أستاذي عبدالله الطيب في هذا، أن شعر عنترة يتفوق على بعض شعراء العشر الطوال بانه:

(١) الأكثر رنيناً وإيقاعاً

(٢) والأكثر جزالة في الألفاظ والتعابير،

(٣) والأكثر صدقاً في التعبير عن الصبابة والأسى والحزن، وعن مشاعر إنسانية عميقة جـداً، كـالشـعـور بالظلم من ذوي القـرابة وذوي الرحـم والحـرمـان من الحب بدون مبرر.. وعن عدم الاعتراف بالاستحقاقات والجدارة.. وغيرها من المعاني الإنسانية العميقة والتي لا نجد ما يجاريها عند أصحاب المعلقات الآخرين،

(٤) وشعر عنترة كذلك الأكثر إمتاعاً،

---

(١) المرشد إلى أشعار العرب - الجزء الرابع - القسم الأول - ص: ١٣٢٣.

(٥) وهو الأصلح للترنم والغناء، بسلاسته وجزالة ألفاظه،

(٦) ولكن، وهو الأهم - أنه يعبر عن آمال وآلام المستضعفين والمعذبين والمحرومين في الأرض. وما أكثرهم.. والمعذبون في الأرض والمستضعفون في الدنيا هم الأغلبية الساحقة.. ومن هنا، فإن الملايين من العرب وغيرهم ظلوا على مر العصور والأزمان، يتغنون بملاحم عنترة بن شداد:

* ملاحمه التي تعبر عن طيبة نفسه وعن نبلها الفريد.

* وملاحمه التي تتحدث عن مكارم الأخلاق.. وفي كل الظروف والأحوال.. لقد تغنى عنترة بمكارم الأخلاق كما لم يتغن بها غيره. وليس هذا إنكاراً لحكم زهير أو لبيد العامري.. ولكننا نفتقد حرارة عنترة وعمق عنترة وفصاحة عنترة في التعبير عن القيم العربية الأصيلة والتي لم يعبر عنها أمرؤ القيس أو طرفة بن العبد أو حتى لبيد العامري أو زهير بن أبي سلمى!

إن الملايين يحفظون قصة عنترة وحبه العذري العفيف لإبنة عمه الحسناء عبلة، والتي كانت تبادله حباً بحب وصبابة بصبابة إلا أن العنجهية الجاهلية والنعرة العنصرية عند أبيه وعمه مالك حرمته من الظفر بحبه وظلمته من الاعتراف بمكانته وعبقريته، وهو الشاعر الملهم العبقري والفارس الذي لقب بأبي الفوارس بالاجماع من قومه، واعترفت له الجزيرة العربية كلها بالشجاعة والنبل والكرم.. وبالفعال الكرام والشمائل النادرة وفي دوره العظيم في الدفاع عن قومه، على ظلمهم إياه وإنكارهم لبطولته النادرة وكافة استحقاقاته.. بسبب تافه حقير وهو أن لونه كان أسوداً وأنه كان من غربان العرب وإن كان مشقوق الشفة (أفلجاً).

ولا يضر عنترة في شيء أن أبا عبيدة والمفضل - فيما ذكر إبن رشيق - لا يقبلون عنترة بن شداد، بل يخرجان قصيدته "هل غادر الشعراء من متردم" من المعلقات السبع، كما يخرجان أيضاً قصيدة الحارث بن حلزة اليشكري من قائمة المعلقات.. لأن هذا الرأي يفتقر إلى الموضوعية، كما يفتقر إلى التوثيق، لأن الرواة يكادون يتواترون على تضمين قصيدة عنترة ضمن المعلقات السبع. فليست هنالك شك في كونها إحدى المعلقات السبع بالرغم من مقولة أبي عبيدة والمفضل.. ولكن يدور التساؤل والاختلاف عن رتبتها في قائمة المعلقات، فلقد رأينا أن الإمام التبريزي يضعها - أي معلقة عنترة - في المرتبة الخامسة، بعد امرؤ القيس وطرفة بن العبد ولبيد العامري وزهير بن أبي سلمة.

ولكن عبدالله الطيب، مع ابن الأنباري - يضع معلقة عنترة تلميحاً لا تصريحا - في مرتبة عالية، لأنها الأكثر ايقاعا وترنيما وامتاعاً. ولأنها الأكثر صدقاً وشاعرية. ولذلك فهي الأكثر تعبيراً عن المشاعر الإنسانية الشفيفة العميقة. ولأنها كذلك تعبر عن مكارم الأخلاق وعن ميثاق الشرف العربي في حفظ الحقوق والعفة والعرض والشرف والشجاعة النبيلة التي توظف في حماية الحقوق ودفع الظلم ونصرة الضعيف وكراهية العدوان والاستكبار والعنف الذي لا مبرر له. وكذلك تدافع عن المساواة بين الناس والانصاف بينهم، واعطاء كل ذي حق حقه:

أما الصبابة والرقة - رقة الحواس والألفاظ، فعنترة في القمة من ذلك:

هل غـــادر الشـــعـــراء من مـــتـــردم
أم هل عـــــرفت الدار بعــــد تـوهـم

أعـــــيـــــاك رسـم الـدار لم يتـكـلـم
حـــتى تكلـم كـــالأصم الأعـــجـم

ولقـــد حـبـــست بهـــا طويلا ناقـتي
أشكـو إلى ســــفـع رواكـد جـــــثـم

يـا دار عــــبلة بالجــــواء تكـلـمي
وعـــمي صـبـــاحـــاً دار عـبلة وأسلمي

العاطفة قوية صادقة طبيعية وهي عميقة دافقة فوّاره، ولكن الألفاظ سهلة جزلة جميلة الجرس لا تنبو على السمع وهي أعلى درجة الفصاحة (السهل الممتنع): لا وعورة فيها ولا خشونة وكأنه شاعر إسلامي أموي أو عباسي قد هذبته الحضارة وشذبه طيب العيش وسهولته وهي في ذلك لا تُشبه الشعر الجاهلي في شيء وكأنها - أي معلقة عنترة - تنتمي إلى عصور متأخرة:

ثم أنظر إلى الرقة والصبابة التي تلمس شغاف القلوب وتحرك الصم الخوالد " فها هو عنترة يخاطب تلك الصم الخوالد وكأنها المملوء حبا وشوقاً إلى الحبيب عبلة " وانظر إليه كيف يردد اسمها:

يـا دار عــــبلة بالجــــواء تكـلـمي
وعـــمي صـبـــاحـــاً دار عـبلة وأسلمي

ثم انظر إلى تلك التمنيات وتلك التحيات الحارة الصادقة الودودة.. وإلى تلك الشكاة

الحارة. . وذلك البث والحزن الذي يبديه عنترة. . وهو يطيل الوقوف أمام ربع الحبيب وإطلال الحبيب بالرغم من أنها " سفع رواكد جثم" ثم انظر إليه وهو يتمزق بين اليقين والشكوك بين التعرف والتوهم. وتلك المعاناة. . وتلك الصعوبة الكبيرة التي تكبدها في التأكد من أن تلك الأطلال بعينها لا غيرها هي أطلال الحبيب، حيث كانت له ذكريات حلوة. . وعيش صاف هنيء ولسان حاله يقول:

ألا ليت أيام الصـــفـــا جــــديد

وعـــهـــد تولى (يا عـــبـيلة) يعـــود

فهو يشكو. . وهو يبكي فراق ذلك الحبيب. . ولحظات وصال وفوز وظفر به كانت الدنيا كلها. . وكانت البهجة جميعها والجمال شاهداً. . والوصال كاملا:

دار لآنســـة غـــضـــيض طرفــــهــا

طوع العـناق لذيذة المتــــبـــــسم

ولفظة "آنسة" وكأنها لفظة صادرة من صوالين بغداد، أو دمشق أو القاهرة أو قرطبة. . غاية في الظرف والحضارة وأبعد ما تكون من ألفاظ الجاهلية الفظة الوعرة التي يتبو عنها السمع. . ألم تقل أن عنترة – من فرط رقته وجزالة ألفاظه – وكأنه ينتمي إلى العصور الإسلامية الأموية منها والعباسية خاصة؟!

فهذا المحبوب هين لين طوع العناق/ تجذبه فيميل نحوك "هونة غير مجبال" وتتداعى وتمشي وكأنها البانة تميل بكل دلال وغنوجة نحو الحبيب إمعانا في امتاعه واشباعه والجود عليه بكامل الوصال وكامل الحب والنشوة:

كما يقول النابغة الجعدني:

إذا مـــا الضـــجـــيج ثنى جـــيــدها

تداعت عليـــه فكانت لبــــاســـــا

ويتابع عنترة في التدفق الوجداني الدافق:

حـــيــيت من طلل تقـــادم عـــهـــده

أقـــوى وأقـــفـــر بعـــد أم الهـــيـــثم

وكيف يحيّي الطلل. . ؟ إنما يحيي في الوجدان والذكرى وفي التوهم والخيال. . وفي لحظة استرجاع عاطفي يعود الحي شاخصاً والحياة تدب فيه وأطياف الحبيب تمر في الوهم والخيال وتمثُل شاخصة أمام العاشق الصب فيتخيل إليه في لحظات أنه يراها بلحمها ودمها

وجمالها الفائق والشوق في عيونها واللوعة تلفها وإيماءاتها وخطراتها وهو يحقق - في لحظة - نوعاً من الري العاطفي ومن الشفاء الوجداني، فيبتل الشوق وتبلل العروق من ظمأ الشوق وهجير الفراق ولوعة الذكرى، والنوى والبعاد فما أجمل التخيل هنا وما أجمل التوهم!!

وانظر إلى الحسرة في ملامح وجه عنترة، وانظر إلى الحزن حين يقول:

شطت مزار العاشقين فأصبحت

عسراً عليّ طلابك ابنة مخرم

وهذا العسر ليس بسبب بعد المسافات الفضائية فحسب ولكن هنا بعد أقسى وأعنف وأبعد مجالا ألا وهو البعد الذي يسببه رفض والد عبلة أن يسمح لهما بالتلاقي أبداً.. ولا بالوصال. فهو ينكر حق عنترة الأسود في حب إبنة عمه (عبلة) البيضاء برغم الدم ورغم وشائج القربى والرحم.. يا للظلم. ويا لهول المسافات التي أصبحت تفصل بينهما حتى شط المزار وتعسر اللقاء والطلاب!!

وانظر إلى العقل والحكمة.. لدى هذا المحب المظلوم وانظر إلى النبل ومراعاة حق الأهل والقرابة والبر:

عُلِّقتها عرضاً وأقتل قومها

زعماً ورب البيت ليس بمزعم

وانظر إلى القسم الذي يفصح عن تقوى ومراعاة للذمم والعهود وحفظ الحقوق وتقديسها بأنها صادرة عن رب البيت الإله المعبود عند العرب - حتى في الجاهلية حضراً كانوا أم بادية تستوي في ذلك أهل الحرم وأهل الحل.. القريب العاكف والبعيد البادي.. وأين امرؤ القيس من هذه المعاني:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

فقالت لك الويلات إنك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً

بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه

ولا تبعديني من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذي تمائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشق وتحتي شقها لم يحول

وابن عبث إمرؤ القيس ومجونه وخلاعته، من عفة عنترة وأخلاقياته التي يرعى فيها ميثاق الشرف العربي: يقول إمرؤ القيس، واصفاً مغامراته الخليعة التي لا تعرف حدوداً ولا قيوداً:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها
لدى الستر إلا لبسة المتفضل
فقالت يمين الله ما لك حيلة
وما إن أرى عنك الغواية تنجلي
خرجت بها أمشي تجر وراءنا
على اثرينا ذيل مرط مرحل
هصرت بفوري رأسها فتمايلت
عليّ هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة
ترائها مصقولة كالسجنجل
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل
تضيء الظلام بالعشاء كأنها
منارة ممسى راهب متبتل
إلى مثلها يرنو الحليم صبابة
إذا ما اسبكرت بين درع ومجول

وانظر إلى غزل عنترة ونسيبه ولاحظ الفرق الشاسع بينه وبين غزل إمرؤ القيس، نحو عن عنيزة: تجد عند عنترة بن شداد، المباديء والقيم والشرف الرفيع:

- الغزل العفيف العذري.
- وتجد قيم الشرف وصون العرض.

- وتجد العدالة والإنصاف في التعامل مع أهل الحبيبة وقومها ووالديها وذوي رحمها
- ثم تجد ذلك الأفق العالي الرفيع من العواطف الإنسانية السامية التي تحب ما تحب كرماً وتشريفا لا استغلالا وإذلالا وترفعا أو استعلاءً.
- ثم انظر إلى المعاني السامية في غزل عنترة، وكيف يهتم كثيراً بسمعة حبيبته، وكيف يصون شرفها، وكيف يكرمها ويدافع عنها بالنفس والنفيس، وكيف يكرمها ويكرم أهلها.. فلا يغشاها مغتصباً ولا زانياً، يسرق عرضها وشرفها ثم يمضي في سبيله غير عابئ بمآلاتها بعد ذلك، بل لا يغشاها أصلاً إلا وخليلها أو وليها موجوداً، فإن غاب فلا يغشاها أصلاً بل لا ينظر إليها، ناظراً إلى محاسنها، حتى تغيب في دارها التي تأويها:
يقول عنترة في ذلك[1]:

فرجعت محموداً برأس عظيمها
وتركتها جزراً لمن ناواها

ما إستمت أنثى نفسها في موطن
حتى أوفي مهرها مولاها

ولما رزأت أخا حفاظ سلعة
إلا له عندي بها مثلاها

أغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا غزا في الجيش لا أغشاها

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

إني إمرؤ سمح الخليقة ماجدُ
لا اتبع النفس اللجوج هواها

وإن سألت بذاك عبلة خبّرت
إن لا أريد من النساء سواها

وأجيبها إما دعت لعظيمة
وأعينها وأكف عمّا ساها

(١) ديوان عنترة بن شداد (ص٢٠٨) شرح الخطيب التبريزي، الناشر دار الكتاب العربي (بيروت) الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

ففي هذه الأبيات يبرز "عنترة" وكأنه شاعرٌ إسلامي، يعبر عن إعزازه بكثير من القيم الإسلامية الرفيعة.. ولا يعطي انطباعا بأنه شاعر جاهلي.

* فهناك الاعتزاز بمبادئ العفة، ومراعاة عقود الزواج، ومنها إيفاء المهر للفتاة أو أهلها.
* وهنالك رفضا للزنا الذي كان منتشراً في زمن الجاهلية،
* والبيت الثالث، يظهر عنترة متصفاً بقيم العدالة والانصاف، فهو لا يرزأ أحداً مالاً أو شيئاً أو سلعة إلا وفاها وعوضها بمثلها،
* وهو يحب الأنس البريء مع الجميلات الصغيرات من الأهل والجيران.. ولكن دون ريبة أو شبهة.. ولذلك فهو لا يزور إلا في وجود الأهل والمحارم، أما إذا غاب الزوج أو الولي، فإن عنترة لا يزور الفتيات الجميلات مخافة أن يلطخ سمعتهن أو يدنس عرضهن.
* بل وهو يلتزم بغض البصر إذا ما بدت له جارته حتى يواري جارته مأواها،
* وهو رجل ملتزم بالأخلاق الحميدة، عاقل حكيم راشد لا يتبع النفس اللجوج هواها،
* وأنه شريف مخلص في حبه، لا يجري وراء الشهوات ولكنه محب مخلص جداً لحبيبته (عبلة) لا يريد سواها من النساء، فالمسألة ليست لذة عابرة ولكنه حب كبير شريف عذري، باق على العهد ما بقي الحدثان.
* وهو يحمي حبيبته ويدافع عنها بالنفس والنفيس وإذا دعا داعي الحرب، سارع للدفاع عنها وعن قومها بكل ما يملك.
* وهو يعين حبيبته على نوائب الدهر ويلبي حاجاتها ويكفلها بما يملك من مال وغيره
* ولا يفعل شيئا أبداً، إذا ظن مجرد الظن أن ذلك الفعل مما يسيء إليها.

"وأكف عما ساها: أي أكف عما ساءها".

وأي حبيب هذا بهذه الصفات الرفيعة؟ إنه حبيب يتمناها كل واحد لفتاته.. وتتمناه كل فتاة عاقلة راشدة أن يكون فتى أحلامها وفارس حياتها وشريك مصيرها في رحلة الحياة العاتية القاسية.. ذات الوحدة والوحشة والغربات!!

* والتغني بمكارم الأخلاق وافر في ديوان عنترة وخط أصيل في حياته وشعره ووجدانه. فقصيدته القتالية عقيدة أخلاقية "لا حمية الجاهلية"؛ يقول من بحر الكامل[1]:

(١) ديوان عنترة، ص ٢٤، شرح التبريزي.

١- إني إمــرؤ مني الســمــاحــة والندى

والبــاس وأخــلاق أصــبـتُ لبــابهــا

٢- وأنا الربيع لمن يحل بُســـاحـــتي

أســـد إذا مـــا الحــرب أبدت نابهـــا

٣- وإذا لقــيــتُ كــتــيــبــة طاعنتــهــا

وسلبــتــهــا يوم اللقــاء عــقــابهــا

٤- فــاذهــب فــأنت نعــامسة مــذعــورة

ودع الرجــال قــتــالهــا وســبــابهــا

***

* ويقول من «البسيط»[1] :

لا يحــمــل الحــقــد من تعلو به الرتب

ولا ينال العــلا من طبــعــه الغــضــب

* ويقول في معلقته الشهيرة[2] :

اثنى علــيّ بما علــمــت فـــــإنني

ســـمــح مـــخـــالقـــتي إذا لــم أظــلــم

فـــإذا ظــلــمــت فـــإن ظــلــمي بــاســل

مـــر مـــذاقـــتـــه كطعــم العلقــم

فـــإذا شـــربــت فــإنني مـــســتـــهــلك

مـــالي وعـــرضـي وافـــر لــم يكلــم

وإذا صــحــوت فــمـــا أقــصــر عن ندى

وكـــمـــا علــمت شـــمـــائلي وتكرمي

هــلا ســـألتي الخــيــل يا ابنة مـــالك

إن كنــت جــــاهــلــة بمــا لــم تــعــلــم

يخــبــرك من شــهــد الوقــيــعــة أنني

أغـــشى الوغى وأعف عند المغنم

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٧ .

ويقول "عنترة" أنه يفعل الواجب ويخوض غمرة الحروب الكريهة غير متبصر بعواقبها، إذ أن عليه فعل الواجب مهما تكن النتائج:

وإذا حملت على الكريهة لم أقل
بعد الكريهة ليتني لم أفعل

وعنترة شجاع القلب، لا يخاف الموت وكذلك لا يخشى الوغى، لأنه يؤمن بالقضاء والقدر ويؤمن كذلك بأن الآجال مقدرة ومحتومة في مواعيدها لا تستأخر ساعة ولا تتقدم، وليس هنالك من سبيل لدفعها إذا جاء أجلها:

ففي قصيدته المشهورة "حكم سيوفك في رقاب العذل"[(١)]:

حكم سيوفك في رقاب العذل
وإذا نزلت بدار ذل فارحل

وإذا بليت بظالم كن ظالماً
وإذا لقيت ذوي الجهالة فأجهل

وإذا الجبان نهاك يوم كريهة
خوفاً عليك من ازدحام الجحفل

فاعص مقالته ولا تحفل بها
وأقدم إذا حق اللقا في الأول

واختر لنفسك منزلا تعلو به
أو مت كريما تحت ظل القسطل

موتُ الفتى في عزةٍ خير له
من أن يبيت أسير طرف أكحل

لو أنكرت فرسان عبس نسبتي
فسنان رمحي والحسام يقرُ لي

وبذابلي ومهندي نلتُ العلى
لا بالقرابة والعديد الأجزل

---

(١) المصدر السابق. كان الوالد عليه رحمة الله الواسعة ورضوانه يحفظها ويتغنى بها حتى اخر ايامه وقد ناهز المائة من العمر.

لا تسقني ماء الحياة بذلة

بل وأسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم

وجهنم بالعز أطيب منزل

***

ولا يكاد تغني عنترة بمكارم الأخلاق يكف أو يتوقف لحظة واحدة في كل قصائده:

قال (من الطويل)[1] :

ونحفظ عورات النساء ونتقي

عليهن أن يلقين يوماً مخازيا

هل هذا – بربك – قول جاهلي قح: فكم من المنتسبين اليوم إلى الإسلام وإلى كافة الأديان السماوية ممن يسعى للحفاظ على عروض النساء وكرامتهن. بل وما أكثر المعتدين على هذه العروض وهذا الشرف اليوم ممن يدعون – ظلماً وجوراً – أنهم منتسبون إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!!

وفي تغني عنترة بمكارم الأخلاق، هذه القصيدة الجزلة الناصعة الجميلة:

فيقول عنترة (من الوافر)[2] :

ويوم البذل نعطي ما ملكنا

من الأموال والنعم البهية

ونحن العادلون إذا حكمنا

ونحن المشفقون على الرعية

ونحن المنصفون إذا دعينا

إلى طعن الرماح السمهرية

ونحن الغالبون إذا حكمنا

على الخيل الجياد الأعوجية[3]

---

(١) ديوان عنترة، ص ٢١٦، شرح التبريزي.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

(٣) الأعوجية نسبة إلى فحل قديم.. والرماح السمهرية نسبة إلى سمهر زوج ردينة.

ونحن الموقدون لكل حرب
ونصلاها بأفئدة جرية[1]

ملأنا الأرض خوفا من سطانا[2]
وهابتنا الملوك الكسروية

بالله عليك هل هذا وجدان عبدعبسي لا يصلح إلا للحلب والصر.. أم هو وجدان بطل وأمير.. بل وملك يتحدث عن الانصاف والعدل والبذل والسماء وكذلك الإشفاق على الرعية ؟؟!!

وفي قصيدته المشهورة (يوم المصانع)، (وكان والدي رحمة الله عليه) يحبها حبا جما ويتغنى بها كما تغنى بالأخرى "حكم سيوفك في رقاب العذل" حتى آخر حياته، وقد عمّر حتى ربى على التسعين من عمره:

وهي من (الوافر)[3] :

إذا كشف الزمان لك القناعا
ومد إليك صرف الدهر باعا

فلا تخش المنية والقينها
ودافع ما استطعت لها دفاعا

ولا تختر فراشا من حرير
ولا تبك المنازل والبقاعا

يقول لك الطبيب دواك عندي
إذا ما جس كفك والذراعا

ولو عرف الطبيب دواء داء
يرد الموت ما قاسى النزاعا

وفي يوم المصانع قد تركنا
لنا بفعالنا خبراً مشاعا

أقمنا بالذوابل سوق حرب
وصيّرنا النفوس لها متاعا

---

(١) جرية أي حربية.
(٢) سطانا أي سطوتنا وغلبتنا.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٩٠.

حصاني كان دلال المنايا

فخاض غمارها وشرى وباعا

وسيفي كان في الهيجا طبيباً

يداوي رأس من يشكو الصداعا

أنا العبد الذي خُبِّرت عنه

وقد عاينتني فدع السماعا

ولو أرسلت رمحي مع جبان

لكان بهيبتي يلقى السباعا

ملأت الأرض خوفاً من حسامي

وخصمي لم يجد فيها إتساعا

إذا الأبطال فرت خوف بأسي

ترى الأقطار باعاً أو ذراعا

وكما أسلفنا القول، فإن تغني عنترة بمكارم الأخلاق لا يكاد يكف أو يتوقف. وليست هذه الدراسة عن عنترة خاصة، فلذلك موقع آخر إن شاء الله. ولكننا وددنا أن نضم صوتنا إلى أستاذنا عبدالله الطيب في تقديم عنترة على الكثير من أصحاب المعلقات، إن لم يقدمه عليهم جميعا لأنه صاحب اللواء ليس فقط في جزالة الألفاظ.. ولكن أيضاً في رفع راية مكارم الأخلاق والتغني بها.

النبي (صلى الله عليه وسلم) يذكُر عنترة:

روت عائشة (رضي الله عنها) أن النبي "صلى الله عليه وسلم" أنشد قول عنترة:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظَلُّه

حتى أنال به كريم المأكل

وقال:

"ما وُصف لي أعرابي قُط، فأحببتُ أن أراه إلا عنترة"[1].

ولهذه الأسباب، فإنا نتفق مع ابن الأنباري، ومع أستاذنا المرحوم عبدالله الطيب، في أن عنترة يستحق موقعاً عالياً بين شعراء المعلقات، ليس فقط لأنه الأكثر تغنياً بمكارم

(١) ديوان عنترة - شرح التبريزي، ص ٢٢٧، الناشر: دار الكتاب العربي (بيروت ١٩٩٤م).

الأخلاق، وبالتالي أكثر تمثيلاً لميثاق الشرف العربي، الذي خرقه أمرؤ القيس، وبسبب ذلك خلفه أبوه الملك الكندي وكذلك المجتمع العربي كله . . فأصبح يلقب "بالملك الطريد" و "الملك الضليل" ولم يشفع له نسبه الشريف ولا مكانته الملكية كواحد من أشعر أولاد معاوية بن حجر الكندي . بل ومن أحسن شعراء المعلقات شاعرية وموهبة . .

يُقدم أمرؤ القيس على أنه الأكثر سعة في اللغة والأقدر شاعرية في اغراض الشعر – المتصلة بالوصف . . وبالغزل وحتى أكثر قدرة على البكاء في الأطلال . . فقد ابتكر مثل هذا البكاء على الأطلال "ابن حزام" . . ولكن عنترة لا يقل شاعرية عن امرؤ القيس، خصوصا في الغزل العذري العفيف وكذلك في التغني بالشجاعة والكرم والتغني بالمكارم والحكم والأمثال . . والصبر على مكاره الحياة خاصة الظلم والابتلاء والعنصرية التي عانى منها كثيرا وبالرغم من موقعه الاجتماعي المتدني – في عيون العرب الجاهليين الذين كانوا عنصريين إلى أقصى حد – ولم يشفع لعنترة أنه الابن الطبيعي لوالده شداد!! وكذلك لم يشفع له شجاعته وكرم نفسه ودوره الفعال في الدفاع عن دماء وأموال قومه من عبس، إلا أنه لم يفقد نبله ولا علو نفسه . . بل ظل يدين لأبيه وحتى عمه الظالم "مالك" وال "عبلة" وظل يفتخر بهم على ظلمهم وعدوانهم عليه :

يقول عنترة يفتخر بقومه من آل عبس، رغم إنكارهم حقه في الانتساب إليهم أو الزواج من إبنة عمه مالك "عبلة" التي يحبها كل الحب : (١)

ولا عـاش إلا من يصـاحب فـتـيـة
غطاريف لا يعنيـهم النحس والسـعـد

إذا طولبـوا يومـاً إلى الغـزو شـمّـروا
وإن نُدبوا يومـاً إلى غـــارة جـدوا

ألا ليت شـعــري هل تبلغني المنى
وتلقى بي الأعـداء سـابحـة تغـدوا

وتصـحـبني من آل عـبس عـصـابة
لهـا شـرف بين القـبـائل يمتـد

بهـاليل مـثل الأسـد في كل مـوطن
كـأن دم الأعـداء في فـمـهم شـهـد

(١) ديوان عنترة – شرح التبريزي، ص ٥٥ .

وقال يعاتب قومه[١] :

إذا فاض دمعي واستهل على خدي

وجاذبني شوقي إلى العلم السعدي

أذكرُ قومي ظلمهم لي وبغيهم

وقلة إنصافي على القرب والبعد

بنيت لهم بالسيف مجداً مشيداً

فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي

يعيبون لوني بالسواد وإنما

فعالهم بالخبث أسودُ من جلدي

فوا ذلّ جيراني إذا غبتُ عنهم

وطال المدى ماذا يلاقون من بعدي

وقال عنترة في قصيدة أخرى[٢] :

إذ الريح هبت من ربى العلم السعد

طفا بردها حر الصبابة والوجد

وذكّرني قوماً حفظت عهودهم

فما عرفوا قدري ولا حفظوا عهدي

ولو لا فتاة في الخيام مقيمة

لما اخترت قرب الدار يوماً على البعد

فهل تسمحُ الأيام يا إبنة مالك

بوصل يداوي القلب من ألم الصد

سأحلمُ عن قومي ولو سفكوا دمي

واجرعُ فيك الصبر دون الملا وحدي

ويقول عنترة في قصيدة أخرى يفتخر بقومه ويشيد بهم بعنوان : "لله در بني عبس" [٣]

---

(١) ديوان عنترة، شرح التبريزي، ص ٥٩ .

(٢) ديوان عنترة ص ٦١ .

(٣) ديوان عنترة، تقديم وشرح وتعليق د. محمد محمود، دار الفكر اللبناني - بيروت ١٩٩٦ (الطبعة الأولى) .

يا عبل قري بوادي الرمل آمنة

من العداة وإن خوفت لا تخفي

فدون بيتك أسد في أناملها

بيضٌ تقدُّ أعالي البيض والحجف

لله در بني عبس لقد بلغوا

كل الفخار ونالوا غاية الشرف

وفي قصيدة بعنوان "إبنة السادات"[1] :

عذابك يا ابنة السادات سهل

وجور أبيك انصاف وعدلٌ

فجوروا واطلبوا قتلي وظلمي

وتعذيبي فإني لا أملٌ

فلا أسلو ولا أشفي الأعادي

فساداتي لهُم فخر وفضلٌ

أناس أنزلونا في مكان

من العلياء فوق النجم يعلو

إذا جاروا عدلنا في هواهم

وإن غروا لعزتهم نذلُ

ومثلُ هذا الشعر كثير عند (عنترة) وهو يدل على نبل رفيع، وكرم زائد وسماحة نفس نادرة تصبر على الظلم وتعفوا على المسيء، مهما تمادى في الظلم والجور. . وعلى حرمانه من حبيبته عبلة التي تبادله حبا بحب وعشق بعشق. . وهي بعد كانت ابنة عمه لا يفصلهما شيء سوى سواد جلدته. برغم فروسية "عنترة" ودوره المهم في الدفاع عن قومه وعشيرته!! غير أنّ تسامح "عنترة" مع أبيه شداد وعمه مالك لم يمنعه من الاستمساك بعزة نفسه وأنه يشعر بقدره الرفيع وأنه فارس فذ ولؤلؤة نادرة، لا يعيرها في ذلك سواد لونها لان اللؤلؤة لا يعيبها أنها مستورة :

وإن يعيبوا سواداً قد كُسيت به

فالدر يستره ثوب من الصدف

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٣ .

فـذلُّ عنتـرة لقـومـه ليس من باب الانكسـار أو الخـضـوع للبـاطل والذل والتـعـالي والعنصـرية . . ولكنه أمر يدل على حبه الكبير لقومه . . لأنهم أيضاً قوم "عـبلة" وهي بالنسبة له الحياة كلها ، والدنيا كلها ، والنور والأمل والشوق والصبابة . فهي عيونه وقلبه ونفسه ذاتها فليس هو بمعزل من قومه . . فقومه هم نفسه ووجدانه ، ولا يمكن لإنسان أن يكره نفسه أو يدينها أو يستنكف عن حبها وتقديرها والفخر بها ! !

مهمـا يكن من شيء ، فإن عنترة في وجدان عبدالله الطيب ولا عجب ، لأنه يستحق التقدير والمحبة وعبدالله الطيب ليس بدعاً في ذلك ، فكل السودانيين يحبون عنترة ويتغنون بقصائده في كل المناسبات ، فعنترة في دم كل سوداني . وهو في وجدان كل كريم يعشق العدالة والانصاف ويقدر الرجال الأبطال من أمثال عنترة . . وعنترة . . كان في بيت آل إمام منذ أن تفتحت عيوننا على الدنيا ، وعلى أنغام الشعر العربي الرفيع . فالوالد – رحمة الله عليه – وكذلك العم مبارك إمام . والأستاذ محمد أحمد عثمان النعيمة – خالي ووالد زوجتي د . مزاهر كلهم يحفظون أشعار عنترة وقصائده البديعة .

ولقد حفظنا الكثير من تلك القصائد من كثرة سماعنا لها من الوالد ، خاصة قصائده الرائعة :

- معلقته الرائعة
- حكم سيوفك في رقاب العذل
- وفي يوم المصانع .

والسودانيون يحبون عنترة ليس فقط لأنه أسود اللون مثلهم . . ولكن لأنه شاعر مبدع وبطل أروع . . وفارس شـجاع . . هو أبو الفـوارس . وهو بعـد ذلك تعرض لظلم فـادح وجور وإنكار وحرمان لا يستحقه من كان مثله عشقا وصبابة واقدام وشجاعة . . وذلك النبل الرفيع . . وتلك الشاعرية النادرة . . وكذلك التغني بمكارم الأخلاق والدفاع عنها وحفظ المواثيق والعهود والصفح . والعفو عن المسيء وعن المذنب . . -- وهم يتعاطفون معه لأنه عانى الإزدراء والتهميش والحرمان والعنصرية بلا أدنى مبرر سوى أنه أسود اللون . وهذا شيء مرفوض عند كل كريم وعند كل إنسان ذي وجدان إنساني رفيع .

عبدالله الطيب ولبيد العامري:

من الشعراء الآخرين الذين طالما شدا عبدالله الطيب بأشعارهم وهم كثيرون نذكرُ منهم لا على سبيل الحصر:

١ - لبيد العامري

٢ - ذا الرمة

٣- الشنفري

٤ - أبا العلاء المعري

٥ - أبا الطيب المتنبيء

٦ - البحتري

٧- أبا تمام

وفي الواقع، فإن عبدالله الطيب لم يترك شاعراً من شعراء الجاهلية أو الإسلام إلا وذكره في موضع من مواضع "المرشد" وذلك في معرض الحديث عن قوافي الشعر وأوزانه، أو عن أجراس القافية: صياغتها وبيانها.. ولم يترك في ذلك شاردة أو واردة إلا ألم بها.

أما لبيد، فعبدالله مُعجب به إلى الدرجة التي جعله فيها أصلاً لشاعر من أعظم شعراء الفرنجة، ألا وهو أس. تي. إليوت (S. T. Eliot)، شاعر الملحمة المشهورة "الأرض المقفرة أو الأرض اليباب" The Wasteland . وكذلك فهو يعتقد أن الكثير من الشعراء الإنجليز خاصة، أخذوا من الشعر العربي وخاصة من ذي الرمة (إلى جانب لبيد)، وأبي الطيب والمعري وأبي تمام. والبحتري. ولا يخفي عبدالله إعجابه بشعراء العشرة الطوال التي يعتبرها قمة الشعر العربي، خاصة أمرؤ القيس وعنترة ولبيد وزهير بن أبي سلمى وكذلك الشنفري وتأبط شراً. أما شعراء الإسلام، فلم يكن يترك منهم أحداً إلا واستشهد به في دراسته عن النظم العربي في الشعر وفي الأوزان والبحور التي جاء بها الخليل بن أحمد الفراهيدي أو غيرها، سليمها ومعيبها! وكذلك أجراس الألفاظ وصياغتها وبيانها ومذاهب الشعراء في ذلك في الإسلام وفي الجاهلية.

المرشد إلى فهم أشعار العرب:

ولقد أسلفنا القول - قبل هذا الموضع - أن عبدالله الطيب، يتناول أشعار العرب في

"المرشد" لا من حيث شرح المعاني والألفاظ ؛ وبيان الدلالات والفحوى من حيث صلتها بعادات العرب وتقاليدهم ومواهبهم في العيش والفكر والعقائد والأنساب والتاريخ . . ولكنه يتناولها من حيث نظرية النظم أو النغم المنتظم ، وهذه هي دراسة بحور الشعر العربي وأوزانه أو ما يسمى (بالعروض) ، وكذلك من حيث أجراس الكلمات أي الصياغة والبيان . . وقلنا إن الذي لا يلم بعلم (العروض) أو علم القوافي سوف يلاقي صعوبة كبيرة جداً في الاطلاع على كتاب (المرشد) . وفي الواقع ، فإن معظم دارسي العربية الذين أطلعوا على (المرشد) قد اشتكوا من وعورة هذا الكتاب وصعوبة دراسته وأنهم يلاقون في ذلك الأهوال . وزاد الأمر صعوبة ووعورة أسلوب عبدالله الطيب وسعة إطلاعه على مذاهب شعراء العربية ، المشهورين منهم والمغمورين وسرعة انتقال قريحته الشديدة الذكاء ، السريعة الإيقاع والتقلب ، فهو لا يكاد يتوقف ليشرح أو يبين . . بل هو في بعض الأحيان – وهو يناقش بحرا من بحور الشعر أو عيباً من عيوب القافية أو محاسنها – يكتفي بإلقاء إشارة عابرة : كلمة أو كلمتين وتعليق هنا وهنالك وشيء من الاستحسان أو الاستهجان ثم يمر بعد ذلك مرور الكرام . . !!

ويترك القارئ في حيرة معتاصة وفي وحشة شديدة لا يدري أيستمر في القراءة أو يتوقف . . وفي كثير من الأحيان يضطر إلى الرجوع إلى أول الباب أو الفصل أو المبحث ليلتقط الحبل من أوله . . حبل الفكرة "العبيدية" نسبة إلى عبدالله الطيب . . وفي النهاية يوطئ النفس على طريقة عبدالله الطيب وفي أنه يسير ولا يبالي وكأنه يتحدث إلى النفس بطريقة المنولوج . .

ولقد عانيت منه هذه الطريقة ، عندما كنت طالباً معه في كلية الآداب في عام ١٩٦٢م وبالرغم من أنني كنت من الطلاب الأوائل (البرنجيين) فقد كنت أول الأمر أعاني صعوبة كبيرة في متابعة الكم الهائل من الشعر العربي ، وخاصة الجاهلي ذي الألفاظ الوعرة الشاذة التي لم تعد متداولة في اللغة العربية المعاصرة . . ولا حتى في القرآن الكريم أو كتب السير والفقه في العربية وغيرها من العلوم العربية الكلاسيكية . وعبدالله الطيب ينظر عيوننا المعتاصة (من عويص) المتحيرة ولكنه لا يفعل شيئاً . . بل هو يستمر في دفعه اللغوي وفي تدفق استشهاده بالشعراء العرب من الجاهليين أو الإسلاميين في عجلة شديدة وسيلان دائم .

وكنت في بعض الأحيان أذهب له في المكتب ، وأحاول أن استوضحه بعض الأمور

والاشكالات فإذا بالشرح أصعب من المسؤول عنه . . فيدركني الاستحياء وأتظاهر أنني قد فهمت شيئاً . حتى لا يظنني من الأغبياء . ولقد تنامى عندي الشعور بعد ذلك أن عبدالله الطيب ربما كان يتعمد الاغراب والوعورة حتى يظل بعيداً عنا وعن قدرتنا على (المناكفة) والتساؤل . . حتى لا نظن يوماً أننا يمكن أن نكون قريبا منه في الفهم أو التحصيل أو الإبداع . . فهو فريد زمانه ووحيد أيامه . . ولقد قويت تلك القناعة على الأيام . . خصوصاً كان يصاعد في المستويات ويركض إلى أعلى في المعارج اللغوية والإدراكية . . عندما يكون "غير مرتاح" من جانبي أو "غير سعيد" من صراحتي . . وانني في بعض الأحيان أجعل "البساط أحمديا" معه كما يقولون ، فكان يعاقبني على ذلك بالتعالي المعرفي وبالصعود إلى غرائب المعاني وغريبها . . كما كان يزداد في سرعة التدفق بالاستشهاد بشعر أكثر صعوبة ووعورة عن الشعر الذي كنت أسأل عنه .

وعندما تفرغت لدراسة "المرشد" اجتمع عندي وتوفر لي مزيد من الفهم لعقلية عبدالله الطيب ولنظريته في تدريس الشعر العربي وفي تناوله على السواء . . وهو نفسه يبين ذلك في خطبة كتابه (المرشد) .

يقول عبدالله الطيب في ذلك :

"والكتاب ككل مبني على فكرة بسيطة ، وهي أن الشعر العربي يقوم على الأركان الآتية : النظم . والجرس اللفظي . والصياغة . ثم إلقاء الكلام على صور خاصة من الأداء . . " .

(أ) النظم . وهو يتناول (١) البحر (٢) القافية :

وبحور الشعر العربي التي جاء بها الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ثم حاول من جاء بعده ابتكار أوزان جديدة ومستحدثة . وهذه البحور هي التفاعيل أو التفعيلات . وعبدالله الطيب مفتون بهذه البحور ومسحور بها أو قل هو مجنون بها أيما جنون . وما كتابه إلا دليل واضح على مدى تعلق عبدالله الطيب بهذه التفعيلات . . فهو ببساطة مفتون بها ومسحور . . يعرفها كما لم يعرفها أحد من علماء الشعر العربي . سليمها ومعيبها ، محاسنها وما يقصر منها عن الأداء الكامل للقريض وللايقاع الكامل فيرتد إلى شيء من الأراجيز أو البحور الناقصة النغم . وهو يستشهد على ذلك من واقع قصائد الشعراء العرب . من الجاهليين ومن الإسلاميين ولا يترك شيئاً يفوته ولا شاردة ولا واردة . . حتى يعجز الإنسان من مجاراته ويعجب أين تحصل عبدالله الطيب على كل ذلك .

(ب) الجرس اللفظي :

فاللفظ هو أداة البيان ووسيلته وفي ضروب من الجناس، والطباق، ومن السجع والترصيع والتقسيم "والمعنى قرين اللفظ. وذلك أن اللفظ من أجل المعنى أصله استعماله، وإن شئت فقل اللفظ شكل، والمعنى مضمون[1]" والمعنى منه :

* مباشر مكافح : كقول (عمرو بن كلثوم) :

إلا لا يجهلن أحدٌ علينا
فنجهلُ فوق جهل الجاهلينا

" نجهل أي نغضب ونحمي . . "

* ومنه مُبطن يفهم من السياق : كقول (عنترة) :

نبئتُ عمراً غير شاكر نعمتي
والكفرُ مخبثة لنفس المنعم

* ومنه ما يكون جارياً على الحقيقة، كقول (زهير) :

من يلق يوماً على علاته هرما
يلق السماحة منه والندى خُلقاً

* ومنه ما يكون جارياً على المجاز، كقول (طرفة بن العبد)

وفي الحي أحوى ينفضُ المرْد شادن
مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

* ومنه الجزئي ومنه الكلي :

* ومنه الايحاء (وبعض الايحاء ضرب من المجاز) كقول (جعفر بن علبة الحارثي) :

فؤادي مع الركب اليمانين مُصعدٌ
جنيب وجثماني بمكة موثق

* ومن الإيحاء محض، كقول (زهير) :

قامت تراءى بذي ضال لتحزنني
ولا محالة أن يشتاق من عشقا

* ومنه الكناية القريبة والكناية البعيدة : أما الكناية القريبة فكقول (الخنساء) :

---

(١) "المرشد" الجزء الرابع (القسم الأول) ص ٦٨ .

طويل النجـــاد رفـــيع العــمـــاد

ســـــاد عــــشـيــــرتـه أمـــردا

※ أما الكناية البعيدة، كقول الحارث بن خالد المخزومي:

من كـــــان يســــأل عنا أين منزلنا

فــالأقــحـــوانة منا منزل قـــمـن

※ يقولون (يقول عبدالله الطيب) انهم يقصدون عائشة بنت طلحة وكانت من الجميلات الباهرات الجمال:

※ ومنه الكناية التي هي رمز: (كقول عمرو بن قميئة):

قـــد ســـألتني بنت عـــمــرو عن

الأرض التي تنكر أعـــلامــــهـــا

قالوا عنى نفسه بقوله "بنت عمرو" يقول عبدالله الطيب:

※ إذن من المعنى الرمز وهو قريب العلة بالكناية

ومن الرمز قول (زهير):

وقـــال الـغـــواني إنما أنت عـــمنا

وكـــان الشـبــاب كـالخليط نزايله

لمن طلل بـالجـــزع عـــاف منازله

عــفـا الرس منه فـالرسـيس فـعـاقله

يقول عبدالله الطيب[1]:

"فعنى نفسه (يعني زهير) وزمان شبابه بهذا الطلل كما ترى، ولا أحسب الرس والرسيس وعاقلاً، على ما يظهر أنهن من أسماء مواضع، يخلون من دلالة رمزية معنوية، ومن معاني الرس والرسيس الحُمّى: وقد يشبه بها بعض ما يُعرض من حالات الحب".

ومن المعنى ما يكون سهلاً بسيطاً كقول المرقش:

ســـرى ليـــلاً خـيـــالٌ من سليـــمى

فـــأرقني وأصـــحـــابي هجـــود

(ج) الصياغة:

يدخل تحت الصياغة (١) الوزن (٢) اللفظ (٣) والمعنى (٤) وطريقة التأليف.

---

(١) "المرشد" الجزء الرابع - القسم الأول.

فالوزن قائم بذاته وهو أي الوزن والايقاع خاصة الشعر الأول وهو قائم بذاته ولكن لا يمكن فصله عن الصياغة وقد تم مناقشته في موضوع النظم. "البحور والقوافي" وأما اللفظ والمعنى فقد تم مناقشتها أعلاه

بقي لنا التأليف وهو يتعلق بتركيب الألفاظ لتؤدي المعاني وتقوم بمهمة البيان والأداء اللغوي.

(د) **أما البيان** فذلك هو الأداء اللغوي، وتدخل فيه الصياغة بطرف وكذلك البلاغة بأساليبها البديعة والمتنوعة في هذه اللغة العجيبة الواسعة الجميلة. والبيان والفصاحة تقود إلى الحجاج المبين.

كما تقود إلى التعبير الجميل الشاعري عن أوسع معاني الحياة ومظاهرها وآياتها وبدائع الصنع والإبداع والتدبير الإلهي فيها. كما تعتبر اللغة من أوسع جيشان المعاني في النفس الإنسانية، معاني الحياة وأغانيها ومواويلها وآمالاها وآلامها وشكاياتها وما أكثرها. كما تعبر عن تذوقها للجمال والكمال والخير والحق والعدل! إضافة إلى جدلها مع الكون وخالق الكون وما حوى الكون من أشياء وفكر وعلاقاتها "وكان الإنسان أكثر شيء جدلا"!

كما أن البيان والأداء اللغوي لا ينفصل عن الصياغة كما أسلفنا، فالصياغة اللغوية هي أوسع مواعين البيان.

المطالع والمقاطع في الصياغة العربية:

* المطالع: للشعراء العرب، منذ الجاهلية، مطالع بديعة يستهلون بها قصائدهم وهي لسان لحال حياتهم ووجدانهم، وأشواقهم وصباباتهم ولهم فيها الكثير من الأغراض الدقيقة الجليلة، كما بين عبدالله الطيب في (المرشد)(١).

والمطلع هو أول القصيدة، ومنذ أمرؤ القيس (وقبله ابن خذامة) درج الشعراء الجاهليون - وتبعهم في ذلك الشعراء في العصور الإسلامية وسائر العصور إلى يومنا - استهلال القصيدة بالنسب أو الغزل في النساء وجمالهن. وأول هذا الغزل هو البكاء على الأطلال، وكذلك سميت هذه المطالع بالمطالع الطللية. وللمطلع وكذلك المقطع بالطبع

---

(١) "المرشد" الجزء الرابع - القسم الأول: ص ٩٥، طبعة جامعة الخرطوم ١٩٩٢.

صلة قوية : صلة عضوية بتأليف القصائد . والمطلع يراد به التنبيه لما يحكي من أغراض القصيدة وهو قرع قوي للاسماع لكي ترهف السمع وتنبه الذهن لكي يحضر ويتوحد .

وقال ابن رشيق – في باب عمل الشعر وشحذ القريحة : إن الشاعر إذا وفق في مطلع القصيدة "فقد ولج من الباب، ووضع رجليه على الركاب"[١] .

* والمطالع قد تبدو متشابهة، ولكنها عند تدقيق النظر على العارفين، تجد مختلفة

يا دار مـــيـــة بالعليـــا والسند

أقـــوت ودام عليـــهـــا ســـالف الزمن

يا دار مـــيـــة بين الحـــزن والجـــرد

____

يا دار عـــبلة بالجـــواء تكلمي

____

يا دار سلمى بعـــيـــداً مـــا أكلفـــهـــا

____

وعبدالله الطيب يرى، كما ذهب إلى ذلك ابن رشيق في العمدة – حاكيا عن الحاتمي أنه قال : "من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم، متصلاً به، غير منفصل عنه : فإن القصيدة، مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائها ببعض، فمتى انفصل واحد من الآخر باينه في صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفي معالم جماله، ووجدت حذاق الشعراء، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحالة احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الإحسان" ! !

١ – والنابغة، عندما ذكر "العليا" و "السند" إنما كان يريد الإشارة إلى سوء التفاهم الذي كان قائماً بينه وبين النعمان بن المنذر، ملك الحيرة !

٢ – وأمرؤ القيس ظاهر من مطلع معلقته أنه يتغنى ويترنم بذكريات وأشجان من الماضي ما زالت قوية حاضرة في نفسه تثير لاعج الذكرى وتأجج نيران الوجد والصبابة :

قـــفـــا نبك من ذكـــرى حـــبـــيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخـــول فـــحـــومل

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٧ .

٣- ومطلع معلقة (طرفة بن العبد) تشير إلى علاقة من الحب والوجد، أصبحت واهية تلوح كبقية وشم على يد هيئتها ضعيفة غير واضحة تماماً ولكنها ما زالت موجودة على أية حال:

خَـولة أطلال ببـرقـة ثهـمـد

تلوح كـبـاقي الوشم في ظاهر اليـد

٤- ومطلع معلقة (زهير):

أمـن أم أوفـى دمـنـة لـم تـكـلـم

بحـومـانة الدّراج فـالمتـثلم

والدمنة مكان "للأزبال" ويكني بها عن "الضغينة" وغرض الشاعر أضغان يريد ازالتها بإصلاح ذات البين.

٥- ومطلع معلقة "عنترة" أن يحكي عن مكنونات صدره وقلبه في حبه لعبلة.. وهو لا يستطيع بها وصلاً عند ذلك بعد أن منعه ذلك أبوه وعمه، ورحلا من الربع حتى لا يتشبث بها عنترة العبدفيفضحهم بين القبائل، وهو ابن عمها البطل "فيا للنفاق ويا للعنصرية ويا للظلم.. والقسوة"

هل غـادر الشـعـراء من مـتـردم

أم هل عـرفت الدار بعـد تـوهـم

يا دار عـبلة بالجـواء تكلمي

وعـمي صـبـاحـاً دار عـبلة واسلمي

ومعلقة عنترة هي الرابعة عند ابن الأنباري، وإن كان يقدمه على لبيد العامري، كما أسلفنا القول!

٦- ومطلع معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هبي بصـحنك فـأصـبـحـينا

ولا تبـقي خـمـور الأندرينا

يريد بها أن يذكر ما كان بينه وبين عمرو بن هند، من ترات وثأرات وكيف أن عمرو بن هند الملك قد خرق ميثاق الشرف العربي عندما حاول الأساءة إلى أم عمرو وهم ضيوف لديه لأنه أمرها بخدمة زوجته. وقد نال عمرو بن كلثوم ثأره بقتل الملك عمرو بن هند جزاء الإهانة التي تلقاها منه، تماما كما فعل الملك نمر - ملك الجعليين، عندما حرق حياً إسماعيل

باشا ابن محمد علي باشا حاكم مصر - لأنه أساء إليه أمام قومه بقذف الغليون في وجهه!!
والعرب هي هي لم تتغير:

وفي هذا الصدد قال أمرؤ القيس - عندما نال ثأره من بني أسد:

فاليوم أشرب غير مستحقب
إثماً من الله ولا واغل

٧- ومطلع معلقة الحارث بن حلّزة:

آذنتنا ببينها أسماء
رب ثاو.. يُملّ منه الثواءُ

بالطبع لا يمكن أن يكون مراده منها الحبيبة؛ فأسماء ليست حبيبته. لأنه لا يمكن لحبيب أن تملُ ثواء حبيبته وإقامتها:

وإنما مراده اصلاح ذات البين بين قومه وبين أخوانهم من بني تغلب: هو أراد الصلح وهم أرادوا الشتات والفراق:

أجمعوا أمرهم بليل فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ
من مناد ومن مجيب ومن
تصهال خيل خلال ذاك رُغاءُ
أيها الناطق المرقش عنا
عند عمرو وهل لذاك بقاءُ
لا تخلنا على غراتك إنا
قبلُ ما قد وشى بنا الأعداءُ
فبقينا على الشناءة تنمينا
حصون وعزة قعساءُ

٨- ومطلع معلقة لبيد بن ربيعة العامري:

عفت الديار محلّها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عُرّي رسمُها
خلقاً كما ضمن الوحيّ سلامها

دمن تجرّم بعد عهد أنيسها

حجج خلون حلالها وحرامها

رزقت مرابيع النجوم وصابها

ودق الرواعد جودها فرهامها

فذكر "لبيد" عفاء الديار، ديار الحبيب وذلك أحزنه وأثار لاعج الذكرى والصبابة والوجد ولكن آثار الحبيب لم تعف كليه فقد بقيت منه آثار خلقه، لآثار القدماء في الكتب ثم ذكر "الدمن" كما فعل (زهير) دلالة على الضغينة.. فكيف أنها من أسباب رحيل الحبيب، وعفا الديار وحلول الوحوش فيها بدلاً من الحبيب الأنيس (فيا للوحشة). والفرق بين "لبيد" و "زهير" أن زهيراً يتساءل وأما لبيد فيتحسر ويتعذب صبابة ووجداً.. وفي مطلع معلقة (لبيد) شبه بمطلع الحارث بن حلّزة:

آذنتنا ببينها أسماء

رب ثاو يملُّ منه الثواء

إلا أن الفرق – كما قال عبدالله الطيب – إن الحارث لا يبالي وهو غير مكترث، فيما يبدو – لفراق الحبيب، وأين ذلك من رقة لبيد وصفاء قلبه وحسن طويته:

رب ثاو يملُّ منه الثواء

أما (لبيد)، فهو، وإن كان موقفه موقف الند – فإذا وصل الحبيب وصله أما إذا أصرم صرمه: ولكنه بعد ذلك إلى الوصال راغب وفيه طامع:

فاقطع لبانة من تعرّض وصله

ولشرُّ واصل خلّه صرّامها

وأحبُ المجامل بالجزيل وصُرمُه

باق إذا ضلعت وزاغ قوامها

٩- وأما مطلع معلقة (الأعشى):

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وتختلف هذه المعلقة وهذا المطلع أن الأعشى يودع حبيباً ما زال موجوداً حياً شاخصاً. ولكنه قد أزمع الرحيل. ودنت ساعة ذلك الفراق المر الذي لا يطاق مع محاولته أن يكون

مرحاً هزلياً ربما ليخفي صبابته ويظهر جلداً وصبراً هو في الواقع ينوء به غير طائق لذلك الفراق المر . .

١٠ - أخيراً وليس آخراً، فلننظر إلى مطلع معلقة " عبيد بن الأبرص " :

أقــــفــــر من أهله ملحــــوب
فـــالقُطّبيــــيـــات فـــالذنوب

وهذا بيت يكثر من تكراره والاستشهاد به عبدالله الطيب في كل أجزاء " المرشد " وهو يورده كمثال لبعض عيوب القوافي عند الجاهليين، ولا يسلم من ذلك حتى أبو شعراء المعلقات البديعية التي هي قمة الشعر الجاهلي بلا منازع ألا وهو عبيد بن الأبرص .

وهذا العيب يرد في معلقته ذاتها :

أقــــفــــر من أهله ملحــــوب
فـــالقُطّبيــــات فـــالذنوبُ
أرض تـوارثهـــا شــــعــــوب
وكل من حلهـــا مـــحــــروب
إمـــا قـــتــــيل وإمـــا هالك
والشـــيــب شين لمن يشـــيبُ
عـــيناك دمــــعــــهـــا ســــروبُ
كـــأن شـــأنيــهـــمـــا شـــعــيبُ
تصـــبـــو وأنى ذلك التـــصـــابي
أنى وقــــد راعك المشـــــيبُ

فعبيد هنا يبكي عفاه الديار في ملحوب "والقُطّبيات" و " الذنوب " ولكنه يعزو ذلك لا إلى هجرة الأحياء ولا إلى عوامل التعري في الطبيعة، ولكنه يعزوه إلى اختلاف المالكين لتلك الديار والذين توارثوها جيلاً بعد جيل وبسبب الحروب والنزاعات العظيمة التي دار رحاها بينهم (أما هالك أو قتيل)!! . . ثم هو بعد ذلك يبكي نفسه والشباب الذي ولى ولن يعود . وأنه بعد ذلك أنى له يمني النفس بالدموع في غرام الصبايا أو التصابي عليهن . . وهو يحزن لذلك ويذرف عليه الدموع السواجم التي هي أشبه - في انحدارها من عينيه بالشعب من الوادي .

فهذه هي المعلقات العشر وهذه هي مطالعها البديعة . . عميقة متأملة رائعة . . وكان عبدالله الطيب رحمه الله كعادته في الاستغراق والتوسع الذي ربما يريد أن يُفهم منه – رسالة إلى الطلاب والقراء – كيف أن العربية واسعة سعة لا تعرف التوقف أو الانتهاء. وكأنها سعة بلاحدود بل هي سعة لا متناهية . فالعربية تسع الكون وما وراء الكون والكون نفسه واسع : قال عز من قائل :

﴿والسماء بنيناها بأييدٍ وإنا لموسعون﴾ (الذاريات : ٤٧)

وقال عز وجل :

﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (غافر : ٥٧)

وقال تعالى :

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه قسم لو تعلمون عظيم﴾ (الواقعة : ٧٥ – ٧٦)

وأخذ عبدالله الطيب – بعد العشر الطوال – يناقش موضوع المطالع عند غيرهم من شعراء الجاهلية :

المسيب بن علي

بشامة بن الغدير (خال زهير بن أبي سلمى، ومنه تعلم زهير تحبير الشعر وتجويده) ويقول عبدالله الطيب إن المحدثين من النقاد كثيراً ما يجهلون معاني وإشارات مطالع الجاهليين فدفعهم ذلك إلى اتهامهم بالسطحية والحسية، وعدم الوحدة!!

مقاطع الشعر الجاهلي :

المقاطع – كما أسلفنا القول – هي خواتيم القصائد، في مقابل الطوالع التي تقدم الحديث عنها. وأمرها قريب من أمر المطالع، ذلك أنه كما تلمس روعة المطلع ليقرع الاسماع وينبه الأذهان لما هو قادم من أغراض القصيدة ومعانيها ومواضيعها، كذلك يلمس حسن المقاطع ليكون مُوذناً بالخواتيم، كقول إمرؤ القيس :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه
بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي

فهذه هي آخر أبيات قصيدته التي مطلعها :
ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي :

ويقول عبدالله الطيب إن الصلتان العبدي قد أخذ من أبيات إمرؤ القيس أعلاه، قوله :
تموت مع المرء حاجاته
وتبقى له حاجة ما بقي

ومن المقاطع البديعة، في رأي عبدالله الطيب، قول المثقب العبدي – في نونيته الشهيرة البديعة :

ولا أدري إذا يممت أرضاً
أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه
أم الشرُّ الذي هو يبتغيني

ومطلع تلك النونية مطلع متميز جداً، ويدل على كثير من أغراض القصيدة :

أفاطم قبل بينك متعيني
ومنعك ما سألت كأن تبيني
ولا تعدي مواعد كاذبات
تمر بها رياح الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي
خلافك ما وصلت بها يميني
إذن لقطعتُها ولقلت بيني
كذلك أجتوي من يجتويني

وواضح أن مطلع القصيدة التي يحذر المثقب العبدي فيها حبيبته فاطمة أنها إذا هي أمعنت في قطع وصاله ومنعه من لذات هذا الوصال، فإنه لا يرى بأساً في أن تذهب وترحل وتبعد عنه، فإقامتها على الهجر والتمنع بالبين سواء بسواء.. ثم يدلف بعد ذلك إلى مخاطبة صديقه عمرو :

إذا مـــا قـــمت أرحلهـــا بليل

تـأوه آهـة الـرجـل الحـزيـن

إلى عـمـرو ومن عـمـرو أتتني

أخي النجـدات والحلـم الرصين

فـإمـا أن تـكون أخي بـحق

فـأعـرف منك غـثي من سمـيني

وإلا فـاطرحـني واتـخـذني

عـدواً أتقـيك وتـتـقـيني

ويصف عبدالله الطيب مقطع نونية المثقب العبدي بأنها خاتمة رائعة ومقطع نبيل ! !

ومقطع معلقة عنترة، مقطع رهيب :

ولقـد خـشـيت بأن أمـوت ولـم تـدر

للحـرب دائرة على إبني ضـمـضـم

الشـاتمي عـرضي ولم أشـتـمـهـمـا

والنـاذريـن إذا لقـيـتـهُـمـا دمـي

إن يفـعـلا فـقـد تركـت أباهـمـا

جـزر السـبـاع وكـل نسـر قـشـعـم

ومقطع معلقة (طرفة بن العبد) :

ستـبـدي لك الأيام مـا كنت جـاهلاً

ويأتيك بالأخـبـار من لـم تُزوّد

سـيـأتيك بالأخـبـار من لم تبع له

بتـاتاً ولم تضـرب له وقت مـوعـد

"والبتات " هو زاد المسافر . (وتبع) هنا معناها "تشتري" .

ويقول عـبدالله الطيب أن الأبيات التالية ليست (لطرفة) ولكنها من قول (عدي بن يزيد). وهما أشبه بحكمة زهير :

لعـمـرك مـا الأيام إلا مـعـارة

فمـا اسطعت من مـعـروفـهـا فـتـزود

عن المرء لا تسأل وسل عن
قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي
ومقطع معلقة الأعشى :
قالوا الطراد فقلنا تلك عادتُنا
أو تنزلون فإنا معشر نُزُلُ
قد تُخضبُ العير في مكنون فائله
وقد يشيط على أرماحنا البطل
" مكنون فائله " أي عرقه .
" ويشيط " أي يُضرج بدمائه !
ومقطع معلقة (لبيد) :
وهم السعاة إذا العشيرة أُفظعت
وهم فوارسها وهم حكّامُها
وهم ربيع للمجاور فيهم
والمرملات إذا تطاول عامُها
وهم العشيرةُ أن يبطيء حاسدٌ
أو أن يميل مع العدو لئامها
وأما (زهير بن أبي سلمى) فهو يجيد ختام قصائده ، ومقاطعه رائعة في رأي عبدالله الطيب :
فقوله :
وهل ينبت الخطى إلا وشيجة
وتغرس إلا في منابتها النخلُ
هو مقطع قصيدة (زهير) التي مطلعها :
صحا القلب عن سلمى
وقد كاد لا يسلو
أما مقطعه :
لو نال حيٌ من الدنيا بمجدهم
أفق السماء لنالت كفه الأفقا

يختتم بها قصيدته في مدح هرم بن سنان:
وهي القصيدة التي مطلعها:

إن الخَليط أجَدّ البين فانفرقا
وعُلّقِ القلبُ من أسماء ما علِقا

وأما مقطع معلقة زهير، والتي مطلعها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدرّاج فالمُتَثلمِ

مقطعها هو هذه الأبيات التي تذخر بالحكمة:

ومهما تكن عند أمريء من خليقة
وإن خالها تَخفَى على الناس تُعلم

وأعلم ما في اليوم وأمسه
لكنني عن علم ما في غدٍ عمِ

هذه الأبيات – على ما فيها من حكمة – لا تخلو من تشكك وتشاؤم، لأنه لا يدري إذا كان إتفاق السلم الذي عقده السيدان، سوف يستمر ولا يتعرض للنكوص والخيانة، على نحو ما فعل حصين بن ضمضم. وكذلك يروي الزوزني – بعد البيتين أعلاه – هذه الأبيات والتي لا تخلو من حكمة ظاهرة هي الأخرى.

وكائن ترى من صامت لك مُعْجِبٍ
زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصفٌ فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتمُ
ومن يُكثر التسئال يوماً سيُحرم

وأما معلقة إمريء القيس، فتكاد أن تكون بلا مقطع – يقول عبدالله الطيب – "لأنها ليست بذات إنتهاء واضح". قال إبن الرشيق (في العمدة) في أواخر باب المبدأ والخروج والنهاية "ومن العرب من يختم القصيدة، فيقطعُها والنفس بها متعلقةٌ وفيها راغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة، كل رغب في أخذ العفو، وإسقاط الكلفة. ألا ترى معلقة أمريء القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر:

كـــأن الســبـــاع فــيــه غــرقي غُــدية

بأرجـــائه القـــصـــوى أنابيش عُنصل

فلم يجعل لها قاعدة، كما فعل غيره من أصحاب المعلقات وهي أفضلها". [(١)]

هذه بعض المقاطع التي استعرضها عبدالله الطيب، وهي غيض من فيض ولكننا نكتفي بهذا القدر إذ أن هذه الدراسة ليست في نظريات عبدالله الطيب الأدبية. ولا دراسة في مسائل (المرشد) وما أكثرها وما أصعبها ولكننا فقط حاولنا أن نعطي القارئ لمحة من طريقة عبدالله الطيب في دراسة الشعر العربي من حيث أنه نظم وإيقاع وصياغة وبيان!!

بحور الشعر العربي ومدى مواءمتها لأغراضه المختلفة:

يرى عبدالله الطيب رحمه الله. أن بحور الشعر العربي نشأت من واقع إيقاعات الحياة، وأن أغراض الشعر المختلفة تناسبها بحور بعينها، ولقد استنكر هذا القول بعض الناس، فيما يبدو، وقالوا إن أي بحر من بحور الشعر (فلنقل الطويل أو البسيط) يمكن أن نجدها في نفس الغرض. فالرثاء مثلا يمكن أن نجده في الطويل أو البسيط وهكذا وهلم جرا. ولكن عبدالله الطيب يعارض ذلك بشدة:

يقول عبدالله الطيب[(٢)] في ذلك:

"وقد يقول قائل: ما معنى قولك هذا؟ أتعني أن أغراض الشعر المختلفة تتطلب بحوراً بأعينها، وتنفر عن بحور بأعينها؟! هذا عين الباطل! ألسنا نجد مراثي في الطويل، وأخر في البسيط وأخر في المنسرح، وهلم جرا! ألا يدل هذا على أن أي بحر من البحور يصلح أن ينظم فيه لأي غرض من الأغراض الشعرية؟

وجوابي عن مثل هذا السؤال: بلى، كما يبدو ويظهر، ولكن كلا وألف كلا، لو تأمل الناقد ودقق وتعمق - فاختلاف أوزان البحور نفسه، معناه أن أغراضاً مختلفة دعت إلى ذلك. فقد كان أغنى بحر واحد أو وزن واحد".

وعبدالله الطيب محق فيما ذهب إليه. فالأغاني والرقص لا يصلح لها بحر الطويل مثلاً ولا الرجز يمكن أن يصلح للبكاء على الأطلال أو الوصف أو الفخر أو الهجاء!

ومهما يكن من شيء، فإن بحور الشعر في مجملها تعبر عن حياة العرب ونمط

---

(١) "المرشد" الجزء الرابع - القسم الأول ص (٤)، طبعة جامعة الخرطوم.

(٢) المرشد - الجزء الرابع - القسم الأول - ص ٩٣.

معيشتهم، وهم يترحلون في الصحراء ويعانون آلام السفر ومشقته في أراض صحراوية قاحلة في معظمها، كما يقاسون معاناة الحياة كاملة من تفرق، وبين، ولقاء، ووصل أو حروب متطاولة أم سلام وكر في مضارب قبائلهم وما إلى ذلك، كما تعكس تلك البحور الشعرية وتلك الأوزان وتيرة الحياة وتقلب الأيام والسنين، ويعبّر كذلك عن الفصول والأوقات وما في الطبيعة من أمطار وحيوان وأودية وخيران وما يصاحب ذلك من برق ورعد وظلام وإشراق وما يغشى تلك الفيافي من أقوام وقبائل، أصدقاء وأعداء، وما فيها من جن أو أوابد وما يعتريها من قتل أو فتك أو إيواء وجوار.. حياة مضطربة ومتغيرة، وكذلك هي حياة قليلة الموارد، ما عدا الحيوان الأليف وخاصة الإبل والخيل، والقوم والعشيرة وهو أجمل ما فيها - وكذلك الواحات والأودية الخضراء.. كل ذلك انعكس في بحور الشعر العربي، خاصة حركة الإبل وحركة التنقل والبين طلباً للكلأ والماء والأمان من الغارات والثارات والكر والفر.

من هنا كانت الموسيقى والايقاع، عناصر أساسية في الشعر العربي، ومن هنا كان مدخلُ عبدالله الطيب في (المرشد) وكما ذكرنا، هو دراسة ظاهرة الشعر العربي من حيث أنه نظم، وعماده البحور والقوافي والأوزان. وأوزان الشعر العربي وموسيقاه أمران:

- النغم المنتظم وهو التفعيلات
- وجرس الألفاظ وهو ما يتصل بالمعاني وأساليب البلاغة والبيان والصياغة والأداء اللغوي، كما فصلنا ذلك بإيجاز في الصفحات أعلاه.

وكذلك لا يفتأ عبدالله الطيب، وهو العربي الهوى، والمحب لأسلوب الحياة العربية، ما يفتأ يتغنى بالشعر العربي ويترنم بما جادت به قرائح الشعراء العرب المبدعين، وما أكثرهم. ما أروع ما قالوا وما عبّروا عنه من اضطراب حياتهم وتياراتها الجارفة في أحيان كثيرة والهادئة المتأملة الشجية في أحيان كثيرة أخرى أيضا. وواحد من وجوه إبداع عبدالله الطيب - وهي كثيرة - أنه ما ترك شاعراً عربياً عرفه التاريخ وذكرته المصادر إلا استشهد به ضمن آلاف الاستشهادات الشعرية التي سطرها في كتابه الأسطورة (المرشد)، وكأنه قد عاش تلك الحقب المتطاولة في كل أجزاء جزيرة العرب منذ الأزل.. وهو شاهد لكل مجلس ولكل منتدى وسوق للبيان أو الشعر، لا عجب أن الدارس (للمرشد) على ما فيه من صعوبة ووعورة، ليتملكه أساس عجيب بالسحر والروعة والسكر.. ألم يقل رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

"إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة" .

وأكثر استشهاد عبدالله من شعراء الجاهلية هم أصحاب العشر الطوال وذي الرمة والشنفري وتأبط شراً والخنساء وسائر الصعاليك وعدد لا يحصى من شعراء الجاهلية .

أما من الإسلاميين، فهو الأكثر إعجابا بأبي العلاء المعري والمتنبيء (أبي الطيب) وأبي تمام والبحتري .

الفصل الخامس
عبدالله الطيب
وأبو العلاء المعري

الفصل الخامس
عبدالله الطيب وأبو العلاء المعري

ليس أدل على إعجاب عبدالله الطيب بأبي العلاء المعري، من أنه كتب رسالته لنيل الدكتوراه عنه كشاعر (Abu Al-Ala' as a Poet)، وكتب تلك الرسالة في لندن، مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية، بجامعة لندن (SAOS). وكان عبدالله آنذاك في عنفوان الشباب، وعنفوان قواه الذهنية والوجدانية، فتى جامحاً منفتح القلب والحواس مستشرفاً كل آفاق المجد والشهرة والمستقبل الزاهر الواعد.

وأخال أن عبدالله انجذب إلى أبي العلاء لأنه شاعر مجود وفيلسوف وصاحب حِكَم وعبر وتجربة عميقة في الحياة.. وصاحب أسى ووحدة، وأشواق ما من سبيل إلى تحقيقها، لأنها أرفع من حياة الناس وما يعتورها من نقص ومن أحقاد وضغائن وحسد.. وهو كذلك ذو عبقرية فذة أبت صغائر الناس إلا أن تنكرها وتهمشها وتذري بها وتتعمد اضاعتها.

أضـــاعـــوني وأي فـــتى أضـــاعـــوا
لـيـــوم كـــريهـــة وســـداد ثغـــر

ولقد عانى عبدالله، كما عانى أبو العلا المعري:

* عانى الوحدة والوحشة وفقد الأحياء. الأم والأب والجد والجدة وعدداً من شقيقاته وأشقائه في فترات متقاربة من حياته، وغدا وحيداً أسيفاً أسيراً للوساوس والهواجس والصبابات والأسى.
* ثم عانى الغربة أولاً في الخرطوم.

غـــــريـب أنـت فـي الخـــــــرطوم
لا دار ولا مـــــــــــــــــــال..

كحال الذي يأتي إليها من الريف الشمالي فقيراً يتيماً لا أهل له ولا أصحاب ولا جيران.

* ثم رحل إلى الغرب إلى لندن وهو شاب يافع، غض الشباب، طري العود أخضر الوجدان، رهيفاً حساساً ذا عقل متوقد ووجدان مستعر، وإحساس عميق بالجمال والكمال ليواجه التفرقة العنصرية لأول وهلة في حياته، وليواجه بالإزدراء والاحتقار

والتوجس وهو العربي ذي المجد والسؤدد، حفيد المجاذيب العلماء الشعراء ذوي الأصول العربية اليانعة السامقة . .

فكانت غربات كثيرة ووحدة مركبة كثيفة . . وعاش لمدة في حياته وهو أسير كهوف هذه الغربة التي هي كالظلمات بعضها فوق، حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها . وإذا ذهب إلى السوق أو الحانة في لندن وكأنه الغراب الأجون، وسط الوجوه البيضاء التي تخترقه اختراقاً . وهو يتلظى بسعير نيرانها الموجهة إليه؟

يقول من قصيدته "مزدوجة في نعت لندن"(١) :

في هول أرض صيفها شتاؤها
ملبد بسحبها سماؤها

فسرت لا أعقل في الطريق
صفراً من العدو والصديق

ناءٍ عن الأهل بعيد الدار
مستشعر الحيرة ذا أفكار

أفرق من شيء ومن لا شيء
لا أنا الجاني ولا البريء

أخاف أن تصدمني سيارة
فالمشي يحتاج إلى مهارة

أعطش لا أهدي إلى شراب
بين الوجوه البيض كالغراب

أسأل مرتاباً أتلك حانه
في بلد فصيحه الرطانه

أختلس المدخل في المطاعم
خشية طرفٍ عاذرٍ أو لائم

وقد أظن نظر النواظر
أشد وقعاً من شبا البواتر

---

(١) أصداء النيل، ص ١١٣ .

أخـــال كل مـــوضع مـــشـــغـــولا

وكـل أمــــــر هين مـــــــهـــــــولا

وحـــــــادج بطـرف مـن طرفـــــه

وباسم يُشـــــعـــــرني بعطفــــه

وذات طفل أسكتت صـــغـــيـــرها

لما رأت من ســــحنتي ديجـــورها

فعبدالله الطيب، كأبي العلاء المعري، الذي وصف بأنه "رهين المحبسين: العَمَى والمنفى الاختياري" .. "المنأى والمنعزل". وعبدالله الطيب، كالمعري تماماً، كارهاً لنفاق المنافقين، قالياً لحسد وكشح العواذل والحساد، مرتابا بهم متشككاً في ودهم وصداقتهم وهو- كالمعري تماماً- صاحب فلسفة ورؤية وتأمل.. وهو متفوق عبقري مبدع.. ولكن لا أحد يقدر ذلك أو يعترف به أو يمتدحه:

إلى الخـــرطوم من بعـــد اغـــتـــراب

وبعـــد بلى الشـــهيّ من الشـــبـــاب

ومـــا الخـــرطوم داري غـــيـــر أني

غـــريب حـــينمـــا حلت ركـــابي

غـــريـب في بلادي ســـوف يفنى

غـــريبـــا في ســـبـــاســـبـــهـــا سرابي

دفنت بهـــا الحـــبـــيب من الأمـــاني

وباينت القـــريب من الصـــحـــاب

وأواني الرضـــا في ســـتـــر بيـــتي

من الأهواء والإحن الغـــضـــاب

فهو إذن في منفى اختياري، رهين ستر منزله وستر آماله التي خابت، وأمانيه التي توارت بالحجاب وصحابه الذين باينهم في سراب الحياة وسراب صحاريها القاحلة الجديبة.. كالمعري تماماً، الذي أوى إلى ركن شديد.. بمحض اختياره ورضا نفسه. فأضاف محبساً اصطناعياً إلى محبسه الفطري.. من هنا جاء وصفه "رهين المحبسين"!

وعبدالله الطيب مؤمن محب لله ورسوله، قوي العقيدة واثق الإيمان! فليست له كفريات المعري ولا زندقياته. ولكن يؤخذ عليه شكوكه وريبته حول حركة الصحوة

الإسلامية، فقد ذمّ الأخوان المسلمين بنفس القدر الذي ذم به الشيوعيين، لا فرق عنده بين إلحاد وإيمان و "عصبة باطلية" أو عصبة إيمانية والتعبير "عصبة باطلية" أخذه من المعري. أو كما يقول هو نظر فيه إلى المعري نظراً شديداً.

كذلك يؤخذ عليه تعاطفه مع (محمود محمد طه) وأنه نظم قصيدة عصماء فرثاه بها رثاء رصينا.. وهو (أي محمود محمد طه) صاحب النظريات الباطنية التي يزعم فيها أنه رسول رسالة ثانية وأنه عيسى رسول الله، بل وقد زعم في آخر أيامه أن الله قد تجلى له في مجمع البحرين في المقرن وخاطبه وكلمه.. ثم حل فيه حلولاً أشبه بحلول الحلاج وغيره من غلاة الباطنية وصار الناسوت لاهوتا. أي صار محمود محمد طه الإنسان الفاني إلهاً صمديا سمرديا خالداً. وعلى ذمة المرحوم عبدالجبار المبارك الذي أخبرني أنه زاره ذات مرة، وكثيراً ما كان يزوره ويتحاور معه – في منزله بالحارة الأولى في الثورة بأم درمان – فوجدته قبل الغروب جالساً في الوسط وقد تحلق به جيرانه ومريدوه وهو يرنو ببصره إلى السماء وهم يشيرون إليه ويقولون:

الله... الله... الله... الله... الله...

مهما يكن من شيء فعبدالله الطيب لم يتهمه أحد بالزندقة وهو الذي فسر القرآن الكريم، كما لم يفسره أحد، في سهولة مداخله وجزالة أساليبه، لذلك شغف به عامة السودانيين وأحبوه حباً جما.. حتى سار في جنازته أكثر من مائة ألف منهم عند تشييعه إلى مثواه الأخير.. ألا رحمه الله رحمة واسعة.

* وعبدالله الطيب سمى ديوانه الأول، بمعنى ديوان الشباب "سقط الزند" متابعاً في ذلك أبا العلا المعري وناظراً إليه.
* كما خصه بفصل خاص في كتابه "القصيدة المادحة" بعنوان "الدرعيات". وتشبث أبي العلاء بالدروع أمر غريب.. وربما يرمز الدرع إلى ما تصنعه من نفي اختياري طوعي يتقي فيه شرور الناس ويستر نفسه من أضغانهم وأحقادهم.
* لقد افتتن المستشرقون بأبي العلاء لدقة معانيه ووعورتها وميله نحو التفلسف والزندقة والطعن في الإسلام وفي عقائد الإسلام في مرحلة من مراحل حياته.. ولكن هنالك ما يدل على أنه تاب وثاب إلى إسلامه وإلى رشده، في آخر حياته، كما هي عادة كثير من الأدباء والشعراء والفلاسفة، عندما تدركهم الشيخوخة والكهولة، فتذهب عنهم

ضلالتهم، وتنفي عنهم صباباتهم فيثوبون إلى رشدهم، وتظهر حكمتهم وتجاربهم، وما ألهمتهم السنون والبلايا والمحن.

وقد كان أبو العلاء المعري شديد الثقة بنفسه يقارب في ذلك درجة الغرور والتبجح. حتى أنه كان - كما كان أبا الطيب قبله - لا يمدح أحداً أو عظيماً من العظماء أو خليفة من الخلفاء إلا امتدح نفسه أيضا وذكر علو مرتبته، كما ذكر علو مراتبهم؛ حتى لم يكن فوقه إلا الخليفة فحسب؛ وقد ذكر ذلك صريحاً، حيث قال:

مهلاً أمير المؤمنين فإننا
في دوحة العلياء لا نتفرّق

إلا الخلافة ميّزتك فإنّني
أنا عاطل منها وأنت مطوّق

وكقوله في رثاء الصاحب:

قد كنت آمل أن أراك فأجتني
فضلاً إذا غيْري جنى إفضالاً

ويفيد سمعك منطقي وخصائلي
وتفيدني أيامُك الاقبالا

وأبو العلاء يقول أنه سوف يجني فضلاً واحداً، ولكن "الصاحب" الأمير سوف يستفيد منه أفضالا من سماع منطقه وسماع فضائله.

ومثل عبدالله الطيب، فالمعري يرى نفسه - على فضله وتفوقه وعبقريته - غريب في وطنه:

أولوا الفضل في أوطانهم غرباء
تشذ وتنأى عنهم القرباء

وأنظر إلى هذا المعنى عند عبدالله الطيب في "لا تأس"(1):

لا تأس فالناس أعداء اللبيب ولكم
قد أنذرتك فلم تحفل بها النذر

يا أيها الوطن الساعي تدفعه
كف الخيانة والأعداء والقدرُ

(1) أصداء النيل، ص ٦٠.

إني كمثلك أبغي النصر مجتهداً
وكيف بالنصر لا عون ولا وزرُ

وفي قصيدته "شكوى وعتاب[1]" يقول عبدالله الطيب:

قد حزّ في النفس أني ليس يشكر لي
قومي بلائي وإبداعي وإحساني
أمسى ينوه بي من ليس من وطني
وبات يحسُدُني أهلي وجيراني
ولم أرُمْ بينهم تيهاً ومفخرة
يأبى لي الفخر علمي ثم إيماني
وقد بلوتُ رجالاً قيل أنهُمُ
عند الخطوب ذوو رأي ورجحان
فلم أجد غير أشباح مخلّقة
من الدناءة في مسلاخ إنسان
من أعجم النفس، فدم القلب ليس له
إذا بدا الحق صلتاً غيُر نُكران
وآخرين ضباع لا طباخ بها
أبناء كيدٍ ومكروه وإدهان

ويرى عبدالله الطيب، أن البيت الآتي للمعري لا يخلو من زندقة:

وقد زُوحمت بالجيش رَضْوَى فلم تُبَلْ
ولُزّ براياتِ الخميس قُباءُ

ويتساءل عبدالله الطيب عن مغزى البيت أعلاه ويقول:

"هل ضلع (أبو العلاء المعري) مع سفيان ووحش في أحد".

هاهنا أم ضلع مع جيش مسلم بن عُقبة.. وهو - أي أبي العلاء - في هذه القصيدة قدري موغل في الجبر وهو كفرٌ في الإسلام.

---

(١) أصداء النيل، ص ٢٠٢.

إذا نزل المقـــــــدار لم يك للقطا
نهـــوض ولا للمُـــخَــــدرات إباء

وفي الأبيات التي تظهر فيها "زندقة" أبي العلاء، قوله :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت
ويهـــود حـــارت والمجـــوس مظلّلة

اثنان أهل الأرض ذو عـــــقل بلا
دين وآخـــــر ديّن لا عـــــقل له

ومن أبياته "الكفرانية" أيضاً البيتان أدناه :

أتى عـــيـــسى فـــأبطل دين مـــوسى
وجـــاء مـــحـــمـــد بصلوات خـــمس

وقـــــيل يجيء دين بعـــــد هـذا
فـــــأودى الناس بين غـــــدٍ وأمسِ

ومنها أيضاً قوله :

جـــــــائز أن يكـــون آدم هــذا
قـــــــبلـه آدم عـــلى إثـــر آدم

ومنها قوله :

مـــا الحج في رأي قـــوم لست أذكـــرهم
إلا بقـــيّـــــة أوثـــان وأنصـــــاب

ويوجد أمثلة كثيرة لمثل هذه الأقاويل الكفرانية المتزندقة في ديوان "لزوم ما لا يلزم" وكذلك في كتابه "رسالة الغفران" !

أبو العلاء المعري وتقديم المستشرقين له:

من أجل ذلك أعجب بعض المستشرقين بأبي العلاء ومنهم من قدمه في الرُتبة والمكانة على أبي الطيب المتنبيء ومنهم (نيكلسون)، وهيهات هيهات أن يعلو أبو العلاء على أبي الطيب، الذي هو - من بعد إمريء القيس - قد فجر العربية ألحانا وأورانا ومعانيّ هي من العرائس النادرة جمالا وسحراً! . وهذا هو رأي أبي العلاء نفسه، أنه لا يتفوق على أبي

الطيب وهو أيضاً رأي عبدالله الطيب ورأي كاتب هذه السطور. ألا رحم الله أبا العلاء المعري وغفر له زلاته وهفواته إنه غفور كريم يحب العفو!

يقول عبدالله الطيب[1] :

" ولقد كان أبو العلاء ضخم الملكة، عزيز العلم، عجيب البيان وقد كان شديد التقديم لأبي الطيب، ولا أشك أنه كانت تدفعه إلى طلب التفوق عليه رغبات، غير أنه كان أعقل من أن يخدع نفسه أو تخدعه بأنه سوف يُربي عليه . . " .

ثم إن عبدالله الطيب تساءل عن الأسباب التي جعلته وآخرين يقدمون أبا الطيب المتنبيء، على أبي العلاء المعري وهو من المبدعين وقد تناول كل أغراض الشعر والأدب التي تناولها أبو الطيب وزاد عليها . ! فيقول إن هنالك عدة أسباب يتفوق بها أبو الطيب المتنبيء، على أبي العلاء :

* أولاً : معظم شعر أبي العلاء ما يذهب مذهب الفلسفة والفكر الرصين والحكمة ومثل هذا الشعر كثيراً ما يكون خالياً من جمال الشعر ورونقه فينساه الناس ولا يترنمون به .
* ولقد نبه أبو العلاء نفسه أن الشعر متى ما حمل على وجه الحق أدركه الضعف، وإنما يقوي الشعر بالباطل، على حد تعبيره . ذكر هذا أبو العلاء في مقدمة ديوانه (لزوم ما لا يلزم) معتذراً به عما عسى أن يفقده القاريء فيه "أي ديوانه" من جمال الشعر . وهذا القول لا يخلو من صواب ولكن ليس حقاً باطلاقه . من ذلك أشعار (زهير) :

من يوف لا يُذم ومن يهد قلبه
إلى مطمئن البر لا يتجمجم
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه
يُهدّم ومن لا يظلم الناس يُظلم

ويقول (طرفة بن العبد) :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطّول المُرْخَى وثناياه باليد
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

---

(١) (المرشد) الجزء الرابع - القسم الأول ص ١٧٧٧ .

ويقول حبيب (أبو تمام):

إذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود

* وثانياً: وأبو العلاء نفسه يقول عن نفسه أنه لم يعط الشعر انطلاقة النفس.. بل كان حذراً مقيداً طواعية واختياراً:

خليليّ لا يخفى إنحساري عن الصبا
فحلا إساري قد أضرّ بي الربطُ

ومهما يقال عن "كفريات: أبي العلاء المعري، فإن بعض الحملات عليه ربما كانت من قبل المبالغة والحساسية المفرطة بالمساس بالعقيدة الإسلامية، فيما يرى عبدالله الطيب. من هذا الباب دعوة أبي العلاء كبار السن من النساء وكذلك العذارى منهن بأن الحج ليس فريضة عليهن. وهذا خطأ من قبل أبي العلاء. ولكنه - في رأي عبدالله الطيب - لا يتعدى منع النساء من ارتياد المساجد. فقول أبي العلاء المعري:

أقيمي لا أعدُّ الحج فرضاً
على عُجْز النساء ولا العذارى

ففي بطحاء مكة شر قومٍ
وليسوا بالحماة ولا الغيارى

ترى أبناء شيبة سادنيها
إذا راحت لكعبتها الجَمَارى

قياماً يدفعون الناس شفعاً
إلى البيت الحرام وهم سكارى

وفي هذه الأبيات يوضح أبو العلاء المعري لماذا يرى أن الحج ليس فرضاً على عُجز النساء والعذارى منهن. لأن الحج ليس آمنا الطريق إليه ولا سادنيه من بني شيبة بأمناء أو أكفاء في الحفاظ على الأمن والسلامة في وحول البيت الحرام الذي هم سادنيه!!

مهما يكن من امر كل ذلك، فأبو العلاء احتفظ بمكانة كبيرة في الأدب العربي.. وحفظت عنه أشعار رائعة - ربما في الفترة الأخيرة من حياته - تدل على سلامة عقيدته في آخر أيامه:

يقول مخاطباً شاباً مسلماً (اسمه طارق) كان قد ارتد عن الإسلام:

عـــددت زمـــاناً في الســيــوف وفي القنا

فـــأصــبــحــت في الســهـــام الموارق

وحـــســـبك من عـــار يُشب وقـــوده

ســجـــودك للصلبـــان في كل شـــارق

تركـت ضـيـــاء الشـمس يهـديك نورها

وتبـــعــث في الظـلمـــاء لمحـــة بارق

ويحفظُ للمعري كثير من الشعر الجميل الساحر، المليء بالحكمة والتأمل: وهو السبب الذي جعل بعض المستشرقين يقدمونه حتى على المتنبيء،

ومن هذا الشعر الجميل نورد بعض النماذج:

وينشـــأ ناشيءُ الفـــتـــيـــان منا

على مـــــا كـــــان عـــــوده أبوه

يقول في "درعياته":

فـــحِنّ إلى المكارم والمعـــالي

ولا تـثـــقـل خطاك بـعـبءِ حِنْثْ

يقول أبو العلاء تبريراً لعزلته الطوعية:

ذريني وكـــتــبي والرياض ووحـــدتي

أكـــونُ كــوحـشيّ باحـدى الأمـــالس

يُســــــوقُ أزهـار الـربيـع تـعـلّـةً

ويأمن في البــيــداء شـــر المجـــالس

ويقول أيضاً تبريراً لعزلته عن معاناة الحياة والكد في سبيل العيش الكريم:

تعبُ هذه الحـــيــــاة فـــمـــا أعـــجــبُ

إلا مـــــن راغــــب فـــي إزديــــادِ

ويقول أبو العلاء المعري "يشير الى قافية رؤية":

مـــالي غـــدوتُ كـقـــاف رؤية قُـيـــدتْ

في الدهر لم يُقـــدرْ لهـــا أجـــزاؤهـا

ملّ المقـــام فكم أعــــاشـــر أمـــةً

أمـــرت بغــيـــر صـــلاحـــهـــا أمـــراؤهـا

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعَدَوْا مصالحِهَا وهم أجراؤها

وقافية "رؤبة" التي يشير إليها أبو العلاء هنا هي القصيدة التي مطلعها :

وقاتم الأعماق خاوي المخترق
مشتبه الأعلام لمّاع الخفق
تبدو لنا أعلامُه بعد الغرق
في قطع الآل وهبوات الدُّقق

وهي على مذهب الحُداء، وآية ذلك أن هذا سيرٌ وانخراطٌ وهو الذي بدا فيه من دون توطئة من نسيب - أخذ في الخروج رأساً وأكتفى به، وذلك أنه إنما كان بعد حين يفد بفصاحة البداوة، ومعرض ذلك الخروج ووصف السير وطبيعة الصحراء وحيوانها "[1].

والمعتنق هو المكان الذي تعتنق فيه أعلامُ الصحراء (جبالها) خارجة من قطع السراب وتكسو دونها هبوات الدقق من الغبار وفي وصف ناقته، يقول (رؤبة) :

تنشطتْه كل مغلاة الوهق
مضبورة قرواء هرجاب فُنُق
كأنها حقباء بلقاء الزلق

يصف ناقته بأنها "الحقباء" وهو الأتانُ الوحشية!

ويلاحظ كيف يولع (رؤبة) بالكلمات الغريبة الوعرة الجرس الغليظة الرّنة :

* المخترق
* الخفق
* هبوات
* الدُّقق
* مغلاة الوهن
* مضبورة
* قرواءُ
* هرجابٌ
* فُنُق

(١) عبدالله الطيب : "المرشد" الجزء الرابع - القسم الأول، ص ٩٩٦ .

* حقباء

* بلقاء

* الزلق

وعبدالله الطيب أيضاً معجب بالألفاظ الغريبة، وهو يرى أن في ذلك إثراء للغة العربية كما ينبغي لها أن تكون، كونها أغنى لغات الأرض كلمات ومفردات. فلماذا ننتكس إلى التعابير السطحية الفقيرة في تنويع الألفاظ الشحيحة في تشكيل المعاني البديعة.. وذلك فعبدالله الطيب يمعن في استعمال الألفاظ الغريبة على عمد وقصد.. !!

لا غرو أن يُعجب كل من أبو العلاء المعري وعبدالله الطيب (برؤبة) وبأراجيزه، فعبدالله الطيب يورد أرجوزتين (لرؤبة) في كتابه "القصيدة المادحة"[1].

و(رؤبة) هذا من شعراء العصر الأموي، وقد مدح – في أرجوزته الثانية – مسلمة بن عبدالملك بن مروان.

- أرجوزة (رؤبة) في وصف المفازة والسراب والتي مطلعها:

١- وبلد عاميــة أعماؤه
كأن لون أرضه سماؤه

٢- أيهات من جوز الفلاة ماؤه
يحسر طرف عينه فضاؤه

٣- هابي العشي ديسق ضحاؤه
إذا السراب انتسجت إضاؤه

٤- أوهُجْن عنه عريت أعراؤه
واجتاب قَيْظاً يلتظى التظاؤه

٥- ذا وهج يحمي الحصا أحماؤه
يبحث مكنن الثرى ظباؤه

٦- في كوكب ملتهب صلاؤه
تقلص من مكنسه أفياؤه

٧- في الظل حيث اصطفقت أفياؤه
من ظل أرطى خضل الاؤه

(١) عبدالله الطيب : القصيدة المادحة : ص ١٤٨ نشر دار جامعة الخرطوم ١٩٧٣ .

معاني الكلمات في مطلع أرجوزة (رؤبة) أعلاه:

- وبلد أي رب بلد
- عامية أعماؤه أي خافية أرجاؤه (عامية يعني ذات عمى، وأعماؤه أي اغفاله ونواحيه)
- ايهات يعني هيهات
- جوز يعني وسط
- الفلاة: الصحراء، أي الماء بعيد من وسط صحرائه
- هابي العشى أي لونه مغبرٌ في وقت العشيّ
- الديسق: أي الحوض الملآن، الخالي من الفضة البيضاء أو البياض
- ديسق ضحاؤه أي شديد اللمعان عند ارتفاع النهار أو كثير السراب في هذا الوقت (عند ارتفاع النهار)
- والضحاء يعني ارتفاع النهار
- اضاؤه جمع أضاة وهي الغدير.

ومعنى الأبيات: أي إذا بدا السراب وكأنه غدران تهب عليها الريح وتنسج فوقها الأمواج.

- ومجن أي تحركن كالموج (أي الغدران)
- عريت أعراؤه أي ظهرت فضاءاته والعراء هو الفضاء وأعراء جمع عراء: أي إذا انتسجت غدران السراب أو تحركن كالموج انحسر السراب بعض جوانب الأرض العراء فبدين منه عاريات منكشفات.
- اجتاب أي لبس حراً ذا نار ملتهبة
- يحمي الحصا أي يجعله حامياً لشدة حره
- الثرى: أي التراب لاندي أي ظباءه تبحث عن التراب النديّ المكنون في جوف الأرض
- تقلص: أي تتقلص وتنكمش أفياؤه أي ظلاله عن مكنس أو كناس الطبيعة أي بيئتها والمكان الذي تستريح فيه عند المقيل: أي لتقلص ظلاله عن مكانس الظباء
- اصطفقت: أي تحركت واصله من اصطفاق الشجرة اذا إهتزت أعضاؤها.
- الافناء: أي/ النواحي أي أظلال أفنائه أو ظلال جوانبه ونواص.

مهما يكن من اعجاب إبي العلاء المعري وعبدالله الطيب (برؤبة) فليس إلا لأنه - يمعن في انتقاء كلمات جديدة، وإن كانت مشتقة من كلمات عادية في بعض الأحيان وفي

أحيان أخرى فهو أي رؤية (وهو إسلامي) تعمد إلى استعمال ألفاظ غريبة حتى لتظنه جاهلياً لأول وهلة . والبديع فيه كيف يتفنن في وصف ظاهرة كظاهرة السراب لا يعرف معظم الناس أن يؤلف سطراً واحداً في وصفها ، لأنه ظاهرة معتادة ليس فيها شيء من غرابة أو جاذبية . ولكن "رؤية" يجعل منها شيئاً عبقرياً لأنه متمكن من ناحية البيان والأداء اللغوي وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

" إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة " .

نعود مرة أخرى إلى أشعار أبي العلاء ، خاصة التي تتميز بالحكمة والفلسفة ، إلى جانب الفصاحة والبيان المعجز الجميل .

ومن أعمال المعري المشهورة :

* اللزوميات : وهي أعمال شعرية وقصائد يغلب عليها ظاهرة التأمل والتفلسف والتشاؤم .
* وسقط الزند : وهو ديوان الشباب ولا يخلو من ضلالات الشباب وأباطيله وطيشه
* وله الدرعيات
* وله أيضا ملقي السبيل وما ألفه من الألغاز
* وله أيضا ديوان يقال له (فيما رواه عبدالله الطيب) استغفروا واستغفري .
* وله الفصول والغايات : وهو كتاب فلسفي زاخر الأفكار والآراء .

نظريات عبدالله الطيب في تفسير ظاهرة الدرعيات عند المعري:

ولعبدالله الطيب ولع شديد بدرعيات المعري ، وله فيها وقفات تأمل ونظر شديد وحق له ذلك . . فما الذي يجعل "رهن المحبسين" ولعاً بالدروع لهذا الحد؟ حتى أنه ليكتب فيها القصائد الطوال ينعزل فيها وفي جمالها ويذكر فيها الكثير من آماله الضياع (أي التي ضاعت وتبعثرت) . . ؟!

ما هي المعاني التي كان هذا "الرهين" يراها في الدروع؟!

(١) هل هي رموز للمنأى والمتعزل؟ وللسجن الاختياري الذي وضع نفسه فيه واحتمى خلفه من شرور البشر وشرور مجالسهم ومخالطتهم؟

(٢) أم هي هذه الرهبنة والتنسك الذي آوى إليه كملجأ أمين من بنات آوى أو الضباع التي كانت تتعقبه تريد أن تفتك به وتقضي عليه قضاءً مبرماً؟

(٣) ثم لماذا هذه القصص الخيالية التي يصطنعها ويتحاور معها بكل الجدية والصرامة والاستغراق؟

(٤) ولماذا يصطنع في "درعياته" هذه اللغة الجميلة الرفيعة في البيان والبلاغة والصياغة؟ وإن كانت مرصعة بألفاظ هي في غاية الغرابة والوعورة أحياناً.

(٥) ولماذا لا ينفك يذكر المرأة.. ويحن إلى الغرام والصبابة من طرف خفي.. وقد عزم على الرهبنة والتنسك وعدم الزواج مخافة الإنجاب.. الذي يعده جناية وإثماً على الولد والذرية؟!

(٦) ولماذا يفترض أن الأولاد سوف يكونون عطلاً من كل إبداع وعبقرية أو نفع للإنسانية والبرية؟ ألم يكن هو نفسه عبقرياً مبدعاً؟

(٧) كل هذه الأسئلة أو معظمها طرحها عبدالله الطيب في مقاله الجيد عن "الدرعيات" في كتابه البديع "القصيدة المادحة ومقالات أخرى" الذي أشرنا إليه.

الذي يهمنا هنا هو استعراض أهم النظريات والتفسيرات التي قال بها عبدالله الطيب، وهو يحاول أن يُفسر هذه الظاهرة الفريدة، عن أبي العلاء المعري! وهي ولعه الشديد بالدروع وكيف أفرد لها ديوان بأكمله فيه الخرائد الحسان من القصيد والحكم والأمثال. وكثيراً من الإبداع اللغوي والشاعري؟!

يرى عبدالله الطيب رحمه الله أن الدرع يرمز – عند أبي العلاء– إلى واحد من شيئين:

المحبس والسجن الذي لجأ إليه أبو العلاء بعدما آيس من الناس ومن الأصدقاء والأعداء على السواء: تشبه الدرع لأنه ملجأ وسكن يحمي الإنسان من التعرض لأذى الناس وضغائنهم وكيدهم ومؤامراتهم، خاصة وقد اتهم أبو العلاء بالكفر والزندقة، وهذه تهم خطيرة يمكن أن تقود إلى الموت إذا ثبت على أبي العلاء.. وفي هذا الإطار ليس غريباً ولا مستنكراً أن ينسحب أبو العلاء عن الحياة كلية وعن المجتمع الذي يتربص به ريب المنون. ولقد فعل أبو حامد الغزالي نفس الشيء عندما كان مهدداً بالقتل من قبل الباطنين الذين قتلوا صديقه وراعيه الوزير النابهة نظام الملك – فلجأ إلى صحراء الشام في عزلة تامة استغرقت أكثر من ثلاث سنوات.

ومهما يكن من أمر البواعث التي حدت بأبي العلاء إلى محبسه، فإنه لم يركن إلى الراحة أو الهدوء، ولكنه لجأ إلى العمل الفكري والأدبي والفلسفي يناوش به الحياة والأعداء، ويبسط – على الورق – مواهبه الفكرية ومواقفه الفلسفية.. ويهاجم ويهجو

أعداءه وتلك "الضباع" من "بنات آوى" والتي كانت تطارده ابتغاء الفتنة. وابتغاء اتهامه بالكفر والزندقة، حتى تستحل دمه وتبرر قتله وافتراسه.. ومن هذا المنظور، فإن أبي العلاء لم يكن - في الواقع - مختاراً كل الاختيار في الانسحاب إلى المنأى والمنعزل - ولكنه فعل ذلك حمية وتقية واحترازاً لدمه من أن يهدر عبثاً وبلا طائل، وما لا يدرك كله لا يترك جله أو حتى بعضه.. وما الحياة الذكية إلا فعل الممكن من بين الخيارات المتاحة.. ولذلك كان الخيار الهروبي.. وكان الفرار هو الخيار الوحيد المتاح أمام هذا الرجل الضعيف، من حيث أنه أعمى وصاحب عاهة، وليس على المريض حرج في عدم دفع عاديات الحياة ولا في التخلف عن الجهاد في سبيل دفع الباطل ومقاومته.

على أن أبا العلا لم يتخل عن المقاومة كلية، ولكنه لجأ إلى الميدان الذي يستطيع فيه أن يقاوم بالأسلحة التي يمتلكها ويجيد استعمالها واستخدامها ألا وهي الأدوات الأدبية والكلمة المكتوبة والقصيدة المقتالة.. ومن هنا فإن استخدام مصطلح "الدرعيات" يأخذ بعداً آخر لم يخطر على بال العلامة عبدالله الطيب رحمه الله.. والدرع أداة من أدوات المقاومة والدفاع. وإن لم يكن سلاحاً من أسلحة الهجوم.

ومن هذا المنظور فإننا يمكن أن نفهم أشواق أبي العلاء، وهو مضطر إلى الانسحاب من الحياة، أشواقه إلى مباهج الحياة وفي مقدمة تلك المباهج المرأة والمال والبنون..

قال تعالى:

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾.

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

"حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة".

إننا لا يمكن أن نفهم أشواق وصبابات أبي العلاء المعري إلى المرأة وذكره لها على الدوام إلا في إطار أنه - وهو في عنفوان ملكاته الوجدانية والجسمانية - قد اضطر إلى الإنسحاب من الحياة واللجوء إلى المحبس صيانة لدمه وقلاً لأولئك العداة الذين كانوا يتربصون به الدوائر. ولو كان فعلا زاهداً كل الزهد، وراغباً كل الرغبة في التبتل والتنسك والرهبنة، لما بدرت منه تلك الأشواق وذلك الحنين إلى المرأة وإلى الحب والصبابة. وذكره لها بهذه الوتيرة المتكررة في الدرعيات - يدل على أنه ما زالت رغباته سليمة وأشواقه عارمة وتوقه إلى الحياة قوي وعنيف.. ولا يمكن لرجل تكون له تلك العواطف الجياشة وذلك الوجدان

الشاعري وتلك القريحة المتوقدة وذلك الإنبعاث القوي نحو الحياة والفكر والشعور، ويكون بعد ذلك بارد الحرارة، هامد الغرائز، ميت الشعور والاحساس.

وفي المثل العربي "كل ذي عاهة جبار"، ولقد عبر أبو العلاء عن جبروته في المجال الذي يحسنه ويتفوق فيه ألا وهو المجال اللغوي والمجال الشعري ومجال القدرة على الابتكار والإبداع في مجال البيان والأداء اللغوي وفي القدرة على الفكر الأصيل الخلاق.. الفكر الرفيع الذي لا يقدر عليه إلا الجبابرة من أهل البيان والتفكير النقدي الإبداعي المتخصص في أعلى مستويات الفكر والفلسفة والبيان.

من هنا كانت "الدرعيات" هي الأدوات التي اختارها والأسلحة التي ادخرها ليبين للخليقة والناس أنه فريد زمانه ووحيد أيامه، وأنه الفيلسوف الفرد العلَم، شاء من شاء وأبى من أبى.. فهو في مستوى وفي علو لا يستطيع أن يصل إليه أولئك الدهماء والرعاع والزعانف من "الضباع" وبنات آوى، ومن مصاصي دماء الفلاسفة والموهوبين بدعاوي الكفر والزندقة.. وما من مبدع في الفكر العربي الإسلامي، بل وما من مبدع أو فيلسوف أو مفكر أو حتى مصلح أو نبي إلا واتهم بالكفر والزندقة وبالسحر والجنون.. وقديما اتهم سقراط بالكفر والزندقة وقتل بإرغامه على تناول السم، في الوقت الذي كان فيه يدعو إلى مكارم الأخلاق وإلى توحيد الآلهة وإلى إصلاح الحياة السياسية وتحقيق العدل والإنصاف بين الناس..

من جانب آخر، "فالدروع" كناية عن القوة والجبروت، ألم نقل إن كل ذي عاهة جبار. وما ذلك إلا أن ذوي العاهات إنما يعوضون عن ضعفهم الخلقي والطبيعي بامتلاك نواصي القوة والجبروت في مجالات أخرى. ولقد حاول أبو العلاء أن يمتلك جبروتاً فكرياً وفلسفياً – وفي المقام الأول لغوياً وفي الشعر والبيان وفي إمتلاك نواصي النظم العربي والشعر الفلسفي الذي لا يمكن لأحد أن يتفوق فيه عليه.

أما لماذا كان أبو العلاء يلجأ إلى شخوص خيالية ليتخذها أدوات للحوار وللجدل فهو أمر واضح – فيما يبدو لي: ذلك أنه لا بد له من أن يخلق مسرحه واللاعبين في ذلك المسرح! لا بد أن يخلق كل ذلك خلقاً ويُنشئه إنشاءً.. وكيف يتسنى له ذلك وهو في هذا المنأى والمنعزل وفي هذا المحبس الذي هو رهينه إلا أن يصطنعه إصطناعاً ويبتدعه ابتداعاً لكي يتحاور معه ويتجادل!. وبذلك يُهيئ المسرح والمستمعين الذين يُلقي عليهم نظرياته وآرائه وفلسفاته، وكذلك الحِكم والمبادرات الكلامية والإنشائية التي يتفنن فيها أيما تفنن؟!

يقول عبدالله الطيب رحمه الله[1]، معلقاً على القدرة الخارقة التي تتجلى في أسلوب "الدرعيات" :

" وأسلوب الدرعيات مما يستحق الدرس والعناية، وهو عندي تحفةٌ من تحف النظم العربي. وللناقد الأدبي في فنونه المختلفة متأمل أيما متأمل "

ويقول عبدالله الطيب[2] :

" والمتأمل لطريقة الوزن والقوافي في "الدرعيات"، يجد أن المعري ذهب فيه شوطاً بعيداً نحو المسلك الذي صيره مهيعاً في "اللزوم". فمثلاً نجد أن المعري أكثر فيه من استعمال "السريع"، وتعاطى "المنسرح" وأطال، وهما بحران يوشك أن يتحاماها في (سقط الزند). ونجده قد استعمل الخفيف الخامس، وهو وزن ساق عسر لا يعرض له من لا يحمل نفسه على الكلف. وأما في القوافي فنجد أن المعري قد جرب أصنافاً من الصعوبات، منها جيم الوافر الحسانية، وسين الطويل المرقشية، والعين المتعبة هاء الخروج في الكامل. وها التأنيث المقيدة مع النون في الطويل..

وقد وجد المعري في "الدرع" مادة خصبة لإرضاء الجانب اللغوي والأستاذ المعلم من نفسه.. فضمّن قصائده "الدرعيات" ثروة ضخمة من مجاز العرب القدماء وتشبيههم في هذا الباب.. "

وفي هذه الفقرة المهمة من "القصيدة المادحة"، وضح عبدالله الطيب، أن أبا العلاء المعري قد استعرض قدراته الباهرة في البيان والتأليف وفي الشعر والحكمة والفلسفة، وأنه أستاذ عالم متمكن من علمه، ولكنه في الوقت ذاته فنان مطبوع، فهو اللغوي الفذ والمعلم المتنطس بعلمه المتبجج بفنه وعبقريته، فنجده يكثر من :

- الطباق
- والتجنيس
- والتوشيح والترصيع

وهو يفعل كل ذلك في رصانة وإحكام، انظر إلى قول أبي العلاء المعري :

قــصــار الخطا يدرمن أو مــشــيــة القطا

فكيف إذا مـــا ســـرن في الحلق الدرم

---

(١) عبدالله الطيب : القصيدة المادحة، ومقالات أخر : ص ٨٥ - طبعة جامعة الخرطوم ١٩٧٣م.

(٢) عبدالله الطيب "القصيدة المادحة" ص ٨٨ .

والمراد من هذا البيت أنهن يمشين كمشية القطا، واختزال الأداء هكذا، بالاكتفاء بالمفعول المطلق وحده مذهب من الفصاحة العذبة.

يقول عبدالله الطيب في ذلك:

"هذا ويذكرك المعري بحضريته وعباسيته، وعلمه وأنه من الخواص المتوفرين على الدرس، حين يطعَم هذه الجزالة البدوية المنحى، القوية المنحة، بعبارات العلماء المتنطسين، كقوله:

ألم تعلمي أني مدامة بابل
هجرتُ ولم أقبل خبيئة عانه

وكقوله:

وليس أبوها* بالذي أنا بائع
ولو ساق فيها إبله وحصانه

وفي هذين البيتين أصناف من البلاغة والبيان بارعة باهرة، كما بين عبدالله الطيب تفاصيل ذلك في كتابه "القصيدة المادحة".

وكما ذكرنا أعلاه، فإن المعري يستخدم رموزاً لأشخاص خياليين يتحاور معهم ويجادل.. وقلنا أن ذلك من ضروريات أنه عاش وحيداً في محبسه في المعرة.. رهن المحبسين، فلم يكن له مِن أن يخلق شخوصاً خياليين يتكلم معهم ويحاورهم ويظهر أفكاره ونظرياته بهذه الطريقة الفذة.

من ذلك قصة فتاة أو فلنقل غانية سامته درعه هي وأبوها فتمنع عليهم، فحاولت الغانية إغواءه أولا بُحليها الذهبية "قرطيها أو حبيبها" فلما لم يجدها ذلك حاولت إغواءه بالخمر:.. يسجل أبو العلاء المعري تلك القصة بالشعر البديع على النحو التالي[1]:

رمتني بحبيها وآخر صامت
من النضر لا أعني به ابن كنانة

وليست وإن جاءت بحلي وزينة
عليَّ كدرعي عزةً وصيانة

---

* يقول عبدالله الطيب أن في رفع "أبوها" نكتة بلاغية شاذة ومثلها كثير مما تعمده أبو العلاء في "الدرعيات" وهذا مما يثير الجدل بين النحويين!.

(١) عبدالله الطيب "القصيدة المادحة" ص ١٩٤.

وليس أبوها بالذي أنا بائع
ولو ساق فيها ابله وحصانه

وما سامحت نفسي بها عند حادث
فلاناً فما بالي وبال فلانة

وجاءت بكأس من سلاف تُزيغني
خلابا على قضاء ذات رصانه

ألم تعلمي أني مدامة بابل
هجرتُ ولم أقبل خبيثة عانه

وهذه الأبيات مليئة بالرموز، بل وفيها فلسفة كاملة:

* فالدرع يرمز إلى عزة نفس أبي العلاء وأنه آثر العزلة والوحشة والانسحاب من الدنيا وزهرتها لأن البديل لذلك هو قبول الذل والمهانة وهو ما لا يقبله أبو العلاء!

* والغانية وأدواتها من الحلي الذهبية أو الخمر للإغواء والاضلال إنما ترمز إلى نوع الحياة التي كانت سائدة في بغداد التي هجرها ونأى عنها، طلباً في الظفر بالكرامة وصون ماء الوجه عن المهانة والذل وبهرج الحياة التي ملؤها النفاق والدهان والمكر والخديعة.

وكأن لسان أبي العلاء المعري هنا، كما قال نبي الله يوسف عليه السلام، عندما راودته إمرأة العزيز عن نفسه فقال:

﴿قال رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين﴾ (يوسف: ٣٣).

وأرى أن قصة نبي الله يوسف مع إمرأة العزيز كانت في ذهن أبي العلاء، عندما ذكر قصته مع الغانية التي أرادت الاستيلاء على "درعه" وهو رمز عفته وشرفه وعزته، فتأبى عليها، كما تأبى يوسف على إمرأة العزيز. وأبو العلاء المعري اختار العزلة والسجن على فقدان شرفه وكرامته وعزة نفسه، فهي أثمن عنده من الذهب ومن الخمر ومن غواية الغواني والجميلات وكأن لسان حاله قول الشاعر (عنترة):

حكم سيوفك في رقاب العُزل
وإذا نزلت بدار ذل فارحل

وكان لسان حاله أيضاً قول الشاعر:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن طلب العلا متعزل

وفي قوله تعالى:

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ (النساء: ٩٧)

وأبو العلاء يقول بوضوح أن "درعه" هو عزة نفسه وكرامتها التي لا يبيعها بأي ثمن ولا لأبي الفتاة ولو ساق كل ابله وخيله. ولا بنته رغم حلاها وإغوائها، وأبو العلاء بعد ذلك لا يخفي أنه أختار المنأى والمتعزل لأن الحياة في بغداد التي هجرها كانت مليئة بالنفاق والكيد الرخيص والضغائن.. وأنه لم يجد فيها صديقاً عزيزاً ولا وليا مخلصا.. ولم يجد فيها سوى الحقد والخيانة والكذب:

يقول أبو العلاء في ذلك:

وقد طال فوق الأرض كوني وشبهت

ثغاما بجوني عاذلاتي وعذالي

وحرمت شرب الراح لا خوف سائط

ولكنها ترمي العقول بعقال

ومن سره ثوب يعز بلبسه

فلا تجر منه أم دفر على بال

هلوك تهين المستهام بحبها

وتلقى الرجال المبغضين بإجلال

بنو الوقت إن غرورك بحكمة

فما خلفها إلا غرائز جهال

لذلك سجنت النفس حتى أرحتها

من الأنس ما إخلاء ربع بإخلال

يعلق عبدالله الطيب على هذه الأبيات لأبي العلاء، فيقول أنه لا يشك قط أن "بنو الوقت" هم – عند أبي العلاء – هم أهل بغداد الذين تركهم وهجرهم لأنهم غروه في

البداية بتظاهرهم أنهم أهل علم ودراية وحكمة، ولكنه سرعان ما اكتشف حقيقتهم وأنهم أهل جهل ونفاق ومكر، فهجرهم وآسر سجن النفس حتى يريحها من هؤلاء المختالين ويريحها من كيدهم ومؤامراتهم وكيدهم وضغائنهم.

وفي أبيات أخرى، قال أبو العلاء إنه اكتشف أن أولئك الأصدقاء الكاذبين المخادعين هم أهل كيد ونفاق وبخل. فليسوا يحفظون العُشرة ولا إكرام الصديق أو الرفيق.

يقول أبو العلاء في ذم أولئك النفر الذين حسبهم ذوي وداد وصداقة في باديء الأمر ولكنه عندما اختبرهم وجدهم لا يكرمون الصديق ولا يقدرون عُشرة الأيام:

مـــالي حلس الربع كـــالميت بعـــد

الســـــــــبع لـم آسـف ولـم أنـدم

عـلى أنـاس من يُعـــــاشـــــرهم

تعـــوزه فـــيــــهم عُـــشـــرة المكرَم

وكان نفر من هؤلاء الأصدقاء المزعومين يتعقبونه بغية إيذائه أو حتى تدميره وقتله ولذلك أسماهم بالضباع.. ومنهم اثنان كانا يمعنان في إيذائه ويبالغان في الكيد به.. ولذلك كتب فيهم رسالة سماها (برسالة الضبعين) كتبها إلى معز الدولة ثمال بن صالح يشكو إليه رجلين: أحدهما الشريف بن المحيرة الحلبي:

"كانا يؤلبان عليه، وينسبانه إلى الكفر والإلحاد، ولقد حرّفا بيتا من "لزوم ما لا يلزم" ليثبتا عليه الكفر بذلك.. "[1].

وهؤلاء "الضباع" موجودون في كل زمان ومكان، ولقد عانى منهم أبو العلاء ما عانى، وكذا عبدالله الطيب، وليس يوجد مبدع ولا عبقري، في أي مكان إلا وتنوشه هذه الضباع" وتستهدفه ولا تألوا في الكيد له والنيل منه.

فلزم أبو العلاء محبسه في معرة النعمان، وتمترساً فيها بالزند (ومن هنا سقط الزند) كما تمترس بالدرع. وفوق هذا وذلك تمترس بالمنأى والمتعزل..

وقد يشتكي أبو العلاء من ضعفه وأنه "شيخ مكذوب عليه" وأنه شيخ طعن في السن، وعجز عن حمل الدرع وازدرته الغواني والصبايا، وأعرضت عنه النساء (ماذا يريد بالنساء إذا كان فعلا قد تنسك وترهبن طواعية وزهداً في زهرة الحياة الدنيا). وفي رأيي أنه لم يزهد في الحياة، ولكن حُمِلَ على الوحدة والوحشة خوفاً على دمه من أن تهدره الضباع

---

(١) شرح المختار من "لزوميات أبي العلاء" لأبو محمد بن محمد بن السيد البطليوس ١٩٧٠م.

من بنات آوى[1]. ولم يكن أبو العلاء بهذا الضعف أبداً في محبسه، ولكنه كان داهية يتظاهر بالضعف ليستدر عطف جماهيره التي يخاطبها ويريد أن يؤلبها على الأوضاع الظالمة بالعراق وبقصبة الخلافة بغداد (وما أشبه الليلة بالبارحة)!!

ومثل هذا الدهاء يلجأ إليه للتمويه والخداع البريء (دا أنا غلبان) عندما يكون الإنسان في أوج قوته وفي قمة عنفوانه وبطشه!! فاعتبر.

أعمال أبي العلاء المعري:

والمعري قمة من قمم الأدب والشعر والفلسفة في التراث العربي الإسلامي، وهو يمتاز عن الآخرين بعمق تجربته في الحياة وبسعة إطلاعه، وأهم من ذلك كله بميله إلى التأمل والنظر الفلسفي وبالموسوعية في الفكر والعلوم، ومن أهم أعماله الأدبية:

١- سقط الزند: وهو ديوان لشعره في فترة الشباب وعنفوان الملكة الأدبية والشعرية.. وهو رائع وقمة من قمم البيان والشعر العربي وسماها "سقط الزند" كناية عن أول الشرر من تورية الزناد أي أول الإنتاج الشعري لأبي العلاء.

٢- لزوم ما لا يلزم: وهو قمة أعماله جميعا وأشقها على الفهم وأعصاها على الشرح، ذلك أنها تضمنت الكثير من الآراء الفلسفية والحكمية واللغوية الصعبة. ولذلك تأخر الأدباء عن شرحه، وترددوا في ذلك إلى أن قيض الله له علامة من أعلام الأندلس وأفذاذها النادرين لشرحها!! أو بالأحرى شرح أولا بعض المختارات فيه وهذا العلم الأندلسي هو ابن السيد البطليوس (نسبة إلى بطليوس من أعمال الأندلس) وبعد ذلك قام د. طه حسين أيضاً بنشر مختارات من "لزوم ما لا يلزم" ومن بعد ذلك - أخيراً - توفر عدد من الأفاضل بشرح الكتاب كله.

وابن السيد البطليوس هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن السيد ولد عام ٤٤٤هـ. وكان من أشهر علماء عصره، وأشهر من أنجبته تلك البلدة الأندلسية الصغيرة بطليوس؛ وكان موسوعيا إماماً حافظا في شتى ضروب المعرفة وأفرع العلوم وكذا الفلسفة والمنطق وعلوم الأولين ولغاتهم. لا غرو إن كان أول من تجرأ على محاولة شرح مختارات من "لزوم ما لا يلزم" إضافة إلى شرحه لكتاب "سقط الزند".

---

(١) أذن فجون جلوي (J. Gallawy) ليس أول من وصف أعداءه بأنهم "ضباع" من بنات آوى أو ذئاب مفترسة كما فعل عندما وصف جورج بوش وبلير بأنهما ذئبان، بل ضبعان من بنات آوى!!.

وفي تسمية الكتاب "لزوم ما لا يلزم" قال أبو العلاء المعري :

" وجمعت كل ذلك من العبر والأقفية ، ومن تمجيد الله وتذكير الناسين ، وتنبيه الرقدة الغافلين[1]" في كتاب لقبته (لزوم ما لا يلزم) ، ومعنى اللقب : أن القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت ، ولها أسماء تعرف ، وسأذكر منها شيئاً مخافة أن يقع هذا الكتاب إلى قليل المعرفة بتلك الأسماء[2]" .

وهذه الأحرف والحركات التي لا تلزم القافية ، شرحها أبو العلاء نفسه شرحاً وافياً في خطبة كتابه (لزوم ما لا يلزم) ولكنها – أي شروح أبي العلاء لهذه الأحرف والحركات– غاية في الصعوبة ، ولذلك لن نحاول الدخول فيها وإنما أردنا أن نشير فقط إلى معنى هذه التسمية المتاحة لواحد من أهم أعمال أبي العلاء المعري على الإطلاق ، وإن كانت أعماله الأخرى هي الأكثر شهرة خاصة ديوان "سقط الزند" و "رسالة الغفران" .

(٣) رسالة الغفران : وهي الرسالة الأكثر شهرة والأكثر تأثيراً في العالم من أعمال أبي العلاء المعري . فقد ترجمت هذه الرسالة إلى العبرية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية بعد ذلك . وترجمت أجزاء منها إلى العبرية واللاتينية في فترة مبكرة من تاريخ الإنسانية . وقرأها وتأثر بها بعض الكتاب الغربيين المشهورين خاصة "دانتي" Dante الايطالي صاحب "الكوميديا الإلهية The Divine Comedy" .

(٤) رسالة الصاهل والشاحج : وهي رسالة في تفسير وقائع التاريخ والعصر والبيئة التي عاشرها أبو العلاء في روية وتأمل وبصيرة . . وهي – مثلها في ذلك مثل (لزوم ما لا يلزم)– ذات لهجة فلسفية تأملية . وفيها الكثير من الحكم والأمثال السائرة ، كتبها أبو العلاء ، على لسان حيوانين هما :

– الفرس (الصاهل)!

– والبغل (الشاحج)!

محاكياً في ذلك – بلا شك – صاحب كليلة ودمنة . . وهذا النوع من الأدب إنما يلجأ إليه الأدباء في الظروف الحالكة المظلمة التي تكثر فيها المخاطر والمهددات لحياة الأديب أو الشاعر ولذلك يلجأ إلى الترميز وإلى التعميه في الكتابة ويستخدم الحيوانات ، كما

---

(١) الأقواس هنا من وضع كاتب هذه السطور – ملخصاً أغراض الكتاب كما ذكرها أبو العلاء نفسه في مقدمته لكتاب "لزوم ما لا يلزم" وهي أن تسمي عادة (خطبة الكتاب أي مقدمة المؤلف)!! .

(٢) اللزوميات من جزأين لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء.. حققه جماعة من الأخصائيين دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٣ .

يستخدم الشخوص الخيالية من الجن أو الحيوان أو الأساطير! وكل ذلك نوع من التقية والمخاضعة بغية الدفاع عن النفس والاحتراز من القتل والفتك!.

(٥) الفصول والغايات:

أما الكتاب من الناحية العلمية، فإنه متعة الأديب، وأمنية العالم، فإنه ملأه بشتى العلوم من اللغة والأدب والعروض والنحو والصرف والتاريخ والحديث والفقه والفلك وعلم النجوم، وغير ذلك مما لم يسبق لفترة جمعه بالطريقة التي سلكها؛

ذلك أنه يُملي الفقرة على تلاميذه، ثم يختمها بالغاية، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر وقد تطول الفقرة وقد تقصر، ثم يُملي التفسير.

الفصول: هي الفقرات

الغايات: هي التفاسير التي يعطيها أبو العلاء لتلك الفقرات والتي يُمليها لتلاميذه بغية الشرح والايضاح[١].

(٦) الأيك والغصون: كتاب ضخم من مائة مجلد، ضاع كله إلا الجزء الأول (وهو المعروف بالهمزة والردف)

نماذج من أشعار وأفكار أبي العلاء المعري (٣٦٣هـ - ٤٤٩هـ):

فيما يلي سوف نستعرض بعض أشعار وأفكار أبي العلاء المعري، لا من جهة الإحاطة أو الحصر ولكن على سبيل المثال السريع، حتى يستطيع القارىء المبتدىء أن يتعرف بعض الشيء على شخصية وافكار هذا الشاعر والفيلسوف المبدع. ودعنا نبتدي حيث تكون البداية من أول ديوان لأبي العلاء في فترة الشباب وعنفوان الفتوة الفكرية والوجدانية:

بعض نماذج شعر أبي العلاء من "سقط الزند"[٢]

يقول في النسيب (الشعر العاطفي)

مـعـان من أحـبـتنا مـعـان[٣]

تجـيـب الصـاهلات بـه القـيـان

---

(١) "الفصول والغايات" لأبي العلاء المعري وشرح عنوان هذا الكتاب هو لمحقق الكتاب، محمود حسن زناتي، حاول فيها شرح عنوان الكتاب "الفصول والغايات"!!.

(٢) "سقط الزند" لأبي العلاء المعري (شعر أول دواوينه)، ص ٢٢، منشور مكتب الحياة (بيروت).

(٣) "معان" الأولى: اسم موضع والثانية: منزل.

وقفت بها لصون الود حتى
أذلت دموع جفن ما تصان
ولاحت من بروج البدر بُعداً
بدورمها تبرجها أكتنان
فلو سمح الزمان بها لضنت
ولو سمحت لضن بها الزمان
رزقن تمكنا من كل قلب
فليس لغيرهن به مكان

وقال أبو العلاء مفتخراً (سقط الزند، ٥٦):

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف وإقدام وحزم ونائلُ
أعندي، وقد مارست كل خفية
يصدّق واشٍ أو يخيب سائلُ
أقل صدودي أنني لك مبغض
وأيسر هجري أنني عنك راحلُ
إذا هبت النكباء بيني وبينكم
فأهون شيء ما تقول العواذلُ
تعد ذنوبي عند قوم كثيرة
ولا ذنب لي إلا العلى والفواضلُ
كأني إذا طلت الزمان وأهله
رجعت وعندي للأنام طوائلُ
وقد سار ذكري في البلاد فمن
لهم بإخفاء شمس ضوءها متكاملُ
يُهِمُّ الليالي بعض ما أنا مضمر
ويثقل رضوى دون ما أنا حاملُ
وإني وإن كنت الأخير زمانه
لآت بما لم تستطعه الأوائل

هذا وقد كانت حياة أبي العلاء المعري، في محبسه بالمعرة، حياة خلوة فيها الكثير من شظف الحياة والعزلة، وحتى وهو "رهين المحبسين" لم يسلم من الوشايات والمؤامرات والكيد والدسائس. مما حداه للزهد في الناس والحياة! وطبع شعره بطابع زهدي فلسفي، يميل كثيراً إلى التشاؤم من الحياة ذاتها ومن الناس ولذلك تجده يذم الحياة ويهجو الناس ويشتكي كثيرا من صروف الدهر ومن شظف العيش وبؤسه وهو يكني الحياة "أم دفر" أي ذات الرائحة النتنة. وتظهر نزعته المتشائمة هذا أكثر في ديوانه "لزوم ما لا يلزم" وكذلك في كتابه "رسالة الغفران" وأعماله الأخرى.

وقال في الحكمة والأمثال[1]:

أرى العنقاء تكبُر أن تُصادا
فعاند من تطيق له عنادا

وما نهنهتُ عن طلب ولكن
هي الأيام لا تُعطي قيادا

فلا تلمُ السوابق والمطايا
إذا غرض من الأغراض حادا

لعلك أن تشن بها مغاراً
فتنجح أو تجشمها طِرادا

مقارعة أحجتها العوالي
مجنّبة نواظرها الرقادا

نلوم على تبلدها قلوباً
تُكابد من معيشتها جهادا

إذا ما النار لم تطعم ضِراماً
فأوشك أن تمرَّ بها رمادا

فظن بسائر الأخوان شراً
ولا تأمن على سر فؤادا

فلو خبرتُهمُ الجوزاء خُبري
لما طلعت مخافة أن تُكادا

(١) "سقط الزند" ص ٦٠، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، (بدون تاريخ).

تجنبتُ الإنام فلا أواخي
وزدت عن العدو فلا أعادي
ولما أن تجهمني مرادي
جريت مع الزمان كما أرادا
وهونت الخطوب عليّ حتى
كأني صرتُ أمنحها الودادا
فأي الناس أجعله صديقاً
وأي الأرض أسلكه إرتيادا
كأني في لسان الدهر لفظ
تضمن منه أغراضا بعادا
يكررني ليفهمني رجال
كما كررت لفظاً مستعادا
ولو أني حُبيتُ الخُلد فرداً
لما أحببت بالخُلد انفرادا
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظمُ البلادا

وقال مراسلاً أبا حامد الاسفاريني[1]:

لا وضع للرحل إلا بعد إيضاع
فكيف شاهدت إمضائي وإزماعي
يا ناق إجذي فقد أفنت أناتك
صبري وعُمري وأحلاسي وأنساعي
إذا رأيت سواد الليل فانصلتي
وإن رأيت بياض الصبح فانصاعي
ولا تهولنك سيفٌ للصباح بدا
فإنه للهوادي غير قطّاع

وفلسفة أبي العلاء المعري ذات نزعة تشاؤمية واضحة، من أجل ذلك لقب بفيلسوف

(١) المرجع السابق، ص ١٨٢.

الشعراء، وشاعر الفلاسفة. فمن قصائده ذات النبرة الفلسفية المتشائمة قصيدته المشهورة: "غير مجد في ملتي واعتقادي" قالها يرثي فقيهاً من الأحناف[1]:

غـيـر مـجـدٍ في ملتي وإعـتـقـادي
نـوحُ بـاكٍ ولا تـرنـمُ شـادِ
وشـبـيـه صـوت النعي إذا قـيس
بصـوت البـشـيـر في كل نادِ
أبكت تلكم الحـمـامـة أم غنت
على فـرع غُـصـنهـا الميـاد
صـاح هذه قـبـورنا تملأ الرحب
فـأين القـبـور من عـهـد عـاد
خـفـف الوطء مـا أظن أديم
الأرض إلا من هذه الأجـسـاد
وقـبـيح بنا وإن قـدم العـهـد
هـوان الآبـاء والأجـداد
سـر إن إسـتطعت في الهـواء رويدا
لا اخـتـيـالا على رُفـاتِ العـبـاد
رب لحـد قـد صـار لحـداً مـراراً
ضـاحكاً من تزاحم الأضـداد
ودفـين عـلـى بـقـايـا دفـين
فـي طـويـل الأزمـان والآبـاد
فـاسـأل الفـرقـدين عـمن أحـسـا
من قـبـيـل وآنـسـا من بلاد
كم أقـامـا عـلى زوال نـهـار
وأنـارا لمـدلـج فـي سـواد
تعبُ كلهـا الحـيـاة فـمـا أعـجـب
إلا مـن راغـب فـي إزديـاد

(١) سقط الزند، ص ١١ .

إن حـــزنا في ســاعــة الموت

أضعـاف سـرور في سـاعـة الميـلاد

كل بيت للهــدم مـا تبني الورقــاء

والسـيــد الرفـيع العـمــاد

والفـتى ظاعن ويكفـيـه ظلُّ السـدر

ضـــرب الأطـنـاب والأوتـاد

ومن قصائد أبي العلاء المعري العاطفية الرائعة قصيدته التي يجيب فيها صديقه الشريف أبا إبراهيم موسى بن إسحاق[1]:

علّلاني فــإن بيض الأمـــاني

فـنيت والظـلام لـيس بفـــان

إن تناســيـتـمـا وداد أناسٍ

فـاجـعـلاني من بعض مـا تذكـران

رب ليل كـأنه الصـبح في الحسـن

وإن كـان أسـود الطيلـســان

قــد ركـضنا فـيـه إلى اللهـو لما

وقف النجم وقـفـة الحـيـران

كـم أردنـا ذاك الـزمـــان بمدح

فــشُـغلنا بذم هذا الزمــان

فكأني مـا قلت، والبـدر طفل

وشـبـاب الظلمـاء في عنفـوان

لـيلـتي هذه عـــروس من الزنج

عليـهـا قـلائد من جـمـان

هرب النوم عن جـفـوني فـيـهـا

هروب الأمن عن فـؤاد الجـبـان

(١) المرجع السابق، ص ٤٥ .

وكـــأن الهـــلال يهـــوي الثـــريا

فـــهـــمـــا للوداع مـــعـــتنقـــان

وســـهـــيلٌ كـــوجنة المحب في

اللون وقلب المحب في الخـفـقـــان

وقال أبو العلاء المعري[1] يحاجج بعض المتشككين في البعث والجزاء، قائلا إن الإيمان بالمعاد رهانٌ غير خاسر، فإن كان هنالك بعث وجزاء، نجا المؤمن بهما وهلك الكافر، وإن لم يكن هنالك بعث ولا جزاء، لم يخسر المؤمن شيئاً، كما الكافر: (ومثل هذا القطعة تكذب الذين يرمون أبا العلاء المعري بتهمة الزندقة والكفر)!:

قـــال المنجم والطبـــيبُ كـــلاهمـــا

لا يُبـــعث الأمـــواتُ قلت إليكمـــا

إن صح قـــولكمـــا فلستُ بخـــاســـر

أو صح قـــولي فـــالخـــســـار عليكمـــا

أضـــحى التـــقى والشـــرُ يصطرعـــان

في الدنيـــا فـــأيهـــمـــا أبر لديكمـــا

طهـــرتُ ثوبي للصـــلاة وقـــبله

جـــسـدي فـأين الطُهـر من جـسـديكمـا

وذكـرت ربي في ضـمـيـري مـؤنسـاً

خلدي بذاك فـــأوحـــشـــا خلديكمـــا

وبكرت في البـــردين أبغي رحـــمـــة

منه ولا تـرعـــان في بـرديكمـــا

إن لـم تـعـــد بيـــدي منافعُ بالذي

آتي فـــهـل من عـــائد بيـــديكمـــا

بردُ التـــقى وإن تهلهل نســـجـــه

خـــيـــر يعلم الله من بُرديكمـــا

أما نزعة أبي العلاء المعري العقلية والفلسفية، فلا شك فيها، ولذلك رمي بالزندقة،

---

(١) شرح المختار من لزوميات أبي العلاء المعري، القسم الأول. تحقيق د. حامد عبدالمجيد، ص ٢٦٦ طبعة دار الكتب ١٩٧٠م.

كما رمى سائر الفلاسفة المسلمين والمفكرين، حتى حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، لم يسلم من هذه التهمة وكذلك ابن سيناء وابن رشد وغيرهما كثير:

قال يمجد العقل[1]:

كـــذب القـــوم لا إمـــام ســـوى

العـقل مـشـيـراً في صـبـحـه والمسـاء

فـإذا مـا أطعـتـه جلب الرحـمـة

عـند المسـيـر والإرسـاء

ويسمى أبو العلاء المعري رهين المحبسين أو رهن المحبسين:

- أي سجين بصره، كونه أعمى.
- وسجين منزله بمعرة النعمان

لأنه آثر العزلة وابتعد عن الناس والحياة، وسجن نفسه في منزله طواعية. ولكن المعري يقول إنه حبيس ثلاثة سجون في الأبيات التالية:

أراني في الثـلاثة من سـجـوني

فـلا تسـأل عن الخـبـر النبـيث

لفـقـدي ناظري ولزوم بيـتي

وكـون النفس في الجـسـد الخـبـيث

وأبو العلاء المعري يعتقد أن كون الروح في الجسد مسجونة فذاك محبس ثالث، لأنه يعتقد أن الجسد المادي الشهواني هو أشر المحابس: وإنما تتطهر الروح والنفس بإماتة الجسد، وهذه هي أيضاً عقيدة البوذيين والهندوس، فلاسفة المشرق القديم، الذين يرون أن من أوجب واجبات الفلاسفة هو ممارسة "لعبة الموت" أي إماتة الجسد والشهوات لتخلص الروح وتشعُ وتتلألأ بضياء الإله، منشأ الروح وبارئها وأصلها ومنشئها. فالتطهير يعني إماتة الشهوات من أكل وشرب ولذات بالنساء.

وقال أبو العلاء[2] أبيات من الحكمة في أن أخلاق الناس قد تتغير وكذلك حظوظهم:

ألا إن أخـلاق الفـتى كـزمـانه

فـمنهن بيض في العـيـون وسـود

(١) المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٢) شرح لزوميات أبي العلاء، البطليوس، القسم الأول، تحقيق د. حامد عبدالمجيد ص ١٢٥.

وتـأكـلـنـا أيـامـنـا وكـــــــأنما
تمر بنا الســـاعـــات وهي أســـود
وقـــد يخـــمل الإنســـان في عنفـــوانه
وينبـــهُ من بعـــدُ النُهى ويســـود
فـــلا تحـسُـــدن يومـــاً على فـــضل
نعـمـة فحسبك عاراً أن يقال حسود

وأبو العلاء في كثير قصائد "لزوم ما لا يلزم" يبالغ في ذم الدنيا، ويقول إن النجاح فيها كالفشل، والعلو كالخبب، ولو أنه في بعض قصائده يقول إنه يجاهد ويكدح من أجل العلا. وذلك في "سقط الزند" فانظر إلى تناقض الشعراء: يقول في "سقط الزند" وقد سبق استعراضه:

ألا في ســـبيل المجـد مـــا أنا فـــاعل
عـــفـــاف وإقـــدام وحـــزم ونائل

ويغني في "سقط الزند" كأجمل ما يكون الغناء للجمال والحب:

يا ســاهر البـــرق أيقظ راقـــد الســـمـــر
لعل بالجـــزع أعـــواناً على الســـهـــر
وإن تخليت عن الأحـــبـــاء كلهم
فـــأسق المواطر حـــيـــاً من بني مطر
ويا أســيــة حـجليـهـا أرى ســفـهـاً
حـــمل الحلي لمن أعـــيـــا من النظر
مـا ســرت وإلا وطيف منك يصحبني
ســرى أمـــامي، وتأويبـــاً على أثري
لـو حط رحلي فـــوق النجم رافـــعـــه
ألفـــيت ثم خـــيـــالاً منك منتظري
يـــود ظـــلام الـــلـــيـــل لـــو دام لـــه
وزيد فـــيـــه ســـواد القلب والبـصـر
لو اخـتـصـرتم من الاحـســان ذرتكم
والعـذب يهـجـر للافـراط في الخـصـر

أبعــد حــول تناجي الشــوق ناجــيــة

هلا ونحن على عــشــر من العُــشــر

كم بات حــــولك من ريم وجـــازية

يســتــجــديانك حــسن الدل والحُــور

قارن هذه الرقة وهذه الصبابة العذبة في الأبيات أعلاه من "سقط الزند" بقوله في "لزوم ما لا يلزم" لذم الدنيا "أم دفر" ويقول أنه لا جدوى من الاجتهاد في طلب الفلاح والنجاح .. لأنه في النهاية يستولي "الخامل" والسيد رفيع العماد وكلهم إلى التراب ثم إلى النسيان المطلق:

أرى كل أم عــبــرها غــيــر مــبطيء

ومــا (أم دفــر) بالتي بان عــبــرها

هي النفس تهـوي الرحب في كل منزل

فكيف بهــا إن ضاق في الأرض قـبـرها

وآخــر عــهــد القــوم بي يوم تنطوي

علـى جَــــرْوَرُ الورد يُكره زبُرها

فــهل يرتجى خُــضــر الملابس ظاعن

وقـد مـزقت في باطن الأرض غُـبـرها

أتتني أنبــاءٌ كــثــيــر شــجــونُهــا

لهــا طرق أعــيى على الناس خــبُـرها

هفــا دونهــا قس النصــارى ومــوبذ

المجــوس وديان اليــهــود وحِــبــرها

تخــالفت الأشــبــاع في عُــقــد الرّدى

وتلك بحـــار ليس يدرك عَــبْــرُها

وقـيل نفـوس الناس تستطيع فِـعْلها

وقـــال رجـــال بل تبـيّن جــبــرُها

فلو خلقت أجــســادنا من صــبــارة

لقلّ على كــر الحــوادث صــبــرها

(والصبارة هي الحجارة).

يقول أبو العلاء إن الأنام يبكون على الدنيا أو يبكون منها ولكنها لا تبكي على أحد . فليس (لأم دفر) دموع أصلا . ويقول ما فائدة المجدُ والغنى والبيت الرحيب ، طالما كانت النهاية دائماً قبراً ضيقاً في الأرض المقفرة؟! ويقول مهما تكن شهرتي (يعني نفسه) فإن الناس سوف ينسوني بمجرد موتي ' وليس هذا حقاً ، لأن أبي العلاء قد توفي في عام ٤٤٩هـ ، وها نحن نذكره حتى اليوم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، كونه من الأدباء العرب الخالدين . بل هو من أدباء الإنسانية كلها الخالد ذكره ما خلد الدهر ، فقد ترجمت آثاره الأدبية ، خاصة "رسالة الغفران" إلى العبرية واللاتينية منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ' .

ثم يعود أبو العلاء مرة أخرى إلى تبخيس الحياة الدنيا وزينتها . فيقول ما فائدة الملابس البهية الخضراء طالما كان مصيرها إلى التراب فيمزقها ، كما يمزق الملابس الغبراء سواء بسواء ؟!

ثم بعد ذلك يعرج إلى اختلاف الملل والأديان والأهواء . فيقول إن علماء الأديان وأحبارها كلهم قد تحيروا في معنى اختلاف العقائد والملل والنحل من نصارى ومجوس ويهود وغيرهم . ولقد اختلفوا كذلك فيما يكون عليه الوضع بعد الموت وهل هنالك معاد أم رقاد سرمدي؟! لأن تلك المجالات ، ما بعد الحياة ، هي بحار ليس لأحد أن يعبرها أو يتجاوز لُجَجها ؟!

كذلك اختلف الناس في العقائد والفلسفات ، فمنهم من يقول أن العباد تخلق أفعالها (هؤلاء هم المعتزلة) وبعضهم يقول إن الجَبر هو سيد الموقف (هؤلاء هم المجبرة أو الجبرية) الذين يقول شاعرهم :

ألقـاه في اليم مكتـوفـاً وقـال له

إيـاك إيـاك أن تبـتـل بـالمـاء

ويقول أبو العلاء إن الحياة صعبة ومرة وإنه لو قدّ الإنسان من حجر لصعب عليها معاناة الحياة والصبر على مكارهها .

وها هنا تبتدئ فلسفة أبي العلاء المعري المتشائمة . . !! والسبب في هذا الاختلاف الواضح في شخصية أبي العلاء من "سقط الزند" إلى 'لزوم ما لا يلزم' هو إختلاف التجربة الحياتية ، وهو الموقف الفلسفي الذي يتبناه الإنسان في حياته فالإنسان كما هو ابن بيئته هو أيضا ابن تجربته ، بل أن تجربة الإنسان الحياتية لهي أعظم تأثيراً على حياته وأبعد

أثراً في تشكيل تلك الحياة. فبينما كان أبو العلاء الشاب الغض يغني للحياة وصبابتها وزهرتها في "سقط الزند" فهاهو أصبح يائساً عنها، زاهداً فيها كل الزهد فاعتبروا يا أولى الأبصار.

ومن هنا، فعلى المربين والمصلحين والمعلمين أن يراعوا كيف تكون تجربة النشء في الحياة، وخاصة في أيام الدراسة الأولى التي فيها تتشكل شخصياتهم، وتكتسب ملامحها الأساسية، فلا بد أن تكون تجربة ثرة، وأن تهيأ لهم الفرص لتذوق الآداب العالمية إلى جانب كنوز الثقافة العربية وما أغناها وما أبهاها. فكل واحد من قمم الفلاسفة والأدباء العرب الشعراء "كون" في حد - ذاته. وإنه لمن العار أن يحرم الطلاب العرب من ارتياد تلك الألوان العجيبة الرائعة، مهما كانت تخصصاتهم العلمية والمهنية في نهاية المطاف وأبو العلاء، "كون" بحاله. وكذلك أبو الطيب المتنبيء، وأبو تمام والبحتري وابن الرومي. وما أكثر القمم الثقافية العربية حين تعدها.. ولكنها في تحصيل أبنائنا من ناشئة هذا العصر قليل نزر.

والراحل المقيم عبدالله الطيب رحمه الله قد حباه الله بذلك الذهن المتوقد الذي كلما التهم المعرفة زاد توهجاً وتوقداً حتى تمكن من السباحة في تلك الأكوان ذات المواقع السحيقة.. والأغوار المديدة التي تزداد اتساعاً كلما حاول الإنسان سبر غورها والنفاذ إلى نهاياتها!!

"رسالة الغفران" واحدة من الأعمال الخالدة لأبي العلاء ولقد أثرت هذه الرسالة على الأدب العالمي طراً وألهمت المئات من الفلاسفة والكتاب العرب وغير العرب من الأعاجم ومنهم الفيلسوف الايطالي "دانتي" صاحب الكوميديا الإلهية:

The Divine Commedy

وهذه الرسالة هي جزء من أدب الرسائل الذي نحا إليه أبو العلاء في آخر أيامه ومن تلك الرسائل والتي تضمنها كتابه "ديوان الرسائل":

- رسالة الملائكة
- الرسالة السندية
- رسالة الفرض
- رسالة المنيح
- رسالة الاغريض

- رسالة الصاهل والشاجح
- ورسائل شخصية كثيرة إلى الأصدقاء والزملاء.

* رسالة الغفران: "ورسالة الغفران" تمتاز من بين رسائل أبي العلاء، وكانت تشابه - إلى حد ما - رسالة الملائكة لدرجة أن البعض يعتقد أن رسالة الملائكة هي مقدمة لرسالة الغفران، واختصار لها. والبعض يعتبرها - أي رسالة الملائكة - امتداد لرسالة الغفران.

مهما يكن من شيء، فقد تفرّدت "رسالة الغفران" بأمور:

- أولاً: هي آخر ما كتب أبو العلاء، وبذلك فهي تمثل مرحلة ليس فقط النضج الفكري والفلسفي، ولكنها أيضاً تعطينا آخر أفكاره وخواطره الحياتية والفلسفية، وهو مقبل على الموت، مستقبل الحياة الأزلية ومستدبراً الدنيا الفانية، (أم دفر) التي طالما حقرها وهون من أمرها، وطالما وصى الناس بألا يعيروها أي إنتباه، أو يعطوها أي قيمة، فهي ماكرة وعظيمة الجحود ولا عهد لها ولا أمان ولا ثقة أو مودة.. إلى آخر تلك الأوصاف التي كان أبو العلاء يحرص على تكرارها وترديدها.
- ثانياً: هي من أعظم أعماله الأدبية والفكرية، وقد حقق فيها وبها درجة عالية من الإبداع والابتكار. فهي بذلك قمة في حياته الفكرية والأدبية والوجدانية جميعاً. ولقد عمد فيها أبو العلاء إلى الخيال، كما عمد فيها إلى الترميز وسيلة لإعلام كثير من المبادىء والأفكار والردود الفكرية والفلسفية.
- ثالثاً: تتميز "رسالة الغفران" بنهجها الرائع المبتكر، إذ يعبر أبو العلاء عن إعجابه ببعض الشعراء - في الجاهلية والإسلام، فيضعهم في الجنة - في مسراه الخيالي لها، ويعبر عن نقده وعن عدم اعجابه بآخرين بوضعهم في نار السعير ولقد وضع كثيراً من الشعراء في الجنة وكذلك الأنبياء وصالحي هذه الأمة.. كما وضع كثيراً من شعراء الجاهلية والإسلام في النار. وهو يناقش هؤلاء وهؤلاء ويسألهم عن الأعمال والأشعار التي استحقوا بها الدخول إلى الجنة ويناقشهم في ذلك، ذاكراً محاسن أشعارهم وكذلك عيوبها ويفعل نفس الشيء مع أهل النار. إلا أن ردود أهل النار قصيرة مقتضبة، نسبة لما هم فيه من العذاب والهم. أما أهل الجنة فيطيل الحديث معهم ويطنب فيه لأنهم في خير حال ولذلك يطيب الحديث معهم ولقد تأثر بهذا النهج كثير من الأدباء والشعراء، وعلى رأسهم الايطالي دانتي. الذي صوّر الجنة والنار وكذلك الأعراف.

- رابعاً: أبو العلاء يرد - في المقام الأول - على رسالة ابن القارح وهي رسالة عجيبة تحتوي على أخبار الأدباء والشعراء وكذلك على أخبار أهل الزندقة والكفر والضلالات من أصحاب الملل الضالة الفاسدة من غلاة الشيعة والقرامطة، وأصحاب العقائد الزائغة من الباطنية والملاحة والقرامطة ومن لف لفهم. وهي بديعة في أساليبها البيانية وبلاغتها وما تحتويه من بديع السجع وغريب الألفاظ والمحسنات اللفظية والبلاغية وفيها غرابة الأخبار وطرائف الأنباء والقصص، وأبو العلاء يجاري صاحبه ابن القارح، وهو يضعه في الجنة مع الشعراء الذين يرى أبو العلاء أنهم أصحاب حكمة ومكارم أو كانوا على ملة إبراهيم الحنيف.

من الذين يضعهم أبو العلاء في الجنة:

* ابن القارح، بالرغم من ذنوبه وخطاياه إلا أن الله غفر له - في تصور أبي العلاء
* واللغوين أيضا في الجنة وقد أزال الله ما في قلوبهم من غل وإحن وضغائن على بعضهم البعض
* من الشعراء الذين يضعهم في الجنة:
* الأعشى
* وزهير بن أبي سلمى
* وعبيد بن الأبرص
* وعدي بن زيد
* وأبو ذؤيب الهذلي
* النوابغ: النابغة الذبياني والنابغة الجعدي
* لبيد بن ربيعة العامري
* وحسان بن ثابت

أهل النار: أما أهل النار، في تصور أبي العلاء فهم:

* صخر بن عمرو أخو خناس
* أبليس
* وبشار بن برد
* أمرؤ القيس بن حجر
* عنترة بن شداد

* وعلقمة بن عبدة
* عمرو بن كلثوم
* الحارث اليشكري (ابن حلزة)
* أوس بن حجر
* الأخطل التغلبي
* المهلهل التغلبي
* المرقش الأكبر
* المرقش الأصغر
* الشنفري الأزدي
* تأبط شرا

ملاحظات حول رسالة الغفران:

ويلاحظ أن أبا العلاء المعري لم يعلق على كثير من المواضيع التي حوتها رسالة ابن القارح: فهو مثلاً لم يعلق بشيء على الأسئلة الكثيرة التي أوردها (ابن القارح) في رسالته، خاصة تلك المواضيع التي تتعلق بآراء الزنادقة وأصحاب الفرق الضالة، كالحلاج، وابن الراوندي، والقرامطة، وصالح عبدالقدوس وغيرهم، كما لم يعلق على الأساليب الدموية التي كانوا يعاملون بها من قبل السلاطين والأمراء والملوك الذين كانوا يعمدون إلى قتلهم في كثير من الأحيان، كما فعلوا بالحلاج وصالح عبدالقدوس.

وأبو العلاء المعري لم يعلق، كذلك، على اتهام ابن القارح لأبي الطيب بأنه فعلا ادعى النبوة وحبس على ذمة ذلك، على تهمة الكفر والزندقة، كذلك، فإن أبا العلاء لم يستخدم فكرة البرزخ، كما فعل "دانتي" في الكوميديا الإلهية. . وكما جاء في القرآن الكريم في فكرة الأعراف، وهي "منزلة بين المنزلين" أي بين الجنة والنار، على حد تعبير المعتزلة.

ومهما يكن من شيء، فإن المرء لا يستغرب لجوء أبي العلاء المعري إلى الدار الآخرة ليعبر من خلال مشاهدها عن أفكاره ومعتقداته وكذلك لكي يستعرض نظرياته في الشعر والشعراء وفي "العروض" وفي محاسنها وعيوبها. . طالما انشغل أبو العلاء بالقوافي والأوزان وبحور الشعر وتفعيلاته، وطالما افتتن باستعراض ذخيرته الواسعة بمفردات اللغة

العربية، وخاصة تلك التي تنزع إلى الإغراب والصعوبة، وكذلك كان أبو العلاء حريصاً على استعراض ثروته الطائلة من تعابير اللغة العربية ومن ذخيرتها الواسعة في البيان والبلاغة وأساليب السجع والترصيع وأنواع البلاغة من جناس وتورية وطباق وما إلى ذلك. وكأنه كان يجاري صديقه (ابن القارح) وهو الآخر لم يترك طريقاً إلى البيان والبلاغة والسجع إلا سلكه وكذلك كان (ابن القارح) مثله مثل المعري، يحب أن يستعرض ثروته اللغوية الواسعة ومعرفته الراسخة بمعاني العربية ومفرداتها، خاصة تلك التي تنحو نحو الإغراب والصعوبة ولكنها تعبر عن فصاحة العرب البدوية. ويعجب المرء كيف استطاع أولئك العرب البدو مع شظف العيش في الصحراء وقلة الأشياء وضمور المناظر الطبيعية وفقرها، أن الصحاري قفرة يباب لا ماء فيها ولا زرع، ولا زهر ولا ورد، فمن ذلك القفر في مناظر الطبيعة وتلك الندرة في البيئة ومواردها، استطاع أولئك العرب أن يبتدعوا للسيف عشرات الألفاظ وكذلك للرماح والخيل والأسد والليل والنهار وكيف استطاعوا أن يضعوا للتلال والحجاج والأودية والخيران والأشجار والأطلال عشرات الألفاظ والأسماء والمعاني، مما يهول المرء ويجعله في أشد العجب والحيرة من قدرة أولئك البدو في ابتداع أساليب البيان والبلاغة وفن تطوير اللغة العربية إلى تلك الأبعاد العظيمة من الألفاظ والمعاني والبديع والبلاغة والبيان والنحو والصرف والإعراب!!

ولم يهتم أبو العلاء كثيراً ببيان الأسس والقواعد التي بموجبها وضع في الجنة من وضع، ووضع في النار من وضع، سوى أنه كان يورد لأولئك الشعراء الذين وضعهم في الجنة أبياتاً من الشعر فيها نوعاً من المعاني التوحيدية أو الحكمية. وإلى هذه الأبيات عزا غفران الله لهم وانقاذهم من النار.

ومن ناحية ثانية لم يأت أبو العلاء المعري بأسباب مقنعة لوضع كل من أمرىء القيس وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة اليشكري، وضعهم في النار، خصوصاً أنهم من أهل الفترة، ولم يبلغوا برسالة الرسول، صلى الله عليه وسلم، فهم لم يأتهم نذير أو بشير وهو شرط في العذاب. أما أهل الفترة، ولم يأت دليل أنهم يعذبون أو يقذفون في النار.

أما أمرؤ القيس، فلقد ساق أبو العلاء بعض الأسباب التي توجب له النار خاصة ميله إلى المجون والخلاعة وإلى التهتك والاستهانة بأعراف العرب وبأعرافهم الصالحة، وقيمهم الموروثة، حتى أهدر أباه دمه بين القبائل، وحتى خلعته عشيرته وقبيلته، ولم يشفع له في

ذلك أنه من سلالة الملوك أو أنه من الشعراء المبدعين الذين فجروا العربية بكاء على الأطلال وتغنى بالحسان وبالجمال وأنه وصف كل شيء في بادية العرب فأجاد وتفوق وأنه بعد ذلك تغنى للحياة وللطلاقة والسرور وأنه بعد ذلك كان جواداً كريماً شجاعاً لا يخشى شيئاً وأنه قد قبل بالتحدي أن يعيش أميراً بين صعاليك العرب، تحبه وتوقره وتهابه في نفس الوقت وأنه عاش أميراً مع الأوابد والقفر والجن والغول والشتاء والمطر، ثم بعد قتل أبيه ترك كل شيء وثاب إلى رشده وأقبل - كعادة العرب في أخذ الثأر لأبيه - وترك العبث والمجون والخمر والنساء إلى الأبد. وهو القائل في ذلك :

اليوم خمر وغداً أمر

ضيعني صغيراً (يقصد أباه الملك معاوية بن حجر) وحملني دمه (يقصد ثأره) كبيراً!!

وكان الأجدر بأبي العلاء أن يلتمس له أبواباً من المغفرة عند الله، والرحمة عند المليك الذي وسعت رحمته كل شيء، كونه كان من أهل الفترة لم يدرك الرسالة المحمدية ولا أية رسالة أخرى وأهل الفترة تشملهم رحمة الله، ربما يوضعون في البرزخ فيكونون بذلك من أهل الأعراف، في منزلة بين المنزلين - كما يقول المعتزلة .

وكذلك كان من الممكن لأبي العلاء أن يلتمس لأمريء القيس معذرة أن أباه قسى عليه لفجوره في وقت الشباب المبكر، وكان الواجب أن يصبر عليه حتى يرشد، لأن الشباب عادته الطيش والعبث والنزغ وأنه بعد ذلك يؤمل رشاده وتوبته إلى الرشد والعقل! .

وكذلك كان من الممكن أن يلتمس له العذر كونه شاعراً مبدعاً بتلك الصورة التي بزّ فيها الأولين والمتأخرين، وفجر فيها العربية ألحاناً وأوصافاً وبكاءً على الأطلال، حتى ملأ الروابي والآفاق قصيداً ونشيداً وملأ الأفق والفيافي أوزانا وقوافي وبحوراً، فلم يترك بحراً من بحور الشعر ولا غرضا من أغراضه إلا قال فيه وأجاد: ألا يستحق المغفرة والرحمة من أثرى العربية وهي من بعد ذلك لغة القرآن ولغة أهل الجنان؟!

فإذا أدخل أبو العلاء الأعشى الجنة ونجاه من النار كونه استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال إنه له في ذلك "حرمه" يقصد بذلك الأبيات التي مطلعها[1]:

ألا أيهـــذا الســـائلي أين يممت

فـــإن لهـــا في أهل يثـــرب مـــوعـــدا

(١) رسالة الغفران، ص ٩٤، منشورات دار ومكتبة الهلال - بيروت ١٩٨٦ .

فـــآليت لا إرث لـهـــا من كـــلالة
ولا من حـفي، حـتى تلاقي مـحـمــداً
مــتى مـــا تناخي عند باب ابن هاشم
تـراحي، وتلقى من فــــواضله الندى
أجــدك لـم تســمع وصـــاة مـحـمــد
نبي الإله حين أوصى وأشــــهـــدا
إذا أنـت لـم تـرحل بـزاد من التـــقـى
وإنك لـم تـرصّـــد لما كـــان أرصـــدا

فإنه - أقصد أبا العلاء - كان من الممكن أن يجد لأمرؤ القيس أبياتاً يستحق بها رضا مولاه.. وهي الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء. إنه تعالى لا يغفر أن يشرك به ولكنه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

كذلك أنقذ أبو العلاء زهير بن أبي سلمى من النار كونه القائل[1]:

فـــلا تكتــمن الله مـــا في نفـــوسكم
ليـخـفى، ومــهــمـــا يكتمُ الله يعلم
يؤخـر فـيـوضع في كـتـاب فـيدخـر
ليـوم الحـســاب أو يُعـجل فـيـنتـقم

ونجى أبو العلاء عبيداً بن الأبرص من النار وأدخله الجنة مع زهير بن أبي سلمى كونه القائل:

من يســــأل الناس يحـــرمـــوه
وســــــائل الله لا يخـــــيب

أبو العلاء يضع عنترة بن شداد في النار

إن ما قلناه من استحقاق أمرىء القيس أن يدخل الجنة لبعض تلك الأبيات، من الحكمة أو من الإشادة بمكارم الأخلاق، والتي كان من الممكن لأبي العلاء المعري البحث عنها وإبرازها لتشفع لأمرىء القيس فيدخل بها الجنة، إن ما قلناه بخصوص أمرىء القيس

(١) رسالة الغفران، ص ٩٨.

يصدق بصورة قوية جداً على "عنترة بن شداد" الذي طالما تغنى بمكارم الأخلاق وتشبث بالفضائل وبكل ما يصون الفتى من العار والشنار . . وإن المرء ليعجب كيف ألقى أبو العلاء "بعنترة" في أوار السعير من النار غير مبال ولا مكترث! هل هذا من وحي العنصرية التي كان أولئك الشعراء من بعض أهل الشام يتصفون بها ؟ "أنظر في ذلك أشعار أبي الطيب في كافور الأخشيدي وفي العبيد من ناحية عامة" .

لا تشتري العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد

وقوله :

العبد عبد ولو طالت عمامته
والكلب كلب ولو ترك النبيح

وفي الواقع فإن عنترة أولى بالجنة من الأعشى الذي طالما تغنى بالخمرة . . وأولى من عبيد بن الأبرص الذي أدخل الجنة ببيت واحد من الشعر ولعنترة المئات ، بل الآلاف من الأبيات التي تنضح بالحكمة وبالعفة وبالنبل . وكفى عنترة فخراً ما روته عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ما روى له من أخبار إعرابي وحب أن يراه إلا عنترة ، لو صحّ الحديث الذي أورده التبريزي في شرحه لديوان عنترة . . وحسب عنترة أنه كان يلقب بأبي الفوارس ، وحسبُه أن ديوانه وأشعاره ما زالت خالدة يحفظها ويتغنى بها الآلاف من الناس ، حتى يومنا هذا . وحسبُ عنترة أن ديوانه كله دعوة إلى الفضائل وإلى مكارم الأخلاق وإلى العدالة والإنصاف والتسامح حتى مع الأعداء أو الظالمين! وحسبُه عفة وكرم نفس تلك الأبيات التي يقول فيها أنه يُبعد نفسه وجيرانه ومن يحب من الشبه والتهم ، لذا فإنه لا يزور جارته إلا وزوجها موجود :

ما استمت أنثى نفسها في موطن
حتى أوفى مهرها مولاها

ولما رزأت أخا حفاظٍ سلعة
إلا له عندي بها مثلاها

أغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا غزا في الجيش لا أغشاها

وأغض طرفي مـــا بدت لي جـــارتي

حـــتى يواري جـــارتي مـــأواها

إني أمــرؤ ســمحُ الخليــقــة مــاجــدُ

لا أتبـع الـنفس اللجـــــوج هـواهـا

يقول الأستاذ (خليل شرف الدين)، أحد الذين حققوا ديوان عنترة بن شداد[1]:

" خُيل لبعض المستشرقين أن عنترة كان قريباً من مفاهيم الإسلام، وإن لم يدركه. أو أنه أدركه فعلاً لكثرة ما ورد في شعره من تعابير ومصطلحات لم تكن معروفة قبل الإسلام، ومنهم من رد هذه المصطلحات والتعابير - وأكثرها أخلاقي - إلى تأثره بالنصرانية، بإعتبار أن أمه نصرانية لأنها حبشية، والحبشة كانت تعتنق المسيحية، وهو متأثر بأبيه تأثراً بالغاً ".

يقول الأستاذ خليل شرف الدين إن المستشرق الأب لويس شيخو قد أدرج عنترة في عداد شعراء النصرانية، لأنه تغنى بقيم النصارى وأخلاقهم ومنها:

- العفة والحب العذري على غير مطمع في وصال،
- الترفع عن الغنائم والأسلاب،
- الحلم مع الناس وعدم الإساءة إليهم على ظلمهم وإساءتهم،
- تحمل الظلم والأذى والصبر على المكاره،
- كراهية الظلم والتغني بالعدالة.. الخ.. الخ.
- بعض الآثار الدالة على التوحيد في شعره
- الصبر على الآلام وتجشمها. يذكّر بالسيد المسيح - يقول خليل شرف الدين، نقلاً عن المستشرق الأب لويس شيخو!!

ومهما يكن من نصرانية عنترة أو عدمها، فإنه كان الأجدر بأبي العلاء المعري أن يضعه في الجنة، لو أنصف أو أخذ بنفس المعايير التي اعتمدها في إدخال زهير وعبيد بن الأبرص إلى الجنة!!

---

(١) ديوان عنترة ومعلقته: ص ١٦٠ تحقيق الأستاذ خليل شرف الدين. دار مكتبة الهلال - بيروت ١٩٨٨م.
والجميل في هذا التحقيق أن الأستاذ خليل يضع عناوين جميلة ومعبرة لقصائد عنترة.

المعري يُدخل صخراً (أخا خنُاس) في النار

ولا يكاد الإنسان يجد تفسيراً موضوعياً مقنعاً لماذا وضع أبو العلاء صخراً أخا الخنساء الشاعرة في النار . . وهو الرجل الكريم الذي كان أسطورة في الكرم وفي صلة الرحم والشجاعة والنجدة والشرف والسؤدد، حتى أن خنُاس لم يرق لها مدفع ولم تجف لها مآقي، منذ موته وحتى كادت أن تهلك أسى عليه وحزنا وكمدا على فراقه :

وإن صخراً لسيدنا وحامينا
وإن صخراً إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا
وإن صخراً إذا جاعوا لعقار
وإن صخراً لتأتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار
جلد جميل المحيّا كامل ورع
وللحروب، غداة الرّوع، مسعار
حمال ألوية، هباط أودية
شهّاد أندية، للجيش جرّار
فقد كان خالصتي من كل ذي نسب
فقد أصيب فما للعيش أوطار
مثل الرديني لم تنفد شبيبته
كأنه، تحت طيّ البرد، أسوار
جهم المحيا تضيء الليل صورته
آباؤه من طوال السّمك أحرار
طلق اليدين بفعل الخير ذو فجَر
ضخم الدسيعة بالخيرات أمّار
لا يمنع القوم، إن سألوه خلعته
ولا يجاوزه بالليل مُرَّار

والخنساء أولى بوسط الجنة من "زهير" وعبيد بن الأبرص ولبيد العامري وغيرهم لأنها أسلمت وحسن إسلامها وقدمت ثلاثة من أبنائها شهداء في سبيل الله . ولكن أبو

العلاء يضعها في طرف الجنة، وعلى مقربة من النار، وأوشك أن يضعها في الأعراف (البرزخ) إلا أنه لم يصطنع برزخاً في "رسالة الغفران" كما فعل "دانتي" في الكوميديا الإلهية!

ومهما يكن من التبرير، ويوشك المرء أن يتهم أبا العلاء بالغيرة من صخر، لأنه كان شهما كريما مضيافا، ولأنه كان سيداً واسع الثراء وكان يوقد النار لإكرام الضيف. أما أبو العلاء، فقد أضاع كل ذلك لأنه ترك التكسب مطلقاً، حتى التكسب بالشعر وكان يدر عليه مالاً وفيراً في أيام شبابه، ولكنه منذ أن إنزوى في معرّة النعمان ترك العمل وترك التكسب بالشعر أو خلافه، فذهب ماله وأصبح فقيراً معدماً لا يزور أحداً ولا يزوره أحد وانطوت حياته كلها في المجالس التي اصطنعها لنفسه في "المنزل" والتي لم يصطنعها "العمى والنفس الخبيثة" التي كان يشكو منها. فلعله أحس بالغيرة من ذلك السيد الجاهلي "صخر" فوضعه في النار لمجرد بيت من الشعر في مرثية "خناس" التي أشرنا إليها أعلاه:

وإن صخراً لسيدنا وحامينا
وإن صخراً إذا نشتو لنحار

وإن صخراً لتأتم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار

قلنا أعلاه أن أبا العلاء، لم يعلق على أخبار الزنادقة الذين ذكرهم ابن القارح في رسالته إلى أبي العلاء التي فجرت أفكاره وخواطره التي سجلها في "رسالة الغفران" رداً على رسالة ابن القارح.. ونريد أن نضيف هنا أنه رد عليها في القسم الثاني من "رسالة الغفران" بعد أن فرغ من تصوراته الخيالية في الجنة وسكانها والنار وسكانها، وكأنه – وهو المتهم بالزندقة نفسه لم يرد أن يقطع برأي عما إذا كان أولئك الزنادقة والملحدين – الذين أشار إليهم ابن القارح في رسالته – سوف يدخلون الجنة أو النار.. ولكن على مذهبه في إدخال أولئك الشعراء الذين أدخلهم الجنة فيكفي أولئك الزنادقة أن يكون لهم بيت أو أبيات من الشعر يذكُر فيها الله أو معنى من معاني التوحيد حتى يستحقوا الدخول في الجنة.. ولذلك لم يشأ أن يحكم فيهم صراحة.. وترك المرء يخمن في ذلك ويقيس على ما فعله في إدخال من أدخل إلى الجنة أو النار.. فاعتبر.

خاتمة هذا الفصل:

وفي ختام هذا الفصل، فلا بد من كلمة على فلسفة أبي العلاء التي يغلب عليها التشاؤم من الناس عموماً، ومن الأخلاء وودهم، كما تغلب عليها الزهد في مباهج الحياة وزينتها وأنها كلها غدر ومير وكذب، كريهة رائحتها، فاسد هواؤها (أم دفر) وأنها لا تكرم الكريم ولا تأبه للحزين والأسى، وأنه أي أبو العلاء لم يظفر منها بشيء أبد الدهر.

وحقيقة الأمر في كل ذلك، أن أبا العلاء هو المسؤول وحده عما آلت إليه حياته.

١- فقد ترك بغداد وعاد إلى قريته الصغيرة، خاملة الذكر، قليلة الشأن. وأنه في تلك القرية نفسها (ألزم نفسه ما لا يلزمها) وأخلد إلى المنأى والمنعزل وقفل نوافذ الحياة جميعا عليه وترك السعي وراء المال أو المنصب أو حتى الشهرة في المدينة الواسعة بغداد.. وقد مات أبوه من ذي قبل، وكان أبوه ذا مال وكان ينفق على الفتى أبي العلاء، فلما مات أبوه أصبح بلا سند ولا معين. ولا مال ولا خيل ولا مؤونة.. ثم ماتت أمه أثناء غيابه في بغداد في فترة شبابه الأولى. فما عاد عودته الأخيرة إلى معرة النعمان، واتخذها محبساً طواعية عاني فقد الحنان والعناية العاطفية التي كانت ترفده بها أمه التي كانت تحنو عليه كثيراً كونه قد أصابه العمى وهو في السادسة من عمره. وهكذا فقد الأب والأم جميعاً. وهؤلاء هما - في هذه الدنيا الموحشة - هما «الرحماء»، كما قال الشاعر (حافظ).

٢- ولم يكن لأبي العلاء مال في معرة النعمان، وقد كان التكسب بالشعر يدر عليه دخلاً معقولاً في أول شبابه، إذ كان يمدح الأمراء والوجهاء والسلاطين والخلفاء ولكنه كره التكسب بالشعر فانقطع ذلك المورد أيضاً، فأصبح أبو العلاء عالة بلا مورد مالي إطلاقاً.

٣- وكونه فقيراً بغير أموال ولا أملاك، فلم تكن له باءة تساعده على الزواج، على ما كان فيه من عاهة العمى، كما كان يفتقر إلى جمال الطلعة: كان قصير القامة - نحيل الجسد، قد شوه الجدري الذي أصيب به في الصغر - شوّه وجهه، إذن لم يكن لأبي العلاء أي ميزة ترغب الفتيات فيه وترغبهن في الزواج منه. فلم يتزوج. ولم تكن له صاحبة ولا ولداً.

٤- والمال والبنون زينة الحياة الدنيا وزهرتها. ولم يكن لأبي العلاء أي حظ منها في محبسه في معرّة النعمان، وحرم نفسه الاستفادة من الموهبة الكبيرة التي وهبه الله إياها ألا وهي علومه الغزيرة في اللغة والنحو والأدب.

وأعظم من ذلك موهبته كشاعر عملاق لا يشق له غبار وكمفكر من أعظم الكتاب والمفكرين.

إذن فأبو العلاء نفسه قد ساهم مساهمة عظيمة في تشكيل حياته التي اتسمت بالعزلة والوحشة، وبالفقر المدقع وبالكآبة والحرمان وكان لو بقي في بغداد، ولو صارع الحياة والناس، لخليق به أن يصنع مجداً لنفسه وأن يتزوج من فتاة تمنحه الرعاية والمحبة والسكينة والرحمة.. وأكثر من ذلك تمنحه الأولاد النجباء، كونه كان إنساناً موهوباً ذكياً ألمعيا.

إذن لماذا يذم أبو العلاء حياته الموحشة المقفرة في معرة النعمان وقد صنعها بيديه؟.. وصاغها باختياره الحر اللاعقلاني؟.

غير أن أبا العلاء وقد وجد نفسه معزولاً بيده لا بيد عمرو في محبسه في معرة النعمان لم يخلد إلى الراحة ولم يقبل بأن يصير نسياً منسيا. ولم يرض بأن يكون شيئاً غير مذكور.

وأستغل ملكاته في الأدب والشعر ليتقلب على الدنيا وعلى الناس وعلى الدهر ساخطاً مرتاباً يسكب على الدنا مراراته وأحزانه وحرمانه ولكن كان من الأجدر بأبي العلاء ألا يلوم أحداً، بل يلوم نفسه واختياراته الصعبة اللاعقلانية بفكره وأدبه وموهبته العظيمة في الشعر والفكر والحياة والثقافة الواسعة والعلوم الزاخرة في اللغة والأدب والفلسفة والملل والنحل؟!.

إننا نشعر بالأسى لأبي العلاء، كونه حرم نفسه طواعية من زهرة الحياة الدنيا ومن زينتها:

قال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ (الأعراف: ٣٢)

كذلك لم تكن أبداً من سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يعتزل الحياة أو أن يعزف عن مباهجها وزهرتها، ولم يلجأ إلى الانسحاب من الحياة وصراعها ولا الهروب من مشكلاتها ومصاعبها ومخاطرها.. بل ظل راسيا ثابتاً ثبات الجبال برغم الأهواء والأهوال، وبرغم الصعاب ورغم الإحن وبرغم الأعداء والتحديات التي كانت تحيط به من كل اتجاه ومكان. وتزوج صلى الله عليه وسلم النساء وأنجب الأولاد والبنات وكانت حياته ملؤها السعادة والفرح بربه وبدعوته وبمعتركه في الحياة وبمصيره بين الناس والأحداث. كان صلى الله عليه وسلم سعيداً بمخالطة الناس والصبر على أذاهم، كان

سعيداً بجهاده يعلمهم الخير والقرآن. كما كان سعيداً بفضل الله عليه أن أتاه السبع المثاني والقرآن العظيم! وكان كل ذلك أو بعض ذلك متاحاً لأبي العلاء، إذا اختار البقاء في وسط الحياة وفي وسط الصراعات وفي أتون معارك الحياة ومخاطرها.. ولكنه اختار - بدلاً من ذلك - الهروب والانسحاب من الحياة الواسعة إلى الحياة الضيقة الراكدة الآسنة في معرّة النعمان. وعمد على موهبته في الكتابة والشعر يسخرها لنقد الحياة وسبها والتشهير بها والتشكي الذي لا يكف أبداً من جورها وظلمها وكآباتها ومراراتها!!..

لقد سعدنا من أبي العلاء المعري بأغانيه الرائعة في "سقط الزند" لأنه كان في تلك الفترة المبكرة من الشباب مقبلاً على الحياة. مشاركاً فيها، مستمتعاً بخيراتها ومباهجها وزينتها وجمالها.. وكان متفائلا مقبلاً على الحياة لا مدبراً عنها، معجباً بجمالها، لا قاليا مقتا لها. ولذلك جاءت، قصائده تعبر عن الحياة الزاهية الضحوك وعن مباهجها وصباباتها وحلاوتها النضيرة. ويا ليته استمر في البقاء في بغداد. ولم تكن ضربة لازب أنه سوف يقتل على اتهامه بالزندقة.. وكانت تلك - على كل حال - مخاطرة كان يستوجب عليه أن يخوضها. بل كان يستطيع أن يدفع عن نفسه تهم الزندقة والإلحاد وأن يواجه مكائد الأعداء والحساد والعواذل والخصوم جميعا وهو يملك لذلك أسلحة كثيرة ماضية الحد، فتاكة الضرب والطعن والمضاء!! ولكنه للأسف لم يفعل - وكان - إذا فعل ذلك، أي خاض غمار الحياة وصراعاتها ومخاطرها لخليق به أن يتحفنا (بدلا من "لزوم ما لا يلزم") بأعمال طريفة خالدة بأغاني الحياة وقصصها الدرامية والمسرحية والغنائية وما أجمل الغناء بلغة الغناء الساحرة - لغة الآباء والأجداد من مضر ويعرُب!!

هل استعار أبو العلاء عنوانه "لزوم ما لا يلزم" من بيت المتنبي إلى سيف الدولة:

ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها

ألا يواريهم سهل ولا علم؟!

لقد أعطى أبو العلاء المعري سبباً فنياً لهذه التسمية الغريبة "لزوم ما لا يلزم" نقصد أنه عزا ذلك إلى بعض جوانب القوافي والأوزان، والبحور. ولكننا بالرغم من ذلك نشعر شعوراً قوياً أنه نظر نظراً شديداً إلى بيت أبي الطيب أعلاه.

وفي ختام هذه الخواطر، لا يفوتنا أن نلاحظ كثيراً من جوانب الحياة في العصور الإسلامية لم يشأ أبو العلاء أن يعلق عليها! جوانب من السياسة والاختلاف فيها وحول الإمامة والخلافة والنزاع بين علي ومعاوية والفرق الإسلامية من قدرية ومعتزلة وجبرية

وكذلك بعض الشخصيات العامة من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – ومن خلفائه، لم يذكر أبو العلاء – في رسالة الغفران، وفي الجنان التي زارها أي من:

(١) أبي بكر رضي الله عنه

(٢) ولا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(٣) ولا عثمان بن عفان رضي الله عنه

(٤) ولا عائشة رضي الله عنها.

وإنما ركز على النبي وعلي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء وبعض آل البيت، علي بن الحسين وبنيه وحمزة بن عبدالمطلب وغيرهم.

هل كان أبو العلاء من أهل التشيع؟ أي كان من الشيعة؟ ومن أي فرق الشيعة؟ سؤال نطرحه للأجيال الآتية من الباحثين!!

كذلك فإن فلسفة أبي العلاء وتلك الجوانب التي يخالف فيها النموذج النبوي للفكر والحياة لجديرة بالبحث والتنقيب فيها ولماذا كتب "رسالة الغفران" بالطريقة التي كتبها؟ إن أخطاء الحذف ليست بأقل من أخطاء الإيجاد والإثبات!

سبحانك اللهم ونحمدك، نشهد ألا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك ونصلي ونسلم على رسول الله الصادق الأمين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ونسلم تسليما كثيرا.

الفصل السادس
عبدالله الطيب
وأبو الطيب المتنبيء

الفصل السادس
عبدالله الطيب وأبو الطيب المتنبيء

أبو الطيب المتنبيء في حياة عبدالله الطيب :

لسنا في هذا الفصل – بصدد إجراء دراسة شاملة لأي واحد من هذه القمم، فهذا مجال واسع، لا تطرقه ولا تطيقه هذه الدراسة المحدودة، والغرض منها أساساً هو إزجاء التحية واحياء الذكرى للراحل المقيم، العَلَم العلامة أستاذنا وحبيبنا عبدالله الطيب رحمه الله رحمة واسعة. ولكننا نريد أن نلمح مجرد الإلماح إلى تأثره البالغ بهؤلاء الشعراء العظام، كما يبدو ذلك من خلال أعماله الفكرية وخاصة (المرشد) وقد خص عبدالله الطيب أبا الطيب المتنبيء بدراسة خاصة أيضاً في كتابه الموسوم " الطبيعة عند المتنبيء " !

وعبدالله الطيب يحب أن ينادي المتنبيء باسمه وكنيته بـ (أبي الطيب)، ولا يحب أن يناديه بـ (المتنبيء)، لأنها لفظة فيها إدانة " أو معرّة! إذ أنها تشير إلى تلك المرحلة من حياة أبي الطيب " التي زعم فيها أنه نبي مرسل، فسجن وضرب وعذب من أجل ذلك، حتى ترك ذاك الإدعاء، ولم يعد في حاجة إليه، بعد أن أصبح شهيراً، يُشار إليه بالبنان، وسارت بقصائده وفرائده القوافل والسيارة، واصطفاه أعظم أمراء الشام سيف الدولة الحمداني – أمير حلب – شاعراً لبلاطه وصديقاً وجليساً! وداعية لسلطان دولته، فنهض بذلك خير نهضة وقام به خير قيام!

ولكن لماذا اختار عبدالله الطيب مجال الطبيعة بين أغراض شعر أبي الطيب وهي – أي الطبيعة – ليست المجال الأبرز في شعره أو في قصيده؟! لست أدري، وليس هنالك من سبيل لسؤاله ولقد قضى عليه الأجل، وفي النفس لوعات ولوعات إلى لقائه والتمتع بعلمه الوفير وأدبه الجميل الرائع .. مضى قبل أن نلقاه كما كنا نحب، ولم نستطع وداعه الوداع الأخير لإغترابنا في بلاد الخليج .. وكم نجد في النفس من ذلك من أسى وعبرات، وكم نكابد منها من شوق وصبابات .. كنا نؤجل ذلك اللقاء المرة بعد المرة وكأننا نتصرف في الدهر أو القدر فيا لغرور الإنسان ويا لغرور الحياة الدنيا وما فيها من غفلة ونسيان وما يفعلانه في حياة المرء. حتى يدركه أمر الله وهو في غفلة وتيهان وفي تكاثر وتفاخر وخسران. وصدق المولى عز وجل ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾.

لو إختار عبدالله الطيب مجال الفخر في حياة المتنبيء أو أي من الأغراض الأخرى

كالمديح أو الهجاء أو الحكمة والأمثال أو الغزل والنسيب، لكان ذلك أولى وأجدر . .

وعلى كل حال، فعبدالله الطيب مفتون بأبي الطيب المتنبيء، لا يعالج موضوعاً من مواضيع الشعر أو القوافي أو الأوزان أو البحور إلا واستشهد بأبي الطيب. وأبو الطيب حاضرٌ في كل أجزاء كتابه "المرشد"، ولا تكاد أي صفحة من صفحات ذلك الكتاب الموسوعي تخلو من ذكر لأبي الطيب، أو إستشهاد ببعض أشعاره وقصائده. فتأثر عبدالله الطيب بأبي الطيب المتنبيء لا يقل كثيراً من تأثره بأبي العلاء المعري. . حقيقة القاريء لعبدالله الطيب لا يمكن له إلا أن يتساءل في أحيان كثيرة: هل تأثر عبدالله الطيب أكثر بأبي العلاء، أم بأبي الطيب المتنبيء، . أم بقصائد الجاهليين وبشعرهم؟!

ولكن الشيء المؤكد أنه تأثر بهم جميعاً تأثراً عميقاً. وربما كان تأثره أعمق بالجاهليين لأنهم أصل الشعر العربي ومنبعه الأصيل. والفترة الجاهلية عموماً هي الأكثر غنى بالشعر وهي البيئة التي نشأت فيها بحور الشعر العربي وقوافيه وأوزانه وتفعيلاته: وكل ما فعله الخليل بن أحمد الفراهيدي وغيره من علماء اللغة العربية وأشعار العربية أنهم استنبطوا قواعد وأسس وأنواع تلك البحور والأوزان وقايسوا بينهما وميزوا محاسنها من عيوبها كما فعلوا في خصائص البحور وأوزانها وهكذا وهلم جرا. . ولكنهم بالتأكيد لم ينشئوا شيئاً جديداً. أما في العصور الإسلامية، فربما تأثر عبدالله الطيب أكثر بالمعري من حيث ضجره بالناس وقلة وفائهم وميلهم لإلحاق الأذى بالمتفوقين والنوابغ، حسداً من عند أنفسهم، وتنفيساً لغرائز الشر والأذية في طبائعهم، التي تحاكي طبائع العقارب.

حب الأذية من طباع العقرب.

ولكن عبدالله الطيب معجب جداً بفحولة أبي الطيب المتنبيء الشعرية، ومعجب أكثر بقدرته الفائقة في تفجير القصيد العربي، والتفوق الكبير في نظم الشعر السلس الرصين السامق الجميل، وفي كل أغراض الشعر، خاصة في الفخر والمديح والهجاء وكذلك في الحكم ونشر الأمثال والكلم الجامع إمعاناً في الفصاحة والبيان. وإعجازاً في الأداء اللغوي المتفوق العبقري.

وعبدالله الطيب صريح في تفضيله أبي الطيب على أبي العلاء المعري لقدرة المتنبيء، على الإتيان بالقصيد الرائع المعجز في كل أغراض الشعر التي تطرق لها. . وفي قدرة أبي الطيب على وصف الطبيعة الكونية والطبيعة البشرية سواء بسواء. والمتنبيء بعد ذلك مقاتل جسور وبطل مغوار، لا يشق له غبار، كما أنه شاعر لا يبارى في القول أو القصيد.

المستشرقون يفضلون أبا العلاء على أبي الطيب:

ولقد ساء عبدالله الطيب كثيراً أن المستشرقين – وخاصة المستشرق نيكلسون (Nicklson) يفضلون أبا العلاء على أبي الطيب، من حيث العبقرية الشاعرية ومن حيث الأفكار والآراء والنظريات، وينتصر عبدالله الطيب وينحاز إلى جانب أبي الطيب ويقول إن أبا العلاء نفسه كان أكثر عقلاً وحكمة من أن يدعي التفوق على أبي الطيب، بل كان أبو العلاء يعمد إلى الاقتباس من أبي الطيب كثيراً، كما كان يحاول أن يصل إلى مرتبته باللجوء إلى الأفكار الخيالية العنيفة "مثل رسالة الغفران" والدواوين العويصة (مثل ديوان: "لزوم ما لا يلزم") وكذلك أعمال أخرى عويصة، ضاع أكثرها في معرة النعمان، عندما اجتاحها الصليبيون وغيرهم.

عبدالله الطيب ونيكلسون والمتنبيء:

ومهما يكن من شيء، فعبدالله يستنكر أشد الاستنكار ما ذهب إليه (نيكلسون) من تبخيس لأعمال أبي الطيب المتنبيء وإدعائه أن المتنبيء لم يكن موهوباً ولم يأت بشيء مبدع يمكن أن يرقى إلى مستوى الأعمال الأدبية العالمية الخالدة، كما فعل أبو العلاء الذي وصل القمة العالمية بأعماله الأدبية المبدعة من أمثال "رسالة الغفران" التي أثرت في الآداب العالمية كلها:

يقول نيكلسون عن المتنبيء[1]:

"يقول ابن خلكان (عن المتنبيء): أما شعره فهو في النهاية (يقصد النهاية من الكمال) ولكن الأساتذة الأوربيون [2] باستثناء "فون هامر"، لا يشاركون (ابن خلكان) في هذا الإعجاب المتحمس للمتنبيء بشيء، وتشهد بذلك أقوال (رايسك) و(دي ساسي)، و(بوهلين) و(بروكلمان) وغيرهم في هذا الموضوع!

ولا ريب أن منزلة المتنبيء – بحسب قوانين ذوقنا – دون منزلة مشاهير الجاهليين بكثير.

وينبغي – بالنسبة للعصور المتأخرة أن يُجعل دون أبي نواس، وأبي العتاهية.

إن محبي الشعر، كما يفهم من مدلول هذا اللفظ في أوروبا، لا يمكن أن يجدوا في ما

---

(١) المرشد – الجزء الرابع، القسم الأول، ص ٥٥٣ . طبعة جامعة الخرطوم.

(٢) نيكلسون : تاريخ الأدب العربي، طبعة كمبردج، ترجمة عبدالله الطيب لبعض فقرات نيكلسون التي يذم فيها أبا الطيب ويغض من شأنه ويحط من قدره. ولقد قام الدكتور صفاء خلوصي بترجمة كتاب نيكلسون إلى العربية لاحقاً.

كتبه المتنبيء من لذة أو متعة فنية ، بل على العكس من ذلك فسوف يتقززون من المحاسن التي يزعمها النقاد العرب ، بمثل أو بأكثر مما يتقززون من مساوئه " . إنتهى كلام نيكلسون .

ويرى عبدالله الطيب أن ما قاله نيكلسون حول أبي الطيب وما أطلقه من أحكام هي أشياء لا قيمة لها وباطلة ، ذلك أنه " يجهل معادن أشعار العربية وصحة التذوق لها " ، بل وربما يجهل نيكلسون ، والذين استشهد بهم من المستشرقين ، أصول النقد الأدبي في لغاتهم الأوروبية ؛ فأنى بهم معرفة أصول النقد الأدبي في اللغة العربية وأنى لهم فهم أشعار القوافي وبحور الشعر العربي وأوزانه وتفعيلاته ، ولكنه الإدعاء – من جانب نيكلسون أنه يفهم قواعد النقد العربي أكثر من النقاد العرب فإنهم يرون –أي النقاد العرب – محاسناً في أشعار المتنبيء وقصائده ، يراه نيكلسون مما يثير التقزز أكثر من المعائب التي يرونها !! إدعاء عريض كاذب ومضر ! ولقد فضل نيكلسون وأمثاله أبا العتاهية وقالوا إنه أقرب إلى فصاحة الجاهليين من المتنبيء . . وكانوا من قبل قد فضلوا أبا العلاء ، لأن كلا من أبي العتاهية وأبي العلاء من الذين اتهموا بالإنحراف عن الإسلام . وربما هذا – في رأي عبدالله الطيب – هو الذي قربهم إلى قلوب المستشرقين !! ولكن في الحقيقة – يقول عبدالله الطيب – أن أبا العتاهية أبعد ما يكون من الجاهليين !

ويرى عبدالله الطيب أن جهارة صوت أبي الطيب المتنبيء في مدح الجهاد والمجاهدين ، من أمثال سيف الدولة الحمداني – أمير حلب – وكذلك ذمه للنصارى هو السبب في حقد المستشرقين عليه ونيلهم منه ؛

يقول المتنبيء – في مدح سيف الدولة في جهاده – ضد الروم البيزنطيين :

ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها
ألا يواريهم أرضٌ ولا علمُ

ويقول واصفاً سيف الدولة بالشجاعة و الإقدام :

وقفت و ليس للموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى و هو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

ويقول المتنبيء ، مادحاً سيف الدولة وذاماً المنافقين من المسلمين الذين قعدوا عن الجهاد :

أرى المسلمين مع المشركين

إما لخوف و إما رهب

وأنت مع الله في جانب

قليل الرقاد كثير التعب

كأنك وحدك وحّدته

ودان البرية بابن وأب

ويقول المتنبي، في ذم الروم الذين كانوا يقاتلون سيف الدولة :

ويستنصران الذي يعبدان

وعندهما أنه قد صلب

ليدفع ما ناله عنهما

فيا للرجال لهذا العجب

وكما قلنا أعلاه، فإن عبدالله الطيب مفتتن بمقدرة المتنبي الفائقة في وصف الطبيعة، ولذلك فقد أفرد لذلك كتاباً خاصاً، وهو كتابه المرسوم : (الطبيعة عند المتنبي) . . وها هو يعود إلى هذا الموضوع مرات ومرات في (المرشد) وها هنا يستعرض قصيدة للمتنبي، في وصف الطبيعة – يقول عنها إنها من "القرائد" و يقول إن "كل بيت منها كنز من المعاني والعواطف[1]" وهذه القصيدة هي من القصائد السيارة للمتنبي في وصف (وادي بوان) أو (شعب بوان) و التي مطلعها :

مغاني الشعب طيباً في المغاني

بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها

غريب الوجه واليد واللسان

طبَت* فرساننا و الخيل حتى

خشيت وأن كَرُمْن من الحران

غدونا ننفض الأغصان فيها

على أعرافها مثل الجمان

(١) (المرشد) الجزء الرابع، بالقسم الأول، ص ٥٥٣، طبعة جامعة الخرطوم .

* طبت أي استميلت والحران هو وقوف الخيل فجأة! والشرق يعني الشمس! .

فقمن بما يرد الشمس عني
وجئن من الضياء بما كفاني

وألقى الشرق منها في ثيابي
دنانيراً تفر من البنان

لها ثمرة تشير إليك منها بأشربة
وقفن بلا أواني

وأمواه تصلّ بها حصاها
صليل الحلي في أيدي الغواني

إذا غنى الحمامُ الوُرْقُ فيها
أجابته أغانيٌّ القيان

ومن بالشعب إحوج من حمام
إذا غنى و ناح إلى البيان

وقد يتقارب الوصفان جداً
وموصوفاهما متباعدان

يقول بشعب بوان حصاني
أعن هذا يسار إلى الطعان

أبوكم آدم سن المعاصي
وعلمكم مفارقة الجنان

عبدالله الطيب وأندروا مارفيل وأبو الطيب :

ويرى عبدالله الطيب إن الشاعر الإنجليزي (أندرو مارفيل) والذي كان من أعوان الثائر الإنجليزي (أوليفر كروميل Cromwell)، والذي كان صديقاً للشاعر الإنجليزي (جون ملتون) ممن عُرِفوا بالشعراء الميتافيزيقيين، قد أخذ من نونية أبي الطيب أعلاه وذلك في قصيدته الموسومة :

The Garden or Thoughts in a Garden

وعبدالله الطيب يقول إن سخرية (أندرو مارفيل) من تصب الناس وكدِّهم في سبيل الحصول على شيء من جريد النخيل (وهو رمز النصر في الحياة) أو تعبهم وكدهم في

سبيل الحصول على ورق (البلوط) "وهو رمز الملك والسلطان" أو تعبهم وكدهم في سبيل الحصول على أغصان الغار (وهو رمز الشعراء) ما هو إلا هباء، وسراب وهذا يُذكّر بقول أبي العلاء المعري:

تعبٌ كلها الحياة فما أعجب

إلا من راغب في إزدياد

ويعطي عبدالله الطيب مثالاً آخر لتأثر (أندرو مارفيل) بأبي العلاء المعري، فأندرو مارفيل يقول في القسم الثاني من قصيدته:

The Garden or Thoughts in a Garden

يقول إن الصحبة وخلاط الناس شرٌ يقود إلى غلظ الطباع وفظاظتها ولكن الوحدة فيها نقاء وعذوبة، وهو كقول أبي العلاء المعري:

ذريني وكتبي والرياض ووحدتي

أكون كوحش باحدى الأمالس

يسوف أزهار الربيع تعلةً

ويأمن في البيداء شر المجالس

أما ما أخذه (أندرو مارفيل) من أبي الطيب المتنبيء، فإن عبدالله الطيب يعطي الأمثلة التالية:

* قول (أندرو مارفيل) ما ترجمته (ترجمة عبدالله الطيب) من قصيدته (The garden):

وعناقيد العنب اللّذيذة The luscious cluster of the vine,

تعصر في فمي منها النبيذ Upon my mouth do crush their wine

وضروب من الدرُاق مع الخوخ العجب The nectarine and curious peach

تمدُ بأنفسها إلى يديّ من كثب Into my hands themselves do reach

يقول عبدالله الطيب، أن هذا يذكر بقول المتنبيء (في شعب بوآن):

لها ثمرة تشير إليك منه

بأشربة وقفن بلا أواني

* وقول (أندرو مارفيل) في قصيدته "الحديقة":

هكذا كانت تلك الجنة من بهجة Such was that happy Garden-state

إذ كان آدم يهيم فيها بلا زوجة while man there walked without a mate

وبعد هذا المكان الحلو الصافي After a place so pure and sweat
ماذا يراد أن يفي من اسعاف What other help could yet be meet
كلف فوق وسعه أبن آدم الضعيف But it was beyond a mortal's share
أن يكون وحده هنالك يُطيف To wander solitary there
وإذن لأصاب جنتين في جنة Two paradises it were in one
ولو بقى في الفردوس بلا كنّة To live in Paradise alone

والكنة أو (الجنّة) هي الزوجة :
يقول عبدالله الطيب أن أبيات (أندرو مارفيل) أعلاه تذكر بأبيات المتنبيء :

يقـــول بشـــعب بوآن حـــصـــاني
أعـن هـذا يُـســـار إلـى الطعـــان
أبـوكـم آدم سـن المـعـــــاصـي
وعـلـمكـم مـــفـــــارقـــة الجنان

يقول عبدالله الطيب إن مطلع قصيدة (أندرو مارفيل) ما ترجمته :
ما أعجب هذه الحياة التي أحياها :
What wondrous life is this I lead!
تذكّر بشدة بمطلع قصيدة المتنبيء، في وصف شعيب (بوآن) :

مـغـاني الشّـعب طيـبـاً في المغـاني
بمـنـزلـة الـربيـع من الـزمـــان
مـــلاعب جنة لو ســـار فــيـــهــا
سليـــمـــان لســار بتـــرجـــمـــان
ولكن الفـــتى العـــربي فـــيـــهـــا
غـــريب الوجـــه واليـــد واللســـان
طبت فـــرســـانُنا والخـــيلُ حـــتى
خـــشـــيتُ وإن كـــرُمن من الحـــران

فالمتنبيء يتعجب كثيراً من حسن هذا الشّعب ومن غرابته حتى أن سليمان نفسه لو رآه لاحتاج إلى ترجمان ليفهم طلاسمه وغرائبه وبديع حسنه ودقة أسراره وغموضها!

مهما يكن من شيء، فعبدالله الطيب، لا يكاد يتعب أو يصيبه الونى من متابعة ما يظن أن شعراء الإنجليز قد أخذوا أو حتى سرقوا من الشعر العربي، وخاصة في وصف الطبيعة، ولقد علق على الكثيرين منهم، ولا شك أن الشعر الإنجليزي قد تأثر كثيراً - في مجال الغزل ومجال وصف الطبيعة، بالشعر العربي. ولكني أظن أنه من المبالغة غير المعقولة أن تقول أنه أخذ كل شيء من الشعر العربي، ولا أظن أن عبدالله الطيب يريد أن يقول ذلك. وحسب عبدالله الطيب أنه لفت النظر إلى اقتباسات الشعراء الإنجليز من الرؤى والأخيلة والرموز العربية وما أكثرها وما أوسعها في هذا اللسان العربي المبين!

عبدالله الطيب والمتنبئ:

لا شك أن عبدالله الطيب قد تأثر بأبي الطيب المتنبيء كثيراً، لأن هنالك قواسم كثيرة مشتركة، وهنالك شمائل وخطوط نفسية وذهنية ووجدانية كثيرة يشتركان فيها، كما أن حياتهما تتقاطع في دروب كثيرة:

فالمتنبيء - أغلب الظن - ينحدر من سلالة علوية هاشمية عريقة طيبة، وأنه كان قد أخفى نسبه خوفاً على نفسه من القتك والهلاك، لأن العلويين كانوا مستهدفين من جهات كثيرة، ومن الأمراء لأنهم كانوا أصحاب دعوة تنشد إصلاح المسلمين وتوقير آل البيت، عترة رسول الله عليه وسلم، وهذا بالطبع يجعلهم طلاب سلطة سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه - رغبوا فيه أو رغبوا عنه، فالجماهير التي تحبهم من الشيعة تريد أن تراهم خلفاء وأمراء. ومن هو أجدر منهم بالخلافة، ومن أحق منهم بالملك والإمارة، فيهم أولياء الأمر وسادة المسلمين. ولهذا السبب أخفى المتنبيء نسبه الحقيقي، ولكنه كنى نفسه (بأبي الطيب) لأن الصفة الغالبة على آل البيت أنهم طيبون طاهرون وأن طيبة النفوس والأخلاق هي شيمة عالية عندهم، دالة على كريم مجدهم ونبيل أعراقهم وشخصية المتنبيء قد تشكلت من زمن نعومة أظفاره على أنه "صاحب حق" سلب منه وأنه يستوجب عليه المطالبة بذلك الحق، والثورة من أجل نيله والظفر به. وقد أعانه على ذلك نفس بعيدة الهم، عالية المطالب والمرامي. لا يكاد طموحها يعرف حداً أو منتهى ينتهي إليه.. كما كان شجاع القلب، فارساً مغواراً وبطلاً همام، شاعراً خطيباً بليغاً لا ترهبه الأعداء ولا البيداء ولا الظلام أو الليل أو الغول والجن.

فلذلك ولد أبو الطيب شاعراً، ذا صفات كثيرة، ومن أهمها أن يدرك الملك ويصبر

أميراً كما يهوى وسيداً مطاعاً كما يحب ويتمنى . ولذلك سافر وغامر وقاتل بالكلمة وبالسيف والرمح والسنان ، كما كان لا يتهيب إلى مكان نائي وصعب إذا كان ذاك المكان مظنة أن يلاقي فيه ما يشتهي من الآمال والأماني .

من ذلك سيره أولاً إلى سيف الدولة الحمداني ، أمير حلب ومكثُه عنده لسبع سنوات ماجدة مضيئة كانت أوج حياته وأسعد فترات زمانه وفيها أنشأ أعظم قصائده وأغانيه وغنى للمجد والشرف والجهاد ، كما لم يغني قط في أي زمان سابق لذلك أو لاحق له ، ولا عجب في ذلك فسيف الدولة كان يجسد كل ما يتوق إليه أبو الطيب بل كان يجسد جل أمانيه في الحياة وجل ما كان يطمح إليه من أفكار ورؤى وأمانيٌ عذاب . وهو العربي صليبة ، والعلوي عرقاً وسلالة والبطل المسلم الذي تصدى للروم وصدهم عن النيل من بلاد العرب والمسلمين أو التغلب عليهم ، وسوقهم الذل أو الخضوع . وهيهات هيهات لهم ذلك وسيف الدولة رابض لهم رباض الأسد ، مخادع لهم خداع الثعلب . يحب الموت أكثر من حب الروم الحياة ، فجاهد في الله ، لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً وإنما لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الطاغوت هي السفلى ، ولذلك جسّد سيف الدولة معاني الحياة والشرف الرفيع التي كانت تحدو المتنبيء "منذ ميلاده في الكوفة ، والتي من أجلها جابت به وجناء حرف ، وجرداء قيدود ' :

عـيـد بأية حـال عـدت يا عـيـد
بما مـضى أم لأمـر فـيك تجـديدُ

أمـا الأحـبـة فـالبـيـداء دونهم
فليت دونك بيـداً دونهـا بيـد

لو لا العـلا لم تجـد بن مـا أجـوب
بهـا وجناء حـرف ولا جـرداء قـيدودُ

وكـان أطيب من سـيـفي مـعـانقـة
أشـبـاه رونقـه الغـيـد الأمـاليـدُ

لم يتـرك الدهرُ من قلبي ولا كـبـدي
شـيـئـاً تتـيـمـه عين ولا جـيـد

مـاذا لقـيت من الدنيـا وأعـجـبـه
أني بما أنا شـاك منه مـحـسـود

أمسيت أروح مثرٍ خازناً ويداً
أنا الغني وأموالي المواعيد
إني نزلت بكذابين ضيفهم
عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم
من اللسان فلا كانوا ولا الجود

لقد انتهى به سعيه وتطلعه وثورته إلى نهاية مأساوية : أسيراً محروماً من النوال ومن حرية الحركة عند حاكم مصر كافور الاخشيدي، ذي الأصول الزنجوية الذي اغتصب الخلافة في مصر اغتصاباً وصار إماماً للمسلمين والعلويين ومنهم المتنبيء، أصفار اليدين فيها غرباء الوجه واليد واللسان غير أن المتنبيء هنا يفتضح عن عنصرية بغيضة قد حرمها الإسلام وحرمها رسول الإسلام الذي إليه ينتسبون وتحت راية الأشراف التي ورثوها – كونهم عترة رسول الله وأهله المقربين – وتحتها يقاتلون من أجل الخلافة ولكن رسول الإسلام قد أدان العنصرية والعنجهية وأدان الإستعلاء بالأهل والأجداد والآباء :

أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه فله في مصر تمهيد
صار الخصي أمام الآبقين بها
فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها
فقد بشمن وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ
لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيدُ

هذه العنصرية البغيضة مما ينقص من مكانة المتنبيء، ويسيء إلى نسبه الشريف إن صح إدعاؤه بأنه علوي النسب هاشمي الميلاد، وإن كان بعض حساده قد أنكر عليه ذلك، بل أنكر عليه أبو فراس الحمداني إنتماءه إلى قبيلة كندة الحضرمية فكان يعيّره بـ "دعيّ كندة" .

والصحيح أن أبا الطيب لم يدع الانتماء إلى كندة، ولكنه ولُد في حي كندة بالكوفة . . وكان أغلب أهل ذلك الحي من قبيلة كندة، الذين هاجروا إلى الكوفة بعد الفتح، إذ كانوا من المجاهدين الذين استقروا في العراق وأنشأوا الكوفة "والبصرة"

ولقد كانت الفترة التي صَحب فيها أبو الطيب الأمير سيف الدولة من أزهى أيامه وأغناها وأكثرها مجداً ونضالاً وعبقرية. فيها تفجّرت شاعريته بالقريض العبقري البديع الذي سار سير الشموس ويبقى بقاء الدهر، وأطرب الناس، كما أطرب العيس والجبال والخليقة كلها. فقد كان أروع الشعر، لم نسمع مثله منذ أيام عنترة بن شداد وأمرىء القيس:

- ثماني وثلاثين قصيدة،
- واحدى وثلاثين قطعة
- وأجزاء في مجموعها تبلغ ألفاً وخمسمائة واثنتي عشر بيتاً[1]:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغني مغرداً
أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما
بشعري أتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

ولقد اشترط المتنبي، على سيف الدولة شروطاً في سير المحبة والصحبة بينهما:

١- أن يمدحه - حين يمدحه بالقصائد - وهو جالس،
٢- أن لا يطلب منه الوقوف ولا الإنحناءة أمامه - ناهيك عن تقبيل الأرض بين يديه، إن كان البعض يفعل ذلك فعلاً (والواحد يشك في ذلك)،
٣- أن يكف عنه أذى العواذل والحساد، وما أكثرهم وعلى رأسهم ابن عم سيف الدولة أبي فراس الحمداني.

---

(١) د. ناجي علوش: أبو الطيب المتنبيء، دراسة في هويته وشعره، الرواد للنشر والتوزيع - بيروت ١٩٩٣.

وبالرغم من كل ذلك، وبعد كل ذلك المجد والثناء والضياء، انتهت تلك الفترة الزاهية في حياة الرجلين، الأمير والشاعر، نهاية مأساوية، سار بذكرها السيارة وأصبحت أحاديث للعاكف والبادئ في بلاط سيف الدولة وكل أرجاء العالم الإسلامي، منذ ذلك اليوم وحتى الآن.

ذلك الفراق المأساوي الذي خلده أبو الطيب بقصيدة فريدة رائعة هي قمة القمم في القصيد والبيان والقوافي، وهي أيضا مبلغ النهاية في الصبابة والشكوى والألم وغاية الأسى الذي يصيب الحبيب عند اضطراره لمفارقة من يحب وهو اشد ما يكون كراهة لذلك الفراق:

١- واحـــر قلبـــاه ممن قلبـــه شـــبم
ومن بجـــسـمي وحـــالي عنده سـقمُ

٢- مـالي أكتّمُ حـبـا قد برى جـسـدي
وتـدعـي حـب ســـيـف الـدولـة الأممُ

٣- إن كـــان يجـــمـــعنا حبٌ لغـــرته
فليت أنا بقـــدر الحب نقـــتـــسمُ

٤- قـد زرته وسـيـوف الهند مـغـمـدة
وقـــد نظرت إليـــه والســـيـــوف دم

٥- فكان أحـــسـن خلق الله كلهم
وكـان أحـسن مـا في الأحـسن الشـيمُ

والتي يقول فيها أيضا:

يا أعـــدل الناس إلا في مـــعـــاملتي
فـيك الخـصـام وأنت الخـصم والحكمُ

أعـــيـــذها نظرات منك صـــادقـــة
إن تحـسب الشـحم فـمن شـحـمـه ورمُ

ومـــا إنتـــفـــاع أخي الدنيـــا بناظره
إذا اســـتـــوت عنده الأنوار والظلمُ

أنـا الـذي نـظـر الأعـــمـى إلى أدبي
وأســـمـعت كلمـــاتي من به صـممُ

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

وجاهل مده في جهله ضحكي
حتى أتته يد فراسة وفم

إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والحرب والضرب والقرطاس والقلم[1]

يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيء بعدكم عدم

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
لو أن أمرنا من أمركم أمم

إن كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وبيننا - لو رعيتم ذاك - معرفة
إن المعارف في أهل النهى ذمم

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
أنا الثريا وذان الشيب والهرم

ليت الغمام الذي عندي صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الديم

ويستمر أبو الطيب في هذا النشيد الفريد الرائع، الذي كله صبابة وشكوى وعتاب على مضض أليم، ويذكر أنه لا بد مل ليس منه بدٌّ، وأنه مضطر إلى فراق سيف الدولة والرحيل

(١) هذه رواية الواحدي، ولكن هذا البيت روي أيضاً :
فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح القرطاس والقلم .

بعيداً عنه إلى مصر، بالرغم من حبه المقيم في سويداء الفؤاد لصديقه الأمير النابهة، وأنه لا يريد حقيقة فراقه، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السُفُن، ومكره أخاك لا بطل، كما يقول المثل:

أرى النَّوى تقتضيني كل مرحلة
لا تستقلُ بها الوخادة الرُسُمُ

لئن تركن ضميراً عن ميامننا
ليحدثن لمن ودعتهم ندمُ

إذا ترحلت عم قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

شر البلاء مكان لا صديق به
وشر ُما يكسب الإنسان ما يصمُ

وشر ما قنصته راحتي قنصٌ
شهب البزاةُ سواء فيه والرخَم

بأي لفظ تقول الشعر زعنفةٌ
يجوز عندك لا عُرب ولا عجم

هذا عتابك إلا أنه مقة
قد ضمن الدرّ إلا أنه كلمُ

لقد أحدثت هذه القصيدة (واحر قلباه) عند إلقائها - أمام سيف الدولة ومجلسه العامر بالشعراء والأدباء والنقاد والعلماء - ضجة هائلة، خصوصاً عندما قال البيت:

مالي أكتم حبا قد برى جسدي
وتدعي حب سيف الدولة الأمم

وهاج المجلس وارتج ما بين مادح معجب وقادح مُغضبٌ، وخاصة أبي فراس الحمداني - ابن عم سيف الدولة والمنافس الرئيس للمتنبيء على وجه سيف الدولة.

ويقال أن لتلك الصلة القريبة بين الرجلين سيف الدولة والمتنبيء وتلك المحبة العميقة أسرار منها:

١- أن سيف الدولة - العلوي النسب، كان وحده يعلم أن أبا الطيب علوي النسب وأنه من سلالة أحد أئمة الشيعة العلويين.

٢- وكأنه كان يقدر أن أبا الطيب قد لجأ إليه من بين أمراء الأنحاء والأمصار وأنه قد استجار به وأنه كان يعرف أن حياة أبي الطيب مهددة إذا فارقه.

٣- كان يقدر تقديراً فائقاً عبقرية أبي الطيب الشاعرية وفحولته في القصيد وفي القول، وأنه شاعر فارس مغوار.

٤- كان يحتاجه ليخلد مسيرته في الحكم وفي الجهاد وليعلي من شأن الإمارة الحمدانية العلوية في حلب.

٥- كان يحتاجه كداعية فعال، وكلسان حال مسموع مؤثر، لحشد الناس باستمرار لقتال الروم وجهادهم، ولتعبئة الناس والمسلمين للاستعداد والاستنفار الدائم لجهاد عدو خطر متربص، وكان الروم هم الخطر الماثل والتحدي الأول للدولة ولسيف الدولة.

٦- كان يعلم أن المتنبيء يحبه حبا صادقا لأن الرجلين يتشابهان كثيراً في الشخصية وفي الرؤية الفلسفية والسياسية جميعاً وكانا يشتركان في أيدولوجية واحدة، مفادتها وجوب نصرة الدولة العلوية العربية على إمارات الخدم والعجم وضد تيار الشعوبية والباطنية القرمطية الشاطحة المتطرفة.

٧- وأخيراً وليس آخراً، كان سيف الدولة يريد - ولكنه لا يستطيع - أن يمنح أبا الطيب إمارة فرعية ولا يستطيع أن يوليه على ناحية من نواحي الولاية لأنه كان أعرف الناس بقدرات أبي الطيب الحقيقية، خاصة طموحه الذي لا يعرف الحدود، وكذلك اقدامه وجسارته التي لا تخاف شيئا.. فهو قد ادعى النبوة وهو صغير مغمور - فقير لا حول له ولا قوة، فكيف إذا أصبح أميراً أو والياً؟! ومن هنا كانت الدراما التي انتهت بفراق الرجلين وذهاب أبي الطيب إلى كافور الإخشيدي والي مصر. لان الدراما والتي غالباً ما تنتهي إلى مأساة هي التي تحمل في طياتها اشكالات غير قابلة للحل أو الخلاص منها!!

وفي القصيدة، كما نرى، تعريضاً ببعض الناس من حاشية سيف الدولة وخاصة الذين عناهم بالتخلف عن المسير إلى الجهاد مع سيف الدولة والذين عناهم بقوله:

"وســيــوف الهند مــغــمــدة"

والذين عزا إليهم بعض الهزائم التي تعرض لها سيف، وهي إشارته:

"وقــد نظرت إليــه والسـيــوف دمٌ"

فقام هؤلاء إليه وهموا بالفتك به وهو في مجلس سيف الدولة إلا أن الأمير أسكتهم وأوقفهم:

وعندما قال:

أعيـــذها نظرات منك صـــادقـــة

ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

نهض إليه ابو فراس، شاتماً اياه، قائلاً:

"من أنت يا دعي كندة حتى تأخذ أعراض الأمير في مجلسه".

يقصد نفسه لأنه من خاصة الأمير. وحقيقة لقد تجنى عليه المتنبيء لان أبو فراس كان شاعراً كبيراً فذاً، لا يقل كثيراً عن المتنبيء "شحمه لم يكن ورماً" في يوم من الأيام. وهو الفارس المغوار أيضاً كالمتنبيء تماما وهو الذي يتغنى الناس بشعره من اليوم:

أراك عـصي الدمع شـيـمـتك الصـبـر

أمـــا للهـــوى نهي عليك ولا أمـــرُ

بلى أنا مـــشـــتـــاق وعندي لوعـــة

ولكن مـــــثلي لا يذاع له ســـــرُ

إذا الليل أضـــواني بسطت يد الهـــوى

وأذللت دمـــعـــاً من خـــلائقـــه الكبـــرُ

مـــــعـللـتي بالوصـل والموت دونـه

إذا مت ظمـــــآن فـــــلا نزل القـطر

ولقد أخذ على أبي فراس هذا البيت الأخير، وتقارن الناس بين هذا البيت وبيت أبي العلاء المعري:

فـــــــلا نـزلـت بـي ولا بـأهـلـي

ســـحـــائب ليس تنتظمُ البـــلاد

ولكن أعظم شعر أبي فراس، مثله في ذلك مثل المتنبيء: هو شعره وقصيدته في الفخر وفي الجهاد، خاصة الروميات:

ســيــذكــرني قــومي إذا جــد جــدهم

وفي الليلة الظلمـــاء يفــتــقــد البــدر

فإن عشت فالطعن الذي يعرفونه

وتلك القنا والبيض والضُمُر الشُقر

وإن مت فالإنسان لا بد ميت

وإن طالت الأيام وانفسح العمر

ثم يقول مفتخراً بنفسه وبقومه :

ونحن أناس لا توسط بيننا

لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ

تهون علينا في المعالي نفوسنا

ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

أعز بني الدنيا وأعلى ذوي العلا

وأكرم من فوق التراب ولا فخر

وبكل المقاييس، كانت "واحر قلباه" قصيدة فريدة ولكنها أيضا مجلجلة مزلزلة. وقد بالغ المتنبيء في مدح نفسه والفخر بمقامه، ولكنه يريد أن يقول أنه شاعر خالد، سوف تبقى آثاره على مر الأيام .

وما سيف الدولة إلا أمير من جملة الأمراء وأنه سوف ينساه الناس والتاريخ، غير أن الشعراء المبدعين - كنفسه - خالدين على الأيام باقون ما بقي الدهر. ومن ذلك بيته الغريب[1] :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا

بأنني خير من تسعى به قدم

هذا البيت حذفه (الواحدي) من ديوان المتنبيء الذي حققه وشرحه وأنا أرجح أن يكون (الواحدي) محقاً! فكيف يجوز لشاعر فطن أريب أن يمدح أميراً. ثم يقول أمامه أنه أفضل منه!

ولكن بالرغم من ذلك، فإن القصيدة حوت فخراً عظيما بالشاعر ومكانته وذماً واضحاً لأفراد كبار ذي شأن في بطانة سيف الدولة ومن خاصته، وبالذات أبي فراس الحمداني -

(١) هذا البيت أورده المستشرق (ريجيس بلاشير) في كتابه "ابو الطيب المتنبيء دراسة في الأدب العربي" ترجمه د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر - دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٥ غير ان (الواحدي) لم يذكره في تحقيقه لديوان المتنبيء .

ابن عم الأمير - وكذلك قادة الجند وبعض الأمراء الكبار الذين تخلفوا عن الزحف في بعض المواقع.

كذلك حوت القصيدة تهديداً واضحاً لسيف الدولة بأنه ينوي - إذا لم تُصلح الأمور ويكفُ الحساد والعواذل - عن أذاه وأهم من ذلك - إذا لم ينل ما يستحقه من تقليد الوزارة والإمارة فإنه سوف يذهب إلى كافور الاخشيدي في مصر وقد كان كافور العدو الأول للدولة الحمدانية في حلب والاشارة واضحة في كلماته:

" لئن تركن ضميراً" وهذا جبل يكون على يمين السائر إلى مصر من الشام"

لئن تركن ضُميراً عن ميامننا
ليحدثن لمن ودعتهم ندمُ

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

شر البلاد مكانٌ لا صديق به
وشر ما يكتسب الإنسان ما يصمُ

غير انه يقول - في صبابة واضحة وأسى عظيم وأسف أكبر بأنه ما زال يحبُ سيف الدولة ولا يريد فراقه، وأن حياته كلها ووجوده كله، وبدون سيف الدولة فالدنيا كلها عدم:

يا من يعز علينا أن نفارقهم
وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

إن كان سركُم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وكأنه هنا يعاتب سيف الدولة عتابا قاسياً وأليما وهو يستنكر سكوته على أذى العواذل والحساد وما يعيّرونه به من أنه "دعي كندة" وأنه متنبيء كذّاب، وهو - من دون الناس كلهم - يعلم نسبه العلوي الشريف، ويعلم مدى ما يكنه له المتنبيء من محبة ومن مقة (أي حب دفين) عبّر عنه في البيت الأخير:

هذا عتابك إلا أنه مِقة
قد ضمن الدهر إلا أنه كلم

وبالرغم من هذه القصيدة وقوة موسيقاها التي تهز الجبال وبرغم حرارة العاطفة المشبوبة

فيها التي تكاد تذيب جبال الجليد، إلا أن سيف الدولة ظل صامتاً ولم يقل شيئاً ولم يفعل شيئا. وربما كان سبب بطء ردة فعل سيف الدولة، أنه كان غير راض - بعض الشيء، أو قل كان مستاءً بعض الشيء، من إفراط المتنبيء في مدح نفسه والفخر بمكانته أمام سيف الدولة، وأمام الحاشية والبطانة بكامل هيئتها وفيهم من كان يكره أبا الطيب المتنبيء ويحسده على مكانته عند سيف الدولة خصوصا إذا صحت الرواية التي تتضمن البيت الذي حذفه (الواحدي) وأورده (بلاشير):

سـيـعلم الجـمع ممن ضم مجلسنا

بأنني خـيـر من يسـعى على قـدم

كذلك، فإن للمرء أن يتصور أن الأمراء والحكام لا يصلح معهم التهديد والوعيد، ولا يرغبون في معاون أو مستشار يخطف الأضواء منهم أو يبزهم في أي شأن من شؤون الحياة أو السياسة أو الشخصية. ولكن المتنبيء يبالغ بالافتخار والاعتزاز بنفسه أمام الأمير، بل وبعض الأبيات فيها تعريض خفي بسيف الدولة نفسه، وبتصرفاته ومعاملته - غير الكريمة في بعض الأحيان - بالشاعر الذي يحبه ويعلي من شأنه ومن شأن إمارته في كل الأحوال ويدافع عنه وهو مستعد لفدائه بكل شيء.

ومـا انتـفـاع أخي الدنيـا بناظره

إذا اسـتـوت عنده الأنوار والظلمُ

وقوله:

إذا رأيت نـيـوب الـليث بارزة

فـلا تظنن أن الليث يبـتـسـمُ

وكأنه يريد أن يقول غير راض بما يقول الحساد وبما يفعلونه وغير راض عن سكوت سيف الدولة وإغضاضه عن أعمالهم وأفعالهم التي تؤذيه كثيرا.

ثم قوله:

مـا كـان أخلقنا منكم بتكرِمـة

لو أن أمـرنـا مـن أمـركـم أممُ

فكأنه يريد أن يقول أن أمره وخاطره لم يعد يهم الأمير كثيراً ولم يعد يعبأ به ولا بما يصيبه من شرور وأذى على أيدي أولئك الحُساد اللئام، الذين يختفون تحت سلطان سيف الدولة ويستترون وراء حجابه وسطوته.

وكذلك بيته الذي يقول فيه أن سيف الدولة لم يعد يراعي المعرفة والمودة التي تربطه - منذ سنوات - بالشاعر المبدع أبي الطيب المتنبيء ويذكره بأن "المعارف عند أهل النهى ذمم" ! وهو تذكير ثقيل وغير دبلوماسي إذا كان المخاطب من أهل السلطان والإمارة، فلا يجوز ولا يقبل أن يخاطبوا بتلك اللهجة المتعالية التي لا تخلو من جفوة أو غلظة.

بل إن مطلع البيت نفسه بيت غير مناسب وفيه اتهام واضح بأن قلب سيف الدولة أصبح بارداً أو غير مكترث بالأصدقاء

واحـــر قلبـــاه مم قلبـــه شـــبم

ومن بجســمي وحــالي عنده ســقمُ

فلئن صبر أبو الطيب على حرمانه من الوزارة ومن الإمارة وسيف الدولة ما زال يستبقيه ويعده خيراً، فليس بمستطيع - بعد ذلك اليوم - أن يصبر على استمرار الحساد والعواذل يكيدون له كيداً، وسيف الدولة صامت لم يفعل شيئاً ليكبتهم أو ليردعهم بعض الردع عن الاستمرار في الإساءة إليه وإلحاق الأذى به وإشانة سمعته وهو الرجل الكريم والفارس المغوار الذي تعرفه الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقلم والكتابة وإنشاد الشعر الرفيع الرائع الفريد:

غــيــر أن الفــتى يلاقي المنايا

كــالحــات ولا يلاقي الهــوانا

ثم انتظر أبو الطيب المتنبيء صدى قصيدته الأخيرة لسيف الدولة، قصيدته التي تُشبه الانذار الأخير "واحر قلباه" والتي أفرغ فيها كل ما في جُعبته ولم يستبق شيئاً، وقال أحر ألحان محبته ومعزته لحبيبه وصفيه وراعيه ونسيبه العلوي النسب، ذي الجاه والسلطان والدولة والصولجان. ولكن ذلك الصدى لم يأت أبداً فلا صوت ولا صدى صوت، فحزم ركابه وحقائبه ورحل بليل بطريق غير معروف.. وهو الفارس الذي لا يخشى الرحلة ولا الوحدة في السفر ولا مخاطره، فهو يدافع عن نفسه بالسيف والرمح ولا يهاب شيئا:

فــالخــيل والليل والبــيــداء تعــرفني

والســيفُ والرمْح والقــرطاس والقلَمُ

رحل المتنبي عن سيف الدولة وهو مقيم على حبه وعلى إعزازه له ويراه أحسن الناس.. بل هو يراه كل عيشه وكل وجدانه:

يا من يعـــز علينا أن نفـــارقــــهم

وجـــدانـنا كل شيء بعــــدكم عـــدمُ

ولقد أخطأ المتنبي خطأً فاحشاً، وقدّر تقديراً بالغ السوء والغلط أن يفارق سيف الدولة وينحاز إلى عدوه كافور الاخشيدي الذي لم يكن يكن لأبي الطيب أي مودة. . بل ربما كان يكرهه لما عُرف عن أبي الطيب من عنجهية وعنصرية واستعلاء على كل من لم يكن عربياً علوياً من آل البيت، فكيف بكافور ذي الأصول الزنجية والذي كان عبداً مملوكاً في يوم من الأيام!

ولذلك لم تمض سنوات قليلة له بمصر في بلاط كافور إلا وقد تكشف له خطأ حساباته وأنه ارتكب خطأً جسيماً، وارتكب حماقة العمر التي لا شيء يمكن أن يقيل عثاره فيها وكان ذهابه إلى مصر وهدة حياته! إلا ما بعدها وهدة غير اغتياله بواسطة (فاتك) عندما هرب من مصر أخيراً وذهب إلى بغداد والكوفة سراً.

فلقد كانت فكرته في الذهاب إلى مصر والانحياز إلى (كافور) الأخشيدي هي - كما يقول الخواجات:

The Anti Climax of his life

وعبر عن تلك الخيبة الماحقة في قصائد هي الأكثر ايقاعاً ورونقا، وأسى وحزناً، في كل قصائده.

ومن تلك القصائد الرائعة، ذات الإيقاع الحزين المرير الرائع الذي ملؤها الأسى والندم والشوق والصبابة، قصيدته التي مطلعها:

عـيــد بأية حــال عـدت يا عـيــد

بما مـضى أم لأمــر فـيك تجـديد

وفيها يعبر عن أشواقه ومرارته وهو شبه سجين في مصر لا هو حقق شيئا من أهدافه وآماله ولا هو حر طليق في تصرفاته، فقد منعه "كافور الأخشيدي" من السفر ولم يعطه شيئا؛

لا خـيل عندك تُهـديها ولا مـال

فليـسعد النطق إن لم يُسعد الحـالُ

يقول أبو الطيب في تلك القصيدة الرائعة:

أمـا الأحـبــة فـالبـيـداءُ دونهم

فليت دونك بيــدٌ دونهــا بيــدُ

عبدالله الطيب ونيكلسون والمتنبيء (عودة):

لقد حاول نيكلسون ومن لف لفه من المستشرقين - في رأي عبدالله الطيب - حاولوا أن يغتالوا شخصية المتنبيء الأدبية، كونه الأكثر استمساكاً بالهوية العربية الإسلامية والأكثر اعتزازاً بالقيم العربية الأصيلة.

وهنالك سبب آخر للغيظ الواضح في لهجة نيكلسون ضد المتنبيء - حتى أن محاسنه (أي المتنبيء) تثير التقزز عند نيكلسون ومن شايعه من المستشرقين؛ ذلك السبب هو أن المتنبيء هو الأعلى صوتاً في الدعوة إلى الجهاد ضد الروم، الذين كانوا يهددون الثغور الشمالية للدول الإسلامية أو قل الدويلات الإسلامية وما تبقى من الخلافة العباسية في بغداد. ممثلة في إمارة الحمدانيين في حلب بقيادة أميرها النابهة سيف الدولة الحمداني. والحقيقة التاريخية الثابتة هي أن الروم كانوا - ومن أيام الجاهلية - لا يحبون أن يروا العرب إلا عملاء وأتباع مستضعفين تحت سلطانهم.. وقد غزوا تلك البلاد - الشام الكبرى، بما في ذلك فلسطين وحتى مصر وشمال أفريقيا، وبسطوا سلطانهم وحضارتهم عليها وكان سلطانهم قمعياً وتسلطياً لأبعد الحدود. وعندما جاء الإسلام ثارت تلك الشعوب المستعبدة ضد سلطان الروم، ودخلت - في كثير من الأحيان - طايعة تحت سلطان الدولة الإسلامية، ودخل معظم سكان تلك البقاع إلى الإسلام - أيضاً طواعية إذ أن الإسلام ما كان ليجبر أحداً للدخول فيه، لأن القرآن ينص صراحة: "لا إكراه في الدين"!

مهما يكن من شيء، فقد انتهزت الروم سانحة ضعف دولة الخلافة العباسية وتضعضع المسلمين وانقسامهم إلى دويلات - انتهزوا تلك الفرصة وحاولوا بسط سلطانهم مرة أخرى على الشام. ولكن سيف الدولة الحمداني كان لهم بالمرصاد. وكان المتنبيء جهيراً جداً في مؤازرة جهود سيف الدولة في تعبئة المسلمين للجهاد ضد الروم وضد عدوانهم في الثغور الشمالية، مما يلي إمارة الحمدانيين وعاصمتها "حلب" الغراء، أدام الله عزها وأمنها!

هنا جاءت محاولة نيكلسون ومن لف لفه للإغضاء من شأن المتنبيء وزعمهم أنه في أحسن أحواله يثير تقززهم ويصيبهم بالغثيان. وهذا السلوك هو في الواقع ديدن معظم المستشرقين، وإن كانت قلة منهم قد أظهرت الانصاف والتقدير لرموز الثقافة العربية الإسلامية.

١ - فمنتجمري واط - المستشرق البريطاني - الأسكتلندي الأصل برغم محاولاته الظهور بالعدالة والنزاهة والانصاف . إنتهى في مؤلفاته الغزيرة إلى اتهام الرسول، صلى الله عليه وسلم بانه نبي زائف ودَعيّ (Imposter) وأنه وإن كان صادقاً في دعواه النبوة إلا أنه كان أسيراً لأوهامه وخيالاته ووسوساته أنه يسمع أصوات الوحي . فهو صادق ولكنه مهلوس أو أسير للهلوسة .

٢ - ولقد حاول (آرنست رينان) وتلميذه (ماسينون) الفرنسيان اتهام الأمة العربية كلها بأنها تعاني من إعاقة عقلية بالطبيعة والجبلة، وإنها لا تملك القدرة على التفكير الحر الخلاق؛ خاصة التفكير النقدي التحليلي وأقصى ما تستطيعه الذهنية العربية المتحجرة هو الحفظ والغناء بالمحفوظات، كما فعل الشعراء الجاهليون جميعا .

وإنطلاقاً من هذه النظرية المريضة بالأوهام والعنصرية الأوربية الكلاسيكية، حاول (آرنست رينان) وتلاميذه الأغضاء من شأن الفلاسفة العرب العمالقة الذين كانوا أساتذة أوروبا، منذ الغزو الإسلامي لإسبانيا وغيرها من أصقاع أوروبا .

* فالكندي والفارابي ناقلان ومترجمان ليس إلا .
* وابن سينا مجرد منسق للفلسفة اليونانية ومعلق عليها .
* والغزالي قد دمر الفلسفة والفكر الحر وأشاع نزعة دوقمائية تعسفية، مليئة بالأوهام والغيبيات، وضد المنهج العلمي وعماده السببية التي انكرها الغزالي - فيما زعموا .
* وابن رشد مجرد (شارح كبير) لأرسطو وهكذا وهلم جرا، حتى أنه لم ينج أحد من فلاسفة العرب والإسلام من غمزهم ولمزهم ومحاولة إغتيالهم أدبياً وفكرياً - كما فعلوا مع المتنبيء، حتى زعموا أن أبا العتاهية، وأن أبا العلاء المعري هم أعظم عبقرية منه؛ وأكثر شاعرية وإبداعاً ولكن - ومهما يكن من أمر المستشرقين - فإن اعجابنا بتلك الرموز العمالقة في الثقافة العربية لا يمنعنا أن نكون موضوعيين في تقويمهم، ولا يدفعنا إلى التردد في توجيه النقد الإيجابي لأعمالهم الخالدة أو حتى لأفكارهم وقناعاتهم حين تؤدي تلك القناعات إلى مواقف فكرية نراها خاطئة وغير مشرفة . ولكننا بالطبع لا نفعل ذلك بصورة منهجية ومنسجمة هنا لأن هذه الدراسة، بطبيعة مجالها - لا تسمح بالتوسع في هذا النقد والتمحيص! ولكننا نعلق عرضا على بعض اتجاهات أولئك العظماء وبعض أفكارهم الخاطئة والتي لا تسموا إلى مجمل أفكارهم أو جوهر إبداعهم العظيم الذي يظل مصدر إلهام لنا وللأجيال بعدنا - برغم النقد والتجريح والتعديل .

فلا يعتبر المتنبيء وأبو العلاء ولا بالطبع أستاذنا المرحوم عبدالله الطيب إن توجهنا لهم ببعض النقد أو التعريض أو حتى التجريح يقلل من شأنهم أو عظمتهم. فلا تخلو أعمال عظيم من عظماء الفلسفة أو الفكر من هنات وسقطات وما شاء المولى عز وجل إلا أن يكون البشر مظنة الزلل والاختلاف. بل حتى التناقض الصريح أحياناً لأن القرآن وحده من عند الله سوف يبقى عصياً على التناقض أو الإختلاف!

﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (النساء: ٨٢)

لقد كان عبدالله الطيب محقاً في الدفاع عن أبي الطيب في مواجهة نيكلسون وحزبه الذين حاولوا جهد طاقتهم الإغضاء من قدر المتنبيء، بل وحاولوا اغتيال شخصيته الأدبية وهو أمر مخطيء حقاً، ومن حق الأجيال القادمة علينا التصدي لمثل هذه الحملات الظالمة على التراث العربي الإسلامي وبيان تهافتها وباطلها.. ومن هذا ما فعل عبدالله الطيب جزاه الله خيراً.

وهذا الذي يدفعنا لايراد بعض آثار أولئك الأساطين في الأدب العربي والثقافة حتى تستطيع الأجيال الناشئة والقادمة من أبناء هذه الأمة أن تقدر أولئك العظماء وأن تستفيد من عطائهم وإبداعهم، وأن تستمتع بالروائع الأدبية والفكرية الخالدة التي أورثونا إياها، كأعظم كنوز وأجل ميراث يمكن لأي أمة أن تتوارثه.

من هذا المنطق - ولتدعيم موقف أستاذنا المرحوم عبدالله الطيب في مواجهة محاولات نيكلسون وحزبه من المستشرقين النيل من المتنبيء. أوردنا بعض روائع أبي الطيب، خاصة "واحرّ قلباه"، والتي لم تسلم من نقدنا، برغم اعجابنا الهائل بها، كونها أعظم الفرائد في شعر المتنبيء، وسجلاً حافلاً لفترة كاملة من تاريخ الأمة الإسلامية، والأدب العربي.

إستعراض لبعض روائع المتنبيء:

ونريد - فيما يلي - ايراد المزيد من روائع المتنبيء، والتي طالما تغنينا بها عندما كنا طلاباً في المرحلة الثانوية. وبقيت عالقة في أذهاننا ووجداننا، ويكفي هذا دليلا على خلود المتنبيء - كونه من أعظم شعراء العربية وكون أعماله وقصائده من أعظم الأغاني التي يتغنى بها الإنسان.

أما قصيدته العصماء (عيدُ بأية حالٍ عدت يا عيد) فهي خالدة لأنها تمثل المرحلة الأخيرة

من تطور المتنبيء الأدبي والشعري، وكذلك كانت مؤشراً على النهاية المأساوية التي انتهى إليها نضاله من أجل الإمارة والولاية التي كانت الحادي الأعظم في كل حياته وكانت المدار الرئيس لثورته ومطالباته، كما كانت العامل الرئيس في القلق الحياتي والفلسفي الذي ظل يعتوره، منذ أن كان يافعاً في الكوفة وكان - في رأينا - العامل الحاسم في حركاته كلها وفي تقلباته، وفي مده وجزره. ولو لا هذا القلق وهذا الطموح المتوقد في طلب الإمارة التي كان يراها حقا للعلويين لما فارق أبو الطيب صديقه وصفيه وحبيبه سيف الدولة الحمداني وقد لقى منه من الإكرام والإجلال والعطايا فوق ما يتصور العقل - في تلك الظروف - حتى أنه قدمه وقربه أكثر مما فعل مع ابن عمه أبي فراس الحمداني، الشاعر الذي لا يقل فحولة عن أبي الطيب المتنبيء نفسه. ولكن سيف الدولة بالطبع فشل في أن يلبي تلك الرغبة المتوقدة أبداً عند المتنبيء ألا وهي الحنين العجيب للإمارة والولاية السياسية. ولقد بذل المتنبيء كل غال ورخيص في سبيل إقناع سيف الدولة بتوليته الإمارة، حتى ولو على قرية صغيرة وحتى لبعض الوقت، كما زعم بعض المؤرخين. ولكن سيف الدولة تأبى عليه في ذلك، خوفاً من طموحه الذي لا يعرف الحدود، وخوفاً من آخرين قريبين منه - كانوا أيضاً يطمعون في الإمارة، وكانوا يرون أنفسهم أحق بها وأجدر من هذا "الدعي الكندي" ومنهم بالطبع ابن عمه أبي فراس الحمداني!

١ - ليالي بعد الظاعنين شكول:

وقصيدته التي مطلعها:

ليالي بعد الظاعنين شُكُول
طوالٌ وليل العاشقين طويل

تعد رائعة من أعظم روائع المتنبيء وفيها يقول:

وما عشت من بعد الأحبة سلوة
ولكنني للنائبات حمولُ

وإن رحيلاً واحداً حال بيننا
وفي الموت من بعد الرحيل رحيل

إذا كان شمُّ الروْح أدنى إليكُمُ
فلا برحتني روضةٌ وقبول

ومـــــا شـــــرَقي بـالمـاء إلا تـذكــــــراً

لمـاء بـه أهـل الحـــــبـــــيـب نـزولُ

***

أمـــا في النجـــوم السـائرات وغـيــرهـا

لعـــيـني عـلى ضـــوء النـهـــار دليـل

ألـم يـر هـذا الـليـل عـــــيـنيـك رؤيـتي

فــــتـظـهـــرُ فــيـــه رقـــة ونـحـــول

***

وقال فيها مادحاً سيف الدولة :

فـــدتك ملوك لم تُسمْ مـــواضــيـــاً

فــإنك مــاض الشـفـرتين صـقـيل

إذا كـــان بعض الناس ســيف لدولة

فــفي الناس بوقـــات لهـــا وطبـــول

وفي هذا البيت فيه التعريض ببعض أعوان وأصفياء سيف الدولة ما فيه ، وأخشى أن يكون قاصداً بعض أولئك القادة الذين إنهزموا عن سيف الدولة وانكشفوا عنه في بعض المعارك ، وقد سبق أن أشار إليهم في قصيدته " واحرّ قلباه " :

قــد زرتـه وســيــوف الهند مــغــمــدة

وقـــد نظرتُ إليـــه والســـيــوف دم

***

مهما يكن من أمر ، فإن المرء ليحس بقلق وحنين غير عادي ، في هذه القصيدة ، بالرغم من أن الأمور كانت عادية بينه وأميرة المحبوب سيف الدولة وكان في معيته في تلك الغزوات الظافرة وكان سيف الدولة يسير من نصر إلى نصر حتى هزم جيوش الدمستق هزيمة نكراء ، وكسر قواته الرئيسة في الشام وفي العراق وأصاب الدمستق نفسه بجروح خطيرة في وجهه ولكنه تمكن من الهرب ، غير أن ابنه قسطنطين لم يكن محظوظاً فوقع في الأسر ومات أسيراً عند سيف الدولة ربما متأثراً بجروحه التي أصيب بها خلال المعركة ! !

قلنا إن أبا الطيب يبدو قلقاً في هذه القصيدة ، وذا شجون وشكاة وحنين طويل مديد ؛ فما السبب في كل ذلك؟ ومن هو هذا " البدر " الذي ما إليه سبيل؟

هل هو أحد الأمراء الذين كان يبادلهم الحب ويلحّون عليه كثيراً أن يلحق بهم ويمنونه الأماني، ومنهم كافور الأخشيدي؟ ربما ولكننا نرى أن "هذا البدر الذي ما إليه سبيل" هو ذلك الهدف الذي طالما سعى إليه منذ حداثة أيامه في الكوفة وحين أدعى النبوة. . ألا وهو أن يصير أميراً أو والياً أو سلطاناً أين هو ذلك الأمل العزيز في الوصول إلى سدة الملك والسلطان الذي كان يرى أنه "حق له" كونه سليل أحد الأئمة العلويين!

مهما يكن من شيء، فإن فخره المبالغ فيه، في آخر القصيدة ليعبر عن قناعته أنه جدير بالإمارة، خليق بالملك إذا تطلع إليه فإن هذا التطلع الجد مشروع:

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله
إذ القول قبل القائلين مقولُ

وما لكلام الناس فيما يُريبني
أصول ولا للقائليه أصولُ

أعادي على ما يُوجبُ الحب للفتى
وأهدأ والأفكارُ فيَّ تجولُ

سوى وَجع الحساد داوِ فإنه
إذ حل في قلب فليس يحولُ

ولا تطمعن من حاسد في مودة
وإن كنت تبديها له وتُنيلُ

وإنا لنلقى الحادثات بأنفس
كثيرُ الرزايات عندهن قليلُ

يهون علينا أن تصاب جسومنا
وتسلم أعراض لنا وعقولُ

***

٢- عيد بأية حال عدت يا عيد:

كانت هذه القصيدة هي قاصمة الظهر للعلاقات بين أبي الطيب المتنبيء وكافور. . ولقد مضت أكثر من عام كانت العلاقة متوترة بينهما. . ولكنها لم تصل إلى درجة القطيعة. . وإن كان المتنبيء قد طلب من كافور - صراحة - إمارة أو ضيعة مقدرة. ولكن كافور لم

يوافيه بشيء من ذلك. وكان يستبقيه بمصر ويطالبه بالمزيد من القصائد المادحة. وفي آخر سنة قبل هروبه وكتابة قصيدته.

عيـــد بأية حــال عــدت يا عيـــد
بما مــضى أم لأمــر فيـــه تجـــديد

وهي القصيدة التي قالها في يوم عرفه وبعدها هرب من كافور سراً؟

وكان هروب المتنبيء يوم العيد – عيد الأضحى - بعد يوم واحد من قصيدته المشار إليها أعلاه (عيد بأية حال عدت يا عيد):

وفي هذه القصيدة هجاء مر لشخص كافور، مليء بالعنصرية البغيضة بالتعالي العنصري المذموم: وكان خروجه يوم عيد الأضحى، سنة ٣٥٠هـ.

قال فيها، يذم كافوراً الأخشيدي، ويعاتب على البعد سيف الدولة لتقصيره نحوه الأمر الذي حمله إلى اليأس واليأس هو الذي حمله لكي يلوذ بكافور:

مــا كنت احـسـبني أحـيـا إلى زمن
يسيء لي فيــه عـبـد وهو مـحـمـودُ

ولا توهمت أن الناس قـــد فـــقـــدوا
وأن مـثل أبي البـيـضــاء مــوجــودُ

وأن ذا الأســود المثـقـوب مـشـفـرة
تطيعُــه ذي العـضــاريط الرعــاديدُ

جـــوعـــان يأكل من زادي ويمسكني
لكي يقــال عظيم القـدر مـقـصــودُ

ويْلمّـــهـــا خطة ويلُمّ قـــائلهـــا
لمثلهـــا خُلق المهـــرية القـــودُ

وعندها لــذّ طعـم الموت شــــاربه
إن المنيـــــــة عـنـد الـذلّ قـنـديـدُ

من علم الأســود المخــصيّ مكرمــةً
أقــومــه الـبـيض أم آباؤه الصــيــدُ

أم أذنه في يد النـخـــاس داميـــة
أم قـــدرُه وهـو بالفلسين مــردودُ

أولى اللئام كويفير بمعذرة
في كل يوم وبعض العذر تفنيدُ
وذاك أن الفحول البيض عاجزة
عن الجميل فكيف الخصيةُ السودُ

٣- صحب الناس قبلنا ذا الزمان:

ومن قصائد المتنبيء، والتي سارت مسير الأمثال والحكم العميقة اعتذاره لنفسه، كيف ترك سيف الدولة ولجأ إلى كافور، وشتان بين الرجلين مكانة ومجداً. وهو يعذر نفسه في تجواله وإقامته وفي أسفاره ومثواه، وفي مده وجزره أنه إنما عانى ما عانى من أجل الظفر بالمجد، ومحاولة أن يصيب الملك والإمارة والفخر بكل السبل وكل الحيل وكل الجهد. ولو لا ذلك، " فإن مراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى " :

صحب الناس قبلنا ذا الزمان
وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهُم منه
وإن سُرّ بعضهُم أحيانا
ربما تُحسنُ الصنيع لياليه
ولكن تكدرُ الإحسانا
وكأنا لم يرضى فينا بريب
الدهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة
ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن
نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا
كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحيّ
لعددنا أضلنا الشجعان

وإذا لـــم يــكــــن مـــن المـــوت بـــد

فـــمـن العـــجـــز أن تكـون جـــبـــانـا

كـل مــــــا لـم يـكن من الصـــــعـب

في الأنـفس ســــهـل إذا هو كــــــانـا

٤- بم التعلل لا أهل ولا وطن:

ونُقل إلى أبي الطيب أنه نُعي في مجلس سيف الدولة فأحزنه ذلك وزاده غماً إلى غم وهو حبيس في بلاط كافور لا خيل أهديت له ولا مال، عند كافور. بل همّش وسجن، أي حبس من السفر، فقال يعاتب سيف الدولة، وينعي حظه العاثر عند كافور:

بم الـتــــــــعـلـلُ لا أهـل ولا وطـن

ولا نـديم ولا كــــــأس ولا سـكـنُ

أريـــد مـن زمـنـي ذا أن يُـبـلّـغـنـي

مـــا ليس يبلُغُـــه من نفــــسـه الزمن

لا تلق دهرك إلا غــيـــر مكتـــرثٍ

مـــا دام يصـحَب فـيـه روحك الـبــدن

فـــمـــا يديم ســـرورٌ مـــا ســررت به

ولا يردُ عـليك الفــــائت الحـــزنُ

يا من نُعـــيت على بعـــد بمجلســـه

كـلٌ بما زعـم الـنـاعـــون مُـــرتهنُ

كم قـــد قُـتلت وكم قـــد مت عندكُمُ

ثم انـتـفـضتُ فـزال القـبـرُ والكفنُ

مـــا كل مـــا يتـــمنى المرء يدركـــه

تجـري الرياح بما لا تشـتــهي السـفُنُ

❋❋❋

٥- على قدر أهل العزم تأتي العزائم:

وكان سيف الدولة تمكن من هزيمة الروم هزيمة نكراء، قاد فيها القتال بنفسه فرمى بها

العدو غير مبال بحياته مع كوكبة من أبطاله وصناديده، وعددهم لا يزيد على خمسمائة رجل ثم بنى قلعة في الموقع يقال لها قلعة الحَدَث على جبل يقال له الأحيدب[1]، قال أبو الطيب، مخلداً ذلك ومنوهاً به:

على قــدر أهل العــزم تأتي العــزائم
وتـأتي على قــــدر الكرام المكارمُ

وتعظم في عين الصـغـيـر صـغـارها
وتصـــغــر في عين العظيم العظائمُ

ثم قال بعد ذلك يمدح سيف الدولة:

فـلـلـه وقــت ذوّب الغـش نـارهُ
فلم يبق إلا صـــارمٌ أو ضُــبـــارمُ

تقطع مــــا لا تقطع الدرعُ والقنا
وفــرّت الفــرســان من لا يصــادمُ

وقـــفت ومــا في الموت شك لواقف
كــأنك في جـــفن الردى وهو نائمُ

تمـرُّ بـك الأبـطـال كـلـمى هـزيمـةً
ووجـــهك وضــاح وثغــركُ باسمُ

تجاوزت مـقـدار الشـجـاعـة والنهى
إلى قــول قــوم أنت بالغــيب عــالم

***

٦- فلا تقنع بما دون النجوم:

وقال المتنبيء مطالبا قومه (وناصحاً سيف الدولة تلميحاً) بإستهداف عظائم الأمور - لا صغارها - لأن التعبُ هو التعبُ، والموت هو الموت. وهذه القصيدة في نفس منوال "على قدر أهل العزم تأتي العزائم" وهو رد بليغ وحجة بالغة للعاجزين في كل زمان ومكان، من الذين يدفنون عجزهم وفشلهم وراء حجة "عدم وجود إمكانيات طبيعية أو مادية" يقول المتنبيء، إن العجز في العقول والإفهام دائماً، لا في الطبيعة:

(١) ناجي علوش: أبو الطيب المتنبي، ص ٤٠ - الرواد - بيروت ١٩٩٣.

إذا غـــامـــرت في شـــرف مـــروم

فـــلا تـقـنـع بما دون النجـــوم

فطعم الموت في أمـــر حـــقـــيـــر

كـطـعـم الموت في أمـــر عـظـيم

يرى الجـبناء أن الـعـجـز عـقـلٌ

وتلك خـــديعـــة الطبع اللـئـيم

وكل شـــجـــاعـــة في المرء تُغني

ولا مـــثل الشـــجـــاعـــة في الحكيم

وكم من عـــائب قـــولاً صـــحـــيـــحـــاً

وآفـــتـــه من الفـــهـم الســـقـــيم

ولـكـن تـأخـــذُ الآذان مـنـه

على قـــدر القـــرائح والعلوم

٧- الرأي قبل شجاعة الشجعان:

قال المتنبيء - رحمه الله - يُعلي من أمر العقل، ويعطي أولوية كبيرة للمعرفة، وكأنه معاصر، يقول إن الأولوية القصوى هي لتنمية العقول وبناء القدرات، فنحن في عصر المعرفة (The Knowledge Age) :

الرأي قـبل شـجـاعـة الشـجـعـان

هـو أولٌ وهـي المحـلُ الـثـــانـي

فـإذا هـمـا اجـتـمـعـا لنفس حسرة

بلـغـت من الـعـلـيـاء كل مكـان

ولـربما طعن الفـــتـى أقـــرانه

بـالرأي قـــبل تطاعن الأقـــران

لو لا العـقـولُ لكان أدنى ضـيـغـم

أدنـى إلى شـــرف من الإنســـان

فقصائد المتنبيء الثلاث الأخيرة، كلها تقول أن العقل هو الجوهرة التي تشكل كيان الإنسان، وهي اللؤلؤة التي تضيء كيانه وتنير له الدرب، وأنه هو أعظم هبة المولى عز

وجل للإنسان، ولذلك فهو العامل الأول في تشكيل هويته ومصيره في الدنيا والآخرة. وأن كل تقدم أو مجد أو فكر يناله الإنسان، فإنما يأتي عن طريق الإستخدام الأمثل للعقل ولبناء القدرات البشرية.

قصائد المتنبيء وقطعهُ:

* على قدر أهل العزم تأتي العزائم
* فلا تقنع بما دون النجوم
* الرأي فوق شجاعة الشجعان

كلها تعبّر عن مقولة واحدة أساسية أن العقل والعزيمة هي السبيل لكل نجاح أو فلاح، في الدنيا والآخرة. وفي هذا المعنى يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): لو تعلق قلب ابن آدم بالثريا لنالها، أو كما قال صلى الله عليه وسلم وفي نفس المعنى، يقول حكماء الإنجليز: If there is a will, there is a way.

فالعقل والإرادة القوية الفولاذية هي من أمضى أسلحة الإنسان الذي خُلق ضعيفا، من ناحية القوة البدنية، مقارنة بالأوابد والوحوش وحتى بالمعادن والعناصر الطبيعية الأخرى، ولكنه بالعقل والتدبير والإرادة الفولاذية يطوّع كل شيء، ويسخر لمصلحته كل شيء!

٨- لكل امريء من دهره ما تعودا:

ومن فرائد المتنبيء، التي تفيض حكمة وأمثالاً، قصيدته الرائعة، بمدح سيف الدولة وفيها يشبهه بالبحر الزاخر بالصدف والدر واللآلي:

لكل إمــــريء من دهره مـــا تعـــودا
وعـادة سيف الدولة الضرب في العدى

وإن يُكذب الإرجــــاف عنه بضـــده
ويمسي بما تنوي أعــــاديه أســعـــدا

هو البــحـر غصْ فيـه إذا كـان ساكنا
على الدر وأحـــذره إذا كــان مُــزبدا

ذكي تُظنيــــه طليــــعـــة عـــينه
يرى قلبـــه في يومـــه مـــا ترى غــداً

وصـــول إلى المســتــصــعــبــات بخــيله

فلو كـــان قـــرن الشـــمس مـــاء لأوردا

ثم يستطرد المتنبيء في وصف صفات سيف الدولة وشمائله خاصة الكرم والحلم:

رأيتك مــحض الحلم في مــحض قــدرةٍ

ولو شـــئت كـــان الحِلم منك المهندا

ومــا قــتل الأحـــرار كــالعــفــو عنهُمُ

ومن لك بالحُــر الذي يحــفظ اليـــدا

إذا أنت أكـــــرمت الكريم ملكتـــــه

وإن أنت أكـــــرمـت اللئـــــيم تمردا

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضرٍ كوضع السيف في موضع الندا

ولكن تفـــوق الناس رأياً وحكمـــةً

كما فُقتهم حالاً ونفساً ومحتدا

يدق على الأفكار مـــا أنت فـــاعلٌ

فـيـتـرك ُمـا يخـفى ويؤخـذ مما بدا

***

ثم قال – في نفس القصيدة (لكل أمريء ما دهره ما تعودا): يعاتب سيف الدولة عتاباً مراً ويفتخر بتفوقه على أقرانه ومنافسيه من الشعراء والحساد:

أزل حـــسد الحـــساد عني بكبتـــهم

فـــأنت الذي صـيـرتهم لي حـــسـدا

إذا شـــدّ زندي حـــسنُ رأيك في يدي

ضــربت بسيف يقطع الهـام مـغـمـدا

ومـــا أنا إلا ســمــهــري حــملتــه

فــزين مـــعْــروضـــاً وراعَ مـــســـددا

ومـــا الدهر إلا من رواة قـــصـــائدي

إذا قلت شـعــراً أصـبح الدهر منشـدا

فــــــار به من لا يســــيــر مــشــمــراً

وغنى بـه من لا يُغني مـــــعــــــــردا

أجــــزني إذا أنشــــدت ُشــعــــراً فــإنما

بشــــعــــري أتاك المادحـــــون مـــرددا

وفي هذه القصيدة وغيرها من فرائده، تتضح عبقرية المتنبيء ولكنها في الوقت ذاته تفضح مسالبه الكبيرة وعيوب شخصيته الكبيرة، وهذا أمر معتاد عند كل العباقرة الموهوبين، تجد فيهم عيوبا شخصية كبيرة جداً.

فالعبقري – في الغالب – إنسان ذاتي وشخصياني وفردي (Self-centred) إلى أبعد الحدود:

أنـا الـذي نظر الأعـــــــمى إلى أدبي

وأســــمــــعت كلمـــاتي من به صـــمم

وقوله:

ومــــا الدهر إلا من رواة قـــــصــــائدي

إذا قلت شـعــراً أصبح الدهر منشـداً

وقوله:

مـا أبعد العيب والنقصـان من شـرفي

أنا الثـــريا وذان الشــيب والهَــــرمُ

وقوله: لو كان البيت صحيحاً، إذ أن الواحدي لم يورده ضمن "واحر قلباه":

ســيــعلم الجــمع ممن ضم مــجلسنا

بأنني خــيــــر من تســعى به قــدم

وكثير من قصائده تحمل هذا المعنى. وبلغ الاعتداد بالنفس بالمتنبيء أن عرّض بأبي فراس الحمداني، إبن عم سيف الدولة وهو من فحول الشعراء وكبار المجاهدين والفرسان!

أعـــيــذها نظرات منك صــادقــة أن

تحـسب الشـحم فـيـمن شـحـمـه ورمُ

وقوله أيضاً ربما معرضا بأبي فراس الحمداني وغيره من شعراء بلاط سيف الدولة:

بأي لفظ تقـــول الشـــعــــر زعنفـــة

تجــوز عندك لا عـــرب ولا عــــجم

وقوله :

أجـــزني إذا أنشـــدت شـــعـــراً فـــإنما

بشـــعـــري أتاك المادحـــون مـــرددا

والمتنبيء من بعد عنصري إلى أبعد مدى، وهو كذلك يتصف بالعنجهية العرقية وهو شيء مستهجن في الإسلام وقد قال عنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يزعمُ المتنبيء أنه ينتسب إليه (دعوها فإنها منتنه) أي العنصرية والحمية الجاهلية والتفاخر بالأجداد والآباء. كما قال إنها (أي العصبية الجاهلية العرقية والعنصرية) تحت قدميه الشريفتين، في خطبة حجة الوداع!

ويتضح كل ذلك في شعر المتنبيء، عامة ولكنه أكثر جلاء في ذلك الشعر العنصري البغيض الذي هجا به كافور الأخشيدي، وقد مر بك - أيها القارئ - نماذج من هذا الشعر في الصفحات الفائتة!!

والمتنبيء بعد من ذلك، يدعو إلى إقصاء الآخرين. وعدم الاعتراف بفضلهم وقدراتهم ومواهبهم، وكأنه هو شاعر العربية الوحيد منذ الأزل. وهذا خلق ذميم وما زالت الأمة الإسلامية والعربية تعاني منه إلى اليوم وهو محاولة اقصاء الآخرين وعدم الاستماع إلى الرأي الآخر وعدم تقدير عطاء الآخرين، بل وبخس الناس أشياءهم وهو ليس من العدل ولا الإنصاف في شيء.

وأسوأ من ذلك كله، فإنه يطلب من سيف الدولة ألا يستمع إلى أشعار غيره وهو يطالبه بقمع الآخرين وكبتهم. وهو أمر بغيض وغير مقبول أن تصدر من شاعر عبقري مثله يدعي أنه مفكر حر وأنه عزيز النفس "يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا" فكيف تقبله ودعا إليه في حق الآخرين وكيف يدعو إلى قمعهم وكبتهم :

أزل حـــســد الحـــســاد عني بكبـــتـهـم

فـــأنت الذي صـــيـــرتهم لي حُـــســدا

إذا شـــد زنْدي حـــسنُ رأيك في يدي

ضـــربت بســيف يقطع الهـام مـغـمـدا

ومـــا أنا إلا ســـمـــهـــري حـــملتـــه

فـــزين مـــعـــروضـــاً وراع ســـددا

فهو - أي المتنبيء - يريد من سيف الدولة أن يكبت خصومه من السياسيين والأدباء ويريد أن يستلف سيف الدولة وزنده لكي يقطع الهام به حتى وهو مغمد ويريد أن يصير سـمهري سيف الدولة الذي يزين محمولا (معروضاً) وأن يسبب الروع والخوف عندما يسدد ويوجه إلى الأعداء والخصوم!!

هذه بعض صفات المتنبيء التي جعلته يقع في أخطاء جسيمة في الرأي والحكم وفي القرار وفي الإنحياز السياسي، وفي نهاية الأمر حملته إلى أن يستبدل الأدنى (كافور الإخشيدي) - بالنسبة له - بالذي هو أحسن (سيف الدولة الحمداني) وبعد كل الذي قاله من قرائد في مدح سيف الدولة وهذا العمى في البصيرة هو الذي أدى إلى خيبة مسعاه والبؤس والتعاسة التي ختم بها حياته مع كافور الإخشيدي، ثم هي التي انتهت به إلى الموت والهلاك على يد (فاتك) الذي قتله غدراً، وهو في قمة القوة والشباب، في الواحدة والخمسين من عمره ولم يكد يحقق من أمانيه شيئا، خاصة هدفه الأقصى نيل شرف الإمارة وتقلد الولاية والحكم.

قال تعالى:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (الأعراف: ١٧٩)

وقال تعالى:

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ (الحج: ٤٦)

***

ونختم هذا الجزء الخاص بمدى تأثر عبدالله الطيب بأبي الطيب المتنبيء بالإشارة - مرة أخرى - إلى شعر أبي الطيب في شعره عن الطبيعة وهو الذي طالما افتتن به عبدالله الطيب، وطالما حاول أن يقول أن الشعراء الإنجليز وخاصة "وليم بليك" و "أندرو مارفيل" وغيرهم قد أخذوا عنه واقتبسوا منه ولقد سبق وأشرنا إلى ذلك فيما مضى أعلاه من هذه الدراسة، ولكن لا يمكن أن نختم هذا الجزء دون الإشارة إلى رائعة أبي الطيب التي يمدح فيها صديقه الأمير بدر بن عمار والي طبرية عام ٣٢٨هـ، وكان بدراً شجاعاً مقداماً كريماً جواداً، وكان المتنبيء يطمع أن يوليه الإمارة ولكنه لم يفعل وموضوع القصيدة أن

بدراً خرج طالبا الفتك بأسد (إفترس بقرة) فهاجمه عنها ولكن عندما وثب الأسد عليه لم يتمكن بدر بن عمار من استلال سيفه، فتلقاه بالسوط، وتمكن من اخضاعه حتى دار به إلى الحبس :

والقصيدة مطلعها العربي هو :

في الخد إن عزم الخليط رحيلا
مطرٌ تزيد به الخدودُ مُحولا

وفيها يقول :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه
لمن إدخرت الصارم المصقولا

وردٌ إذا ورد البحيرة شارباً
ورد الفرات زئيره والنيلا

متخضب بدم الفوارس لا
بسٌ في غيله من لبدتيه غيلاً

ما قوبلت عيناه إلا ظُنَتا
تحت الدجى نار الفريق حلولا

وهذا البيت الآخر هو الذي اقتبسه منه " وليم بليك " فيما زعم عبدالله الطيب في قول هذا الشاعر الإنجليزي :

Tiger, Tiger burning bright
In the forests of the night

ومهما تكن من محاولتنا العابرة هذه أن نلقي بعض الضوء على شخصية المتنبيء، فهو ولا شك واحد من عمالقة الأدب العربي، ولقد حفلت المكتبة العربية بدراسات حوله لا تحصى، ما بين مادح وقادح، وكذلك شغل به المستشرقون وشرقوا به، ما بين حاقد عليه يريد أن يغتاله أدبياً، ومعجب بنبوغه وشموخه كشاعر عظيم من شعراء الإنسانية جمعاء. بالرغم من ذلك، فإن المطلوب الآن هو الدراسات التحليلية التي تبرز الجوانب النفسية والإنسانية في أعماله، وكذلك العوامل السياسية والفكرية والاجتماعية. ولكن مهما انتهت إليه الدراسات في هذه المواضيع فمما لا شك فيه أن أشعار المتنبيء سوف تظل خالدة لجمالها وسحرها ولأنها تحتوي على وصف للأحداث والسير والسنن صادقة

خالدة. ولذلك تغنت بها الأجيال وسوف تظلُّ أشعاره غناءً خالداً ولحناً شجياً عبقرياً أبد الدهر.

لقد أخذنا على المتنبيء بعض الجوانب السلبية في شخصيته مثل الذاتية والعنصرية والعنجهية والاستعلاء العرقي والثقافي، وقلنا إن ادعاءه الإنتماء العلوي الهاشمي كان الأجدر أن يحمله فوق الضغائن ومحاولة إقصاء الآخرين والنيل منهم وبخسهم أشياءهم، كما فعل بأبي فراس الحمداني، وإنا لنرجو المولى عز وجل أن يغفر له خطاياه، ويقبل منه توبته كونه الداعية الكبير لمجد الأمة العربية والمكافح عن مجدها، والمجاهد مع سيف الدولة بخيله وسيفه وسنانه، وكذلك بقلمه وقرطاسه ضد أعداءهم المتربصين بها الدوائر من أمثال الروم وغيرهم. ومهما كانت من سلبيات في شخصية المتنبيء، فهو لا يمكن أن ينسب إلى غلاة الباطنية أو القرامطة، كما حاول طه حسين أن ينسبه، "يكره الله ما تأتون والكرمُ"، ولعل تصوير العقاد لشخصية المتنبيء هو أقرب إلى الحقيقة، فالمتنبيء فارس وفيلسوف، لأنه صاحب موقف من الحياة ومن الناس، ولأنه كان يتميز بالأنفة الشديدة وبعلو الهمة وسمو الغاية. وهذه علامات أكيدة أنه قد انحدر بالفعل من أسرة عريقة، ونال تعليماً عالياً رفيعاً، مما يؤكد الروايات التي تقول إنه ينحدر من بيت علوي رفيع العماد، وإنه – أي المتنبيء – أخفى ذلك لأن أبناء هذه الأسر، كانوا مستهدفين بالقتل والفتك، خوفاً من منافستهم على السلطة والخلافة، ولأن عامة الناس كانت تلتف حولهم متى ظهرت أنسابهم الشريفة!!

وفي ختام هذه اللوحة عن المتنبيء فإننا لنرجو – مع أبي العلاء في رسالة الغفران – أن يدخله الله الجنة وأن تشفع له الأشعار الكثيرة التي قالها حول التوحيد وحول عقائد الروم الفاسدة وكذلك أشعاره في مدح الجهاد ضد الروم المعتدين، وفي الحث عليه وتعبئة المسلمين للإنخراط في كتائبه، كما نرجو أن تشفع له أشعاره التي هجا فيه "الخوالف" و"القواعد" الذين لم ينهضوا للجهاد مع سيف الدولة، فكره الله إنبعاثهم وثبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين!

فالمتنبيء، صاحب فلسفة، هي فلسفة أشبه بفلسفة نيتشه الألماني، من حيث طلب القوة وكذلك من حيث التسامي بالعرق والتعالي بالسلالية والقومية "عند نيتشه السلالة الجرمانية وعند المتنبيء السلالة العربية"؛ ولقد نبه إلى ذلك عباس محمود العقاد رحمه الله.

ولقد حاول المتنبيء كل المحاولة أن يبقى مع سيف الدولة، إلا أن سيف الدولة أخفق كل الاخفاق في تحقيق طموح الشاعر الموهوب، وتحقيق أمنيته العالية في توليه الإمارة، وما الإمارة بالنسبة لأبي الطيب، وقد تولها من هم أدنى منه بكثير، ولكنه الضعف البشري في حب السلطة يصل عند بعض الناس، كما بلغ عند المتنبيء وابن خلدون، إلى مرتبة التعبد والتأليه، والتعلق الأعمى عند من هو مريض به، (Obsession) : ولقد حاول المتنبيء إرضاء سيف الدولة وحثه للوفاء بوعوده نحوه وقال في ذلك أعذب الشعر وأعذب الرجاء وأعذب الغناء..

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتباً
فداه الورى أمضى السيوف مضارباً

ومالي إذا ما اشتقت أبصرت
دونه تنائف لا أشتاقها و سباسبا

وقد كان يدني مجلسي من سمائه
أحادث فيها بدرها والكواكبا

حنانيك مسؤولا ولبيك داعياً
وحسبي موهوبا وحسبك واهبا

أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً
أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذبا

وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه
محا الذنب كل المحو من جاء تائباً

ولكن سيف الدولة يقصر في الوفاء بوعوده تجاه هذا الشاعر المبدع النابغة؟ ويخفق اخفاقاً لا يليق به وكان قادراً أن يجازيه بإقطاعه بعض الضياع وبتقليده بعض الإمارة الفرعية ولو فعل ذلك لترضي أبو الطيب، وغرت عيناه وليبقي مع سيف الدولة ولما اضطر إلى اللحاق بكافور الأخشيدي، الذي ما كان ليستحق صحبة المتنبيء ولاخدمته إياها..

ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفُن، كما قال أبو الطيب:

ولم أر في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

الفصل السابع
عبدالله الطيب
وأبو تمام

الفصل السابع
عبدالله الطيب و أبو تمام

أبو تمام في حياة عبدالله الطيب:

عبدالله الطيب معجب بأبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، نسبة إلى قبيلة طيء المشهورة بالكرم والتي تُذكر دائما مقرونة بحاتم الطائي. الذي كان أسطورة في الكرم عند العرب في الجاهلية؛ وكنيته أبو تمام، وتمام هو أحد أبنائه الذين عاشوا إذ كان أولاده يموتون في الصغر. ويقال إن تمام هذا ولد بعد وفاة أبيه الذي مات في عنفوان شبابه (١٩٠هـ ٢٣١هـ) وقد كان أحد حكماء العرب قد تنبأ أنه سوف يموت صغيراً (لأن نفسه الروحانية المفرطة في الذكاء والتوقد تأكل كل جسمه أكلا).

ومهما يكن من شيء فإعجاب عبدالله الطيب بأبي تمام يرجع أولاً إلى كونه علماً من أعلام الأدب العربي، وقمة من قممه السامقة. أضف إلى ذلك ما كان يتصف به أبو تمام من حدة في الذكاء خارقة ومن توقد في الذهن وجودة في الخاطرة وسرعة في البديهة كان شيئاً أسطورياً. وهو إلى ذلك ليس فقط شاعراً مطبوعاً، غزير الخاطرة بالشعر مجواداً بها، ولكنه أيضاً خبير بأشعار العرب، لا تفوته منها شاردة ولا واردة إلا أحصاها. فكأنه كان أستاذاً علامة راسخاً في علمه بآداب العربية وأشعارها، ذواقة، ناقداً. له قدرة عجيبة في تمييز الجيد منها والفصيح الرنان، ولذلك اشتهر باختياراته ومضلياته من شعر القبائل وشعرائها، سواء البارزين المشهورين أو المغمورين المجهولين. وقد اشتهر بديوانه (الحماسة) وهو سجل باختياراته من الشعر الجيد الممتاز الذي قيل في الشجاعة أو تميز بها، ولذلك سمي بديوان الحماسة.

ومن مؤلفات أبي تمام:

الإختيار القبائلي الأكبر[1]

اختار في هذا الكتاب قصيدة من كل قبيلة.

واختيار قبائلي أصغر

اختار فيه قطعاً من محاسن أشعار القبائل، ولم يعدد فيه كثير شعر للمشهورين

---

(١) أنظر في ذلك:
د. محمد حمود: أبو تمام: حياته وشعره ص ١٠٦ دار الفكر اللبناني.

إختيار شعراء الفحول

اختار فيه قصائداً لمشهورين في الجاهلية والإسلام حتى أنتهى إلى إبراهيم بن هرم ديوان الحماسة: وهذا هو أشهر آثار أبي تمام وفيه التقط أبو تمام قصائد وقطع من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين غير المشهورين، وبوبه أبواباً وصدره، وكذلك فهو يلقب بالحماسة، وهو أعظم، وهو بلا شك أعظم آثار أبي تمام الباقية.

اختيار المقطعات:

وهو مبوب على ترتيب "الحماسة" إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم، والقدماء والمتأخرين. وقد صدره بذكر الغزل.

هذا الاختيار يدل على غرام أبي تمام بالشعر وولعه بنشره وإذاعته في الناس، كما يدل على عظم تذوقه له وافتتانه بروعة الشعر الذي يكون تعبيراً ساحراً، وترنيماً وغناءً آثراً. كما يدل على معرفة عظيمة وإتقان ما بعده إتقان، كما يحدث عند العلماء الراسخين في علومهم، المتخصصين في تلك العلوم، كأدق وأحسن وأجود ما يكون التخصص العلمي، فهو بحق أستاذ مبدع، متقن فريد. وشخصية أبي تمام مما وقف عندها العلماء والمؤرخين وكاتبوا السير والأخبار!!:

فقد كان فارع الطول أسمر اللون، ذا فكاهية كبرى وفطنة وذكاء عظيم وكان اجتماعيا إلى أقصى درجة، حضرياً يحب الأنس والطرب والاجتماع إلى الناس، خاصة الأمراء والظرفاء والأدباء ووجه من وجوه اعجاب عبدالله الطيب بأبي تمام قدرته الفائقة في الإعراب عن المعاني الدقيقة والأفكار السامقة مع قدرة فائقة في التعبير الجميل الموشى، فهو صاحب بديع وجناس وطباق، وما إلى ذلك من المحسنات اللفظية، دونما إسفاف في المعاني أو إطناب فيها. وهو شاعر مطبوع يصدر عن بداوة أصيلة، وطبع نادر في فصاحة العرب وبيانهم، ولكنه إلى ذلك صاحب صنعه في الشعر والبيان، عريق في فهم أشعار العرب، الشارد منها والوارد. يشهد له بذلك اختياراته العديدة من عيون قصائد العرب ومن أشعارهم في الجاهلية والإسلام. ولذلك قيل إنه أي أبو تمام يشبه في شعره عامل بناء ماهر بارع وفي صياغته يشبه صائغاً حاذقاً!

أما عبدالله الطيب فيصف طريقة أبي تمام ومذهبه في الشعر، على النحو التالي:

"كان ابن المعتز، في خاصة ذوقه وهواه مقراً بالسبق لأبي تمام، شديد المحاكاة له،

والأخذ منه، حتى طريقة التبدي التي كان يتبوأها وفي ترجمته وحديثه المختصر عنه في الطبقات الذي بأيدينا ما ينبيء عن دقة فهم لأسلوبه وهو بذلك قَمَن.

قال مثلاً – في الخبر الذي ساقه عن الحسين بن رجاء: "كنا مع أمير المؤمنين بالرقة، فجاء أبو تمام وأنا في حرّ المتى فجعل ينشدني ويلتفت إلى الخدم والغلمان الوقوف بين يديّ ويلاعبهم ويغامزهم، وكان الطائي من أكثر الناس عبثاً ومزاحاً. فقلت له يا طائي قد ظننت أنك ستصير إلى أمير المؤمنين، مع الذي أرى من جودة شعرك فانظر إنك إذا وصلت إليه ألا تمازح غلاماً ولا تلتفت إليه فهو أشد الناس غيرة وإني لا آمن –إن وقف منك على شيء – أن يأمر غلمانه فيصفعك كل واحد مائة صفعة. فقال أبو تمام: إذن أخرج من عنده ببَدرٍ مملوءة صفعاً. [١] ساق ابن المعتز الخبر لا للطعن في أخلاق أبي تمام ولكن لينبه على طريقته في الاستعارة، وسرعة بادرته مع دقة غوصه فيها. أما الحسن بن رجاء فعسى أن يكون جاء بالخبر لم يخل فيه من قصد الطعن في أبي تمام، فقد روى عنه أنه همّ بقتله لتركه الصلاة، وإسراره الكفر.

قال ابن المعتز: وشعره كله حسن، ثم أضاف ولو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد والتي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك وأن لم يذكر منها إلا مصراعاً، لأن الرجل كثير الشعر جداً. ويقال إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثرها جيد والرديء الذي له إنما هو شيء يتعلق بلفظه فقط. فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللفظية ومحاسن البديع الكثيرة فلا. ولقد انصف البحتري عندما سئل عنه وعن نفسه فقال: " جيده خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه" وذلك أن البحتري لا يكاد يغلط لفظه إنما ألفاظه كالعسل حلاوة، فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات، بل يغرق في بحره على أن للبحتري المعاني الغزيرة ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام ومسروق من شعره. وأبو تمام هو الذي يقول:

يا لابســـا ثوب الملاحـــة أبْلِه

فـــلأنت أولى لابســـه بلبســـه

لم يعطك الله الذي أعطاكــــه

حتى استخف ببدره وبشمسه

رشـــأ إذا مـــا كـــان يطلق طرْفـــه

في فـتكة أمـر الحيـاء بحُبْسه

وأنا الذي أعطيتــــه غض الهـــوى

وضـــمــــتــه فـأخـذت عـذرة أنســه

وغـــرســـتـــه فلئن جنيت ثمـــاره

مـــا كنت أول مـــجتن من غـــرســــه

مـــولاك، يا مـــولاي صـــاحب لوعـــة

في يومـــه وصـــبـــابة في أمـــســـه[1]

يقول عبدالله الطيب إن ابن المعتز هنا تعمد اختيار أبيات خالية من الإغراب (يعني الألفاظ الغريبة وهي كثيرة عند أبي تمام) سلسة، ليبرهن على قضيته أنه إذا فاض بحر حبيب، وعارضه أبو عباده (يعني البحتري) أغرقه!!

ثم يستطرد ابن المعتز، (ما أسماه المحدثون البديع موجود في القرآن والسنة وكلام الأوائل وشعرهم، وأن بشاراً ومسلماً، وأبا نواس ومن تقبّلهم وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم.. ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فاحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف).. ويستطرد ابن المعتز، فيقول[2] :

" قد كان بعض العلماء يُشبه الطائي في البديع بصالح بن عبدالقدوس في الأمثال، ويقول لو أن صالحاً نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه ليسبق أهل زمانه، وغلب على مد ميدانه. وهذا أعدل كلام سمعته في هذا المعنى.. "

ولقد كان بعض النقاد يتحاملون كثيراً على أبي تمام، حتى زعم (ابن الموازنة) أن أبا تمام أخذ بيته المشهور:

الســـيف أصـــدق أنبـــاء من الكتب

في حـــده الحـــد بين الجـــد واللعب

من قول الكميت بن ثعلبة:

فـلا تكثـروا فـيـهـا الضـجـاج فـإنه

محـا السيف مـا قـال ابن دارة أجـمـعـا

---

(١) (المرشد) الجزء الرابع - القسم الأول. ص ٦٩٢.

(٢) المرشد: الجزء الرابع، القسم الأول - ص ٦٩٥.

يقول عبدالله الطيب إن البون شاسع بين قول أبي تمام "السيف أصدق أنباء من الكتب" وقول الكميت بن ثعلبة :

ويقول عبدالله الطيب إن قاله (ابن دارة) لم يمحه السيف، بل قد رواه اليأس وهو قوله :

لا تأمنن فزارياً مررت به
على قلوصك وأكتبها بأسيار

وزعم "صاحب الموازنة" أن أبا تمام سرق قوله :

وقد ظللت عقبانُ أعلامه ضحى
بعقبان طير في الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها من
الجيش إلا أنها لم تقاتل

من قول مسلم بن الوليد حيث قال :

قد عود الطير عادات وثقن بها
فهن يتبعنه في كل مرتحل

يقول عبدالله الطيب إن هذا المعنى يعني اتباع الطير لجيوش يقودها الشجعان المنتصرون. "للشعراء طريق ركوب"، كقولهم وجه "كالبدر وكرم كالبحر، يريد عبدالله الطيب بهذا القول أن ينفي عن أبي تمام تهمة السرقة الأدبية في أشعاره، لأن أبا تمام شاعر أصيل مجيد، سابق في أشعاره لأقوال الآخرين غير تابع لهم.

ويرى عبدالله الطيب أن الآمدي غير محق في ذمه لأبي تمام وفي إغماضه بقدره، فالآمدي لم يوفق إلى اكتشاف عبقرية أبي تمام في المحسنات وفي البديع : "فهي إما خفيت عليه وإما تعمد الإغماض عنها، وأقرب وجه أن أمره شيء من بين ذلك[1]،

فأبو تمام - في رأي ابن المعتز وعبدالله الطيب - يقرن المعاني اللفظية بالمحاسن والبديع الكثيرة ولا بد، فالمحاسن والبديع شيء يضاف إلى المعاني اللطيفة، فيدخل في مدلولها اللفظ والصياغة والوزن وهلم جرا. وقول ابن المعتز قد أصاب كبد المغزى في اقتران المعاني اللطيفة بالمحاسن اللفظية وبالبديع معاً :

"وأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات"

يقول عبدالله الطيب أن الآمدي فشل - ربما قصدا - في ملاحظة زيادة ابن العميد الذي

(١) المرشد، الجزء الرابع، ص ٦٩٦.

قرن المعاني اللطيفة بالمحاسن اللفظية والبديع فيها، ربما لأنه يرى أن المعاني "مطروحة في الطريق" كما قال الجاحظ. يقصد من ذلك أنها مطروقة من الجميع وهو نفس قول "قدامه"!! إن المعاني كلها معرضةٌ للشاعر" يقصد أنها ممكنة له. ولكن عبدالله الطيب يرى أن ذلك ليس بعاذر الآمدي في تحامله على أبي تمام وفي تقصيره الذي قصره في حقه.

ويواصل عبدالله الطيب دفاعه عن أبي تمام وتثمينه التزامه الشعري وطريقته المميزة في الأداء اللغوي عموما وفي الشعر خاصة أنه يصطاد المعاني الدقيقة اللطيفة ولكن يعبر عنها في أساليب موشاة بالمحاسن وبالبديع بصورة هو الأصيل فيها وليس بالمقلد؛ يقول عبدالله الطيب في ذلك:

"وعندي أن أمر بديع أبي تمام لم يكن أمر كمّ بالنسبة إلى أبي مسلم وبشار، أو بالنسبة إلى القدماء. قد أدرك أبو تمام سر ما حجر منه النواسي (أبو نواس) وأصاب جوانب من حل مشكلته، وذاك أن القريض ينبغي أن يُسار بآخره، على ما سار عليه أوله،

* لين في غير ضعف وهو صفاء الديباجة ونقاؤها وجودتها

* وشدة في غير عنف وهو بداوتها ومتانة أسرها وجزالتها.

وسر الديباجة كامن في الفصاحة وسلامة الذوق في اختيار الألفاظ وصياغة التراكيب. وسر البداوة والجزالة كامن في الإقدام على المعاني والقول بلا تهيب. ويجمع بين السرين مزاوج بينهما، ويؤلف انسجامها صدق بيان الشاعر عن قلبه ولذلك زعم الجاحظ في "البيان والتبيين" أن:

* المعاني أسرارٌ مستكنة في القلوب،

* وهو لا يناقض قوله أن "المعاني مطروحة في الطريق"، بل يكمله ويتممه: معاني الحب من وجد ولوعة وشوق وغيرةٍ وما أشبه مطروحة في الطريق، يتفاوت في توليد دوافعها أهل البيان! ولكن حب جميل "بثينة" وإحساسه كذا وكذا من وصلها وبينها وأماني النفس مقبلةً إليها أو منحرفة عنها سرٌ كامن في قلبه؛ افصح بيانه عنه، فاختلفت معانيه التي أبان بها فيه عن معاني كثيرة إختلافاً جعل النقاد يقولون: "جميل" أصدق صبابة وإن "كثيراً" كان يكذب!

وهذا مجرد تمثيل به حال المعني في كونه معرضاً أي ممكناً وفي كونه مستعصياً مستكناً يحتاج الشاعر في استخراجه إلى صدقٍ عن نفس وجسارةٍ لا تهيب أن يقول فيبين عما أحس، ومقدرة على الأداء الفصيح المعبر. الفصاحة عنصر يستفاد بالدربة وكذلك

التجويد. أما الصدق والجسارة فهما أصلان لا يُغني مكانهما شيء من صنعة أو تفاصح وتجويد[1]".

ويسترسل عبدالله الطيب في توضيح مكانة أبي تمام كشاعر عظيم وكأديب مطبوع، صاحب مدرسة في الأداء اللغوي هو فيها سابقٌ أصيل غير تابع مقلد:

"وقد أوتي أبو تمام ملكةً وعلماً وفصاحةً وذوقاً ناقداً. وكان ذا فطنة حادةٍ تقهرُ بوادرُها الخصوم، وأدرك بها أن الشعر في ذات نفسه طبيعة بداوة، ليس معدنها هو معدن جلافة الأعراب، ولكنه شيء فكري فني محض، كان عند القدماء طريقة قول ومذهب أداء يضمنونه الحكمة والوصف والغزل والمدح والهجاء وهلم جرا. وينبغي أن يكون الآن، كما قد كان في الماضي، طريق قول ومذهب أداء يتضمن الحكمة والوصف والغزل والمدح والهجاء وهلم جرا[2]".

إذن نخلص إلى الصورة الآتية عند أبي تمام:

* أنه قمة من قمم الأدب والشعر عند العرب،
* وأنه صاحب مدرسة متميزة في الأداء اللغوي وفي البيان،
* وأنه فوق ذلك شاعر موهوب، غزير الإنتاج، ذو قريحة شعرية سيالة فياضة،
* وأنه مع ذلك، كان أستاذاً متميزاً، وحبراً علامة في الإحاطة بأشعار العرب وبمعرفة الجيل الخالد منها. ولذلك عمد إلى الإختيارات والمفضليات الكثيرة التي جمعها، خدمة للعلم وتواصلاً مع الأجيال القادمة، وأعظم تلك الإختيارات "ديوان الحماسة" عنده الذي جمع فيه أقوال الشعراء العرب في الشجاعة.
* وأبو تمام سابق للمتنبيء إذ أنه عاش في نهاية القرن الثاني الهجري وحتى الربع الأول من القرن الثالث الهجري وكان قصير العمر والأجل (١٩٠-٢٣١هـ) والمتنبيء جاء بعده وعاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وكان أيضاً قصير العمر والأجل (٣٠٣-٣٥٤هـ)
* ولكن الطائي كان ذا طبيعة سهلة مرحة يحب الفكاهة ويتعاطاها ولكنه لم يكن خليعاً أو ماجناً بأية حال من الأحوال، ولم يكن زنديقاً كذلك. ولكن - وكما هي العادة في التراث العربي - خاصة في الفترات المظلمة الآفلة لا أحد ينجو من محاولة لإغتيال

(١) المرشد - الجزء الرابع، القسم الأول ص ٦٩٧.
(٢) المرشد - الجزء الرابع، القسم الأول ص ٦٩٨.

شخصيته الأدبية . واتهاماً بالزندقة أحياناً، واتهاماً بالكفر الصراح أو الخلاعة والمجون أحياناً أخرى. وهذا شيء يؤسف له ولكن ينبغي التنبيه إلى وجود تلك المناحي والجوانب المظلمة في التراث الأدبي العربي، للاحتراز منها أن تؤثر في التقويم الموضوعي لذلك التراث الخالد.

ولقد حاولنا الإشارة السريعة إلى الجوانب السلبية في شخصيات كل من المعري وأبي الطيب المتنبيء من ذي قبل في هذه الدراسة العجولة . .

أبو تمام الطائي وأشعار الحماسة:

قلنا إن من الآثار الخالدة الباقية لأبي تمام ديوانه "الحماسة" الذي ضمنه مفضلياته من الشعر الحماسي الذي يقال في الشجاعة. وينبغي أن نعطي القاريء لمحة سريعة عن هذا الشعر الحماسي، لأن في ذلك مزيد من الفهم والايضاح لشخصية أبي تمام الطائي وكذلك الإلماح إلى وجدان العرب كأمة مجيدة تتغنى بالشجاعة وتقدرها تقديراً عالياً، كقيمة عظيمة من قيم الإنسانية، وكجوهرة عظيمة في المنظومة الأخلاقية التي تشكل مكارم الأخلاق لدى الإنسان. فالعرب كانوا وما يزالون يثمنون عالياً الشجاعة كقيمة أخلاقية ويتغنون بها، ويلهجون بمكانتها في المنظومة القيمية التربوية التي تشكل الأساس الصلب لبناء الشخصية العربية والهوية الثقافية للإنسان العربي، لأن الجبان لا يصلح لعمل شيء وهيهات . . هيهات له أن يكون عظيماً أو كريماً أو بطلاً في شأن من شئون الحياة!!

لو كنت من مازن

افتتح أبو تمام ديوانه "الحماسة" بقصيدة رائعة، تمثل قيمة الشجاعة كما ينبغي أن تكون ذريعة فعالة لصد الظلم وتأديب الظالمين والمعتدين. وشاعر هذه القصيدة الرائعة قريط بن أنيف العنبري، وهو شاعر إسلامي؛ والواقعة التي قال فيها هذه الأبيات هي أنه أغار عليه ناس من بني شيبان فأخذوا له ثلاثين بعيراً، واستنجد بقومه فلم ينجدوه فأتى مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ومالك هذا هو أخو العنبر بن تميم (قوم قريط بن أنيف) صاحب المشكلة فأنشد:

لو كنت من مـــازن لم تســـتــبح إبلي
بنو اللقــيطة من ذُهل بن شــيــبــان[1]

إذن لقــام بنصــري مــعــشــر خــشن
عند الحــــفــــيظة إن ذو لوثة لانا

قـــومٌ إذا الشـــر أبدى ناجـــذيه لهم
طاروا إليـــه زرافـــات ووحـــدانا

لا يســـألون أخـــاهم حين يندبهم
في النائبـــات على مـــا قـــال برهانا

لكن قـــومي وإن كـــانوا ذوي عـــدد
ليـــســـوا من الشـــر في شيء وإن هانا

يجـــزون من ظلم أهل الظلم مـــغـــفـــرة
ومن إســـاءة أهل الســـوء إحـــســـانا

كـــأنّ ربك لم يخلق لخـــشـــيـــتـــه
ســـواهم من جـــمـــيع الناس إنســـانا

فليت لي بهم قـــومـــاً إذا ركـــبـــوا
شـــدّوا الإغـــارة فـــرســـاناً وركـــبـــانا[2]

وقال الفند الزماني في حرب البسوس، وهو من بني حنيفة أحلاف بكر بن وائل في حرب البسوس. وقد كان الفند شاعراً وفارساً جاهلياً عمّر أكثر من مائة عام. وهو أحد فرسان ربيعة بن زمان الحنفي:

صـــــفـــــحنا عن بني ذهل
وقـلـنـا الـقـــــــوم إخـــــوانُ

---

(١) ويروى هذا البيت كذلك على النحو التالي:.
لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
بنو الشقيقة من ذهل بن شيبان.
لأن الشقيقة هي بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيبان، أما اللقيطة فهي من فزارة ولا صلة لها ببني شيبان!.

(٢) أبو تمام: ديوان الحماسة، شرح العلامة التبريزي.

عسى الأيام أن يرجعن
قوماً كالذي كانوا

فلما صرّح الشر
فأمسى وهو عريانُ

ولم يبق سوى العدوان
دناهم كما دانوا

مشينا مشية الليث
غداً والليث غضبانُ

بضرب فيه توهينٌ
وتخضيع وإقران[1]

وبعض الحلم عند الجهل
للذلة إذعانُ

وفي الشر نجاة حين
لا ينجيك إحسانُ

وقال (سعد بن ثابت)، وهو من بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم (وهم كما ترى قوم اشتهروا بالشجاعة) "لو كنت بن مازن" :

سأغسلُ عنى العار بالسيف جالباً
عليّ قضاء الله ما كان جالباً

وأذهل عن داري وأجعلُ هدمها
لعرضي من باقي المذمة حاجبا

ويصغرُ في عيني تلادي إذا انثنت
يميني بإدراك الذي كنتُ طالبا

فإن تهدموا بالغدر داري فإنها
تراثُ كريم لا يبالي العواقبا

(١) الإقران هو الاسترخاء والتطويع .

أخي عـــــزمــــات لا يريد على الذي
يهمُ به من مــقطع الأمــر صــاحــبــا
إذا هـمَّ لـم تُروِّع عـــــزيـة همّـــــه
ولم يأت مــا يأتي من الأمـــر هائبــا
فــيـــا ل رزام رَشّــحـوا بي مـقــدمّــاً
إلى الموت خـــوضـــا إليـــه الكتــائبــا
إذا همّ ألقى بين عــينيـــه عــزمـــه
ونكبٌ عن ذكـــر العـــواقب جــانبــا
ولم يســتــشــر في رأيه غــيـر نفسـه
ولم يرضى إلا قــائم السـيف صــاحــبــا

وقال تأبط شراً وهو من الصعاليك العدائيين، من بني فهم وفهم وعدوان أخوان . . وهو ثابت وكنيته أبو زهير، وقيل سمي تأبط شراً، لأن أمه سئلت عنه وكان قد أخذ سكينا تأبطها وخرج فقالت "تأبط شراً وخرج" فسمي من يومها "تأبط شراً"، وهو من "أغربة العرب" أي الشعراء السود الذين هم خُالصـين من عرب وأفارقة مثل عنترة بن شداد ولهذه الأبيات قصة :

حوصر (تأبط شراً) في شعب أحد الجبال بواسطة جماعة من أعدائه، فقالوا له :

إما أن تستأسر أو نقتلك؛ وكان يحمل في يده ماعونا به عسل، فدلقه على الصخرة التي كـان عليـها وانحدر بذلك إلى الجانب الآخر من الجـبل، فنجا من الأسر والموت كليهما، وقال :

إذا المرء لم يحــتل وقـــد جــد جــده
أضـــاع وقـــاسى أمـــره وهـو مـــدبرُ
ولكن أخـــو الحـــزم الذي ليس نازلاً
به الخطب إلا وهو للقــصــد مُـبـصـــرُ
فــذاك قـــريع الدهر مـــا عـــاش حُـوّلٌ
إذا سُــد منه منخـــرٌ جـــاش منخــرُ

وقال قطري بن الفجاءة (أحد فرسان الخوارج وكانت عنده "أم حكيم" يحبها كثيراً وله فيها شعر حسن وكانت من الجميلات ولكنها أيضاً شجاعة ومن الفوارس وذات دين وتقوى):

أقول لها وقد طارت شعاعاً
من الأبطال ويحك لا تُراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم
على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً
فما نيل الخلود بمستطاع

وقال (بشامة بن حزن النهشلي، شاعر إسلامي من بني قيس بن ثعلبة):

إنا محيوك يا سلمى فحيينا
وإن سقيت كرام الناس فأسقينا
وإن دعوت إلى جُلّى ومكرمة
يوماً سراه كرام الناس فادعينا
إنا بنو نهشل لا ندّعي لأب
عنه ولا هو بالأبناء يشرينا
إن تُبتدر غايةٌ يوماً لمكرمة
تلق السوابق[1] منا والمصلينا[2]
وليس يهلك منا سيدٌ أبداً
إلا افتلينا غلاماً سيداً فينا
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا
ولو نُسام بها في الأمن أغلينا

(١) و (٢) السوابق والمصلينا هي الخيل التي تأتي في المرتبة الأولى والثانية في السباق وتسمي العشرة الأوائل في السباق كالآتي (١) السوابق (٢) المصلينا (٣) المسلى (٤) العاطف (٥) المرتاح (٦) الحظى (٧) المؤمل 'وهذه السبعة لها جوائز.(٨) اللطيم (٩) الوغد (١٠) السكيت وهذه الثلاثة الأخيرة لا جوائز لها.

بيض مـــفـــارقنا تغلي مـــراجلنا

نـأسـوا بأمـــوالـنـا آثار أيديـنـا

إني لمن مــعــشـــر أفنى أوائلهُم

قـــيلُ الكُمـــات أين المحـــامــونا

لـو كـــان في الألف منا واحـــدٌ

فـدعـوا من فـارسٌ؟ خـالهم أياه يعنونا

إذا الـكـمــاة تـنحـــوا أن يصيـبـهـم

حـــد الـظـبـــاة وصلناها بـأيديـنا

وقال السموأل بن غريض بن عادياء، صاحب الحصن الذي يسمى "الأبلق" بتيماء شمال المدينة. يضرب به المثل في الوفاء، ترك إبنه اليافع يُقتل أمامه ورفض أن يُسلم وديعة أمرؤ القيس وهي عبارة عن دروع الملك والد أمرؤ القيس.

قال السموأل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عـــرضـــه

فـكـل رداء يـرتـديه جـــمـــيـــلُ

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمـهـا

فليس إلى حـــسن الثناء ســبـيـلُ

تعـيّـــرنا أنا قليل عـــديدُنا فـــقلتُ

لــهـــــا إن الـكـرام قـلـيـلُ

ومـــا قل من كـــانت بقـــاياه مـــثلُنا

شـبـــابٌ تسـامي للعـــلا وكـــهـولُ

ومـــا ضـــرنا أنا قليل وجـــارنا عـــزيزٌ

وجـــار الأكـــثـــرين ذليـلُ

وإنا لقــوم لا نرى القــتل ســبــة

إذا مـــا رأتـه عـــامـــر وسلولُ

يقـــرب حبُ الموت آجـــالنا لـنا

وتكرهُـه آجـــالُهـم فـــتطولُ

وما مات منا سيد حتف أنفه

ولا طلَّ منا حيث كان قتيلُ

تسيل على حد السيوف نفوسنا

وليست على غير السيوف تسيلُ

إذا سيد منا خلا قام سيدٌ

قؤولٌ لما قال الكرام فعولُ

وما أخمدت نارٌ لنا دون طارق

ولا ذمنا في النازلين نزيلُ

وأيامنا مشهورة في عدونا

لها غُررٌ معلومة وحجولُ

وأسيافنا في كل غرب ومشرق

بها من قراع الدارعين فلولُ

سلي إن جهلت الناس عنا فتخبري

وليس سواء عالمٌ وجهولُ

***

وقال أبو النشناش - كان من صعاليك العرب - يذم الفقر والقعود والذل ويشيد بالكد من أجل المال والعزة والمجد:

إذا المرء لم يسرح سواماً ولم يرح

سواماً ولم تعطف عليه أقاربه

فللموت خير للفتى من قعوده

عديماً ومن مولى تدب عقاربه

ونائية الأرجاء طامسة الصوى

خَدَت بأبي النشناش فيها ركائبه

ليكسب مجداً أو ليدرك مغنماً

جزيلاً وهذا الدهر جم عجائبه

وسائلة بالغيب عني وسائل

ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى

ولا كسواد الليل أخفق طالبه

فعش معدماً أو مت كريماً فإنني

أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه

***

وقال عروة بن الورد العبسي، من صعاليك العرب، يستنهض أصحابه للكفاح من أجل المجد أو الجدّ في طلبه، حتى إذا فشل المسعى أو خاب أُعذروا ولم ينعوا أنهم لم ينهضوا وظلوا قعوداً همّداً:

فقلت لقوم في الكنيف تروحوا

عشية بتنا عند (ماوان) رزّحُ

تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم

إلى مستراح من حمام مبرحُ

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً

من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو يصيب رغيبة

ومُبلغُ نفس عذرها مثل منجح

* الكنيف: الحظيرة من الشجر (أو الأيكة)

* "ماوان" اسم ماء

* تروحوا يعني سيروا وقت الرواح

* المستراح: الاستراحة

* الحِمام يعني الموت

* المنجح يعني الغانم

* يطرح نفسه كل مطرح يعني يخوض كل بلاء ومشقة

وهذه الأبيات تذكر بأبيات أمرؤ القيس، عندما قرر اللجوء إلى القيصر، يطلب منه مساعدة لينال ثأر أبيه عندما قُتل:

بكى صـــاحـــبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقـــان بقيـــصـــرا*

فـــــقلت له لا تبك عـــــينيك
إنما نحـــاول ملكاً أو نموت فنعـــذرا

وبلوغ العذر أن يقال أن الفتى لم يكن خاملاً هامداً كسولا ، ولكنه سعى وحاول كل طريق للنجاح ولكنه فشل ، فهذا هو عذره .

وفي هذا المعنى قول المؤمنين من قوم موسى في القرآن الكريم :

قال تعالى :

﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ (الأعراف : ١٦٤)

وقال سنان بن الفحل بن طيء يدفع عنه تهمة الجنون أو السكر ويعتذر إلى قومه عن البكاء بقوله إنه ظُلم ظلماً شديداً. والعرب كانت تُعيّر (أي تُعيب) الرجل إذا بكى ، لأنهم كانوا أقوياء القلوب ، قساتها :

وقـــالوا قـــد جننت فـــقلت كـــلا
وربي مـــا جننتُ ولا أنتـــشـــيتُ

ولـكـنـي ظـلـمـتُ فـكـدتُ أبـكـي
مـن الـظـلـم المـبين أو بـكـيـتُ

فـــإن الماء مـــاء أبي وجـــدي
وبئـــري ذو حـــفـــرتُ وذو طويتُ

وقـــبلك رب خـــصـم قـــد تمالوا
عليّ فـــمـــا هلعت ومـــا دعـــوتُ

ولكني نصـــبتُ لهم جـــبـــيني
وآلـة فـــارس حـــتى قـــريتُ

---

* وروي هذا البيت أيضاً على الصيغة التالية :-
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا .

ذو – في لغة قبيلة طيء – معناها "الذي" أو "التي" فهي البئر التي حفرها والتي أصلحها.

وقال أوس بن حبناء التميمي (وحبناء أمة التي إليها ينسب) وهو شاعر إسلامي:

إذا المرء أولاك الهوان فأوله
هواناً وإن كانت قريباً أواصره
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه
فذره إلى اليوم الذي أنت قادره
وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة
وصمم إذا أيقنت أنك عاقره

ونختم هذه المختارات من "ديوان الحماسة" لأبي تمام، بمواصفات البطل عنده التي هي في الواقع بعض مواصفات البطل عند صعاليك العرب، وهذه مأخوذة بوجه عام من قيم العرب ورؤيتهم لشخصية البطل العربي كيف تتكون، وكيف تبلغ غاياتها؛ لان الصعاليك وإن كانوا خلعاً من أقوامهم وقبائلهم وعشائرهم، إلا أنهم في النهاية ما هم إلا نتيجة تربية عربية أصيلة، ويمثلون جزءاً من عنفوانها القومي، وإن كانوا قد انتهكوا بعض قواعد الشرف العربي في بعض جوانبه:

قليل التشكي للمهم يصيبه
كثير الهوى، شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسي بغيرها
جحيشاً ويعروري ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحي
بمنخرقٍ من شدةِ المتدارك
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل
له كالئٌ من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه
إلى سلةٍ من حد أخلق باتك

إذا هزّه في عظم قِرن تهللت
نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي
بحيث اهتدت أمُ النجوم الشوابك
فذاك إن يلق المنية يلقها
حميداً وإن تستغن يوماً فأجدر

***

والبطل العربي، مهما تعاظمت حميته، وكبرت ضغائنه ومهما كان موتوراً وغاضباً، يعلم أن للنزاع الدامي حدوداً يفرضها العقل، كما تفرضها مراعاة حرمة الأقارب والأرحام ومعزتهم عنده وأنه إذا قتلهم أو رماهم فإنه سيكون نفسه قد قتل أو رمي:

قومي هم قتلوا أميم أخي
فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوتُ لأعفون جللاً
ولئن سطوتُ لأوهنن عظمي

فلا بد للبطل الشجاع أن يكون عاقلاً ذا رؤية ونظر فإن التهور ليس من الشجاعة في شيء، فالشجاعة وسط ذهبي بين الجبن والتهور!!

نكتفي بهذه اللمحات السريعة عن شخصية أبي تمام فلسنا بصدد دراسة مستفيضة عن هذا الشاعر الأديب وأنى لنا ذلك، وكيف نستطيعه في هذه العجالة وإنما حاولنا فقط أن نتبين نوعاً ما أثر أبي تمام في شخصية عبدالله الطيب، وما نزعم إننا أحطنا بذلك إحاطة كبيرة ولكن حسبنا أن ألممنا شيئاً قليلاً من الإلمام بأعجاب عبدالله الطيب بأبي تمام وهذا الذي حاولناه إنما هو غيض من فيض، فعبدالله الطيب قد عاش مع أولئك الشعراء العمالقة سنوات طويلة من عمره، ومن تجربته ومعاناته العظيمة بالتراث الأدبي والشعري العربي الذي هو كل حياته الواعية وكل تجربته الناجحة.

وفيما يلي، سوف نتناول - أيضاً بشيء من الإيجاز الشديد - بعض اتصاله بكل من أبي عبادة البحتري (الطائي الثاني) وابن الرومي ولن نمكث كثيراً مع البحتري، لأنه قد تأثر كثيراً بأبي تمام، كما ألمحنا إلى ذلك أعلاه - وهو نفسه يعترف لأبي تمام بالأستاذية وأنه قد

أخذ الكثير والكثير جداً من أبي تمام. ولكن بعد كل ذلك يبقى البحتري صاحب مدرسة متميزة في الشعر وكذلك في الأداء اللغوي.

أما ابن الرومي، فهو مدرسة كاملة ومتميزة لوحدها وهو يستحق دراسة كاملة ومنهجية لأنه شاعر من الطراز الأول وأديب ومفكر وصاحب موقف متميز من الحياة كلها ومن الوجود ولكننا بالرغم من ذلك، فلا يهمنا في هذه الدراسة إلا إلى أي حد وفق عبدالله الطيب لتقويم موضوعي لابن الرومي ومدى تأثر البروف بهذا الشاعر الصوفي العملاق، صاحب الأثر الخالد في الأدب والشعر الهجاء المتشائم.

البحتري في حياة عبدالله الطيب:

يتفق كثير من النقاد أن أمر الشعر - في العصر الإسلامي - قد انتهى إلى القمم الثلاث:

١- المتنبيء

٢- أبو تمام

٣- أبو عبادة البحتري

وتعقد المقارنة دائماً بين هؤلاء الثلاثة، ولكنها تعقد في أكثر الأحوال بين أبي تمام والبحتري والسبب في ذلك أن الثاني هو بلا ريب تلميذ الأول، أخذ عنه الكثير والكثير جداً، خاصة طريقة سبك الألفاظ على المعاني والقدرة الفذة في اقتناص الألفاظ الجزلة المناسبة للمعنى الفذ الدقيق - غير أن الجميع يعترفون أن التلميذ (البحتري) قد بزّ أستاذه في هذا المنحى.

ويذكر كثير من النقاد والناظرين في شعر البحتري وفي قدرته الفذة على التغني بالألفاظ، حتى وصف بأنه صاحب السلاسل الذهبية، يذكرون قول "ابن الأثير" في كتابه "المثل السائر" وهو يتحدث عن البحتري المقولة التالية:

"وسئل أبو الطيب المتنبيء عنه، وعن أبي تمام وعن نفسه، فقال:

"أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري"

يضيف ابن الأثير؛ معلقاً على مقولة أبي الطيب المتنبيء عن البحتري:

"ولعمري إنه أنصف في حكمه، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه: فإن أبا عبادة البحتري أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء، في اللفظ المطبوع من سلاسة

الماء، فأدرك في ذلك بُعد المرام، مع قربة الأفهام؛ وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بأخلاط الغالية، ورقى في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية ".

ويقول عبدالله الطيب[1] إن صاحب المثل السائر (ابن الأثير) قد أعرض عن ابن الرومي، بالرغم من غلو العقاد رحمه الله في تمجيده أي (إبن الرومي) فقد حصر ابن الأثير الشعر العربي، بعد الإسلام، في ثلاثة شعراء، هم:

لأنه وعزاه ومناته وهم حبيب والوليد وأحمد (يعني المتنبيء).

يقول عبدالله الطيب إن ابن الأثير ما كان يجهل قدر ابن الرومي ولكنه قد وجد إجماع النقاد على ذلك قد انعقد!!

وبعد أن فرغ عبدالله الطيب من تقويم منزلة أبي تمام بأنه السابق في سبك المعاني الدقيقة الغائصة مع الألفاظ المعبرة وأنه كان يفعل ذلك لتمكنه من أبواب المعاني من استعارة وإشارة وتجنيس وتعليل، خلص إلى أبي عبادة البحتري، لأنه تلميذ أبي تمام الفذ الأوحد[2].

" ولا مزيد على ما قاله ابن المعتز بالنسبة إلى مكان البحتري، على أنه قد انفرد بديباجة لا يدانيه فيها من المحدثين شاعر، وسر جودة ديباجته أنه كان يتغنى من أعماق قلبه وقد عرف القدماء هذا من أمره، ولخّصه ابن الأثير في قوله:

" أراد أن يَشْعُرَ فغنى " وقال ابن الأثير قبل ذلك عن البحتري:

" وأما البحتري فأجاد سبك اللفظ على المعنى "

يقول عبدالله الطيب في نفس المقالة[3]:

" على أن أمر البحتري قد يتجاوز "لمجرد سبك اللفظ على المعنى إلى درجة هي أسمى من ذلك.. ذلك بأن الشعر إنما وُضع للغناء والترنم، فقد تجاوز البحتوي مرتبة الشعر الأولى إلى الثانية (يقصد أن مرتبة الشعر الأولى هي سبك المعاني على الألفاظ وأن مرتبته الثانية هي الغناء، والترنم"

ويتابع عبدالله الطيب تقويمه لمكان البحتري، فيقول[4]:

" ذلك بأن الشعر معان وألفاظ، يُلبسُها التعبيرُ بالإيقاع بعد ذلك، فتقلبُ روحانية

---

(١) "عبدالله الطيب: المرشد" الجزء الرابع، القسم الأول: ص ٧٣٧، طبعة جامعة الخرطوم.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٠٠.

(٣) عبدالله الطيب" "المرشد – الجزء الرابع – القسم لاأول: ص ٧٠١.

(٤) المرجع السابق ص ٧٠١.

الإيقاع على كل مادة من الأجناس الأخرى المؤتلفة والمؤلب منها الشعر" .

يقول عبدالله الطيب أنه كان يُعجب كيف فرق المنفلوطي في النظرات، بين قطعة شعرية وأخرى، فقال عن الأولى إنها شعر .

وقال عن الثانية :

إنها غناء .

ويقول إنه أدرك معنى ما ذهب إليه المنفلوطي من أن الشعر إذا سما ورقى صار غناءً خالصا عندما درس شعر البحتري[1] .

وتأمل قول "ابن الأثير" إن البحتري "أراد أن يشعرَ فغنى" .

مقارنة أخرى بين أبي تمام والبحتري:

ويلجأ عبدالله الطيب إلى المقارنة مرة أخرى بين أبي تمام الأستاذ وأبي عُبادة التلميذ . فيقول إنه إذا عزيت عبقرية البحتري إلى قدرته الفائقة بالبلوغ بالشعر إلى درجة الغناء والترنيم، فإن أبا تمام قد تغنى كذلك بالشعر :

يقول عبدالله الطيب إن أبا تمام كان يتغنى ويحسن رنة الترنم بلا ريب ومن شواهد ذلك قوله :

أبقى أبوك ومـــزيدٌ وأبوهمـــا
وأبوه ركنك في الفخار مشيدا

طلبت ربيع ربيعــة المُمْـهى لها
فتفـيــأت ظلاً لهــا ممدودا

بكريّهــا علويّهــا صعبيّهــا
الحصنيّ شيبانيهـّـا الصنديدا

ذُهليهــا مُـرّيّهــا مطريّهــا
يُمنى يديهــا خـالد بن يزيدا

نسبٌ كــأن عليـــه من شمس
الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا

---

(١) المرجع السابق: ص ٧٠١ .

ثم يستطرد عبدالله الطيب بعد ذلك فيعود إلى مقارنة ذلك بأسلوب أبي عُبادة البحتري، قائلاً[1] :

" ولكنه – أي أبي تمام – لم تكن له، على جزالة ومتانة أسره، ديباجة البحتري، حين يبلغ بها أشدّها، ديباجة البحتري هبة وهبها الله . . أصاب إبن رشيف حيث ذكر أنه كانت للبحتري صناعة خفية " ولكنه كان مطبوعاً مع ذلك، وإمتزاج الصنعة مع الطبع عنده، نشأ منه "سلسال ديباجة الحصَب" إنتهى كلام عبدالله الطيب .

هذا السلسال أجمع النقاد على تسميته "بسلاسل الذهب" كما أسلفنا القول .

يقول عبدالله الطيب[2] إن ديباجة البحتري الذهبية هي :

" تنعيم للمذهب الجلد الجبار الذي جاء به أبو تمام، ولكنها في ذات نفسها فتح مبين، ومسلك فذ وبداوة شعرية قائمة بذاتها " .

ويقول عبدالله الطيب إن بداوة أبي تمام نشيئة فحله القطم الذي ذكره في بائيته :

على كل مـــوار الملاط تهـــدّمت

عـــريكتـــه العليـــاُ وانضم حـــاليـــه

وإما بداوة إبي عبادة البحتري فمثلها – يقول عبدالله الطيب – كمثل قلوُصه التي ذكرها فقال :

حنّت قلُوصي بالعـــراق وشـــاقـهـــا

في نـاجـــرٍ برد الشـــام وريفـــه

وهذه البداوة البحترية أشبه شيء ببداوة عنترة في كامله (بحر الكامل) :

مـــا راعني إلا حـــمـــولة أهلهـــا

وسط الديار تسف حب الخـــمـــخم

بهـــا اثنتـــان وأربعـــون حلوبة

سوداً كـخافـيـة الغـراب الأســحم

يقول عبدالله الطيب إن البحتري قد نظم في كل بحور الشعر "في الطويل والبسيط والخفيف وسواهن، ورنة ديباجته في جميع أولئك لها نغمُ وإيقاعٌ واقدٌ وهاج . إلا أنها في

(١) عبدالله الطيب، "المرشد" الجزء الرابع – القسم الأول ص ٧٠٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٧٠٢ .

الكامل أظهرُ وأشدُّ وقدة ووهجا. وقد استشهد الدكتور طه حسين في ذلك بعينية أبي عبادة البحتري:

منى النفس أسماء لو تستطيعُها
بها وجْدها من غادة وولوعها

ويشيء من خفيفه:

لي حبيب قد لجّ في الهجر جدا
أيها العاتب الذي ليس يرضى[1]

انتهى كلام عبدالله الطيب.

ولكن عبدالله الطيب يرى أن البحتري يبلغ في مذهبه الغنائي الفذ هذا وفي ديباجته الذهبية تلك أقصى درجات الإبداع في بحر الكامل. ثم يعرج مرة أخرى على أبي تمام ويستدرك في ذلك القول أن أبا تمام جيد الغناء والترنم في بحر الكامل أيضاً!

ثم يعود عبدالله الطيب إلى البحتري فيورد أبياته التي جارى فيها معلقة عنترة، ويرى عبدالله أنها من روائع البحتري في بحر الكامل: قال البحتري يمدح الهيثم بن عثمان الغنوي[2]:

هَذي المعاهِدُ من "سُعَادَ" فَسلِّمِ
واسأل وإن وجِمتْ فَلَمْ تتكلَّمِ

آيات ربع قد تأبد منجد
وحُدُوجُ حَيّ قد تحمل مُتْهِمِ

لُؤمٌ بِنَارِ الشَّوْقِ إن لَمْ تحتدم
وضنانةٌ بالدمع إن لم يسجُمِ

وبسقطِ العلمين ناعمة الصِّبا
حَيْرَى الشباب تبينُ إن لم تصرمِ

بيضاء تكتمها الفِجاج وخلفها
نفسٌ يصعدهُ هوى لم يكتمِ

(١) "المرشد" الجزء الرابع، القسم الأول ص ٧٠٣.

(٢) ديوان البحتري، المجلد الرابع، ص ٢٠٨٠، تحقيق حسن كامل الصيرفي نشر دار المعارف. القاهرة (بدون تاريخ) الطبعة الثانية.

هل ركب مكة حـــاملون تحــيـــةً

تُهـدي إليــهـــا من مُــعنّى مــغْــرمِ

رد الجــفــون على كــرّى مــتــبــدّدٌ

وحــتى الضلُوعَ على جوى مُـتَضَـرمِ

يقول عبدالله الطيب إن البحتري له قصائد كثيرة - أولها رائع ولكنه يهبط من هذا المستوى في أواسط هذه القصائد وآخرها ومن أجل ذلك أخره ابن المعتز عن أبي تمام، في رأي عبدالله الطيب.

ويعزو بعض النقاد هذا التذبذب في حرارة الشعر بين مطالع قصائد البحتري ومقاطعها إلى طبيعته البدوية، ولكن عبدالله الطيب يرى أن بداوة البحتري أبداً مخلوطة وممزوجة بحضرية شفافة راقية. فقد عاش البحتري طويلاً في العصور العباسية في بغداد أيام كانت بغداد حاضرة الدنيا، وكانت تلك القصور أسطورية في تأنقها وتألقها، وايغالها في مظاهر الحضارة وزينة الحياة الدنيا وزخرفها، وكانت قاعاتها وأيواناتها تزان بأعظم وأروع الزينات التي عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل، فقد أخذ العرب العباسيون أعظم إنجازات الحضارات الشرقية القديمة من الصين والهند والسند وفارس ويونان، ثم أضافوا إليها كل جديد رائع وكل فن سامق. ولقد جاء في القرآن الكريم أوصاف بديعة للجنان الحسان وما أروع ما فيها من جمال رزينة وزخرف، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من حور مقصورات في الخيام، كأنهن اللؤلؤ والمرجان، وولدان مخلدون، إذا رآهم من رآهم حسبهم لؤلؤاً منثوراً، وجنان عالية رائعة فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة. إلى آخر ما أعده الله للمؤمنين في جنات الخلود. كل ذلك انعكس على طبيعة العمران في العصور العباسية.. وبلغ الترف منتهاه. والزينة غاياتها القصوى، فكانت الحدائق ذات البهجة والمجالس ذات السطوة والأغاني والألحان والشعر والبيان. والعلوم والفنون والجيوش والفتوحات حيث دانت الدنيا من أقصاها إلى أقصاها إلى سلطان المسلمين وجاءتهم الدنيا راغمة. طائعة ومعها متوجاتها من حرير الصين وعطور الهند وبهاراتها إلى فواكه أوروبا وخيراتها. فكان الترف وكان السرف والبذخ، ثم غفل الناس عن شكر المنعم واشتغلوا بصغائر الأمور عن سياسة ذلك الملك العريض. وتلك الأمصار الشاسعة التي عمت العالم قاطبة، وبعد ذلك قلت

الخيرات وشحت الأمطار والغلال، وعندما حدث هذا لجأ الخلفاء والسلاطين إلى الظلم والقهر والكبت والاستبداد والاستئثار بالخيرات دون سائر الشعوب والعباد فقامت الثورات والفتن وبلغ الظلم مداه وهنا جاء الخراب والتدمير لأن تلك سنة الله في الكون.
فالظلم مؤذن بالخراب والتدمير:

قال تعالى:

﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (النحل: ١١٢)

وقال تعالى:

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾ (القصص: ٥٨)

وقال عز من قائل:

﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ (الأنبياء: ١١)

وقال عز وجل:

﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ (الكهف: ٥٩)

بعد التجربة المأساوية الفظيعة وبعد تلك الفاجعة الأليمة التي وقعت أمام عينيه في قصر الخلافة حيث قتل في نفس المجلس الخليفة العباسي، ذائع الصيت المتوكل، صديق البحتري وولي نعمته ومولاه وكذلك وزيره النابهة الفتح بن خاقان في مشهد دام مأساوي لا يمكن نسيانه على مر الأيام، بلغ الأسى مداه عند البحتري، وثارت معان كثيرة من سنن الله في الكون.

هذه المعاني كانت تأجج في ذهن البحتري وهو يقف أمام (إيوان كسرى) المتهدم بالمدائن، حاضرة إمبراطورية الأكاسرة التي دمرها سعد بن أبي وقاص، عندما فتح فارس وأزال دولتهم وحضارتهم المجوسية وأقام على أنقاضها حضارة الإسلام القائمة على التوحيد والعدالة والمساواة وكانت نفس البحتري ما تزال تدمي من جرح نازف، عندما شاهد بأم عينيه أعز صديقين له يقتلان أمامه وهما الخليفة جعفر بن المعتصم المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان. وكان قتلهما آذاناً بسقوط دولة الخلافة العباسية وزوال ملكها السامق وسلطانها الذي بلغ المدى قوة ومجداً وثراء ورفعة. وكانت الحضارة العباسية من أعظم وأزهى حضارات التاريخ وخلفت من القصور والآثار الحضارية ما يزري بآثار الفرس

والروم. ولكنه تلك سنة الله في الكون فالأيام دول والحضارات ما بين ناشيء وزائل، قائم وبائد. فلقد دمر الدهر حضارة الفرس ودمّر رمز سيادتها وعمرانها "القصر الأبيض" الذي كان يعرف (بإيوان كسرى). في المدائن حاضرة الفرس الساسانيين!

يقول عبدالله الطيب، مع كثير من مؤرخي الأدب العربي ونقّاده أن "سينية البحتري" في وصف "إيوان كسرى" المتهدم لتعتبر من أعظم قصائد البحتري، بل وقد تعتبر من أعظم فرائد الشعر العربي قاطبة.

يقول عبدالله الطيب في ذلك[1]:

"وسينية البحتري، وهي من ذراه، بل من ذرى الشعر على وجه الاجمال، جمع فيها بين الديباجة والمهارة والتحليق والعمق، وفيها حُزْنٌ تجعلها هي مرثيته الحقة للمتوكل والفتح وليست رائيته المشهورة "محلٌ على القاطول أخلق داثره" بأخلق منها لهذا الوصف في هذا الصدد. وإنما وصف حال نفسه من قبل ومن بعد حيث قال:

وبعيدٌ ما بين وارد رفه

علَلٌ شربُه ووارد خمس

وقد جرد فيها مع نعومة ريشة المصور حداً مرهفاً من جسارة حُسامُ قلب مفكر. تأمل قوله:

ذكّرتنيهم الخطوب التوالي

ولقد تذكِرُ الخطوبُ وتُنْسي

وهم خافضون في ظل عالٍ

مشرف يُحسر العيون ويخسي

مغلق بأبة على جبل القبق

إلى دارتَي خلاط ومُكْسي

أي كان الإيوان هو جبل القبق، وذلك أنه في أرض منبسطة هو فيها كالجبل بارتفاعه وإشرافه وقد فصل هذا المعنى بقوله (جوبٌ في جنب أرعن جلس..) انتهى كلام عبدالله الطيب.

---

(١) المرشد - الجزء الرابع - القسم الأول، ص.

سينية البحتري:

" وسينية البحتري " في وصف إيوان كسرى، المشار إليها أعلاه مطلعها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت عن جدا كل جبس

وتماسكت حيث زعزعني الدهر
إلتماساً منه لتعسي ونكسي

بلغٌ من صبابة العيش عندي
طففتها الأيام تطفيق بَخْسِ

ويعتبر عبدالله الطيب من النقاد القلائل الذين نظروا في " سينية " البحتري نظرة نقدية تحليلية، واستطاعوا أن يثمنوا هذه القصيدة فيعتبروها درة عالية نفيسة من درر الشعر العالمي الخالد.. من هؤلاء الذين أعجبتهم سينية البحتري فرفعوها إلى مقام الأدب العالمي الخالد :

من القدامى :

- ابن المعتز الذي اكتفى بالاشارة إلى روائع البحتري ومنها "السينية"

ومن المحدثين المعاصرين :

- إيليا الحادي (انظر كتابه : الرومانسية في الشعر الغربي والعربي - دار الثقافة - بيروت ١٩٨٠.

- خليل شرف الدين (انظر كتابه : البحتري ضمن الموسوعة الأدبية الميسرة رقم ٦)

وتقع "السينية" في ستة وخمسين بيتاً في الجزء الثاني من ديوان البحتري[١]، وإليك أبيات هذه (السينية) الرائعة :

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت من جدا كل جبس

وتماسكت حيث زعزعني الدهر
إلتماساً منه لتعسي ونكسي

---

(١) ديوان البحتري ؛ تحقيق حسن كامل الصيرفي - ص (١١٥٢) نشر دار المعارف - القاهرة (بدون تاريخ).

بلغٌ من صبابة العيش عندي

طفقتها الأيام تطفيق بَخْسِ

وبعيدٌ ما بين وارد رَفْه

علل شُربُهُ، ووارد خمس

وكأن الزمان أصبح محمولاً

هواهُ مع الأخسِّ الأخسِّ

وإشترائي "العراق" خُطَّةُ غبنٍ

بعد بيعي "الشام" بيعة وكس

لا ترزني مزاولاً لاختباري

عند هذي البلوى فتنكر مسي

وقديماً عهدتني ذا هنات

آبيات على الدنيات شُمْسِ

ولقد رابني نُبُوُّ ابن عمي

بَعْد لين من جانبيه وأنس

وإذا ما جفيت كنت حرياً

أن أرى غير مصبح حيث أمسي

حضرت رَحلي الهموم فوجهت

إلى "أبيض المدائن" عنسي

أتسلى عن الحظوظ، وآسي

لمحلٍ من "آل ساسان" درس

ذكرتنيهم الخُطُوبُ التوالي،

ولقد تذكر الخطوب وتُنْسي

وهم خافضون في ظل عال

مُشْرِفٍ يحسر العيون ويخسي

مغلق بابه على "جبل القبق"

إلى دارتي "خِلاطَ" و "مُكْسِ"

حللٌ لم تكنْ كأطلال "سُعْدَي"

في قفار من البسابس مُلْس

ومساعٍ، لولا المحاباة مني

لم تطقها مسعاة "عنس" و"عبس"

نقل الدهر عهدهن عن الجدة

حتى رجعن أنضاء لبس

فكأن "الجرماز" من عدم الأنس

وإخلاله بنية رمس

لو تراه علمت أن الليالي

جعلت فيه مأتماً بعد عرس

وهو ينبيك عن عجائب قوم

لا يُشاب البيان فيهم بلبس

فإذا ما رأيت صورة "أنطاكية"

ارتعت بين "روم" و"فُرسِ"

والمنايا موائل، و"أنو شر"

وإن يزجي الصفوف تحت الدرفس

في إخضرار من اللباس على أصفر

يختال في صبيغة ورس

وعراك الرجال بين يديه

في خفوت منهم وإغماض جرس

من مشيح يهوى بعامل رمح

ومليح من السنان بترس

تصف العين أنهم جدُّ أحياء

لهم بينهم إشارة خُرس

يغتلي فيهم ارتيابي حتى

تتقراهم يداي بلمس

قد سقاني ولم يُصَرِّد "أبو الغوث"

على العسكرين شَربة خلس

من مدام تقولها هي نجم

أضوأ الليل أو مُجاجة شمس

وتراها إذا أجَدَّت سُروراً

وارتياحاً للشارب المتحسّي

أفرغت في الزجاج من كل قلب

فهي محبوبة إلى كل نفس

وتوهمت أن "كسرى أبرويز"

مُعاطي، و "البلهبذ" أنسي

حلم مطبق على الشك عيني

أم أمان غيّر ظني وحدسي

وكأن "الإيوان" من عجب الصنعة

جوب في جنب أرعن جلس

يُتظنّى من الكآبة أن يبدو

لعيني مُصبح أو ممسي

مزعجاً بالفراق عن أنس إلف

عزّ، أو مرهقاً بتطليق عرس

عكست حظه الليالي، وبات

المشتري فيه وهو كوكب نحس

فهو يبدي تجلداً وعليه

كلكلٌ من كلاكل الدهر مرسي

لم يعبه أن بُزّ من بُسط الديباج

واستُلّ من ستور الدمقس

مشمخر، تعلو له شرفات

رُفعت في رءوس "رضوي" و "قدس"

لابسات من البياض فما تُبصرُ

منها إلا فلائل بُرسِ

ليس يدري أصنع إنس لجن

سكنوه، أم صنع جن لإنس

غير أني أراه يشهد أن لم

يك بانيه في الملوك بنكس

فكأني أرى المراتب والقوم

إذا ما بلغت آخر حسي

وكأن الوفود ضاحين حسري

من وقوف خلف الزحام وخنس

وكأن القيان وسط المقاصر

يرجعن بين حُوٍّ ولعس

وكأن اللقاء أول من أمس

ووشك الفراق أول أمس

وكأن الذي يريد اتباعاً

طامع في لحوقهم صبح خمس

عمرت للسرور دهراً فصارت

للتعزي رباعهم والتأسي

فلها أن أعينها بدموع

موقفات على الصبابة حبس

ذاك عندي، وليست الدار داري

باقتراب منها ولا الجنس جنسي

غير نُعمي لأهلها عند أهلي

غرسوا من زكائها خير غرس

أيدوا مُلكنا، وشدوا قواه

بكماة تحت السنور حُمس

وأعـــانُوا على كـــتـــائب "أرياط"

بطعن على النحـــــور ودعس

وأراني من بعـــد أكلف بالأشـــراف

طُـــراً مـــن كـــل سِـــنـخٍ وإسْ

شرح معاني بعض الكلمات الواردة في قصيدة (ايوان كسرى) أو "سينية" البحتري :

١- جدا : عطاء

٢- جبس : الجبس هو الجبان واللئيم والفاسق وثقيل الروح .

٣- النكس : هو سقوط الرجل كلما نهض أو انقلاب الرجل على رأسه .

٤- البُلَغ : جمع بُلْغة وهي ما يتبلغ به في العيش ولا يبقى منه شيء .

٥- الصُبابة : البقية من الماء .

٦- التطفيف : النقص في الوزن والتقدير .

٧- الرفة : طيب العيش ولينه .

٨- العلل : هو ورود الماء مرة ثانية بعد الورود الأول الذي يسمى النهل .

٩- الخِمس : من أظماء الابل أربعة أيام وورودها الماء في اليوم الخامس .

١٠- الهنات : خصال الشرط الآثم .

١١- الشُمس : العنيدة التي لا تذل .

١٢- النبو : الجفوة والنفور .

١٣- العنس : الناقة القوية .

١٤- حضرت حِلي الهرم : نزلت وطرأت .

١٥- درس : مندرس وهو ما عفا أثره

١٦- يحسر : يرد البصر كليلا

١٧- تُحسرُ : يُحسر اليك ﴿ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ (الملك : ٤)

١٨- خافضون : ناعموا العيش .

١٩- خلاط : قصبة أرمينية الوسطى ويقال أيضا أخلاط .

٢٠- مكس : اسم مكان في ارمينيا .

٢١- حلل : جمع حلة وهي المنازل (مجموعة المنازل) .

٢٢- البسابس : القفار.

٢٣- ملس : لا نبات فيها، عارية من الغطاء النباتي.

٢٤- المساعي : المُكرمات، وأحدثها مسعاة.

٢٥- عبس : قبيلة عدنانية من نجد.

٢٦- جدة الشيء : حداثته.

٢٧- الانضاء : جمع نضوة وهو المهزول من الحيوان والبالي من الثياب.

٢٨- اللمس : الاستعمال.

٢٩- الجرماز : اسم فارس مقرب للايوان.

٣٠- الإنس : الخُلو من السكان، والأنس، بضم الهمزة بمعنى الوحشة.

٣١- اللبس : عدم الوضوح.

٣٢- يزجي : يسوق.

٣٣- الدرْس : نبت أصفر أو أحمر يُصنع به الخرير والبحتري هنا يصف لون الفرس الذي كان كسرى يمتطيه.

٣٤- المشيح : الحذر المجد.

٣٥- عامل الرمح : صدره أي ما يلي السنان.

٣٦- السنان : نصل الرمح.

٣٧- المليح : هو الخائف الحذر : يقال آلاح منه أي خاف وحذر وأصله الخوف من شيء له بريق.

٣٨- الترس : صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل كدرعة للوقاية من ضربات السنان.

٣٩- يغتلي : أي من الغلو وهو تجاوز الحد والزيادة عليه.

٤٠- تصفُ العين : تتخيل من دقة الصوت.

٤١- تتقراهم : تتبعهم.

٤٢- لم يصرد : لم يقلل!

٤٣- شربة خلس : أي مختلسة سريعة.

٤٤- أبو الغيث : يحيى بن البحتري.

٤٥- المجاجة : هو العريق.

٤٦- أجدّت : أحدثت.

٤٧- المحتس : الذي يشرب شيئاً بعد شيء.
٤٨- البلهبذ : معنى كسرى. وشيرين عشيقته.
٤٩- الحدس : التوهم.
٥٠- الجوب : مصدر جاب الشيء إذا خرقه، والصخرة إذا نقبها قال تعالى ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ (الفجر: ٩) أي ثمود الذين فرقوا الصخر ونحتوه في الجبل وشيدوا بذلك القصور والمعابد في تلك الجبال، كما آثارهم في مدائن صالح، عثمان الجزيرة العربية!
٥١- الأرعن : الجبل ذو الرغي وهو أنف يتقدم الجبل.
٥٢- الجلس : الجبل العالي.
٥٣- يتظنى : يظن.
٥٤- المشترى : أصلا كوكب سعد، ولكن البحتري يقول إنه انقلب كوكب نحس، بما أصاب القصر من مصائب.
٥٥- الككل : الصدر أو ما بين الترقوتين!
٥٦- بزّ : سلب.
٥٧- استلّ : انتزع وأخرج . كما ينتزع السيف من الغمد.
٥٨- الديباج : الثوب الذي سداه ولحمته من الحرير، لفظة فارسية معربة.
٥٩- الدمقس : الحرير الأبيض وهو فارسي معرب أيضاً.
٦٠- المشمخر : العالي.
٦١- الشرفة من القصر : ما أشرف من بنائه.
٦٢- رضوي : جبل.

إلا أن الأئمــــة من قــــريش
أولاة العــــهــد أربعـــة ســـواء

علـى الثــــلاثة من بنيـــــه
هم الأســـباط ليس بهم خــفــاء

فـــســـبطٌ ســـبطُ إيمان وبر
وســـبط غـــيـــبـــيّـــة كـــربلاء

وســـــــــــــــــط لا يــذوق المــوت

حــتى يقــود الخــيل يقــدمــهــا اللواء

تغــــيــــبت لا يرى فــــينا زمـــانا

"برضـــــوى" عنده عـــسل ومـــــاء

٦٣- قدس : جبل .

٦٤- قلائل : جمع قليلة وهي الشعر المجتمع .

٦٥- السبايخ : جمع سبيخة وهي القطعة من السبيخ وهي ما ناثر أو انتفش من الريش أو القطن أو نحوهما .

٦٦- غلائل : جمع غلالة وهي شعار أو قميص يلبس تحت الثوب !

٦٧- البُرس : القطن .

٦٨- النكس : الضعيف الدني الذي لا خير فيه والمقصر من غاية النجدة والكرم .

٦٩- الضاحي : البارز للشمس .

٧٠- حسرى : جمع حسير .

٧١- الخنس : المتأخرون .

٧٢- القيان : الإماء المغنيات ، واحدتهن قينة .

٧٣- المقاصير : جمع المقصورة وهي الدار الفسيحة المحصنة .

٧٤- الحو : ذوات الحوّة وهي سواد إلى الخضرة ، أو حمرة إلى السواد ، وهي صفة للشفاه .

٧٥- اللعس : ذوات اللعس وهو سواد مستحسن في الشفاه .

٧٦- رباعهم : دورهم .

٧٧- محلاتهم : منازلهم .

٧٨- الكماة : الشجعان أو الأبطال لابسي السلاح لأنه يكمن نفسه أي يسترها بالسلاح والدروع .

٧٩- الخمس : الشجعان (من الخماسة) .

٨٠- السنور : كل سلاح من حديد وخاصة الدروع .

٨١- الدعس : الدوس والطعن .

٨٢- أرياط : القائد الحبشي الذي غزا اليمن .

٨٣- السنخ : الأصل والمنبت.

٨٤- الأس : أصل البناء وقاعدته.

ويقال إن "السينية" قالها البحتري وهو يعاني من كارثة مقتل المتوكل ووزيره (الفتح بن خاقان) مباشرة بعد الحادث ويقال إنه ألفها بعد ذلك بزمن أي بعد مضي أكثر من عشرين عاماً على مقتل المتوكل، ولكن حرارة هذه القصيدة والقيمة الفنية المتجسدة فيها تنبيء أنها كانت بنت انفعال عظيم هائل، وهذا يرجح أنها قيلت في زمن قريب من زمن الكارثة التي حلت بالخلافة من ناحية عامة، وبالشاعر البحتري من ناحية خاصة جداً. فقد كانت المصيبة زلزال شديد غيّر كل شيء في حياة البحتري بعد ذلك! والله تعالى أعلم!

روائع البحتري:

وروائع البحتري كثيرة جداً، وديوانه الكبير (خمس مجلدات) مليء بالروائع التي هي قمم في البيان العربي الساحر الآسر؛ ولا غرو في ذلك، فقد وصف البحتري بأنه الشاعر المغني، وكأنه قد أوتي مزمار من مزامير داؤد عليه السلام، فمنذ غنى البحتري، فالكون كله يغني معه، وهو يذكّر في ذلك بداؤد وسليمان إلا أن أولئك أنبياء مكرمون والبحتري شاعر موهوب مطبوع. والموهبة إنما سميت كذلك لأنها فضل الله وعطائه وكرمه ومنه، وهبته!

أورد حسن كامل الصيرفي - محقق ديوان البحتري - شهادة أبو هلال العسكري في كتابه "ديوان المعاني" أن الصولي قال:

"سمعتُ عبدالله بن المعتز يقول:

لو لم يكن للبحتري إلا قصيدته "السينية" في وصف إيوان كسرى، فليس للعرب سينية مثلها وقصيدته في البركة "ميلوا إلى الدار من ليلى يحييها" واعتذاراته في قصائده إلى الفتح. التي ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة إلى النعمان مثلها، وقصيدته في دينار بن عبدالله، التي وصف فيها ما لم يصفه أحد قبله: ألم تر تغليس الربيع المبكر" ووصف حرب المراكب في البحر:

لكان أشعر الناس في زمانه، فكيف إذا أضيف إلى هنا صفاء مدحه ورقة تشببه"[(١)]!

دعنا الآن نستعرض بعض هذه الروائع، ولنبدأ بقصيدته الرائعة الذائعة الصيت والتي مدح فيها الخليفة جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل:

---

(١) حسن كامل الصيرفي: ديوان البحتري المجلد الأول: المقدمة.

البحتري في مدح المتوكل:

قال أبو عُبادة البحتري، يمدح مولاه وولي نعمته الخليفة العباسي المتوكل ويصف خروجه إلى الصلاة يوم العيد:

هذه القصيدة التي تذكر لقصائد المتنبيء في وصف سيف الدولة والتي مطلعها الغزلي:

أخفي هوى لكِ في الضلوع وأظهرُ
وألامُ في كمدٍ عليك وأُعذر

والتي بالغ فيها البحتري حتى قال إن طلعة المتوكل تذكر بطلعة النبي صلى الله عليه وسلم، وتذكر بقصة المنبر التي حن فيها إلى النبي:

يجدون رؤيتك التي فازوا بها
من أنعُم الله التي لا تُكفَرُ

حتى انتهيت إلى المصلى لابساً
نور الهدى يبدو عليك ويظهرُ

ومشيت مشية خاشعٍ متواضعٍ
لله لا يُزهَى ولا يتكبَّرُ

فلو أن مشتاقاً تكلف غير ما
في وسعه لمشى إليك المنبرُ

وإليك أيها القاريء نص هذه الرائعة البحترية كاملة[1]:

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر
والامُ في كمدٍ عليك وأعذر

وأراك خُنت على النوى من لم يخن
عهد الهوى، وهجرت من لا يهجر

وطلبت منك مودة لم أعطها،
إن المُعنَّى طالب لا يظفر

هل دين "علوة" يستطاع فيقتضي
أم ظلم "علوة" يستفيق فيقصر؟

---

(١) ديوان البحتري - المجلد الثاني، ص (١٠٧٠) تحقيق حسن كامل الصيرفي، نشر دار المعارف القاهرة، طبعة ثانية (بدون تاريخ).

بيضاء يُعطيك القضيب قوامها،

ويُريك عينيها الغزال الأحور

تمشي فتحكم في القلوب بدلها

وتميس في ظل الشباب فتخطر

وتميل من لين الصبا فيقيمها

قدٌّ يُؤنث تارة ويُذكَّرُ

إني، وإن جانبت بعض بطالتي

وتوهم الواشون أني مقصرُ

ليشوقني سحر العُيُون المُجتلي

ويروقني ورد الخدود الأحمر

الله مكن للخليفة "جعفر"

مُلكاً يُحسنُه الخليفة "جعفر"

نُعمى من الله أصطفاه بفضلها،

والله يرزق من يشاء ويقدر

فاسلم – أمير المؤمنين – ولا تزل

تُعطي الزيادة في البقاء وتُشكرُ

عَمّت فواضلك البرية، فألتقي

فيها المقلُّ على الغني والمكثرُ

بالبر صُمت، وأنت أفضل صائم

وبسُنّة الله الرضية تُفطرُ

فانعم بيوم الفطر عينا إنهُ

يوم أغرُّ من الزمان، مُشهر

أظهرت عز الملك فيه بجحفل

لجب يُحاطُ الدين فيه وينصر

خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت

عُدداً يسيرُ بها العديدُ الأكثرُ

فالخيل تصهل، والفوارس تدّعي،
والبيض تلمع، والأسنّةُ تزهرُ
والأرض خاشعة تميدُ بثقلها،
والجو مُعتكر الجوانب أغبرُ
والشمسُ ماتعةٌ توقدُ في الضحى
طوراً، ويُطفئها العجاج الأكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى
ذاك الدجى، وانجاب ذاك العثيرُ
وافتن فيك الناظرون، فأصبعٌ
يوماً إليك بها، وعين تنظرُ
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
من أنعم الله التي لا تُكفرُ
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابساً
نُور الهدى يبدو عليك ويظهرُ
ومشيت مشية خاشع متواضع
لله لا يزهي ولا يتكبرُ
فلو أن مشتاقاً تكلف غير ما
في وسعه لسعى إليك المنبرُ
أبدت من فصل الخطاب بخُطبة
تُنبي عن الحق المُبين وتُخبرُ
ووقفت في برد النبي مُذكراً
بالله، تُنذرُ تارة وتبشرُ
ومواعظ شفت الصدور من الذي
يعتادها، وشفاؤها متعذرُ

حتى لقد علم الجهول، وأخلصت

نفس المروِّي، واهتدى المتحيِّرُ

صلوا وراءك آخذين بعصمة

من ربهم، وبذمة لا تُخفَرُ

فاسعد بمغفرة الإله فلم يزل

يهبُ الذنوب لمن يشاءُ ويغفرُ

اللهُ أعطاك المحبة في الورى

وحباك بالفضل الذي لا ينكرُ

ولأنت أملأ للعيون لديهم

وأجل قدراً في الصدور وأكبرُ

رائعة البحتري في وصف البركة:

يقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه "ري سامراء في عهد الخلافة العباسية"، إن الخليفة العباسي المتوكل - صاحب البحتري الذي قتله الأتراك في قصره مع وزيره النابهة (الفتح بن خاقان) وهما في مجلس الخلافة البهي الحافل: قد أنشأ حديقة ضخمة للحيوانات المتوحشة والحقها بناصية من (سامراء) وبلغت مساحتها الجبارة أكثر من عشرين ألف دونم عراقي، وبلغ مجموع طول محيط سورها حوالي ثلاثين كيلومتراً، وكانت تتوسط هذه الحديقة الأسطورية، البركة الجعفرية المشهورة التي وصفها البحتري. كما شيد المتوكل أمام هذه البركة قصراً رائعاً"؟

ومطلع هذه الرائعة غزلي، كما جرت عادة العرب في المدح وغيره وهو المطلع المشهور:

ميلوا إلى الدار من ليلى نحييها

نعم، ونسألها عن بعض أهليها!

يا دمنة جاذبتها الريح بهجتها

تبيت تُنشرها طوراً وتطويها

لا زلت في حُلَلٍ للغيث ضافية

يُنيرها البرق أحياناً ويُسديها

تروح بالوابل الداني روائحهـا

على ربُوعك، أو تغدو غواديها

إن البخيلة لم تُنعم لسائلها

يوم الكثيب، ولم تسمع لداعيها

مرت تأوَّد في قرب وفي بعد

فالهجرُ يبعدها والدار تدنيها

لو لا سواد عذار ليس يُسلمني

إلى النُّهى لعدت نفسي عواديها

قد أطرق الغادة الحسناء مقتدرا

على الشباب فتصبيني وأصبيها

في ليلة لا ينال الصبح آخرها

علقت بالراح أسقاها وأسقيها

عاطيتها غضة الأطراف مرهفة

شربت من يدها خمرا ومن فيها

يا من رأى البِركة الحسناء رؤيتها

والآنسات إذا لاحت مغانيها

يحسبها أنها في فضل رُتبتها

تعد واحدة، والبحر ثانيها

ما بالُ دجلة كالغيرى تُنافسها

في الحسن طوراً، وأطوارا تباهيها

أما رأت كالىء الإسلام يكلأها

من أن تعاب، وباني المجد يبنيها

كأن جن "سليمان" الذين ولوا

إبداعها فأدقُّوا في معانيها

فلو تمر بها "بلقيس" عن عرض

قالت: هي الصرح تمثيلا وتشبيها

تنهب فيها وفود الماء مُعجلة

كالخيل خارجة من حبل مُجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة

من السبائك تجري في مجاريها

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكا

مثل الجوانش مصقولا حواشيها

فرونق الشمس أحيانا يضاحكها

ورَيِّقُ الغيث أحياناً يباكيها

إذا النجوم تراءت في جوانبها

ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

لا يبلغ السَّمكُ المحصور غايتها

لبُعد ما بين قاصيها ودانيها

يَعمنُ فيها بأوساط مُجنحة

كالطير تنفض في جوٍّ خوافيها

لهن صحنٌ رحيب في أسافلها

إذا إنحططن، وبهوٌ في أعاليها

صورٌ إلى صورةِ الدلفين يؤنسها

منهُ انزواء بعينيه يوازيها

تَغْنَى بساتينها القصوى برؤيتها

عن السحائب منحلاً عزاليها

كأنها حين لجت في تدفقها

يد الخليفة لما سال واديها

وزادها زينة من بعد زينتها

أن اسمهُ حين يُدعى من أساميها

محفوفة برياض لا تزال ترى

ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

ودكـتين كـمـثل الشـعـريين غـدت
وإحـداهمـا بإزاء الأخـرى تُسـاميـها

إذا مسـاعي أمـيـر المؤمنين بدت
للواصـفين فـلا وصفٌ يدانيـها

إن الخـلافـة لما أهتـز منبـرها
بجـعـفـر أعطيت أقـصى أمـانيـها

أبدى التـواضع لما نالهـا رعـة
منه، ونالتـه فـاختـالت به تيـها

إذا تجلت له الدنيـا بحليـتـها
رأت مـحـاسنها الدنيـا مسـاويها

يا بن الأباطح من أرض أباطحـها
في ذروة المجـد أعلى من روابيـها

مـا ضـيع الله في بدو ولا حـضـر
رعـيـة أنت بالإحـسـان راعيـها

وأمـة كـان قـبح الجـور يُسـخطهـا
دهراً، فـأصبح حُسنُ العدل يرضيـها

بثـثـت فـيـهـا عطاءً زاد في عـدد
العليـا، ونوهت باسم الجـود تنويهـا

مـا زلت بحـراً لعـافـينا، فكيف وقـد
قـابلتنا ولك الدنيـا بما فـيـها

أعطاكـهـا الله عن حق رآك له
أهلاً، وأنت بحق الله تعطيـها

وصف الطبيعة عند البحتري:

يعتبر أبو عبادة، الوليد بن عبيد بن يحيى عبيد البحتري، في القمة من الشعراء العرب وغير العرب الذين أجادوا أبلغ الإجادة في وصف الطبيعة وغير الطبيعة من الأشياء والمظاهر. ولد أبو عبادة عام ٢٠٦هـ وتوفي ٢٧٦هـ الموافق (٨٢٢م-٨٩٢م) على الأرجح

في منبج من أعمال شمال الشام. وبنو بحتر بطن من بطون طيء. وعاصر أبا تمام وأخذ عنه وهو يعترف بتلمذته عليه وبفضله الكبير في تكوينه وتعليمه، وفي صقل مواهبه الشاعرية. قابله أول مرة في حمص، وحاول تقليده في تأليف القصائد. ولكن يروي صاحب الأغاني أن أبا تمام أعطاه نصيحة قيمة في كيفية قول الشعر: عندما قابله لأول مرة في حمص فقال له:

"إذا أردت أن تقول شعراً فتخير الأوقات،

وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم،

وإن وقت السحر أنسب الأوقات لذلك،

لأن النفس تكون قد أخذت حقها من النوم،

فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا،

والمعنى رشيقا، وأكثر فيه من بيان الصبابة،

وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق،

وإذا أخذت في مدح سيد ولد اياد، فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وابن معالمه، وشرف مقامه".

وقيل للبحتري مرة "أنت أشعر من أبي تمام" فاعترض على ذلك وقال:

"كلا والله، إن أبا تمام الرئيس والاستاذ والله ما أكلت الخبز إلا به..".

ونقل صاحب الأغاني عن الحسين بن اسحق:

قال: قلت للبحتري إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام، فقال:

"والله ما ينفعني هذا القول، ولا يضر أبا تمام والله ما أكلت الخبز إلا به.. ولكني والله تابع له، آخذ منه، لائذ به نسيمي يركد عند هوائه وأرضي تنخفض عند سمائه"[1].

لا شك إن أعظم قدرات البحتري كشاعر، هي في المدح، وأغلب قصائده هي في هذا الغرض، الذي تفوق فيه تفوقاً كبيراً، وكان يتكسب به وبه صحب الأمراء والخلفاء والسلاطين زمناً طويلاً من حياته. ولكنه ايضاً يجيد الوصف بدرجة تضعه في الصف الأول من الشعراء الذين يمتازون بهذه القدرة على الوصف. ولذلك كانت كثير من روائعه في الوصف:

---

(١) الأغاني: ج ٢١ ص ٤٠ مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت.
أنظر أيضا: خليل شرف الدين: البحتري ص ٣١.

- والسينية في وصف إيوان كسرى،
- وصف البركة في قصر المتوكل،
- وصف موكب المتوكل يوم العيد،
- وصف الطبيعة "أتاك الربيع"،
- وصف الذئب،
- وصف المعارك البحرية،
.. وغيرها كثير،

ويكثر استشهاد النقاد بأبياته الرائعة في وصف الربيع وهي جزء من قصيدة مدح فيها الهيثم بن عثمان الغنوي، والتي يقول فيها[1] :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً
من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النوروز في غسق الدجى
أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه
يبث حديثاً كان بالأمس مكتما
ومن شجر رد الربيع لباسه
عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل، فأبدى للعيون بشاشة
وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته
يجيء بأنفاس الأحبة نعما
فما يحبس الراح التي انت خلها
وما يمنع الأوتار أن تترنما!!
وما زلت شمساً للندامى إذا انتشوا
وراحوا بدوراً يستحثون أنجما

---

(١) ديوان البحتري المجلد الرابع. ص ٢٠٩٠ تحقيق حسن كامل الصيرفي.

ولقد عاصر البحتري الشاعر ابن الرومي، ولكنه كان يكبره بحوالي سبع عشرة سنة، ولذلك فالأقوال التي تذهب إلى أنه أخذ بعض أصول ومناهج ابن الرومي في صناعة الشعر ضعيفة جداً.

بين عبدالله الطيب وابن الرومي:

لا أدري لماذا يحمل عبدالله الطيب على ابن الرومي، ويصدر عليه حكماً قاسياً في كل الأحوال بأنه "هجاء خبيث" وهو الحكم الذي - يقول عبدالله الطيب - أنه أصدره في حقه غالبية النقاد القدماء، وأنه بالرغم من ذلك صاحب غوص على المعاني: يقول عبدالله الطيب في ذلك: (١)

"وقد قتل النقاد القدماء ابن الرومي درساً وبحثاً، فكان غاية ذلك أن اتفقوا على أنه "هجاء خبيث"، وأنه كان صاحب غوص على المعاني، وقدّمه في هذا الباب ابن حزم، صاحب "طوق الحمامة والملل" وجنح إلى تقديمه فيه ابن رشيق ثم تردد. وعندنا أن تردده هو المنبيء عن حقيقة رأيه، ولم نجد أحداً من النقاد القدماء قدّمه على البحتري في الوصف والتصوير. وقد أضرب صاحب "المثل السائر" عنه (والاشارة عنا إلى إبن الأثير)، كما أضرب عن كثير غيره لما حصر حسنات الشعر كلها في لاته وعزّاه، ومناته وهم:

- حبيب (أبو تمام)
- والوليد (ابو عبادة البحتري)
- وأحمد (المتنبيء)

وما كان مع هذا ممن يجهل قدر ابن الرومي، أو يقصد إلى أن ينقص من قدره، ولكنه قد وجد اجماع النقاد على ذلك قد إنعقد.." انتهى كلام عبدالله الطيب!

إذن فعبدالله الطيب، مثله في ذلك مثل ابن الأثير في المثل السائر" لا يقدم ابن الرومي على البحتري، ولا يرى فيه إلا "هجاء خبيث".. وهذا لعمري حكمٌ فيه الكثير من عدم الانصاف لإبن الرومي وفيه تحيز واضح من البروف عبدالله الطيب عليه والغريب العجيب أن البروف عبدالله الطيب فقط يكتفي بإيراد رأي النقاد القدماء عن ابن الرومي ويردد حكمهم القاسي عليه بأنه "هجاء خبيث"، دون إيراد حيثيات هذا الحكم القاسي، والذي يظهر لكل ناظر في آثار ابن الرومي وفي أشعاره!

(١) المرشد - الجزء الرابع - القسم الأول- ص ٧٣٦.

مما يزيد "الطين بله" أن عبدالله الطيب لا يكتفي باصدار وإعادة إصدار حكم القدماء عن ابن الرومي بأنه "هجاء خبيث" ولكنه أيضاً ينتقد إعجاب العقاد به، وإطرائه على شعره ويقول إن العقاد يغلو في تقدير ابن الرومي إيما غلو يقول عبدالله الطيب في هذا: [١]

" غلا العقاد - رحمه الله - في أمر ابن الرومي. وما أحسبه، والله أعلم بسرائر النفوس، وهو عليم بذات الصدور - خلا من أن يكون قد تقمص بعض أمر ابن الرومي لنفسه. "وتبحتر" له (من البحتري) بذلك بعض أمر خصومه هو، ولعلما تصور لونا في البحتري من شوقي، وهذا قد جارى (السينية) كما تقدم. فخالط بهذا نقد العقاد وموازنته بين ابن الرومي والبحتري جانب عاطفي، وآفة الرأي الهوى. من غلو العقاد - رحمه الله - في ابن الرومي قوله:

" فلست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقه ومغاربه أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعراً واحداً له من الملكة المطبوعة في التصوير ما كان لإبن الرومي في كل شعر قاله، مشبهاً أو حاكياً على قصد منه أو غير قصد، لأنه مصور بالفطرة المهيأة لهذه الصناعة. فلا ينظر ولا يلتفت إلا تنبهت فيه الملكة الحاضرة ابداً، وأخذت في العمل، موفقة مجيدة - سواء ظهر عليها أودسها عنها، كما قد يسهو المصور وهو عامل في بعض الأحايين".

يقول عبدالله الطيب إن "مكان الغلو (في كلام العقاد) نفيه أن يكون لم يعرف شاعراً واحداً له من الملكة المطبوعة إلى آخر ما قال: فالمعلقات، وقد كان يعرفها أحفل بالصور المطبوعة، والمصنوعة ذات الحيوية الباهرة من جميع ما صوره ابن الرومي.." انتهى كلام عبدالله الطيب.

ومهما يكن من أمر رأي عبدالله الطيب في ابن الرومي، فإبن الرومي ولا شك واحدٌ من قمم الشعر - ليس فقط العربي ولكن ايضاً الشعر العالمي.

وليس يضير ابن الرومي قدحُ عبدالله الطيب له أو حتى قدحُ النقاد القدماء - ومنهم ابن الأثير - الذين وصموه بذلك الحكم القاسي أنه ليس سوى "هجاء خبيث"، فإن لإبن الرومي مداحُ كثُرُ منهم من كان في قامة العقاد الذي أعجب به أيما إعجاب حتى شرُق به:

"وابن الرومي شاعر كثير التوليد غواص على المعاني مستغرق لمعانيه. ولكننا لو سئلنا ما الدليل على شاعريته، لكان غبناً له أن نحصر هذا الدليل في التوليد والغوص والاستغراق. فقد تحذف عنه توليداته ومعانيه، ولا تحذف عنه عناصر الشاعرية والطبيعة

(١) المرشد - الجزء الرابع - القسم الأول ص ٧٣٦.

الفنية، فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه، والشاعر في جيّده ورديئه والشاعر فيما يحتفل به، وفيما يلقيه على عواهنه، وليس الشعر عنده لباساً يلبسه للزينة في مواسم الأيام، ولا لباساً يلبسه للابتذال في عامة الأيام. كلا! بل هو إهابة الموصول بعروق جسمه، المنسوج من لحمه ودمه "[1].

وعن ابن الرومي يقول العقاد:

" فالكلمة الأولى والأخيرة في هذا العبقري النادر - إنه كان شاعراً في جميع حياته، حياً في جميع شعره، وإن الشعر كان لأناس ليس شيئاً غير كساء وحلّة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة، بل كان له جسماً لا تكون بغيره حياة.. "[2].

ومن الذين ثمنوه كثيراً - أي ابن الرومي - من القدماء ابن خلكان:

" هو صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها، ويبرزها في أحسن صورة.. "

ومن المحدثين د. محمد محمود:[3]

" لم يلق شاعر كبير من غبن المؤرخين وكتاب التراجم ما لقيه ابن الرومي. فلم يفرد له صاحب الأغاني ترجمة خاصة. وما ورد عنه في ذلك الكتاب لا يعد شيئاً كما لم يرد اسمه على الإطلاق في العقد الفريد.

ولكن في نهاية المطاف فليس يفيد ابن الرومي مادحوه ولا يضره قادحوه لان الشيء الملموس هو ديوانه الباقي في أربعة مجلدات والذي حفظ للبشرية غالبية شعره. هذا الديوان هو الشاهد الحسن لما بهذا الشاعر من عبقرية وخلود وباقي على الأيام والليالي إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها وما فيها ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولكن هذا الديوان الكبير (حققه د. حسين نصار ونشرته مطبعة دار الكتب والهيئة المصرية العامة للكتاب " هو الشاهد الحر على نبوغ هذا الشاعر وعلى جودة غريزته الغنية وتفرق موهبته الشاعرية. وكذلك فإن فرق الدراويش التي تتغنى بأهازيجه في تركيا والبوسنة والهرسك وألبانيا وغيرها من بقاع العالم الإسلامي لهي خير دليل على خلود أعماله وأشعاره رضى من رضي، وسخط من سخط.

---

(١) عباس محمود العقاد: ابن الرومي: حياته من شعره، ص ١٠ - دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة السابعة ١٩٦٨م.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٦.

(٣) د. محمد محمود: ابن الرومي الشاعر المغبون ص ٣٠ دار الكتاب اللبناني.

ومن القصائد العالقة في ذهن كاتب هذه السطور قصيدته التي رثى فيها ابنته هبة الله، والتي مطلعها :

بكاؤكـمـا يَشْـفي وإن كـان لا يجـدي

فـجـودا فـقـد أودى نظيركـمـا عندي

والتي أراها من فرائد الشعر لا أقول العربي ولكن أقول الإنساني العالمي . ولطالما كان خالي (والد زوجتي د. مزاهر) الأستاذ محمد أحمد عثمان النعيمة يُنشدها، فتحدث موجة من الحزن الفلسفي والأسى الشاعري فينا وإن لم تكن أيامنا غير سعيدة ولكنه كان يحن إلى إبن له فقده في عز شبابه (وهو ولده الأستاذ النابهة الهادي محمد أحمد عثمان النعيمة الذي توفي في عز الشباب وأوج المجد) لقد نال الماجستير بتفوق من جامعة انديانا - بردو بالولايات المتحدة .

وإلى القارىء أسوق هذه الفريدة الرائعة التي لو لم تكن لإبن الرومي غيرها لعددته شاعراً عملاقاً :

بكاؤكـمـا يَشْـفي وإن كـان لا يجـدي

فـجـودا فـقـد أودى نظيركـمـا عندي

ألا قـاتل الله المنايا ورمـيـهـا

من القـوم حبـات القلوب على عـمـد

توخى حـمـام الموت أوسط صـبـيـتي

فلله كـيـف اخـتـار واسطة العـقـد

على حين شـمـت الخـيـر من لمحـاته

وآنست من أفـعـاله آية الرشـد

ألح عليـه النزف حـتى أحـاله

إلى صـفـرة الجـادي عن حـمـرة الورد

وظل على الأيدي تسـاقط نفـسـه

ويذوي كـمـا يذوي القـضـيب من الرند

فـيـالك من نفس تسـاقط أنفـسـاً

تسـاقط در من نظام بلا عـقـد

عـجـبت لقلبي كـيف لـم ينفطر لـه
ولـو أنه أقـسى من الحـجـر الصلد

بـودي أني كنت قـدمت قـبله
وأن المنايا دونه صمدت صمدي

ولكن ربي شاء غير مشيئتي
وللرب إمضاء المشيئة لا العبد

وإني وإن مُتعت بأبني بعده
لذاكره ما حنت النيب في نجد

وأولادنا مثل الجوارح أيها
فقدناه كان الفاجع البين الفقد

لكل مكان لا يسد اختلاله
مكان أخيه في جزوع ولا جلد

هل العين بعد السمع تكفي مكانه
أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي

سأسقيك ماء العين ما اسعدت به
وان كانت السقيا من الدمع لا تجدي

أعيني: جودا لي فقد جدت للثرى
بأنفس مما تسألان من الرفد

أقرة عيني: لو فدى الحي ميتا
فديتك بالحوباء أول من يفدي

كأني ما استمتعت منك بنظرة
ولا قبلة أحلى مذاقا من الشهد

كأني ما استمتعت منك بضمة
ولا شمة في ملعب لك أو مهد

ألام لما أبدي عليك من الأسى
وإني لأخفي منه أضعاف ما أبدي

محمدُ: ما شيء توهم سلوة

لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد

أرى أخويك الباقين فإنما

يكونان للأحزان أورى من الزند

إذا لعبا في ملعب لك لذعا

فؤادي بمثل النار من غير ما قصد

فما فيهما لي سلوة بل حزازة

يهيبانها دُوني وأشقى بها وحدي

وأنت وإن أفردت في دار وحشة

فإني بدار الأنس في وحشة الفرد

أود إذا ما الموت أوفد معشرا

إلى عسكر الاموات أني من الوفد

ومن كان يستهدي حبيبا هدية

فطيف خيال منك في النوم أستهدي

عليك سلام الله مني تحية

ومن كل غيث صادق البرق والرعد

***

الفصل الثامن

عبدالله الطيب :

والحنين المستحيل

الفصل الثامن
عبدالله الطيب: والحنين المستحيل

عبدالله الطيب والحنين المستحيل :

الذي يقرأ سيرة عبدالله الطيب، ويمعن في تحليل حياته والآمال الكبار التي كانت تتراءى له كالسراب في المهمة القفرة، التي لا ماء بها ولا شجر، غير صرير الرياح وعويلها، وغير هبوب السفاسف وهجيرها، ليشعر شعوراً قوياً بذلك الحنين الآسر الذي ينتظم كل أغانيه وشكاياته، وترانيمه والآهات الطويلة المديدة، التي لم تفتأ تنطلق من جوفه، حارةً مشبوبةً، وكأنها أنفاس ينابيع معدنية حارة تغلي وتمور بالحرارة والغليان.

هذا الحنين الآسر، وهذه الصبابة الحزينة التي تفرض نفسها فرضاً على كل حياته، لا يمكن تفسيرها إلا بالقول إن نفسه العالية الكبيرة كانت تتوق إلى رغائب وأهداف مستحيلة لا يمكن تحقيقها أصلاً، في ظل ظروف الوطن أو الأمة، وهما يعانيان من وهدة حضارية عميقة، وسبات حضاري طالت آماده، وترسخت في القرون آثاره وتداعياته!!

فعبدالله الطيب، مثله في ذلك مثل أبي الطيب المتنبي وابن خلدون ،كان يتملكه ذلك الحنين الآسر، وتلك الصبابة الطاغية إلى نيل المجد والعزة القسعاء التي يتوق إليها كل عربي أبيّ النفس، كبير الهم، عالي الهمة ،أروع أمجد، يرى أن ذلك حق له، دون التنازل عنه أو السكوت من المطالبة به خرط القتاد!

وانظر إلى أبي الطيب، كيف يعبّر عن شعوره أن حنينه لا سبيل إلى تحقيقه وأن شكاياته لا سبيل إلى اشفائها أو إبرائها:

بم التعلل لا أهل ولا وطن
ولا نديم ولا كأس ولا سكن

أُريد من زمني ذا أن يُبلغني
ما ليس يبلغُه من نفسه الزمنُ

فما يديم سرورٌ ما سررت به
ولا يرد عليك الفائت الحُزنُ

ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السُفُنُ

وقول أبي الطيب المتنبيء:

صحب الناس قبلنا ذا الزمان

وعناهم من أمره ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منه

وإن سَرَّ بعضهم أحيانا

كلما أنبت الزمان قناة

ركب المرء في القناة سنانا

وقول أبي الطيب:

ليالي بعد الظاعنين شكول

طوالٌ وليل العاشقين طويل

يُبِنَّ ليَ البدر الذي لا أريده

ويخفين بدراً ما إليه سبيل

وقول أبي الطيب أيضاً:

عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيد دونها بيد

ويقول أبو الطيب:

ما أعجب الدنيا وأعجبها

إني بما أنا شاك منه محسودُ

ويقول أبو الطيب:

أعادي على ما يوجب الحب للفتى

وأهدأ والأفكار فيه تجولُ

سوى وجع الحساد داوِ فإنه

إذا حل في قلب فليس يحولُ

يهون علينا أن تصاب جسومنا

وتسلمُ أعراض لنا وعقولُ

هذا الحنين المستحيل الآسر، دفع المتنبي إلى محاولة يائسة هي أن يطلب المجد عند (كافور الأخشيدي) تاركاً سيف الدولة ذي الصولة والدولة، والتاج والصولجان وراءه، ولسنا هنا ننطلق من عنصرية عندما نقول إن (كافوراً) ما كان له من مجد أو دولة تماثل ما كان لسيف الدولة ولكن سيف الدولة لم يستطع أن يتجاوب مع ذلك الحنين الآسر الذي كان يستبد بالمتنبيء.. رغبته في الملك والمجد وفي الولاية والوزارة. ولقد بعث المتنبيء بصرخات حارة، ونداءات يائسة إلى سيف الدولة، يحذره بأنه سوف يتحول عنه وينذره الإنذار الأخير ومن هذه الصرخات:

(واحر قلباه)؛ وفيها يقول:

يا من يعـــز علينا أن نفـــارقـــهم
وجـــداننا كل شيء بعـــدكُم عـــدمُ
لئن تركنا ضـــمـــيـــراً عن مـــيـــامننا
لـيـــحـــدثن لمن ودعـــتـــهم ندمُ
إذا ترحلت عن قـــوم وقـــد قـــدروا
أن لا تفـــارقـــهم فـــالراحلون همُ
يا أعـــدل الناس إلا في مـــعـــاملتي
فـيك الخـصـام وأنت الخـصم والحكمُ

وفي صرخة أخرى، أطلقها أبو الطيب قبل الرحيل إلى (كافور):

ألا مـــا لســـيف الدولة اليـــوم عـــاتبـــاً
فـداه الورى أمضى السيوف مضاربـاً
ومـــا لي مـــا اشـــتـــقت أبصـــرت دونه
تنائف لا أشـــتـــاقـــهـــا وسبـــاسبـــا
حنانيك مـــســـؤولا ولبـــيك داعـــيـــا
وحـــسـبي مـوهوباً وحـســبك واهبـا
وإن كـــــان ذنبي كـل ذنب فـــــإنه
مـحـا الذنب كل المحـو من جـاء تائبـا

ولكن كل تلك الصرخات ذهبت أدراج الرياح. ولم يتحرك سيف الدولة ليقبل عذر أبي الطيب، ولكي يفعل شيئاً يلبي ذلك الحنين الذي يستبد به له.. فالمتنبيء لم يكن

ليستطيع أن يسكت ذلك الصوت، وذلك الحنين بداخله، الذي يحدوه دوماً ويستحثه في كل لحظة إلى السعي إلى المجد وإلى نيل العلا، الذي هو أهل له والذي يدعوه أن "يطرح نفسه كل مطرح" كما قال عروة بن الورد، فالذي يحمل في جنباته طموح الملوك وصبابة الأمراء لا يستطيع إلا أن يستجيب لذلك الطموح وتلك الصبابة:

ويقول أبو الطيب:

لو لا العلا لم تجبْ بي ما أجوب بها
وجناء حرف ولا جرداء قيدودُ

ويقول أبو الطيب:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

ويقول أبو الطيب:

إذا غامرت في شرفٍ مروم
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير
كطعم الموت في أمر عظيم

وبعد المتنبي، حاول إبن خلدون أن ينال مجداً، أو أن يحقق ملكاً، فذهب كل مذهب في ذلك، وطرح نفسه كل مطرح، فقاتل وتآمر وسجن، وكاد يقتل في أكثر من مرة، وهو يحاول أن يحقق أمله المستحيل أن يصير ملكاً أو والياً، كما كان أهله آل خلدون حكام اشبيلية في الأندلس. ولكنه في النهاية – عندما عجز تماماً من تحقيق ذلك -الهدف المستحيل- سجن نفسه قرابة الأربع سنوات في قلعة أبي سلامة في صحراء الجزائر، فكتب رائعته "المقدمة". وكان أهم سؤال حاول الإجابة عليه في تلك المقدمة:

كيف تؤسس الدول وكيف تزول وتنهي؟ فجاء بنظرية العصبية الشهيرة، إنه من حاول ملكاً فعليه أن تكون له عصبية فاعلة وشوكه فعالة غلابة تشن الحرب وتنتصر بقوة البأس ومضاء العزيمة. وايقن ابن خلدون في النهاية – إنه لا يملك تلك العصبية الغلابة؟ فترك المطالبة بالملك ونزل مصر، فتولى القضاء المالكي فيها وقنع بذلك، ولكن العوازل والحساد كانوا له بالمرصاد، فعزل وأهين وسجن في مصر وتوفي هنالك وقبره في القاهرة القديمة غير متفق على مكانه!.

أما عبدالله الطيب، فليس هنالك من شك إنه قد تأثر بأبي الطيب أيما تأثر، خاصة بمطالبته بالمجد والعز والرئاسة، التي كان يرى إنه أحق الناس بها وإنه ظلم ظلماً كبيراً إذ أنه حرم منها، ولم يُقدَّر في وطنه الخرطوم - لفترة طويلة من حياته وهو العبقري الموهوب، والشاعر الفذ سليل كرام الناس من المجاذيب - سادة الجعليين وشيوخها الأكرمين:

فلا الأيام أسعدته، لأنها لا تسعد إلا الفدْم الغبي، أما الكرام والاتقياء والصالحون فهم بها - في تلك الأيام - أشقياء:

هي الأيام تُسعد كل غمر
ولا يشقى بها الفدْم الغبيُّ
ولكن الشقي بها كريم
يكون سبيله الحق السويّ

فلا الأيام تسعد عبدالله الطيب وهو على أبواب العودة إلى السودان، بعد أن نال الدكتوراة من جامعة لندن عام ١٩٥١ ولا عز الإسلام قد دام، فإنه كان - أي الإسلام - مهيضاً ذاوياً كما يذوي الهشيم[١]:

تبصر هلي ترى الإسلام إلا
مهيضاً أو كما يذوى الهشيم
تلفّت ما الديار له دياراً
فقد ذهب الموالي والصميم
لقد تركته أحداث الليالي
ضعيفاً مثلما تُرك اليتيم
تذكّر خالداً وأبا تراب
وعزا كان لو عز يدوم
فأسبلت المدامع واكفات
كأن فضيضُها خرز فصيم

يقول عبدالله الطيب متشكياً من الأيام ومن كيدها، ومن خيبة الآمال والأماني العسال، وقد كان يعاني الغربة في لندن أيام الدراسة للدكتوراة أو بعد نيلها بقليل[٢]:

---

(١) أصداء النيل: ص ٦٤، طبعة جامعة الخرطوم.

(٢) أصداء النيل: قصيدة "خواطر مقيدة" ص ١٤٧ طبعة جامعة الخرطوم.

لقد طال إغترابك يا عبيد
وما للمرء بالأيام أيدُ
وما للمرء إن جارت عليه
خطوب الدهر والأقدار كيدُ
وما يُجدي إذا طغت الليالي
حثيث السير منك ولا الرويدُ
وليس الحب يشفي من أذاها
إذا جادت لميس أو هنيدُ

***

هي الأيام تلقاها بهيجاً
وتحسب أنها تزجى سعودا
تريناً من جمال الروض سحراً
وللإغواء زينت الخدودا
وكم روض تصيره هشيماً
وكم خد توسده الصعيدا
وقيل الموت يشفي من أذاها
إذا بُدلت من دار لحودا
كما قيل الحمام فناء نفس
تؤمل من طماعتها الخلودا
ولو لا جذرة الإيمان فينا
لكان الصبر أوشك أن يبيدا
وهذا العمر رونقه تولى
وقدماً ما سعدت به نضيرا
وقدماً كادني دهري فألفى
على أحداثه جلداً صبورا
وإني كالهواء الطلق نفساً
فكيف أظل محبوساً أسيرا

ولو أني اذاقـــــتني الليـــــالي

حـــــلاوتهـــا لكنت بهـــا جـــديرا

فعبدالله الطيب كان يعاني – كغيره من النخبة العروبية الإسلامية على طول الوطن العربي والإسلامي وعرضه – من إحباط على المستويين: العام والخاص. هذا الاحباط عاناه بشكل خاص – كل الذين درسوا في الجامعات الغربية، وجاءوا إلى أوطانهم بآمال عراض في العزة والكرامة على مستوى الوطن، وبالعيش الكريم والتقدير على المستوى الشخصي، ولكنهم لم يجدوا إلا إحباطا وتنكراً وتهميشاً. ولم تنصفهم الشهادات العليا و المؤهلات العالمية التي تعبوا كثيراً وعانوا وعانوا كثيراً من أجل الحصول عليها، وذاقوا مرارة الإغتراب والتفرقة العنصرية والإضطهاد الإجتماعي، في تلك البقاع البعيدة من دون أصدقاء ولا أهل.. وعندما عادوا إلى أوطانهم لم يجدوا ما يتكفل بضرورات الحياة والعيش الكريم.. بل وجدوا أوضاعاً سياسية، في الغالب الأعم، ذات طبيعة دكتاتورية أو شمولية عسكرية أكانت أو قبائلية تقليدية.. ووجدوا أنفسهم – وهم النخبة الموهوبة المتفوقة غرباء في أوطانهم، غربة كانت أشد من غربتهم في ديار المهجر، حيث كانوا – على الأقل – يتمتعون بمخصصات للبعثة وسكن مريح في إحدى المدن الجامعية التي كانوا يدرسون فيها. وكاتب هذه السطور عاش هذه التجربة تماماً، كما عاشها كل الذين كانوا في بعثات حكومية لنيل الدكتوراه والماجستير من الجامعات الأوربية. ولذلك نفهم شكاية البروف عبدالله الطيب، إنه عندما عاد إلى الخرطوم وجد نفسه غريبا لا دار ولا مال: ويبدو أن عبدالله الطيب قد شعر بالحنين إلى لندن بعد ما عاد إلى الخرطوم بعد نيل الدكتوراة: (١)

أيـا خـالـي هـل دمـــــــــــعـك

مــــن لـــنـــدن هـــطـــال

فــــــفي لـنـدن مـن نـفــــسـك

يـــابــــن الـــنـــيــــل أطـــلال

وكـم شـــــــــــاقـك مـن لـنـدن

أبـــكـــار وآصــــــــــــال

(١) اصداء النيل – قصيدة "إلى لندن"، ص ٩٣ والقصيدة بدون تاريخ.

فـــــــدمـع الـعين فـي الخـــــــــرطـوم

مــن جـــــــــفـنـك هـمّـــــــــــال

غـــــــريـبٌ أنـت فـي الخـــــــرطـوم

لا دار ولا مـــــــــــــــــــــــال

عـــــــسى تـســــعـــــــدك الأيـام

إن الـعــــــــــــيش آمـــــــــــال

هذا الاحبـاط المرير، وهذا الإجـفـاف على المستويين العام والخاص، جعل تلك الصفوة، خاصة أولئك من ذوي الميول العروبية الإسلامية يلوذون بالتاريخ: تاريخ الأمة المجيد.. تاريخ الأمجاد الحضارية والعزة والكرامة، حيث كان المسلمون سادة الكون، وأرباب العلوم والفنون والآداب، وكذلك أصحاب الدولة والحضارة التي نشرت العلم والتنوير والعدالة حيث ما حلت من حدود الصين إلى الأندلس. فكان العرب حملة العلم والتنوير، كما كانوا حملة العدالة والتسامح والرحمة، في كثير من الأوطان التي حلوا فيها. وحملوا إلى الأندلس العلوم الإسلامية وكذلك حصيلة العلوم الأجنبية التي أفرزتها الحضارات السابقة للإسلام، وبخاصة علوم الهند والسند والفرس واليونان، وخاصة علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات والطب والملاحة وكذلك كل منتجات الحضارة والتقدم، من البهارات والسكر والشاي، إلى العطور والحرير، وتخطيط المدن وإنشاء شبكات المجاري والمياه والري والزراعة وآخر صيحات التقانة التي توصلت لها الإنسانية في ذلك الزمن. فكانت الحضارة الإسلامية حضارة زاهية بالعلوم والفنون والعيش الراقي والفن والموسيقى والشعر والطرب والقصور والمساجد. وكانت بغداد هارون الرشيد حاضرة الدنيا، وكذلك كانت دمشق والقاهرة، ومراكش ونيسابور، وقرطبة وأشبيلية وغرناطة، ونوليد ومراكش، وغيرها من حواضر الأمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف. وازدهرت العلوم الطبيعية التجريبية والطب والرياضيات وكذلك الملاحة والعمارة وتخطيط المدن والجامعات والمستشفيات إلى آخر تلك المنظومة الحضارية الزاهية المتلألأة.: ولكن ضعف العرب، وتنازعوا واختلفوا وانغمسوا في حب الدنيا والشهوات، وغرتهم الحياة الدنيا فضعفت الحضارة الإسلامية وانقض عليها أعداء الحياة والتقدم، من جحافلة البرابرة في الشرق من مغول وتتر وكذلك جحافل التعصب الديني والقومي من الشعوبيين والصليبيين، فكانت النكبات الدامية والكوارث والهزائم النكراء.

وكان ذلك مدعاة للتذكر المر الأليم، واجترار ذكرى تلك النكبات التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية:

تغني عبدالله الطيب بذكرى تلك النكبات ورجّع الصدى الأليم، خاصة ذكرى نكبة الأندلس:

يورد الدكتور عبدالله الطيب مرثية إبي البقاء صالح بن شريف الرندي فيما حلّ بالإسلام في الأندلس من نكبة دامية كارثية: "والقصيدة سلسة مطبوعة وصوت فجيعة المصيبة فيها جهير، مع ميل أسلوبها إلى سذاجة الخطاب، تحس تحته إحساساً عميقاً بالهزيمة والضياع"[1]:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمانُ

وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدومُ على حال لها شأنْ

يمزق الدهر حتماً كل سابغة
إذا نبت مشرفياتٌ وخرصانُ

أين الملوك ذوو التيجان من يمن
وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ

وأين ما شاده شدادُ في إرم
وأين ما ساسه في الفرس ساسانْ

وأين ما حازه قارون من ذهب
وأين عاد وشدادُ وقحطانُ

أتى على الكل أمر لا مرد له
حتى قضوا وكأن القومَ ما كانوا

(١) المرشد الجزء الرابع - القسم الأول ص ٣٥٦، يقول عبدالله الطيب إنه نقلها أي قصيدة أبي البقاء الرندي - من كتاب "نفح الطيب" للمقري لأنها ترد فيه كاملة.

دار الزمـــــان على دارا وقـــاتله

وأمَّ كـــسرى فـمـا آواه إيوانُ

كـأنما الصعب لم يسهل له سببٌ

يوماً ولا ملك الدنيا سليمانُ

فـجـائع الدهر أنواع منوعـةٌ

وللزمـان مـسرات وأحـزانُ

وللحـوادث سُلوان يسهلُها

ومـا لما حل بالإسلام سُلوانُ

دهي الجـزيرة أمـرٌ لا عـزاء له

هوى له أحـدٌ وأنهـد ثهـلانُ

"وثهلان" جبل في المدينة المنورة ورمزيته على الإسلام واضحة. وعبدالله الطيب يقول إن هذا البيت يَصْدق على كثير من أحوالنا اليوم، تماماً كما صدق لما حل بالإسلام في الأندلس:

دهي الجـزيرة أمـرٌ لا عـزاء له

هوى له أحـدٌ وأنهـد ثهـلانُ

أصابها العين في الإسلام فارتزأت

حـتى خلت منه أقطار وبلدانُ

وأسأل بالنسية ما شأن مرسية

وأين شاطبة أم أين جيان

وشاطبة: هي بلدة الإمام القاسم بن فيرّة الشاطبي، صاحب الشاطبية في القراءات:
وجيان هي بلدة ابن مالك صاحب الألفية:

وأين قـرطبـة دار العلوم فكم

من عـالم قـد سـمـا فيها له شأنُ

وأين حـمص ومـا تحويه من نُزه

ونهـرها العـذب فياضٌ وملآنُ

قـواعـدٌ كن أركـان البلاد فـمـا

عـسى البـقـاء إذا لم تبق أركـانُ

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف

كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

على ديار من الإسلام خالية

قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ

حيث المساجد قد صارت كنائس

ما فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ

يا غافلا وله في الدهر موعظةٌ

إن كنت في سنةٍ فالدهر يقظانُ

وماشياً مرجاً يليه موطنه

أبعد حمص تغُر المرء أوطان

وحمص هنا هي أشبيلية سميت على حمص الشام

تلك المصيبة أنست ما تقدمها

وما لها مع طول الدهر نسيانُ

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة

كأنها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة

كأنها في ظلام النقع نيرانُ

وراتعين وراء النهر في دعة

لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

قتلى وأسرى فما يهتز إنسانُ

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم

وأنتم يا عباد الله إخوانُ

الأنفوس أبيات لها همم

أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ

يا من لذلة قوم بعد عزهم

أحال حالتهم كفرٌ وطغيانُ

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم

واليوم هم في بلاد الكفر عبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهم من ثياب الذل ألوانُ

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

لهالك الأمر واستهوتك أحزانُ

يا رب أم وطفل حيل بينهما

كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ

يقودها العلجُ للمكروه مكرهةً

والعين باكية والقلب حيرانُ

لكل هذا يذوب القلب من كمد

إن كان في القلب إسلام وإيمانُ

وعبدالله الطيب يورد القصيدة كاملة لأنه يرى أنها تُعبّر بصورة قوية عن حالة الضعف والمذلة التي هي واقع الأمة اليوم كما كانت في الأندلس.. وهو بذلك يقرع الجرس للمسلمين والعرب، أن أفيقوا من سباتكم وغفلتكم، فإن المخاطر الكبيرة ما زالت تحدق بالعالم العربي الإسلامي من كل جانب، وما زالت القوى التي أوقعت الهزيمة والذل والإنكسار بالمسلمين، ما زالت هذه القوى المعادية للإسلام وللعرب قائمة اليوم ومحيطة بالعالم العربي الإسلامي، ولذلك وجب التوجيه والإنذار.

ولقد حذر المولى عز وجل، في الكتاب – العزيز، حذر المسلمين من مغبة الاختلاف المؤدي إلى النزاع، لأن ذلك يؤدي إلى الضعف والفشل وزوال القوة والمهابة.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا وأذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله

ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (الأنفال : ٤٥-٤٦)

والذي أدى إلى انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس، كان التنازع على السلطة وانقسام الدولة إلى دويلات وطوائف، وعاد المسلمون كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض. وكان بعضهم يستعين بالقوى المناوئة للإسلام ليتقوى بهم على خصومه من المسلمين، حتى جاء الاجتياح الصليبي فاقتلعهم جميعاً، لا يرغبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، الذين كانوا متحالفين معهم والذين كانوا يقاتلونهم من المسلمين سواء بسواء، وإن مثل هذه النزاعات والتفرق والتحزب في الدين والتمزق شيعاً وطوائف والاستعانة بالعدو وتولي أعداء الإسلام اليوم كثير في جنبات العالم الإسلامي وحتى في السودان وهو نذير شؤم وعلامة خراب، وتقيع طائر البوم الذي يسبق الخراب والدمار إلا أن يتغمد الله المسلمين برحمته وعافيته وما ذلك على الله ببعيد، وسع كل شيء علماً ورحمة وهو بالمؤمنين رءوف رحيم.

كذلك فإن الظلم من قبل الحكام مؤذن بخراب الدولة والعمران جميعاً، كما قال العلامة ابن خلدون في "المقدمة"(١).

فإن الاجتياح إذا جاء سوف يكون كالطوفان، عاماً شاملاً لا يدمر الدولة ويسقط الحكومة والنظام السياسي فحسب ولكنه سوف يدمر مقومات المجتمع جميعاً، لا قدر الله: كل مقدراته وكل موارده البشرية والطبيعية، فليحذر الساسة والقادة والنظام السياسي الرسمي في الدول الإسلامية من هذا النزاع وهذه التحديات الماثلة وهذه المهددات الخطيرة لأمن الإسلام ومقوماته قال تعالى: "على لسان بلقيس ملكة سبأ":

﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾ (النمل: ٣٤)

فأنهم لا يخربون النظام السياسي الرسمي فحسب، ولكنهم يدمرون البنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمع بأكمله، وإن هنالك اليوم قوى كبيرة، محلية إقليمية وعالمية تسعى وتعمل ليل نهار لعلمنة العالم الإسلامي، وإطفاء نور الله فيه وتغيير مناهج التربية والتعليم حتى لا تتعلم الأجيال القادمة الثقافة الإسلامية، ولا القرآن الكريم

---

(١) أنظر: د. زكريا بشير إمام: جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون: الخرطوم - الدار السودانية للكتب عام ١٩٨٥م.

ولا السنة الشريفة، ولا تاريخه المجيد الذي نقل الحضارة والعلوم والتقدم إلى الغرب المسيحي الذي كان غارقاً في ظلام دامس، يغط في سبات عميق؛ فجاء العلماء المسلمون إلى الأندلس وجاء الفلاسفة والفقهاء وأيقظوا العالم المسيحي من ايطاليا وصقلية وقبرص إلى الأندلس والسربون واكسفورد وكمبريدج، نهض الغرب المسيحي بفضل علوم المسلمين، وعلوم اليونان التي نقلها المسلمون، وبفضل المنهج التجريبي والاستقرائي الذي جاء به القرآن الكريم، منهج النظر في ملكوت السموات والأرض، والذي أحدث انفجاراً هائلاً في المعرفة والعلوم أدى إلى قيام النهضة والتنوير في أوروبا، وإلى نشأة الحضارة الغربية الراهنة!

يفعلون ذلك بدعوى الديمقراطية وحقوق الإنسان؛ وهم في الواقع يمارسون القمع والهيمنة والسيطرة على مقدرات المسلمين، وينهبون مواردهم وثرواتهم ويفرضون عليهم العولمة[1] والتغريب (Westernization)، بل والأمركة وفقدان الهوية بكل وسائل القمع والقتل والتدمير: فأين حقوق الإنسان في كل ذلك: تناقض واضح وكيل بألف مكيال ورب الكعبة "حسبنا الله ونعم الوكيل" !!

في مثل هذه الظروف القاتمة يُهرع الناس إلى تراثهم، وإلى مخزوناتهم الحضارية والثقافية والدينية، عسى أن يجدوا فيها السلوى والأمان والطمأنينة والاسترواح: ولا غرو أن يتغنى عبدالله الطيب هنا بروائع أعمال التراث العربي الإسلامي، التي تذكّر بأمجاد المسلمين والعرب، عندما نشروا العلم والنور، وكذلك العدالة والتسامح في فترات طويلة وإن شابها أخيراً ظلم وكبت واغترار بالدنيا وانغماس في الشهوات، وإطاعة الهوى والشيطان، تغنى عبدالله الطيب بروائع الشعر والشعراء الذين يغنون لأيام الصفاء والمجد .. وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر:

سيفقدني قومي إذا جدَّ جدهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

في الليلة الظلماء يتشوق الناس إلى البدر، والبدر موجود هنا بدر المجد والعزة القعساء التي كانت للمسلمين وحضارتهم:

---

(١) أنظر: د. زكريا بشير إمام: في مواجهة العولمة، دار قاسم للمعلومات - الخرطوم وروائع مجدلاوي - عمان الأردن.

ليـــالي بعــــد الظاعنين شكول

طوال وليل العـــاشـــقين طويلُ

يُبِنَّ لي البــــــدر الذي لا أريـده

ويُخفين بدراً مـا إليــه سـبـيلُ

وتذكر بنكبة الأندلس، بنكبة فلسطين عام ١٩٤٨، وهي الجرح الكبير الذي ما زال دامياً في جسد الأمة الإسلامية، بل وفي سويداء كل إنسان حر - يعشق العدالة ويكره الظلم والعدوان. كما تُذكّر رائعة أبي البقاء صالح بن شريف الرندي بنونية (إبن زيدون) من ملوك الطوائف في الأندلس، قبل الاجتياح الصليبي الذي دمر الدولة الإسلامية هناك؛ ولذلك نجد أن عبدالله الطيب في ذاكرته الموسوعية، الخازنة لجراح الأمة ونكباتها لا تنسى إن تتغنى - في زمن الاحباط والإظلام، برائعة (ابن زيدون) وهي تقطر رقة وصبابة وجمالاً وروعة وسحراً: قالها يذكر فيها ولادة بنت المستكفي بالله. وكانت رائعة الجمال، رائعة الإحساس رفيعة الصفات والشمائل، أميرة بحق من أجمل ما يجود به الملك والإمارة والأعراق الشماء النبيلة "[1]:

بنتم وبنا فـمـا إبتلت جـوانحنا

شـوقـاً إليكم ولا جـفت مـآقـينا

تكاد حين تناجـيكم ضـمـائرنا

يقـضي علينا الأسى لو لا تأسـينا

حـالت لفـقـدكم أيامنا فـغـدت

سـوداً وكـانت بكم بيـضـاً ليـالينا

إذ جـانب العـيش طلقٌ من تآلفنا

ومـورد اللهـو صـافٍ من تصـافـينا

يا سـاري البـرق غـاد القـصـر وأسق

به من كـان صرف الهـوى والود يسقـينا

---

(١) المرشد: الجزء الأول، ص ٥٣٦ . طبعة جامعة الخرطوم.
انظر أيضاً:
ديوان ابن زيدون، تحقيق كيلاني: ص ١٥ "كم تمنيت لو أن عثمان حسين - الفنان السوداني ذو الصوت الذهبي والحنجرة العبقرية الرنانة يغني نونية ابن زيدون لعل خلفاؤه وتلاميذه يقومون بذلك أو فرقة الصفوة في الخرطوم"!! .؟

ويا نسيم الصبا بلّغ تحيتنا
من لو على البعد حياً كان يحيينا

وأسأل هنالك هل عنّى تذكّرنا
إلفاً تذكّره أمسى يُعنّينا

ربيب ملك كأن الله أنشأه
مسكاً وقدّر إنشاء الورى طينا

يا روضةً طالما أجنت لواحظنا
ورداً جلاه الصّبا غضاً ونسرينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفان واشينا

سران في خاطر الظلماء يكتمنا
حتى كاد لسان الصبح يفشينا

أما هواك فلم نعدل بمنهله
شُرباً وإن كان يروينا فيظمينا

لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
سالين عنه ولم نهجره قالينا

نأسى عليك إذا حُثت مشعشعة
فينا الشمولُ وغنانا مغنينا

لا كؤوس الراح تبدي من شمائلنا
سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

عليك منا سلام الله ما بقيت
صبابة بك نخفيها فتخفينا

ونونية ابن زيدون رائعة، ولكنها تحمل في طياتها ذلك الحنين الرنان المستحيل الذي أشرنا إليه في مطلع هذا الفصل، وهذا الحزن الذي يتعدى شخص الحبيبة " ولادة بنت المستكفي " إلى ذلك الحبيب المفقود: ألا وهو مجد العرب بالأندلس، وفردوسهم المفقود الآن والذي كان على وشك الأفول، عندما أطلق ابن زيدون آهاته المديدة، وعبر عن حزن السنين والدهر.. ذلك الحزن الذي لا عزاء معه ولا سلوى ولا ذهاب.. فهو مقيم ما أقام

بحر بلنسيه وجبالها، وما دامت سيطرة الفرنجة على تلك البقاع التي شهدت شموس الإسلام ومجد الحضارة النورانية المشعة بنور القرآن ونور الله.. عسى الأيام تتبدل.. عسى!: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ (الصف: ٩)

هذا النسيب الحزين الباكي، لهو أعمق من كونه حزنا لفقد الحبيبة، فإن فقدان الملك والمجد والسؤدد والصولجان لهو في حق الأمم الحية أشد فقداً من فقدان الحبيبة، فإنه فقدان الأهل والعشيرة كلها، وفقدان المجد والأمة كلها، وفيها فقدان الملة والدين وعزة الإسلام والمؤمنين فهو فقد أيما فقد.. وإن كان فقدان الحبيبة وما يمكن أن تتعرض له من ذل وإنكسار يورث القلوب حزنا داميا مميتاً قاتلاً: ومن الكمد ما يقتل، حتى أن العرب تقول مات فلان كمداً أي حزناً على فقد عزيز غال.

ولقد كان خالي الأستاذ محمد أحمد عثمان النعيمة "من آل جعفر الصادق بالسودان" (وهو والد زوجتي د. مزاهر) كان كثيراً ما يُنشد نونية (ابن زيدون) التي كان يحفظها حفظاً مطلقاً، وكذلك العشرات من عيون الشعر العربي (ولذلك كان يلقب (بالأستاذ) بين الأهل والمعارف، وكان يهتز جسمه كله وهو ينشد هذه النونية الرائعة. وإن طاب وقته كان يبكي من التأثر ويسيل الدمع غزيراً في وجنتيه الأسيلتين المضيئتين بنور التقوى والإيمان. (ألا رحمه الله رحمة واسعة) فقد كان أيضاً يحفظ كتاب الله عز وجل، يرتله آناء الليل وأطراف النهار!

ونونية ابن زيدون، فيما ذكر عبدالله الطيب وبحق، تذكر بنونية جرير وبمذهبه في النسيب الباكي الحزين الذي هو غناء بالغ الرقة والروعة والجمال وفيها عاطفة مشبوبة تكاد أنفاسها الحرى تحرق الشاعر والمستمع، سواء بسواء، لشدة حرارتها وشدة بخارها وأنفاسها الصاعدة. ونونية جرير إنما قالها ليفصح ما كان يعتلج بصدره من حنين إلى أيام الشباب في البادية وإلى سويعات من السعادة الصرفة التي اختلسها من سوالف الأيام - في رأي عبدالله الطيب.. إذ أن عبدالله الطيب يقول إن جريراً كان شاعراً عفيفاً راعياً لحقوق الإحصان ملتزم أخلاقياً بأخلاق الإسلام، ولم تعرف واقعة بعينها كانت سبباً في إلهام جرير بهذه النونية الرائعة التي تأثر بها (ابن زيدون) وربما نسج على منوالها مع الفارق في الزمان والأحداث، أن (ابن زيدون) كان يموت صبابة ويتساقط أنفساً على حبيبته رائعة الجمال، رفيعة الحسب والنسب، "ولادة بنت المستكفي بالله":

قال جرير التميمي رحمه الله :

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت

أسباب دنياك من أسباب دنيانا

يا أم عثمان إن الحب عن عرض

يُصبي الحليم ويبكي العين أحيانا

كيف التلاقي ولا بالقيظ محضرُكم

منا قريب ولا مبداك مبدانا

يا رب عائدة بالغور لو شهدت

عزت عليها بديْر اللّج شكوانا

إن العيون التي في طرفها حور

قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له

وهن أضعف خلق الله إنسانا

طار الفؤاد مع الخود التي طرقت

في النوم طيّبة الأعطاف مبدانا

بتنا قرانا كأنا مالكون لها

يا ليتها صدّقت بالحق رؤيانا

قالت تعزّ فإن القوم قد جعلوا

دون الزيارة أبواباً وخزّانا

لما تبينتُ أنْ قد حيل دونهم

ظلت عساكر مثلُ الموت تغشانا

ماذا لقيت من الأظعان يوم قنا

يتبعن مغترباً بالبين مظعانا

أتبعتُهم مقلةً : إنسانها غرقٌ

هل ما ترى تارك للعين إنسانا

يا حبذا جبل الريان من جبل

وحبذا ساكنوا الريان من كانا

وحــبــــذا نفـــحـــات من يمانيـــة

تأتيك من قِـــبل الريان أحـــيـــانا

هبت شـمـالاً فـذكـرى مـا ذكـرتكم

عند الصــفـــاة التي شـــرقيّ حــــوانا

هل يرجـــعن وليس الدهر مـــرتجـعـاً

عـــيشٌ بهـــا طالما احلولى ومـــا لانا

وعند عبدالله الطيب الشيء بالشيء يذكر، والشعر الحزين الباكي يذكر بقصائد أخرى هي القمة في الجودة وفي التعبير عن ذلك الحنين الباكي الحزين الذي يعبر عن وجدان عميق، أعمق من آبار العرب، وأبعد مدى من بئر مدين التي أعيت بنات سيدنا يعقوب عليه السلام ومنعتهما من السُقيا، حتى ورد موسى وسقى لهما ثم تولى إلى الظل: فهذه هي رائعة ابن زريق – شاعر بغداد ذي الحظ العاثر الذي دفعه إلى الموت في الأندلس، لأن الخليفة تأخر عليه في العطاء، فظن ابن زريق أنه قد فشل في مسعاه في الأندلس، كما فشل في بغداد، فمات كمداً قبل أن تصله الأموال الكثيرة والعطايا والهدايا الوفيرة التي كانت في الطريق إليه ولكنه مات قبل أن يراها فيا للحزن ويا للمأساة.

قال ابن زريق – وهو يودع حبيبته ربما وهو في الطريق إلى الرحيل إلى الأندلس، ذلك الشعر الذي سبب له الأذى والموت:

يقول ابن زريق الشاعر البغدادي الفذ:

أســتــودع الله في بغــداد لي قـمـراً

بالكرخ من فلك الأزرار مطلعـــــه

ودعــــــتــــــه وبودّي لو يودعني

صـــفــو الحـيـــاة وإني لا أودّعـــه

وكم تشـبث بي يوم الرحـيل ضـحى

وأدمــعي مســتــهـلاتٌ وأدمــعـهُ

وكم تـشـــفـع بي ألا أفـــارقـــه

وللضـــرورة حـــال لا تُشـــفــعـه

ثم يقول ابن زريق يلوم نفسه على تجشمها آلام الإغتراب، بالرغم من محاولات

التشبث به والتشفع الحار المؤثر من جانب حبيبته الجميلة الوله . . وليت ابن زريق لم يرحل إلى الأندلس طلباً في المال والجاه، فقد كان ذلك السفر سبباً في مأساة دامية أفقدت الأدب العربي شاعراً رفيعاً إنساناً، وإن كان قد عانى الفقر والإملاق واللوم حقيقة ليس عليه، ولكنه على تلك المجتمعات الراكضة القاسية الشحيحة البخيلة التي تدفع الشعراء والموهوبين إلى الهجرة بالإغتراب، وإلى أين "يطرحوا أنفسهم العالية النفيسة كل مطرح، كما قال عروة بن الورد" :

إذا الزمـــــاع أراه في الرحـــيل غنى

ولو إلى السند أضــحى وهو يزمــعـه

والله قـــــدر بين الناس رزقــــهم

لم يخلق الله مــخلوقــاً يضــيـعـه

ومن النسيب الملتاع والحنين الباكي الرائع، أورد عبدالله الطيب القصيدة التي نظمها في (بحر الطويل) الشاعر المصري العملاق عباس محمود العقاد. وعبدالله الطيب يمتدح بحر الطويل ويقول عنه :[1]

" فلعل هذا يوضح لك ما ذكرناه بدءاً من أن هذا البحر خفيّ الدندنة، واسع النفس، رائث النغم، جليلٌ نبيلٌ في جوهره، يتقبل العميق الجاد من الكلام بأوسع ما للعمق والجد من معانٍ . . "

يقول عبدالله الطيب، أنه من حسن الحظ أن العقاد قد نظم قصيدة رائعة في هذا البحر، وهي بلا ريب أميرة قصائده في هذا النوع من الغزل الباكي الملتاع : وعموماً فإن أجود شعر العقاد قد جاء في بحر الطويل : يقول العقاد رحمه الله :

أبعـــــداً نرجي أم نرجي تلاقـــيـنا

كــلا البــعـد والقـربى يهـيج مـا بيـا

إذا أنا أحــمـــدت اللقـــاء فــإنني

لأحــمــــدُ حــيـنا للفـــراق أياديا

فــيــا من لنا في كل يوم بفــرقــة

تجــدد ليـــلات الفـــراق كــمـــا هيـــا

---

(١) (المرشد) الجزء الأول - ص ٥٠٦ .

ليالٍ يبيح الذلُّ فيها زمامه
ويُرخص فيها الشوقُ ما كان غاليا

ويا ليلتي لما أنست بقربه
وقد ملأ البدرُ المنير الأعاليا

تطلع لا يثني من البدر طرفه
فقلت حياء ما أرى أم تغاضيا

بنا أنت من بدرٍ وددتُ لو أنه
على الأفق يبدو أينما كنتُ ثاويا

غداً تنظر البدر المضوّي فوقنا
وحيدين من دارين لم نتلاقيا

أشم شذى الأنفاس منك وفي
غدٍ يرمي بنا البين المشتُّ المراميا

وألثمُه كيما أبرد غلتي
وهيهات لا تلقى مع النار راويا

فقبّلتُ كفيه وقبلتُ ثغره
وقبلتُ خديه وما زلت صاديا

كأنا نزود البين بالقرب بيننا
فنشتدُّ من خوف الفراق تدانيا

***

ويدخل الحنين الديني ضمن ذلك الحنين المستحيل، وتلك الصبابة الآسرة، خاصة محبة الرسول، صلى الله عليه وسلم، والشوق إلى زيارة مسجده الأغر، ذي القبة الخضراء الشائقة وذي الروضة الشريفة ما بين قبره ومنبره، والتي هي روضة من رياض الجنة. وأهل السودان معروفون بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وهم من أهل الشوق والصبابة يعبرون عنها بتلك المدائح الرائعة، تفيض بالشوق والحنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كونه أكمل الناس خلقاً وأحسنهم خلقاً وخُلقاً، وكونه الأسوة الحسنة، وكونه الأكثر حناناً بالمؤمنين من آبائهم وأمهاتهم وكونه جاهد في الله خير جهاد، وعانى وتعب في سبيل دعوة ربه. فابتلي فيها وأوذي، حتى أنه نفي إلى شعب أبي طالب لمدة

ثلاث سنوات، ذاق فيها الحرمان والجوع والظمأ والضرّ والأذى، ثم اضطر إلى السفر إلى الطائف فاستقبل فيها أسوأ استقبال من أهلها إلى أن أذن الله له بالهجرة إلى يثرب:

قال تعالى:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ (التوبة: ١٢٨).

وقال تعالى:

﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ (الأحزاب: ٦)

وقال تعالى:

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ (الأحزاب: ٥٦)

والمجاذيب مشهورون بمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم، والشيخ محمد المجذوب قمر الدين، المتوفي في ١٨٣٢، صاحب الديوان الشعري، وصاحب المولد في مدح المصطفى، صلى الله عليه وسلم. ويقول عبدالله الطيب إنه تعلم الشعر الفصيح في مدح المصطفى من ديوان الشيخ المجذوب بن قمر الدين، الشيخ المشهور، صاحب الموالد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وصاحب ديوان الشعر ويقول عبدالله الطيب إن بعض الناس يخلطون بين الشيخ محمد المجذوب، المتوفي ١٨٣٢ وبين جده الشيخ محمد المجذوب الكبير بن علي أبي دامع 'راجل كبرو سنار والمدفون في سنار وكان الشيخ محمد المجذوب الثاني وهو ابن قمر الدين وصاحب الشعر والموالد، كان شاباً حين فتح محمد علي باشا السودان. وكان آنذاك مجاوراً في المدينة المنورة. وعلى كل حال، فقد تأثر الشيخ المجذوب بن قمر الدين بالشيخ عبدالرحيم البرعي (في اليمن) في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي الشعر المادح النبوي عموماً. وعبدالله الطيب نفسه كان متأثراً بجده لأمه محمد الشيخ المجذوب بن قمر الدين وكذلك بالشيخ البرعي، كما كان متأثراً بأبيه الذي كان شاعراً أيضاً وأقرأه شيئاً من أشعار عنترة بن شداد، وأبي تمام والمتنبيء وكذلك أحمد شوقي.

ومن أشعار البرعي التي حفظها عن أبيه، وكان يحسن انشادها في مسجد المجاذيب بالدامر يومي الأحد والخميس، حيث يجتمع الناس على إنشاد المولد النبوي:

بانت عن العــدوة القــصــوى بواديهــا

وقصيدة البرعي الأخرى :

بالأبرق الفــــرد أطلال قـــديات

وتشطيرها للشيخ بن الشيخ الطاهر المجذوب . ويقول عبدالله الطيب إنه كان يقف قائماً عند بوابة مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد إنتهاء مطلع القصيدة الغزلي فيضطر الجميع للوقوف، بما فيهم الشيخ بن الشيخ الطاهر المجذوب وقد كان شيخاً كبيراً متقدماً في السن :

ومن القصائد النبوية التي ترنم بها عبدالله الطيب كثيراً، وتعجبه كثيراً قصيدة عبدالرحيم البرعي التي يقول فيها :

فـــؤادي بربع الظاعنين أســـيـــر
يُقـــيم على آثارهم وأســـيــر

أحن إذا غنت حـــمــائم شـعــبــهم
وينزع قلبي نحـــوهم ويطيـــر

فيا ليت شعري عن محاجر حاجر
عن أثلات روضـــهن نضـــيـــرُ

وعن عــذبات البــان يلعبن بالضــحــا
عليـــهن كـــاســـات النســيم تدورُ

ومن لي بأن أروي من الشـعـب شـربة
وأنظر تلك الأرض وهي مطيـــرُ

وأســمع في سـفح البـشــام عـشـيــة
بكـاء حــمـــامـــات لهن هدير

أحــبـيـبــاب قلبي هل سـواكم لعلتي
طبيبٌ بداء العــاشـقين خـبــيــر

فـجـودوا بوصل فـالزمــان مـفـرقٌ
وأكــثــر عــمــر العــاشـقين قــصــيـر

أما إعجاب عبدالله الطيب بالبوصيري فلا يقل أبداً عن إعجابه بقصائد البرعي . ولقد مرت بنا استعراضات عبدالله لأبيات من بردة البوصيري ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وعبدالله الطيب ليس بأقل إعجاباً بهمزية البوصيري التي يقول في مطلعها :

كيف ترقى رُقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

والتي يقول فيها :

ليلة المولد الذي كان للدين
سرورٌ بيومه وازدهاءُ

وتوالت بشرى الهواتف أن قد
وُلد المصطفى وحق الهناءُ

مولدٌ كان منه في طالع الكفر
وبال عليهم ووباءُ

فهنيئاً به لآمنة الفضل
الذي شُرفت به حواءُ

ويقول فيها منبهاً على معجزات النبوة في أول الأمر :

ثم قام النبي يدعو إلى الله
وللكفر نجدةٌ وإباء

أمماً أشربت قلوبهم الكفر
فداءُ الضلال عياء

ربّ إن الهدى هداك وآياتك
نورٌ تهدي به من تشاء

قد رأينا ما ليس يعقل قد
الهم ما ليس يلهم العقلاء

إذ أبي الفيل ما أتى صاحب
الفيل وما ينفعُ الذكيّ الذكاء

والجمادات أفصحت بالذي
أخرس عنه لأحمد الفصحاء

ويح قـــوم جـــفـــوا نبـــيـــاً بأرض

ألفـــتـــه جنبـــاتهـــا والظبـــاء

آخـــرجـــوه منهـــا وأواه غـــار

وحـــمـــتـــه حـــمـــامـــة ورقـــاء

وكـــفـــتـــه بنســـجـــهـــا عنكبـــوت

مـــا كـــفـــتـــه الحـــمـــامـــة الحـــصـــداء

ثم وصف البصيري رحلة المعراج على النحو التالي :

فـــصـــف الليلة التي كـــان للمـــخـــتـــار

فـــيـــهـــا على البـــراق اســـتـــواء

وترقى به إلى قـــاب قـــوسين

وتلك الســـيـــادة القـــعـــســـاء

رتب تســـقـــط الأمـــاني حـــســـرى

دونهـــا مـــا وراءهن وراء

ثم وافي يحـــدث الناس شكراً

إذ أتـــتـــه من ربه النعـــمـــاء

وتحـــدى فـــارتاب كل مـــريب

أو يبـــقى مع الســـيـــول الغُـــثـــاء؟

وهو يـدعـــو إلى الإلـه وإن

شق عليـــه كـــفـــرٌ به وازدراءُ

يدل الورى على الله بالتـــوحـــيـــد

وهو المحـــجـــة البـــيـــضـــاءُ

فـــبـــمـــا رحـــمـــة من الله لانت

صـــخـــرةٌ من إبائهم صـــمّـــاءُ

ثم يأخذ البصيري في مجادلة النصارى وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى

مـــا أتي بالعـــقـــيـــدتين كـــتـــاب

واعـــتـــقـــادٍ لا نص فـــيـــه إداء

والدعاوي ما لم تقيموا عليها
بينات أبناؤها أدعياء
ليت شعري ذكرُ الثلاثة
الواحد نقصٌ في عدكم أم نماء
كيف وجدتم إلهاً نفى التوحيد
عنه الآباء والأبناء
أإله مركب ما سمعنا بإله
لذاته أجزاء
الكل منهم نصيب من الملك
فهلا تميّز الانصباء
أتراهم لحاجة واضطرار
خلطوها وما بغى الخلطاء
أهو الراكب الحمار؟ فيا
عجز إله يمسه الإعياء
أم جميع على الحمار؟ لقد
جل حمارٌ بجمعهم مشاءُ
أم سواهم هو الإله؟ فما
نسبة عيسى إليه والإنتماءُ
أم أردت الصفات؟ فلم
خصيت ثلاث بوصفه وثناءُ
أم هو ابن الإله؟ ما شاركته
في معاني النبوة الأنبياءُ
قتلته اليهود، فما زعمتم
ولأمواتكم به أحياءُ
إن قولاً أطلقتموه على الله
تعالى ذكراً، لقولٌ هراءُ

ويرى عبدالله الطيب أن همزية شوقي ليست جيدة الصياغة، وإنها مليئة بالإشارات التاريخية بصورة مضخمة وغير ضرورية، مما يبعدها من محورها الأساسي ألا وهو مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم.

والبوصيري هو الإمام شرف الدين، أبو عبدالله محمد بن سعي البوصيري المتوفي سنة ٦٩٤هـ.

وهيام المسلمين في محبة المصطفى، صلى الله عليه وسلم، جيلاً بعد جيل إنما مصدره إدراكهم بأن الرسول قد أنقذهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فأنقذ رقابهم من النار وهداهم إلى صراط مستقيم وأنه كان بهم رؤوفا رحيما، أحنى عليهم من أمهاتهم وآبائهم:

قال تعالى:

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وقال تعالى:

﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ (الشعراء: ٢١٤-٢١٥)

وكان النبي، صلى الله عليه وسلم يقول:

أنا نبي المرحمة!

أنا نبي الملحمة!

ويعني أنه - صلى الله عليه وسلم - رحمة وسلاماً على المستضعفين والمظلومين والجوعى والعطشى والفقراء والمساكين، وكذلك اليتامى والمحرومين، ولكنه في الوقت ذاته حربٌ على المستكبرين والمترفين والمسرفين، سارقي أقوات الفقراء والمساكين، وعامة الناس من عباد الله المستضعفين. ولقد جاهد الرسول، صلى الله عليه وسلم ضد الملأ من قريش، ضد الظلمة والطواغيت من مشركي العرب، وكذلك جاهد في الله حق جهاده ضد الروم المستعمرين في الشام، وواصل الصديق رضي الله عنه هذا الجهاد ضد طواغيت الروم والفرس وكذلك المرتدين الظالمين من العرب، حتى تحرر الناس من الظلم والاستعباد ومن الخضوع لغير الله!

ويغفل كثير من الناس، وحتى كثير من المسلمين، عن الوعي بأن الإسلام في جوهره

ثورة تحرير عظمى لكافة البشرية من عبادة الطواغيت من الناس، إلى عبادة الله الواحد القهار، بالرغم من أن القرآن الكريم أشار أكثر من مرة إلى مهمة الرسول في تحرير الناس وتخليصهم من الإصر والإغلال التي كانت تكبلهم في الأديان السابقة للإسلام.

قال تعالى:

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهمُ الطيبات ويحرمُ عليهم الخبائث ويضعُ عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هُمُ المفلحون﴾ (الأعراف: ١٥٧)

من أجل ذلك أحب المسلمون الأوائل السابقون ومن تبعهم بإحسان رسول الله كما لم يُحب رسولٌ ولا عظيم من البشر! ولقد شهد ذلك رسل قُريش وسفراؤهم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، إبان المفاوضات التي أدت إلى عقد صلح الحديبية.

قال أحدهم:

"لقد نظرت إلى هرقل الروم، وزرت كسرى في قصره، فوالله ما رأيت أحداً قط بعظمة محمد. لقد رأيته في قوم لن يسلموه أبداً أو يهلكوا من دونه".

وقال سفير قريش، سهيل بن مسعود، إن أصحاب محمد يتخاطفون شعره، عندما يحلق رأسه تبركاً وكذلك باقي آثاره من ماء يتوضأ به أو غير ذلك.. ".

لكل ذلك، فإن أشعار المدائح لها تاريخ طويل منذ أن قام حسان بن ثابت بمدحه صلى الله عليه وسلم. ولكن عمدة هذه المدائح المحبة للرسول صلى الله عليه وسلم هي لامية كعب بن زهير إبن أبي سلمى التي سميت بالبردة لأول مرة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفدَ مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غضيض الطرف مكحولٌ

والتي يقول فيها:

إن الرسول لنورٌ يستضاء به
مهند من سيوف الهند مسلول

فقاطعه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً:

إن الرســـــول لنورٌ يســـــتـــضـــــاء بـه

مـــهند من ســـيـــوف الله مـــسلول

فأخذ كعبُ بن زهير من أبي سلمى بإقتراح الرسول، صلى الله عليه وسلم وتم تعديل البيت حسبما كان الإقتراح النبوي الشريف، وعندما أكمل كعب بن زهير بن أبي سلمى قصيدته نهض إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ونزع بردته الشريفة وكساها لكعب فكان ذلك أعظم تشريف ناله كعب بن زهير ابن أبي سلمى في حياته كلها!!

وعلى نهج بردة "كعب بن زهير بن أبي سلمى" نسج البوصيري وكذلك البرعي وغيرهم من الشعراء والمادحون على مدار التاريخ الإسلامي وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

عبدالله الطيب والآمال الكاذبة:

عبدالله الطيب كثير الشكوى من الدهر، إنه لا يحقق له آماله التي إليها طالما كان قلبه يرنو لها كذلك مواعيد عرقوب، وهي كذلك بروق كاذبة لا يأتي على أثرها الغيث وكيف بالغوث والنصر لا أعوان ولا صديق حميم، فالأصدقاء كلهم غير صادقين في ودهم. ولقد جربهم جميعاً فلم يعد منهم لا بغنيمة ولا بقول حسن يسعده، حتى قادته طول التجارب المريرة إلى اليأس المطلق منهم، وتمنى العدم أو ما يقارب العدم إذ تمنى أن يكون طائراً أو وعلاً في أعلى الجبال أو حتى تراباً لا شيء منه يذكر!!

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا﴾ أي أن يتمنى الإنسان أنه لم يكن ولم يولد: (١)

يـــا لـــيـــت أنـــي طـــائـــرٌ آمـــن

يـصـــــــــدح في غـنَـاءَ مُـراحِ

أو لـــيـــت أنـــي وعـــلٌ فـــي ذرا

أرعـن لا يـســـــعـى بـه سـاعِ

أولـيـــــتـني لـست بـشـيء إذن

كـــفـيتُ تـهـمــامي وأوجــاعي

---

(١) أصداء النيل، من قصيدة "يا ليت" ص ١٧٣.

لم ألق من دهري غير الأسى
جلداً غير مجزاع

وفي قصيدة أخرى، يذم عبدالله الطيب الدنيا ويقول أن وعودها بروق كاذبة : [1]

عديتني أنت يا دنيا
فما وعدك مصدوق

ومن قرب لشمل
الإلف من كيدك تفريق

وقد تحدى إلى الأطلال
من آفاقك النوق

وبرقٌ لك مرموق
ووجهٌ منك معشوق

وحظ الهائم الحائم
من بحرك ترنيق

ومن قصيدة "العارض البارق" [2] :

لذاك العارض البارق
في أضلاعنا رعدُ

يثير الشجن الكامن
في الأنفس إذ يبدو

وأعضينا وفي أجفاننا
من ناره وقدُ

وينتشر على الآفاق
لماحاً ويرتد

وتقطوا [3] النفس بالشوق
إليه ثم ترتدُ

---

(1) أصداء النيل، من قصيدة .
(2) أصداء النيل، ص ٨١ .
(3) تقطو (قطا يقطو) تطاول ليتناول مد الرقبة وأشراب العنق .

وقـــد يئـــمـلنـا بـالـري
من أكنــافـــه الــوعـــدُ
ولكـن دونه الــصــحــراءُ
والظلمـــاءُ والبـــعـــدُ
وقـــد يُسليك بعـــد اليـــأس
مـن آمــــالـك الــزهــدُ

ويأسى عبدالله الطيب – في مرحلة من حياته – على الفشل والخسران اللذان لاقاهما في الدنيا، رغم عبقريته وعقله المتقد كالكوكب المنير:[1]

أبكي على نفـــسي من حـــســرة
ولا أرى في العـــيش من مـــذهب
وهل تراني أنني نافـــعي عـــقلي
ذو الوقـــدة كـــالكوكب
يا ليـــتني لم أدر حـــرفـــاً ولم
أجب مـــدى المشـــرق والمغـــرب

وفي قصيدة "خواطر مقيدة"[2] يرى عبدالله الطيب أن الآمال ليست سوى صروحاً من رمل يشيدها الفتى: أم هي مجرد برق كاذب:

***

وليس العـــيش إلا مـــثل برق
يشع علـى ظلام خـــســى
فـــيا عـــجـبـاً لنا نبني صـــروحـاً
نشـــيـــدها من الأمل الفـــتى
ونرتقب الخلود وقـــد حـــوتنا
مـــخـــالبٌ من يد الموت القـــوي

***

(١) أصداء النيل، ص ١٢٤.
(٢) أصداء النيل، "خواطر مقيدة" ص ١٤٩.

بالرغم من هذه القصائد الحزينة الشجية، وما يشير إلى أن عبدالله الطيب، قد يئس من الدنيا ومن الحياة والناس، إلا أن هذا انطباع لا يمثل الحقيقة كلها. فعبدالله الطيب ليس فيلسوفاً فحسب ولكنه أيضاً شاعر، والشعراء كثيراً ما يقولون ما لا يفعلون. ومثله مثل هؤلاء، فعبدالله أحياناً كثيرة يعطي نفسه حقها في التمتع بالحياة الدنيا وزينتها ومباهجها، وهو يغني للحب والحياة كأجمل وأحلى ما يكون الغناء: يقول عبدالله الطيب في (قصيدة رنا قلبي) :(١)

رنا قلبي إلى روض عـــــزيب
وغابات كأستار الغيوب
ويوم باسم طلق دفيء
كمضجع موسر غض رحيب
فنستلقي على الأعشاب نحسو
بهمس الحب تلهية الحبيب
رنا قلبي إلى ليلى وتاقت
إليها النفس من بون غريب
وليلى كالصباح سرت إليه
ظلال الليل في الشفق الخصيب
وليلى كالأصيل دنا فوشي
طوال النخل بالنيل الخصيب
تطيل الصمت يغمرها حياء
كلون الخمر في الكأس الطروب

فعبدالله الطيب تارة يائس من الحياة، يرى أن لا سبيل من نيل رغائب النفوس وآمال القلوب. . وأن السبيل الوحيد المتاح للفتى الأريب الحازم هو أن يزهد فيها كلياً. ولكنه تارة أخرى يغني لليلاء، ويصفها بأنها كالصباح حسناً وإشراقاً وكالأصيل سحراً وألواناً زاهية كألوان الذهب العسجدي، يوشي نخيل النيل. وأن لونها عندما يصفو ويعتريها الحياء، كلون الخمر في الكأس التي يصفها بأنها كأس طروب. ربما يقصد أنه بسبب

(١) أصداء النيل، ص ٥٨ .

الطرب عند احتساء ما فيه من خمر ، فجمالاً في محياها عند النظر إليه والتمتع بذلك يبعث في النفس شيئاً من الطرب ، مثلما تفعل الخمر . . !

ومن قصيدة " لأنت محييني بالوصل " :(1)

لأنت محييني بالوصل قاتلتي بالهجر
ربة إعزازي وإذلالي
الوصل منك كروض هاج مكتهلاً
وجاده كل صافي الورد سلسال
والوعد منك أظلُّ الدهر أرقبه
خيرٌ من الجاه بين الناس والمال
إن تهجري تقطعي بي حبل
ذي مقة لغير حبلك لا يلقي بوصال
سالت إليهم وخلتنا ببلقعة
من ريبنا وهُجُول ذات أوجال
نصبو وقد صبأت عنا وقد سعرت
ناراً بها الصب من هجرانها صالي
وغادرتك فلا عطر تشمّمُه
إذا تزور ولا تعليل إقبال
ولا لذيذ عناق من مخبأة
سر الغرام سحيراً غير متفال
ريّا خدلّجة حلوٌ شمائلها
لها سوار وجيد غير معطال
وعين ريم تراعي في خمائلها
سرباً أوامن في وعساء متهال
سكرى الشباب سبنتاة اللحاظ
لها فتك بنفسي وخمر بين أوصالي

(1) أصداء النيل، ص ١٩٠ .

تُبـدي ضـروباً من الحـسنى إذا أنست
ناهيك من نهل عـذب وإعـلال
ومن بغـام بغـام الرائمـات إذا
ما رشحت دمعها كاللؤلؤ الغالي
تشكو إليك شكايات الغـرام وقـد
تنهـدت وربت كـالموج ذي الجـال
ليس المحب بمكسـال إذ تهـاجـره
ولا إذا دومت وصـلاً بمـلال
نحلتـهـا الحب مكنوناً فـهل حسبت
أن سوف تدرك بعد الجهد أمثالي
شتـان من وده صـفـوٌ بلا كـدر
يُعطي ويُعْطاه عـفـواً غـيـر سـال
ومن هواه هوىً شـوْب مـخـالطه
حرص البخيل وضن المعرض السالي
لقـد لحنت لهـا لحناً لتـفـهـمـه
فـهل تراها شـفـاها لحن أقـوالي
أم هل تراها أصـاخت وهي واجـدةٌ
بعـدي إلى كل ذي لونين خـتّـال
وكل عـذّالة خـذّالة أشب
أورت لهـا نار شـرٍّ ذات إشـغـال
فـقـد نكون ولا عين تُراقـبـهـا
جـيـد الدُّجنّة من أهوائنا حـالي
نقـتـاتُ من خلس النجْوى وتُسعدنا
سـلافـة زانهـا لآلاءُ جـريال
سـرت إليّ وقطرُ الثلج منهـمـرٌ
والـريح ذات أهـازيج وإعـوال

فـــــرداً أهُـمُّ بإغـــــفـــاء ويلذعني

وخـزُ الشـتـاء كـئيـبـاً كـاسـفـاً بالي

حـتى تسـدت على خلسٍ فَـتَلثـمني

فكدتُ أحـسب حلمـاً قـد تَراءَى لي

تلك الفـتـاة التي نيـران لوعـتـهـا

صـيـرتني مـثل سـحق اليـمنة البـالي

ليـــهنهـــا أنني في رقـــبهـــا أبداً

حـتى يحـمل ظهـرُ الموت أثقـالي

وإنهـــا طائر اليـــمن الذي ستحت

أســـرابه وتلقـــاني به فـــالي

وأنهـــا زهرة الحب التي نبـــتت

في سـرد وادٍ خـصـيب غـيـر مـحـلال

حـيـاك عني عَـمَـار لا يصـوّحـه

تقلب الدهر من حـــال إلى حـــال

كـــمـــثل ثغـــرك رفـــاف له ألقٌ

تألق النجم في خـضـرائه العـالي

* العمار هو الزهر والريحان

وفي قصيدة (شكوى وعزاء)[1]، يقول عبدالله مشتكياً:

قد حز في النفس أني ليس يشكرني

قومي بلائي وإبداعي وإحساني

أمسي ينوه بي من ليس من وطني

وبات يحسدني أهلي وجيراني

ثم بعد ذلك أخذ يتغنى ويترنم بالعشيقة التي هجرته:

إن التي حـــجـــبت عني زيارتهـــا

هاجت وقـــد هجع النوام أشـــجـــاني

(١) أصداء النيل - ص ٢٠٣ .

غـــريرة غـــضـــة حـــسناء آنســـةٌ

ريا الأديم كـــغـــصن يانع جـــاني

براقــة الثـغــر يهـفــو حـوله لعس

إخـــــالـه إذ يـبض النّـور نـاداني

أذود نفــسي عنهـــا وهي ظامـــئـةٌ

وأصـــرف اللبَّ عنهـــا أيّ أســـوان

ولو تشـــاء لقـــادتني عـــلانيـــةٌ

وأذعـن الصــــعب مني أي إذعــــان

ويقول عبدالله الطيب من قصيدة (يا جارة البين)[1] :

يا جـــارة البين منهـــا الحـسنُ والطولُ

إن الفـــؤاد فـــؤاد السّـفــرِ مـتـبـولُ

يقـــــول نـاعـــــتـــــهـــــا

من عـــبـقـــر هي أو طوبى منابتُـــهـــا

وجـــادت العين لما جـــاء باغـتُـــهـــا

وقـــــد تبين ورهـنٌ منك مكبــــولُ

وصـاح هاتفُ سـاقـيـها وقـد سـمـقت

بكعـبـهـا وخـضـاب القـزّ مـرمـولُ

حـــبـــابه بشـــرُ الدرّ الذي حَلِيت

ورِاحـــه بشـــرٌ كـــالدرّ مـــصـــقـــولُ

أم راحُـــه شـــفـــتـــاها أو مـــقـــبّلُهـــا

أم مـعـصـمـا بُرتَيْـهـا أم مـخلخلُهـا

أم خـصـرُها حيث طي البطن مـجـدولُ

وفي أنـاملهـــا ممـا تـصـــيـــدُ بـه

قنا الأظـافـــر قـــالت أنت مـــقـــتـــولُ

---

(١) أصداء النيل، ص ٢٠٧ .

بيضاء من معشر الأحرار هذبها
طولُ السفار وفي الخدين تأسيلُ
وقد أناف على آفاق عاتقها
فرعٌ لها طُرّة منه وأكاليلُ
يا نظرة نظرتْ عينٌ وخامرها
لذع الهوى أن سيف الحسن مسلولُ
مصنوعة صنع تمثال تجفلُ من
أقواسها المرمريات السراييلُ
صبّتْ على قصب ريان ممتليء
خدل وفي الوجه مشكاة وقنديلُ
والخد أسجح والجيد الكريم نما
كما نما غصنٌ ريّان مطلول
وقال واصفها
لدنٌ معاطفها حلوٌ مراشفُها
مليحة الطوق براقٌ سوالفها
ريحانةٌ أُنف الرئمان تقطفها
العينان فاتنةٌ خراء عُطبُولُ
يا جارة البين إن القلب محتزنٌ
والحب تاهٍ وعقد الصبر محلول
ونحن قوم على متن الهواء وما
لنا مقام هنا والحب تمهيلُ
وأنت ناعمة بالسحر باغمةٌ
للقلب فيك صبابات وتأميلُ
جاءت تعلل أطفالاً بتلهيةٌ
هلا بنا منك هاتيك الأعاليلُ
فرو نفسك من لحظ تخالسُهُ
عيناك إن خلاس اللحظ تقبيلُ

ثم أشرق يوم العيد عليه وهو في جزيرة مالطا، فحن إلى السودان، وإلى قومه المجاذيب، وما يكون منهم في مثل هذا اليوم من تهليل وتكبير بالعيد، فقال في نفس القصيدة "يا جارة البين":

إن أشرق العيد لي في أرض مالطة
بين النصارى ففي الأعماق تهليل
وبالسيالة من قوم أحبهمو
لمحكلم الآي إدغام وتسهيلُ
يتلون حرف أبي عمرو إمالتهم
محضٌ وما لرءوس الآي تقليلُ
من شانه قومه إلا يتيه بهم
فقومي الصدق الصيد البهاليلُ
يجري عليهم من النيلين منبعقٌ
وفي أكفهم من جودهم نيلُ
هينون لينون، إن ظن الغبي بهم
ضعفٌ ففيهم لأهل البغي تفليلُ

وقال عبدالله الطيب يحن إلى أيام عظمة الإسلام، وأيام مجده السابقات، وكيف كان النبي، صلى الله عليه وسلم يهاجم الأعداء ظهراً في صف زاحف منتصر تقدمه الخيل مندفعة اندفاع السيل في الوادي ويقارن هذا بالضعف والهوان وتنكب هدي الإسلام السائد في الأيام المعاصرة في بداية السبعينيات من القرن العشرين، فلا الأزهر بنافع ولا المسلمون مفلحون .

فمن قصيدة "أما الخليط" يقول عبدالله الطيب[1]:

أما الخليط فبانوا بعد ما علقا
منك الفؤاد هواها فاكتم الحُرقا
كأنها نخلة بالشط مشرفةٌ
قد خضب البدر في أغصانها الأفقا

---

(١) أصداء النيل: ص ٢٦٠ .

بانت وفي القلب ذكـــراها تشعُ بهـــا

على الحشى مَـوْهِناً من نورها ألقــا

لما تراءات بليـــتـــيــهـــا لتـــحـــزنني

ولا مـــحـــالة أن يشـتـــاقُ من عـــشـقـــا

مـا إن ذكـــرتُ لهـــا وجـــداً ولا ذكـــرتْ

وجـــداً ســـوى أننا نستنطق الخـــذقـــا

ولا اتعــدنا ســوى المعـروف إن جـمـحت

بنا الصـــبـــابةُ حـــتى نشكو الأرقـــا

حـــيـــا الغـــمـــامُ جـلاه الواديين وأكناف

الغـــويـر وحـــيـــا الرمل والبـــرقـــا

والركـب إذ سلكتْ أيدي الركـــــاب

بهم مـيـمـمـين الغـضـي من راكس فلقا

هل يعلمـــــون بأن الدار غـــيّــــرها

عـهـدٌ الأنيس وأمـسى شـعُبها انفـرقا

وشـبت النارُ يقـضي الحـاكـمـون بهـا

وأنكر البــــدو تلك الأينق الدُّفُــــقـــا

صلى الإله على الهـــادي النبي بـهـــا

هدى وجـاراه فـضل السـبق إذ سـبـقـا

ونضـــر المنبـــر الأسنى وعطر روضـــات

المصلى وأسـقـاها الحـيـا غـدقـا

من مـــبلغ المصطفى إذ ندّ مـــدلجنا

عن الهـدى ونحـونا التيـه والغـسـقـا

فـــيـــا بن آمنة المهـــدي إذ نكثـــوا

صفْ الظهـــيــرة والمجنوبة العُــتُــقـــا

والواهـب الكُـوم ألفـــاً ينـدفــــعن

من الوادي يخـالُ بهن السـيل متبـعـقـا

والقــــاهر الخـــــصم بالحق المبين

وبالرمح السنين وبالهندي مُـعـتنقـا

والجــامع الناس أشـتــاتاً يؤلفــهم

على المحـجـة حـتى اقـبلوا عنقـا

إنا شـتــقــينا بما نلقى فــهل أملٌ

من فـيض نورك يجلو الغم والغـرقـا

تعـاجم العـرب الأحـرار واستبـقـوا

إلى الخـيــانة وارتادوا لهــا طرقــا

وكــان أمــرهُمُ شُــورى فــصــار إلى

من لا أبرّ ولا أوفى ولا صـــــدقـــا

يا وافــــد الله إنا وافــــدون إلى

سناك إذ شعَ وسط اليــأس وانفلقـــا

إني وحــقك إيماني كــمن شــهــدوا

بدراً يخوضون في هيجـاتهـا العَلقـا

ومـثل من صـبـروا بالشـعـب من أحـد

وترسـوا فــوقــوك النبل إذ رُشـقــا

ولو شــهــدتُ حــسـيناً إذ يُحــلأ عن

مــاءِ الفــرات ويسـقى المنهل الرنقـا

إذن وردت حــيـــاض الموت مـــورده

ومـا غـبـرتُ أصـافي العـيش من فسـقـا

يا هادي الخلق قــد حــار الدليل بنا

فــقــد دعــوناك للخطب الذي طرقــا

صلى عليك إلهي كـلـمــا هتــفت

ورقـاء هاج شـجـاها الدمع فـاستبـقـا

وبعد هذه الأبيات التي تشفَ عن إيمان عميق، ليس هنالك من سبيل لأحد أن يتشكك في عقيدة عبدالله الطيب، أو في اخلاصه للإسلام وإلتزامه بتعاليمه، وكل ما بدر منه في

فترات الشباب، والمراحل الأولى من حياته، فإنما كانت نزقات الشباب التي ندم عنها وتاب ورجع عنها، كما تنم عن ذلك قصائده التي استعرضناها مثل:

- ندم الشباب
- لذات الشباب
- غنى الشباب
- وأما الخليط

وغيرها من القصائد التي يرنو فيها إلى ربعه بالدامر والتميراب وإلى النيل وشطآنه الوريقة!

عبدالله الطيب عاشق المصطفى (صلى الله عليه وسلم):

وعبدالله الطيب كثيراً ما يصلي على المصطفى ويسلم عليه، عملاً بأمر القرآن الكريم للمؤمنين؛ ذلك الأمر الجليل:

قال تعالى:

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ (الأحزاب: ٥٦).

ولقد مدح عبدالله الطيب الرسول، صلى الله عليه وسلم كثيراً كما أشرنا.. ففي "قصيدة نبوية"(١):

سلامٌ على المختار ساكن يثربا
نبي الإله أريحياً مهذبا

ونهدي له حُرّ الثناء كأنه
شذى المسك أو يلفى من المسك أطيبا

نبي تبعناه على كلْ حالة
برغم الذي عادى ومن كان كذّبا

به هدى الرحمن للرشد بعدما
تخبطن في ظلماء شرق ومغربا

نفوساً سواه لم تكن تعرف الهدى
ولولاه لم تبصر إلى الرشد مذهبا

(١) "أصداء النيل" ص ١٩٤.

ثم يذكر عبدالله الطيب أهله وأجداده الثاوون في ذلك الدامر الغربي (التميراب) متوسدين ذلك التراب الأغبر الطيب :

ثم يعرج عبدالله الطيب إلى حاله في غربة لندن "لا مال ولا أهل" :

بلندن مـــالي من صـــديق أعـــدّه
لعـــثـــرة دهري إن تنكب أو كـــبـــا
ومـــالي من ردء فـــتـلفـــيني به
أرد شـــبـــا ألب علي تألـــبـــا

ثم يعود عبدالله الطيب مرة أخرى لمدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

لعل رســـول الله أرغب من دعـــا
إلى الله قلبـــاً في الأنام وأرحـــبـــا
وأصـــدقـــهم في حـــجـــة الله لهـــجـــة
وأقطعـــــهم إن صـــــارم باتر نبـــا
وأكـــرمـــهم جَـــداً وأكـــرمـــهم أباً
وأكـــرمـــهم خـــالاً وعـــمـــاً ومنسـبـا
يُعين به الرحـــمن قـــومـــاً أعـــزة
أذلهم جـــور عليـــهم تغلبـــا[1]
"عليـــه من المولى ســـلام ورحـــمـــة"
أحف من النكبـــا وأذكى من الكبـــا

وعبدالله الطيب مغرم بالمديح، وبقصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير بن أبي سلمى.. وهو يعتبرها أصل المديح، على وزنها نسجت البردة للبوصيري (عليهم جميعاً رحمة الله وغفرانه) وعبدالله الطيب، كلف بوجه خاص بقصيدة "البردة" للبوصيري وكذلك بقصائد جده الشيخ محمد المجذوب قمر الدين، "راجل الدامر" :

أما بردة البوصيري، وكذلك الهمزية لحافظ إبراهيم فهي أناشيد وقصائد يعشقها كثيراً ويترنم بها كثيراً وينشدها هو وأقرانه من الأدباء والشعراء في الظروف الصعبة فتنفس عنهم وتسري من غربتهم ووجدانهم في غربة لندن، كما هي وسيلة للدعاء بانفراج من الكرب والملمات. وكثيراً ما يحاول هو وأصدقاؤه من ممارسة "التبطين" في الإنشاد وكذلك

(١) الإشارة هنا إلى حكم الإنجليز للسودان، منذ حملة كتشنر في نهاية القرن التاسع عشر.

بالتعاقب على إنشادها جماعياً، كل واحد ينشد نفس البيت بعد أخيه . فتتداخل الأصوات والأنفاس والصبابات والأشواق :

أمن تذكــــر جـــيـــران بذي سلم

مــزجت دمــعــاً جــرى من مـقلتي بدم

أمن هبت الريح من تلقــاء كـــاظمـــة

وأومض البـــرق في الظلمـــاء من أضم

فــمـا لعـينيك إن قلت أكـفـفـا همتـا

ومـــا لقلبك إن قلت اســـتـــفق يهم

***

نعم ســـرى طيف من أهوى فـــأرقني

والحب يعـــتـــرض اللذات بالألم

يا لائمي في الهـوى العـذري مـعـذرة

مني إليك ولو أنصـــــفت لم تُلم

وألطف بعـــبـــدك في الدارين أن له

صــبـراً مـتى تدعـه الأهوال ينهـزم

وأذن لســـحب صـــلاة منك دائمـــة

على النبي بمنهل ومنســـــجم

مــا رنحت عــذبات البــان ريح صــبـا

وأطرب العيس حــادي العيس بالنغم

وهذه "بردة" المختــار قـد خُـتـمت

والحـــمـــد لله في بدء وفي خــتم

أبيـــاتهـــا ســـتـــون مع مـــائة

فـــرج بهـــا كـــربنا يا واسع الكرم

مـــولاي صلي وسلم دائمـــا أبداً

على حـــبـــيـــبك خـــيـــر الخلق كلهم

***

وكان المنشدون يرددون هذا البيت الأخير، لأنهم يعتقدون أن فيه "بركة" خاصة..

يقال أن البوصيري أنشد "بردته" على الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المنام، وعندما أتى إلى البيت الأخير الخاتم أنشد صدره. ثم ارتج عليه فلم يستطع أن يأتي بالعجز وظل يردد:

مولاي صلي وسلم دائماً أبداً... هنا أكمل المصطفى (صلى الله عليه وسلم) الشطر الثاني وقال له: قل يا بوصيري وأنه خير خلق الله كلهم

فصار البيت الأخير، الذي يستحسن إعادة إنشاده بعد كل مقطع من القصيدة:

مـــــولاي صلي وسلم دائمـــــاً أبداً

على حـــبـــيـــبك خـــيـــر الخلق كلهم

أما قصيدة كعب بن زهير بن أبي سلمى، فهي القصيدة "العمدة" فكانت تنشد في المناسبات الكبيرة الحاشدة وكذلك مولد محمد عثمان الميرغني الكبير:

صــلــوا عــلــيـــــــــــــه المـصـطـفـى

بحـــر الصـــفـــا المصطفى صلوا عليــه

صــلــوا عــلــيـــــــــــــه المصطفى

ذكر عبدالله الطيب أن ديوان عبدالرحيم البرعي كان ضمن مكتبة والده، وأنه تأثر به تأثراً بالغاً، وكان يحفظ قصائد كثيرة من قصائد عبدالرحيم البرعي، كما كان يحب كثيراً الترنُّم بها وإنشادها في المسجد العامر بالدامر - مسجد المجاذيب خاصة في ليلة الاثنين وليلة الجمعة (مساء يوم الخميس):

ومن القصائد التي كان يحب إنشادها كثيراً في ذلك المسجد العامر بدامر المجذوب، قصيدة البرعي الرائعة:

بالأبرق الفـــــرد أطلال قُـــــديمات

لآل هند عـــفـــتـــهن الغـــمـــامـــات

وملعب عـــبـــــثت هوج الرياح به

كـــأنهم فـــيـــه مـــا ظلوا ولا باتوا

يقول عبدالله الطيب أن قريبه الشيخ بن الشيخ الطاهر المجذوب كان قد شطر هذه القصيدة. ولذلك كان الفتى عبدالله الطيب يحب إنشادها إكراماً لعمه الشيخ بن الشيخ الطاهر المجذوب.

وقال أنه كان يقف قائماً عندما يصل إلى نهاية الغزل أو النسيب الذي في مطلعها وعند بداية مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم):

يهدي التحية من نيابتي برع
إلى نبي عطاياه جزيلات
محمد سيد الخلق الذي إمتلأت
من نوره الأرض والسبع السموات

وإليك أبيات القصيدة:

تشتيتهم جمع الأحزان في كبدي
فالهم مجتمع والركب أشتات
فيا حمامات وادي البان شجوك في
ظل الأراك شجاني يا حمامات
ويا أثيلات نجد ما لعبت ضحى
إلا لعبت بقلبي يا أثيلات
تهيج لوعة قلبي المستهام إذا
هبت بنشر الصبا النجدي هبات
فكيف حال بعيد الدار مغترب
له إلى الشام حنات وأنات
يهدي التحية من نيابتي برع
إلى نبي عطاياه جزيلات
محمد سيد الخلق الذي إمتلأت
من نوره الأرض والسبع السموات
أسرى به الله من أرض الحجاز إلى
أن قبلت نعله الحجب الرفيعات
أدناه من قاب قوس حين كلمه
بالغيب من بعد ما قال التحيات
وزاده منه تشريفا وشفعه
في الخلق لاعدمت منه الشفاعات

تالله مـــا ارتفـــعـت للـدين مـــرتبـــه

لو لا مـــراتبـــه الشم المنيـــعـــات

أحـــيـــا الزمـــان فـــأيام الزمـــان بـه

يومـــان في الله إنعـــام وغـــارات

وقال شـــوكـــة أهل الشـرك مـرتضـيـاً

لله ربا فـــمـــا العـــزى ومـــا اللات

مني السـلام على القـبـر الذي اعـتكفت

فـيـه العلى وانتـهـت فـيـه النهـايات

وجـــاد طيـــبـــة مـــرفض تلوح بـه

زهو الرياض وتخـضـر البـشـامـات

أرض ســمـت برســول الله أشــرف

من تشـــرفت فـــيـــه آباء وأمـــات

مـــتى أرى النور من أرجـــاء قـــبـــتـــه

مني تبـــاشــرني منه البـــشـــارات

فـــإن ولهت إلى قـــبـــر إبن آمنة

فـهـو الذي خـتـمت فـيـه الرسالات

ذاك الحـــبـيب الذي ترجـو عـواطفـه

وبره الخلق أحـــيـــاء وأمـــوات

البـــدر شق لـه والغـــيم ظلله

والجـذع حن وســبـحن الحـصـيـات

وشـاه جـابر يوم الجيش مـعـجـزة

نعم النبي ونعم الجـيش والشـــاة

مـــولاي مـــولاي فـــرج كل مـعظمـة

عني فـقـد أثقلت ظهـري الخطيـئـات

وأمنع حـمـاي وهب لي منك مكرمـة

يا من مـواهبـه خـيـر وخـيـرات

وأعطف على وخذ يا سيدي بيدي
إذا دهتني الملمات المهمات

فقد وقفت بباب الجود معتذرا
والعفو متسع والعذر أبيات

وإن مدحك بالتقصير معترفا
فمدحك الوحي والسبع القراآت

فلا يخف بعدها عبدالرحيم ومن
يليه أهل وصحب أو قرابات

صلى عليك إلهي يا محمد ما
لاحت لنورك من بدر علامات

والآل والصحب والأزواج كلهم
فهم لسادات أهل الفضل سادات

ومن قصائد البرعي التي نوه بها عبدالله الطيب، قصيدته الرائعة التي مطلعها:

فؤادي بربع الظاعنين أسير
يقيم على آثارهم وأسير

ودمعي غزير السكب في عرصاتهم
فكيف أكف الدمع وهو غزير

أحن إذا غنت حمائم شعبهم
وينزع قلبي نحوهم ويطير

فيا ليت شعري عن محاجر حاجر
وعن أثلات روضهن نضير

وعن عذبات البان يلعبن بالضحى
عليهن كاسات النسيم تدور

ومن لي بأن أروى من الشعب شربة
وأنظر تلك الأرض وهي مطير

بعـــدتم ولم يبـــعــــد عن القلب حــبكُم

وغـــبـــتم وأنتم في الفـــؤاد حـــضـــور

أغـــــار عليكم أن يراكم حـــواســـــدي

وأحــــجب عنكم والمحب غـــــيــــور

أحـــــبــــاب قلبي هل ســـواكم لعلتي

طـبـــيب بداء العـــاشـــقين خـــبــيـــر

أعـــيـروا عـيـوني نظرة من جـمـــالكم

ومـــا كل من يبـــغي الوصـــال يعـيـــر

مـــرادي هواكم والهـــوان كـــرامـــة

لحلو هواكم والعـــســـيـــر يســـيـــر

وتأخـــذ قلبي نشـــوة عند ذكـــركم

كـــمـــا أرتاح صب خـــامـــرته خـــمـــور

وأني لمســـتـــغن عن الكون دونكم

وأمـــا إليكم ســـادتي فـــفـــقـــيـــر

ولـيـلة قـــــدري لـيـلة بت آنســــا

بكم ولأقـــلام القـــبـــول صـــريـر

وضـحـوة عيـدي يوم أضـحي بقربكم

عليّ من اللطف الخـــفي ســـتـــور

فـجـــودوا بوصل فـالزمـــان مـفـــرق

وأكـثـر عـمـر العـاشـقين قـصـيـر

ولا تغـلقـــــوا الأبواب دوني لزلتي

فـــأنتم كـــرام والكريم غـــفـــور

وقـــد أثقلت ظـهـــري الذنوب وإنما

رجـــائي لغـــفـــار الذنوب كـــبـيـــر

وجـــاه رســـول الله أحـــمـــد نصـــرتي

إذا لـم يكن لي في الخطوب نصـيـــر

ومدح رسول الله فأل سعادتي
أفوز به يوم السماء تمور
نبي تقي أريحي مهذب
بشير لكل العالمين نذير
إذا ذكر ارتاحت قلوب لذكره
وطابت نفوس وانشرحن صدور
وكيف يسامي خير من وطيء الثرى
وفي كل باع عن علاه قصور
وكل شريف عنده متواضع
وكل عظيم القريتين حقير
لئن كان في يمناه سبحت الحصى
فقد فاض ماء للجيوش غير
وخاطبه ضب وجذع وظبية
وعضو خفي سمه وبعير
ودر له الشدى الأجد كرامة
كما انشق بدرٌ في السماء منير
ومثل حنين الجذع سجدة سرحة
وأنس غزال البر وهي نفور
وباض حمام الأيك في إثره كما
بنت عنكبوت حين كان يسير
وإن الغمام الهاطلات تظله
بروح نسيم إن ألم هجير
ويوم حنين إذ رمى القوم بالحصى
فولوا وهم عمي العيون وعور
وجند في بدر ملائكة السما
فجبريل تحت الرايتين أمير

وإن رســـول الـلـه من مكـة ســـرى

إلى القـدس والروح الأمين سـمـيـر

فـجـاز الـسـمـاء الـسـبع في بعض ليلة

لكن بعـد الـسـبـع أين يصـبـر

فـلاح له من رفـرف النور لائح

من النور للهـادي البـشـيـر يسـير

وشـاهد فـوق العـرش كل عـجـيـبـه

ومـا ثـم إلا زائر ومـزور

حـبـيب تملي بالحـبـيب فـخـصـه

وشـرفـه بالقـرب وهو جـديـر

وقـال له سلني رضـاك فـإنني

على كل شيء في رضـاك قـديـر

فـعـاد قـرير العين في خلع الرضـا

وقـد شـملتـه بهـجـة وحـبـور

مـحـمـد قم بي في الخطوب فـإن لي

تجـارة مـدح فـيك ليس تبـور

عـرائس لا ترضي بغـيـرك ناكـحـا

لهن عـزيزات المهـور مـهـور

علت وغلت إلا عليك فـأرخـصـت

لترخص حـور في القـصـور قـصـور

مـؤلفـهـا عـبـدالرحـيم كـأنهـا

كـواكب في جـو الـسـمـاء تنـيـر

لبـسن مـعـانيـهـا بمدحك بهـجـة

فـلاح لهـا نور وفـاح عـبـيـر

فـقل أنت في الدارين في حـرزنا

ومن يليك صـغـيـر في سنه وكـبـيـر

وصلى عليك الله واختص واجتبى

فأنت هدى للعالمين ونور

وعم رضاه الآل والصحب أنهم

لدينك ياشمس الزمان بدور

وتعميماً للفائدة، وتعميقا لمحبة المصطفى في نفوس النشء الصاعد، نورد قصائد أخرى من فرائد البرعي والتي طالما عطرت ربا تلك النواحي العزيزة من السودان الشمالي- بولاية النيل : بربر- عطبرة - الدامر - أم الطيور :

ومن قصائد البرعي التي يحبها عشاق المصطفى، القصيدة التي مطلعها :

بكي الغريب لفقد الدار والجار

إن الغريب غزير دمعه الجاري

واليك - أيها القارئ، نص هذه الفريدة في حب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) :

بكي الغريب لفقد الدار والجار

إن الغريب غزير دمعه الجاري

أهاجه الركب إذ قالوا الرحيل غدا

أم شاقه لمع ذاك البارق الساري

أم بات يرقب نارا بالحي وقِدت

يا موقد النار لا عذبت بالنار

هب النسيم بأرواح يمانية

تهدي إلى الشام ذاك المنزل الداري

فبت والقلب مجروح جوارحه

حيران أضرب أخماسا بأعشار

نام الخليون من حولي وما علموا

أني سمير صبابات وتذكار

يا ممرضي بريا لمجد أعد مرضي

عسى يعودون عوادي وزواري

فـقـد وهبت لغـزلان العـذيب دمي

ولم أطالب عـيـون العين بالثـأر

لو لا فـراق الفـريق النازلين على

حكم الهوى ما وشي دمعي بأسراري

فكم تقـسم قلبي نيـة عـرضت

مـقـسـومـة بين أنجاد وأغـواري

سلم على الحي من "نيـابتي" برع

وقل لهم حين تنبـيـهم بأخـبـاري

رأيتـه حـول بيت الله في زمـر

من طائفين وحـجـاج وعـمـار

وقد قضى عمل النسكين محتسبا

ونال مـا نال من غـفـران غـفـار

لكنه ضـاق ذرعـا أن يحج ولم

يزر شـفـيع البرايا صـفـوة البـاري

مـحـمـدُ دعـوة الحق الرسول إلى

عـرب وعـجم وبدو ثم حـضـار

سـر السـرارة لب اللب خيـر فـتى

من فـتـيـة سـادة السـادات أخيـار

مـسـتغرق باسـمـه كل المحامد من

علم وحلم وإفـضـال وإيثـار

حـيـاك يا طيبة الغـراء صـوب حيـا

تهـمي بمنسـجم في الحي مطاري

حيث النبوة مـضـروب سـرادقـهـا

على رياض جنان ذات أنهـار

الله أكبـر ذا فـرد الجـلالة ذا الكاسي

من الكيس والعـاري من العـار

ذا بهجة الكون ذا سر الهداية ذا

روح الوجود المصطفى خير مختار

إنجيل عيسى مع التوراة بشرنا

ببعثه مسندا عن كعب أحبار

وكم له في علامات النبوة من

مصنفات صحيحات وآثار

كبره مرضي وفيض الماء من يده

وأنس نافر غزلان وأطيار

ونطق ضب ونسج العنكبوت كما

باض الحمام لثاني اثنين في الغار

والعضو كلمه والجزع حن وفي

معناه تسليم أحجار وأشجار

والغيم ظلله والبدر شق له

والجرد فاض بدر منه مدرار

وكم لأشرف رسل الله من شرف

لم تبلغ الخلق منه عشر معشار

يا منقذ الخلق من نار الجحيم وهم

على شفا جرف هار منهار

اسمع غرائب مدح لا أريد بها

تحصيل دار ودينار وقنطار

فما مدحتك بالتقصير معترفا

إلا لتخفيف آصاري وأوزاري

وأين ينزل مدحي فيك بعد ثنا

سبع المثاني وسجعي واشعاري

عليك أزكى صلاة الله دائمة

تبقى بقاء عشيات وأبكار

ومن القصائد التي يحبها الشيوخ والطلاب من أحباب المصطفى (صلى الله عليه وسلم) القصيدة التي مطلعها :

قل للمطي اللواتي طال مسراها
من بعد تقبيل يمناها ويسراها
ما ضرها يوم جد البين لو وقفت
تقص في الحي شكوانا وشكواها
لو حملت بعض ما حملت من حرق
ما استعذبت ماءها الصافي ومرعاها
لكنها علمت وجدي فأوجدها
شوقي إلى الشام أبكاني وأبكاها
ما هب من جبلي نجد نسيم صبا
الغور إلا وأشجاني وأشجاها
ولا سرى البارق المكي مبتسما
إلا وأسهرني وهنا وأسراها
تباردت من ربا نيابتي برع
كأن صوت رسول الله ناداها
حتى إذا ما رأت نور النبي رأت
للشمس والبدر أمثالا واشباها
حطت بسوح رسول الله وأطرحت
أثقالها ولديه طاب مثواها
حيا الغمام الرحاب الخضر منسجما
فالقبر فالروضة الخضراء حياها
حيث النبوة مضروب سرادقها
وذروة الدين فوق النجم علياها
هنالك المصطفى المختار من مضر
خير البرية أقصاها وأدناها

أتى به الله مـبـعـوثاً وأمـتـه
على شـفـا جـرف هار فـأنجـاها
وأبدل الخلق رشـدا من ضـلالتـهم
وفل بالسـيف لما عـز عـزاها
كم حكم السـيف والبـيض القـواضب
في مـعـاشـر اللات والعـزى فـأفناها
وساق جـرد جـياد الخـيل خـائضـه
مـجـرى الكمـاة بمجـراها ومـرسـاها
شـمس الوجـود الذي أنوار مـولده
مـلأن مـا بين كنعـان وبصـراها
وانشق إيوان كـسـرى من مـهـابتـه
ونار فـارس ذاك الطفل أطفـاها
وكم له من كـرامـات يخص بهـا
ومـعـجـزات كـثـيـرات عـرفناها
والجـذع حن وأجـرى الماء من يده
عـشـر المئين ونصف العـشـر أرواها
والعنكبـوت بنت بيـتـا عليـه لكي
ترد فـرقـة كـفـر ضل مـسـعـاها
والفـحل ذل وأومـأ بالسـجـود له
والظبـيـة اشـتكت البلوى فـأشكاها
بشـرى طراف القـوافي أنهـا ظفـرت
بسـيـد العـرب العـرباء بشـراها
فـالحـمـد لله نحن الفـائزون به
في ملة نعم عـقـبى الدار عـقـبـاها
هذا مـحـمـد المحـمـود سـيـرته
هذا أبر بني الدنـيـا وأوفـاها

هذا الذي حين جـــانا بالرســـالة في

بطحـــاء مكة عم النور بطحـــاها

لم يبق من شـجـر فـيـهـا ولا حـجـر

إلا تحـيـيــــه نطقـــاً حين يلقــاها

وكلمـتـــه جـمـادات الوجـود على

علم كـأن لـهـا حـســـا وأفــواها

والطيـر والوحش والأمـلاك مـا برحت

تهـــدي الســـلام له كي ترضي الله

مني السـلام على النور الذي ابتـهـجت

به الســمـــوات لما جـــاز أعـــلاها

واسـتـبشـر العـرش والكرسي وامـتـلأت

حـجب الجــلالة نورا حين وافـــاها

يا من له الكوثر الفـيـــاض مكرمـــة

يـا خـــــاتم الرسل يـا يـس يـا طـه

مـــا للنبـــيين من وصـف وليس له

فـمنتـهى حـسنهـا فـيـه وحـسناها

أنت الذي مـا لـه في الكون من شـبـه

هـيـــــهـــات أين ثـراها من ثرياها

مـا نال فـضلك ذو فـضل سـواك ولا

سـامي فـخـارك ذو الفـخـر ولا ضاهى

فـرد الجـلالة مـقـبـول الشـفـاعـة في

يوم القـيـامـة أعلى الأنبـيـاء جـاها

ومن القصائد البديعة للبرعي، قصائده:

ضـربت سـعـاد خـيـامـهـا بفـؤادي

من قـبل سـفك دمي بسـفح الوادي

وقصيدته في مناجاة المولى عز وجل، والتي مطلعها:

قف بالخضوع وناد ربك يا هو

إن الكريم يجيب من ناداه

واطلب بطاعته رضاه فلم يزل

بالجود يرضي طالبين رضاه

والحقيقة فالكثير من قصائد عبدالرحيم البرعي لها صدى خاص، لأنها صادرة من قلب معني بحب الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي يخرج من القلب، يصل إلى القلب، كما يقولون، والأرواح جنود مجندة وكذلك القلوب، فمحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا يتعارفون بظهر الغيب ونجوى أحدهم هي نجواهم جميعاً. ورزقنا المولى عز وجل حبه وحب نبيه.

عبدالله الطيب والبوصيري:

وأما البوصيري فإعجاب عبدالله الطيب به لا يدانيه إعجاب، يقول منوهاً بفضله وروائع مدائحه في المصطفى، صلى الله عليه وسلم[1]:

"وللبوصيري من فحل الشعر وطنانه في مدح الرسول روائع ليس إلى استكثار الشواهد فيها هنا من سبيل.. ونذكر منها على سبيل التمثيل لاميته التي على وزن "بانت سعاد" ولم يجعل لها فاتحة نسيب، وإنما افتتحها بالتأمل والمواعظ:

إلى متى أنت باللذات مشغول

وأنت عن كل ما قدمت مسئولُ

في كل يوم تُرجي أن تتوب غدا

وعقد عزمك بالتسويف محلولُ

أما يُري لك فيما سُر من عمل

يوما نشاط وعما ساء تكسيلُ

فجرد العزم أن الموت صارمه

مجرد بيد الآمال مسلولُ

وبائيته الوافرية التي إفتتحها بالمدح مباشرة:

(١) المرشد إلى أشعار العرب: الجزء الرابع - القسم الثاني ص ١٩٧.

بمدح المصطفى تحيا القلوبُ
وتغتفر الخطايا والذنوبُ
وأرجو ان اعيش به سعيدا
وألقاه وليس على ذنوب
نبي كامل الأوصاف تمت
محاسنه فقيل له الحبيبُ

وفيها

بدت للناس منه شموس علم
طوالع ما تزول وما تغيبُ
خلائقه مواهب دون كسب
وشتان المواهب والكسوبُ
مهذبة بنور الله ليست
كأخلاق يُهذبها اللبيبُ
وآداب النبوة معجزاتٌ
فكيف ينالها الرجلُ الأديبُ

* ومن روائع البوصيري – رحمه الله – التي إستهوت عبدالله الطيب رحمه الله رحمة واسعة بائيته " من بحر الكامل " التي استهلها البوصيري بالمواعظ والندم ' مثل لاميته التي استعرضناها أعلاه ' وفيها يقول:

وافاك بالذنب العظيم المذنبُ
خجلاً يعنّف نفسه ويؤنّبُ
لم لا يشوبُ دموعه بدمائه
ذو شيبة عوراتها ما تخضبُ
لعبت به الدنيا ولو لا جهله
ما كان في الدنيا يخوض ويلعبُ
لزم التقلب في معاصي ربه
إذ بات في نعمائه يتقلبُ

يستغفر الله الذنوب وقلبه

شرهاً على أمثالها يتوثب

يغري جوارحه على شهواته

فكأنه فيما استباح مكلّبُ

أضحى بمعترك المنايا لاهياً

فكأن معترك المنايا ملعبُ

ضاقت مذاهبه عليه فما له

إلا إلى حرم (بطيبة) مهربُ

متقطعُ الأسباب من أعماله

لكنه برجائه متسببُ

وقفت بجاه المصطفى آماله

فكأنه بذنوبه يتقربُ

وبدا له أن الوقوف ببابه

بابٌ لغفران الذنوب مجرّبُ

صلى عليه الله إن مطامعي

في جوده قد غار منها أشعبُ

* يقول عبدالله الطيب إن في أشعار البوصيري خفة روح المصريين، وميلهم إلى الدعابة وما يميزهم من ذكاء نادر، إذ أن البوصيري رحمه الله، ولد في ناحية أبو صير، أبوه مغربي وأمه مصرية من صعيد مصر. والذي يقارن شعر البوصيري بشعر عبدالرحيم البرعي اليمني لا يجد صبابة البرعي الصادقة المشبوبة ولكنه - عوضاً عنها يجد عمقاً وجواهر من المعاني والصور والتشبيهات البديعية الرائعة. وعبدالله الطيب شغوف جداً ببردة البوصيري الميمية، فهو يعود إليها مرة بعد مرة في (المرشد) وفي أجزائه المختلفة. يقول البوصيري في البردة، ذاكراً معجزة الإسراء والمعراج:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم

كما سرى البدر في داج من الظلم

وبت ترقي إلى أن نلت منزلة

من قاب قوسين لم تُدرك ولم تُرَم

وقدّمتك جميع الأنبياء بها

والرسل تقديم مخدوم على خدَم

وأنت تخترق السبع الطباق بهم

في موكب كنت فيه صاحب العلم

يقول عبدالله الطيب أن (دانتي) في قصيدته الإلهية، قد أخذ من قصة المعراج من البوصيري وبين تواريخ ميلاد (البوصيري) و(دانتي) أكثر من نصف قرن من الزمان:

حتى إذا لم تدع شأواً لمستبق

من الدنو ولا مرقى لمستنم

خفضت كلّ مقام بالإضافة إذ

نُوديت بالرفع مثل المفرد العلم

ثم يدلف محمد البوصيري إلى أصحاب رسول الله الكرام، فيمدحهم ويذكر جهادهم وبلاءهم في سبيل الله، قال[1] :

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم

ماذا رأى منهم في كل مصطدم

وسل حنيناً وسل بدراً وسل أحدا

فصول حتف لهم أدهى من الوخم

المصدرين البيض حمراً بعدما وردت

من العدا كلّ مسود من اللمم

والكاتبين بسُمر الخط ما تركت

أقلامُهم حرف جسم غير منعجم

كأنهم في ظهور الخيل نبت رُبًا

من شدة الحزم لا من شدة الحزم

---

(١) أصداء النيل، ص ٤٨ .

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقاً
فما تُفرق بين البهم والبُهم
ومن تكن برسول الله نصرتهُ
إن تلقه الأسدُ في آجامها تجم

ويقول المتصوفة أن من أنشد هذا البيت أمن مما يخاف، ولو لقيه الأسد وتجمُ هنا معناها يصيبُها الوجوم والتردد:

ولن ترى من وليَ غير منتصر
به ولا من عدو غير منقصم
أحل أمته في حرز ملته
كالليث حل مع الأشبال في أجم
كم جادلت كلمات الله من
جدل فيه وكم خصم البرهان من خصم
كفاك بالعلم في الأمي معجزة
في الجاهلية والتأديب في اليُتم
خدمتُه بمديح أستقيل به
ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم
أطعتُ غيَ الصِّبا في الحالتين فما
حصلتُ إلا على الآثام والندم
فيا خسارة نفس في تجارتها
لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسُم
ومن يبيع آجلاً منه بعاجلة
يبن له الغبْنُ في بيع وفي سلم
إن آتِ ذنباً فما عهدي بمنتقض
من النبي ولا حبلي بمنصرم
فإن لي ذمّة منه بتسميتي
محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

هذا واسم البوصيري كاملاً هو محمد بن محمد بن سعيد بن حماد البوصيري واسمه (محمد) هو ذمّته التي أشار إليها في البيت أعلاه، وعبدالله الطيب مغرم أيضاً بهمزية البوصيري وقد أوردنا أجزاء منها أعلاه، ولا نستطيع أن نوردها كاملة على جمالها ودسم موضوعاتها - مخافة أن نطيل أكثر مما أطلنا، ونحذف خاصة تلك الأجزاء من همزية البوصيري التي جادل فيها النصارى واليهود جدلاً خشناً انتقد فيها عقائدهم في التثليث، وفي ألوهية عيسى وعُزَير، وكذلك انتقد موقف اليهود في المدينة المنورة من نقض لحلفهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وخيانة ذلك الحلف، خاصة بنو النضير وبنو قريظة. فمن أراد أن يطلع على ذلك فيمكنه الرجوع إلى موضع ذلك في (المرشد)، في الجزء الرابع - القسم الثاني منه. ونختم هذا الفصل بالصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. صلى الله على محمد صلى الله عليه وسلم..

الفصل التاسع

خاتمة وتعقيب

الفصل التاسع
خاتمة وتعقيب

كنتُ قد ذكرتُ في الفصل الثاني من هذه الدراسة: أن العلاقة بيني وبين أستاذي العلامة عبدالله الطيب، رحمه الله رحمة واسعة، كانت علاقة متينة وحميمة، ولكنها علاقة يعتريها الكثير من عدم الإنتظام؛: فقد تركت جامعة الخرطوم، مبكراً وذهبت للدراسات العليا، أولاً في بريطانيا، وثانياً في الولايات المتحدة الأمريكية . . . ثم عدت للعمل بجامعة الخرطوم، بعد حصولي على الدكتوراة من جامعة بتسبيرج، بنسلفانيا، الولايات المتحدة. ولكن ظروفاً تاريخية معروفة -أشرت إليها في ذلك الفصل - حالت دون الاستمرار في عملي كمحاضر في جامعة الخرطوم، واضطررت وقتها إلى الرحيل والترحال في جامعات الدنيا، خاصة الخليج، فكنت من سفر إلى سفر ولسان حالي كما يقول الشاعر إبن زريق:

فكأنما هو من حلٍ ومرتحل
موكل بفضاء الله يزرعُه

فكانت لقاءاتي مع أستاذي عبدالله الطيب. بعد ذلك لقاءات عابرة، من لقاء إلى إفتراق، ومن إفتراق إلى لقاء، ولقد تسنى لي أن أقابله في بريطانيا عدة مرات. مرة في درم ومرة في مدينة لستر. ولقد زارني في درم -جزاه الله خيراً وغفر له- لمدة يومين تقريباً، أمضيناها كلها في أحاديث فيها قدر كبير من الإمتاع والمؤانسة، وكذلك إلتقيت به لمدة يوم كامل مرة أخرى في مدينة لستر. وحدث بما شئت عن الإمتاع الكامل والمؤانسة الخبيبة الغامرة، وفي كل هذا، كانت تتفرق بنا سبل الفكر والاهتمام. وكما ذكرت في الفصل الثاني - فقد كان عبدالله الطيب مولعاً بإرتياد أقصى تخوم اللغة والشعر والبيان، يحوّم في كل أسواق الشعر و الأدب في أيام الجاهلية وكل قصور الأمراء والخلفاء والسلاطين في العصر الإسلامي، أموياً وعباسياً، خاصة في العصور العباسية المتأخرة، حيث تفجرت ينابيع الشعر والأدب والبلاغة. وكانت أسواق الشعر في الجاهلية كثيرة جداً، وهذه علامة أكيدة على مدى تعلق العرب في الجاهلية بالشعر والأدب والبلاغة والبيان، كما هي علامة أكيدة على مدى شغفهم بالكلام الجميل الفصيح وخاصة الشعر!!

ولقد ذكر أبو حيان التوحيدي – صاحب كتاب الإمتاع والمؤانسة – عدداً من أسواق الشعر التي كانت معروفة عند أولئك العرب الجاهليين ومنها :

- دومة الجندل ،
- سقير ،
- ذو المجنة ،
- ذو المجاز ،
- عكاظ .

بينما كنت أنا – كاتب هذه السطور – والتلميذ المحب لأستاذه العلامة ، مغرماً بالتحويم على مراكز الفكر والإشعاع الفلسفي والحضاري ، أحاول جهدي أن أرتاد أقصى تخومه ، من بغداد ودمشق وحلب وحتى قاهرة المعز لدين الله الفاطمي ، ومن أقصى المشرق من الصين والهند والسند وفارس ، ومروراً باليونان القديمة وإلى المغرب العربي وحتى في الجزيرة الإيبرية في اسبانيا المسلمة في العصور الوسطى !

كنت أفترق عنه لأنني كنت أبحث عن قضايا فكرية وفلسفية عويصة ، لم تكن محاضرات عبدالله الطيب ولا مؤلفاته الزاخرة القديمة ، تسعفني بأي إجابات عنها ، لأن الفكر قضاياه الكثيرة تتجاوز كل اللغات كلغات . ولكنني لم أدخر جهداً لإدراك مدى أهمية اللغة كوعاء للفكر ، وكأداة للتعبير والفهم ، فأعود من حيث افترقت ، ثم ما ألبث أن أشعر بالملل وعدم الإشباع ، فأفترق مصوباً نحو قلاع المعرفة ومناراتها شرقاً وغرباً . . إلى آن رزئت بفقده . وكانت في النفس حاجات لم تقضها ، وآمال بلقاء طويل ونقاش مع أستاذي لم تظفرني به الأيام . ومن هنا كانت غاية الحزن والأسى ومرارة الفقد والحرمان . . ففزعت بحاجاتي إلى كتبه وآثاره ، عليَّ أعوض بها بعض التعويض ما حرمني فقده من الأنس والفائدة . ولله ما أعطى ولله ما أخذ ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

مناظرة بين أبي سعيد السيرافي (عالم اللغة) ومتى بن يونس (عالم المنطق)

يذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه البديع (الإمتاع والمؤانسة) حواراً بديعاً دار بين كل من :

* إبي سعيد السيرافي ، العالم اللغوي العلامة في النحو العربي وفي الصرف والبلاغة ،
* ومتى بن يونس ، عالم المنطق والفلسفة في بغداد .

عن العلاقة بين اللغة والمنطق، وعن أهمية كل من هذين العلمين الأساسيين بالنسبة للطلاب والدارسين.

* وعن الأهمية العلمية الذاتية لكل منهما.. أي أيهما أهم وأشرف بالنسبة إلى كافة العلوم. وإلى طالبي الحقيقة والباحثين عن العلم والمعرفة؟

* فكان كل واحد منهما يتعصب لعلمه، ينحاز إلى تخصصه ويشطط في ذلك.

* ولقد جرت هذه المناظرة العجيبة على النحو التالي، كما لخصها أبو حيان التوحيدي، في كتابه القيم، المشار إليه أعلاه.

– أبو سعيد: هلا عرفت لنا المنطق، يا متى المنطقي!!؟

– متي بن يونس: المنطق أعني به انه آلة من آلات الكلام يُعرف به صحيح الكلام من سقيمه، وفاسد المعنى من صالحه، وكالميزان فإني أعرف به الرجحان من النقصان، والشائل من الجانح "أي المرتفع من المائل"!

– قال أبو سعيد: أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنطق المألوف والإعراب المعروف، إذا كنا نتكلم بالعربية؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرف بالعقل، إذا كنا نبحث بالعقل!

– متي بن يونس: إنما لزم ذلك، لأن المنطق بحثٌ عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة، وتصفح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس في المعقولات سواء: ألا ترى ان أربعة وأربعة (ثمانية) سواء عند جميع الأمم. وكذلك ما أشبه!

– قال أبو سعيد: لقد موهت بهذا المثال: "أربعة وأربعة تساوي ثمانية" ولكن المطلوبات بالعقل، والمذكورات باللفظ لها طرائق متباينة وشُعب مختلفة. فليست ببساطة هذا المثال، ولو كانت كذلك لزال الإختلاف وحضر الإتفاق؛ ولكن الأمر ليس كذلك!

ولكن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة بالأسماء والأفعال والحروف. ألست قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟!

– متي بن يونس: بلى!

– أبو سعيد: أنت لست تدعونا إلى علم المنطق، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية. وأنت لا تعرف اليونانية، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفهمها؟!!

– متي بن يونس: يونان، وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدت المعاني، وأخلصت الحقائق!

- أبو سعيد: كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه!

- متي بن يونس: لا، ولكن يونانُ من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه وعن كل ما يتصل به أو ينفصل عنه.

وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر، وإنتشر ما إنتشر، وفشا ما فشا، ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع؛ ولم نجد هذا لغيرهم!

- أبو سعيد: أخطأت وتعصبت وملت مع الهوى!

فإن علم العالم مبثوث في العالم بين جميع من في العالم! ولهذا قال القائل:

العلم في العالم مبثوث

ونحوه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جدد الأرض.

ولهذا غلب علم في مكان دون علم؛ وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة. ثم إن الناس عقولهم مختلفة، وأنصباؤهم في الذكاء متفاوتة!

وهذا الإختلاف والتفاوت هو في الواقع وإلى درجة ما هو بالطبيعة، وليس بالإكتساب؛ إذن فكيف يمكن أن يرتفع هذا الإختلاف الطبيعي ويسوي؟!

- متي بن يونس: يُرفع هذا الإختلاف بقواعد المنطق الموضوعية المعيارية والتي بموجبها تُفرق بين الصحيح والمستقيم، والفاسد والصالح. والراجح والناقص، والمرتفع (الشارف) والجانح (المائل)؟

- أبو سعيد: (وكأنه يرى أن المنطق اليوناني صوري ممعن في الصورية) دع هذا الكلام (عن المنطق اليوناني) إني أسألك عن معنى حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميزة عند أهل العقل!

واستخرج أنت (يا متي) معانيه من ناحية منطق أرسطو الذي تُدِلّ به وتتباهى بتفخيمه، وهو حرف الواو:

* ما أحكامه؟

* وكيف مواقعه؟

* وهل هو على وجه أو وجوه؟

- متى بن يونس: (متردداً مبهوتاً): هذا نحو، والنحو لم انظر فيه، لأنه لا حاجة بالمنطقي إليه!!

وبالنحوي حاجة شديدة إلى المنطق، لأن المنطق يبحث عن المعنى، والنحوي يبحث عن اللفظ، فإن مر المنطقي باللفظ فبالعرض، وإن عثر النحوي بالمعنى، فبالعرض والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضح من المعنى!

- أبو سعيد: أخطأت (يا متى) فإنه لا فصل بين اللفظ والمعنى،

" لأن الكلام والنطق واللغة واللفظ، والإفصاح والإعراب، والإبانة والحديث والأخبار، والإستخبار والغرض، والنهي والحض، والدعاء والنداء والطلب، كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة، فلا يمكن فصل اللفظ من المعنى.

فالنحو منطق ولكنه مسلوخ في العربية، والمنطق نحو، ولكنه مفهوم باللغة، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى: إن اللفظ طبيعي، والمعنى عقلي، ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة. ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان، لأن مستملي المعنى عقل، والعقل إلهي"، ومادة اللفظ طينية، وكل طيني متهافت!

ولقد بقيت أنت يا (متى) بلا إسم لصناعتك التي تنتحلها، وآلتك التي تزهى بها، إلا أن تستعير لها اسماً من العربية، فتعار، ويسلم لك ذلك بمقدار، وإذا لم يكن لك بدٌّ من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة، فلا بد لك أيضاً من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة وإجتلاب الثقة والتوقي من الخلة اللاحقة.

- متى بن يونس: يكفيني من لغتكم هذا الإسم والفعل والحرف، فإني اتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها لي يونان.

- أبو سعيد: أخطأت، لأنك في هذا الإسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها فمثلاً "حكم الواو" الذي تحدثنا فيه أعلاه، له وجوه ومواقع:

١- منها معنى العطف: "أكرمت زيداً وعمراً"

٢- ومنها الإستئناف: "خرجت وزيد قائم"

٣- ومنها القسم: "والله لقد كان كذا وكذا"

٤- ومنها معنى رب للتقليل: "وقاتم الأعماق خاوي المخترق"

٥- ومنها أن تكون أصيلة في الإسم: "واصل واقد وافد"

٦- ومنها أن تكون أصيلة في الفعل كذلك: "وَجِل يَوْجَل"

٧- ومنها أن تكون مقحمة كقوله تعالى : ﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه﴾ أي ناديناه

٨- ومنها معنى الحال في قوله عز وجل : ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي يكلم الناس في حال كهولته

٩- ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر، كقولك استوى الماء والخشبة أي الخشبة :

هنا إلتفت إبن الفرات إلى المنطقي أبي بشر متى بن يونس القنائي، وكان رئيس المناطقة في بغداد وعلى دين النصرانية :

يا أبا بشر بن متى بن يونس : أكان هذا في نحوك (يعني هل فقهك بالنحو على مثل هذا التعمق والتفصيل؟)

- أبو سعيد : دع هذا؟ هاهنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي أكثر من علاقتها بالشكل اللفظي ما تقول (يا متى) في قول القائل : "زيد أفضل الإخوة"

- متى بن يونس : هذا صحيح "أي تعبير صحيح"

- أبو سعيد : فما تقول إن قال : "زيد أفضل إخوته"

- متى بن يونس : هذا صحيح أيضاً؟

- أبو سعيد : فما الفرق بينهما على فرض صحتهما معاً؟؟

- متى بن يونس : لا أدري

قال عنه أبو سعيد السرافي : "فبلع وجنح وغص بريقه"، أي أعى وعجز وجنح أي مال وغص بريقه، أي بلع ريقه حتى غص به من الحيرة والمأزق!

- أبو سعيد :

أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة :

جوابك في الأولى صحيح، وإن كنت غافلاً عن وجه صحته. . وجوابك عن الثانية باطل وإن كنت أيضاً ذاهلاً عن وجه بطلانه!

إذا قلت "زيد أفضل إخوته" لم يجز لأن زيد ليس واحداً من إخوة زيد. فهو إذن خارج عنهم "إخوة زيد". فكيف يكون أفضلهم فمثلاً : لو قلت "حمارك أفضل البغال" لم يجز لأن الحمار ليس من البغال :

إما قولك "زيد أفضل الإخوة" جاز لأن الإخوة يدخل فيهم زيد نفسه، فإذا قلت من الأخوة : قالوا : "زيد وعمرو وخالد وحسن الخ الخ .

وهكذا فإن النحو لا غنى له عن المعنى وقولك ((يا متى)) أن النحو لا يحتاج فيه إلى المعنى باطل!!

- وهكذا أستطاع أبو سعيد السيرافي أن ينجح في تبيان أن النحو مهم جداً، ليس للغة فحسب، ولكن للمنطق كذلك. فالمنطق يحتاج إلى النحو وإلى اللغة ليس فقط للمعاني الطبيعية ولكنه يحتاج كذلك إلى المعاني العُرفية التي يتواضع عليها الناس. والمنطق محتاج كذلك إلى الألفاظ والتعبيرات المستعملة في اللغة وإلى الكلمات وإلى المقولات، وإلى كل ما تتألف فيه بالجمل والتعبيرات. من أجل هذا نجد أن أرسطو، في "الأرجانون" The Organon تبتدئ دراساته في المنطق بالكلام في:

* المقولات (The Categories) وما تنطوي عليه من أسماء وألفاظ وتعبيرات، والعبارة أي الجمل الصحيحة (De Interpretation).

ثم بعد ذلك يأخذ الحديث عن الاستدلالات، مباشرة وغير مباشرة. ولكن يبقى الحدس الرئيس لدى "متى بن يونس" صحيحاً تمام الصحة، ولا يمكن تجاوزه بحال وهو أن المنطق عقلي موضوعي ملزم لكل البشر "على الأقل في الجزء الأول الذي هو صوري وشكلي وعام وضروري في طبيعته" وهذا المنطق الأولي الذي يقوم على الحدس البديهي هو ملزم لكل عاقل يعتد به - يعني غير معوق ولا طفل ولا مجنون أو دون سن التمييز. فكل عاقل يميز بعقله - غير مكابر ولا معاند بالباطل - يقبل بصحة قضايا المنطق الأساسية، وبقواعد الاستدلال العقلي. وإن المقدمات الصحيحة اليقينية متى ما التزمنا بقواعد الاستدلال الصحيحة فإنه يستنتج منها نتائج صحيحة يقينية. وهذه الخاصية ليست للغة بحال من الأحوال. وكما قال أبو سعيد السيرافي نفسه فالمنطق من غريزة العقل، وهو قسمة إلهية عادلة بين كل البشر، مهما اختلفت أعراقهم أو ألوانهم أو قومياتهم ولغاتهم، وكما قال الإمام الغزالي:

فالعقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس! وهي المقولة التي رددها رينيه ديكارت بعد الغزالي، بعد مضي ما لا يقل عن خمسة أو ستة قرون (توفي الغزالي في ٥٠٥هـ). والعقل بعد ذلك غريزة أو هبة إلهية.

فاللغة أمر ضروري للفهم، واللغة وحدها لا تستطيع أن تفسر الحقائق الكبرى في الوجود، ولا حتى قضايا العلم والمعرفة والدين. واللغة من دون فكر، ومن دون علم لا تغني أي غناء في نشوء الحضارات أو في تقدم العلم!

بالرغم من ذلك، فاللغة والمنطق يكمل بعضهما بعضاً ويتعاضدان ولا يتناقضان ولا سبيل إلى ذلك أصلاً. وكما أن العقل هبة ربانية ونورٌ إلهي، فالأسماء تعليمٌ رباني وموهبة إلهية:

قال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ (البقرة: ٣١)

والقرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة، وهو الذي يجمع في آياته المبدعة الحكيمة بين جمال البيان وسحره، وبين الحق المبين والهدى الذي لا ريب فيه ولا جمجمة معه، يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم؟

ومن هنا كان القرآن معجزة لا تستطيع الجن والإنس أن يأتوا بسورة بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

قال تعالى:

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الإسراء: ٨٨)

وقال تعالى:

﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد﴾ (فصلت: ٤١-٤٢)

وتحدى القرآن وإعجازه ليس بسبب لغته الساحرة ولا بسبب بيانه وأدائه اللغوي فحسب، بل هو كذلك لأنه يحتوي على حقائق عالمي الشهادة والغيب، الملك والملكوت، وأخبار الماضي والحاضر والمستقبل. وتلك الحكمة الخالدة التي يستحيل إبطالها، مهما تقادم الزمن واجتمعت الخصوم من إنس وجن، وكذلك تلك النظم الربانية في هداية الإنسان في مجالات الحياة والفكر. فهذه لأنها من علم الله المحيط الشامل اليقيني لا يملك الإنس والجن أن تأتي بمثلها أو أن يحيطوا بها علماً.

قال تعالى:

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (الإسراء: ٨٥)

فاللغة والنحو والمنطق والاستدلال، وحقائق الدنيا والآخرة، وحقائق عالمي الملك والملائكة، كل ذلك مما حواه هذا التنزيل المحكم، الذي جاء حكماً عربيا مبيناً. وإن القرآن، وان نزل باللغة العربية فمعانيه تتجاوز اللغة العربية لأنه رسالة عامة للعالمين، مهما تكن لغاتهم وألسنتهم. ذلك أن الحقائق يمكن ترجمتها من لغة إلى أخرى والقرآن الكريم

يمكن ترجمة معانيه إلى كل لغات الأرض، لأنه رسالة المولى عز وجل للناس كافة. أسودهم وأحمرهم!

قال تعالى:

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ: ٢٨)

وبرغم أنف الجاحظ الذي زعم أن الشعر لا يترجم ومن باب أولى القرآن، فإن ترجمة معاني القرآن إلى كل لغات الأرض الحية منها وغير الحية العالمية منها والمحلية أمر ممكن!

وصحيح أن الترجمة لا تستطيع أن تنقل كل شيء. هذا صحيح في الشعر - كما قال الجاحظ - ولكنه أيضاً وبقدر كبير جداً - صحيح في حق القرآن الكريم، الموحى به من لدن المولى عز وجل. ولكن الترجمة تستطيع أن تنقل الحقائق كاملة.. ولذلك فالمنطق الصوري ليس معتمداً على اللغة اليونانية التي كتب بها لأول وهلة بواسطة أرسطو طاليس اليوناني. ومن هنا كان رد (متى بن يونس) صحيحاً أنه كمنطقي لا يحتاج إلى تعلم اللغة اليونانية القديمة، فقد ترجم المنطق ترجمة كاملة بواسطة المترجمين العرب.

في جامعة الخرطوم، كنت طالباً نهماً للمعرفة، أطارد عرائس الحقائق في كل ميدان وفي كل ساحة وبالرغم من حبي للغة العربية وللغات عامة. وتفوقي في ذلك منذ الثانوية إذ كنت غالباً ما أحرز درجة الامتياز في الأدب الإنجليزي إلا أنني لم أنضم إلى أي من اقسام اللغات؟ كنت حاسماً في اختياري: الفلسفة والرياضيات وأما العلوم الطبيعية فلم انقطع عن القراءة العامة فيها.

في قسم الفلسفة، كان معظم الأساتذة من الإنجليز، وكان رئيس القسم سي. بي كيفندش (C.P. Cavendish). وكان أستاذاً للمنطق الرمزي والفلسفة، وله كتب مؤلفة في ذلك. وبما أنني كنت طالب الامتياز الوحيد في دفعتي في قسم الفلسفة فقد كان يوليني عناية خاصة.. وكنت وما زلت أقدر ذلك وأثمنه عالياً، بالرغم من الاختلاف الجذري بيني وبين الأستاذ الفاضل (كيفندش) في الاعتقاد والملة. فقد كان هو نصرانياً ذا ميول ماركسية إلحادية، عندما قدم إلى الخرطوم في بداية أمره، ولكنه في الخرطوم رجع نصرانياً مرة أخرى وتخلى عن الماركسية والإلحاد. ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف بيني وبين أستاذي الفاضل فقد كان يدرك تعطشي العظيم للمعرفة والعلم. صحيح كنت متديناً إسلامي الإتجاه، ولكني كنت أتعشق الإسلام عقلانياً معقلناً لأنني أؤمن أن ذلك هو جوهر الإسلام وافتراقه من اليهودية والنصرانية جميعاً. فالإسلام دين يعتمد على الأدلة

والبراهين العقلية، وليس هنالك قضية في القرآن الكريم إلا والمولى عز وجل قد أعطى لها تعليلاً وأقام عليها البراهين حتى وجود الله ذاته، فإن المولى عز وجل قد أعطى له البراهين التي لا جمجمة فيها ولا عناد يجدي معها أو مكابرة!

وكان أستاذي يعرف ذلك مني، ويرحب به كل الترحيب؛ وكان يمنحني المعرفة صافية كاملة بقدر الجهد والطاقة والزمن. ولم أكن أتأخر عن مواعيد المحاضرات أبداً. بل وفي كثير من الأحيان كنت آتي إلى مكتبه - حيث كان مكان الدرس - إذ أنني كنت الطالب الوحيد - كنت آتي قبل مواعيد المحاضرة. وكنا ربما استمرينا في الدراسة حتى بعد إنتهاء المواعيد بخمس أو عشر دقائق، إذا لم يكن له ارتباط آخر. وكان نظام الدراسة في كلية الآداب، جامعة الخرطوم يعتمد على اللغة الإنجليزية وسيطاً لغوياً لكل المواد الدراسية، بما في ذلك الفلسفة: ومن الكتب التي كنا ندرّسها وباللغة الإنجليزية. ومنذ السنة الأولى:

1- (Copi) Introduction to logic
2- A. Nagel: Structure of Science
3- Hempel: Philosophy of Science
4- Sellars & Hospers: Readings in Ethical Theory
5- Ayer: Truth Language and Logic
6- Arther Pap: Readings in Contemporary Philosophy
7- Feiraband: Reason and Responsibility
8- Russell: Problems of Philosophy
9- Compleston: History of Western Philosophy
10- Quine: Words & Objects
11- Quine: From a Logical Paint of view

وإلى جانب تلك الكتب المنهجية، فقد كان أساتذتنا الأجانب، يحيلوننا إلى عشرات المراجع الفلسفية باللغة الإنجليزية. ولم يكن يُدرس أي شيء عن التراث الفلسفي الإسلامي إلا مقرراً واحداً هو مقدمة إلى الفلسفة الإسلامية. وهذا المقرر كان يُدرس بعد السنة الثالثة. أما السنتان الأولى والثانية فلا يُدرس سوى الفلسفة الأنجلوساكسونية.

وعندما عدتُ محاضراً في قسم الفلسفة بجامعة الخرطوم، وصرت رئيساً لقسم الفلسفة

بالإنابة لمدة عام، أدخلت مقرراً عن ابن خلدون، وأجازه القسم ومجلس كلية الآداب. وكان ذلك عام ١٩٧٧ بعد المصالحة الوطنية في السودان، ولكن مجلس الأساتذة (الـ Senate) فشل في مناقشته، ناهيك عن إقراره. وظل مدرجاً في جدول أعماله يؤخر جلسة بعد جلسة لمدة أربع سنوات كاملة، وإلى أن تركت الجامعة في بداية ١٩٨٢ عندما صرت عضواً في مجلس الشعب الخامس، عن دائرة أساتذة الجامعات والمعاهد العليا، لم يُتخذ قرارٌ باعتماد هذا المقرر، ولكنني، بالرغم من ذلك ظللت أدرسه من ١٩٧٨ وإلى ١٩٨٢ معتمداً على الإجازة المبدئية من مجلس القسم ومجلس كلية الآداب وكان حصيلة تلك المحاضرات هو كتابي الموسوم!

جوانب فلسفية في مقدمة ابن خلدون:

والذي نشرته الدار السودانية للكتب في عام ١٩٨٦م. ومهما يكن من أمر مقررات الدراسة في قسم الفلسفة، كلية الآداب، فقد كان لنا أساتذة بارزون كثيرون، أذكر منهم، لا على سبيل الحصر:

1- Prof. Taulimboum from the university of Oslo

2- Prof. C.A. Cavendish From the university of London

وكان في البداية يحمل اسم (Passon) وكتب كتاباً في المنطق الرمزي بالاشتراك مع أوكورنر بعنوان:

Passion O'chorner: Introduction to Symbolic Logic

وقد قام البروفسير كافنديش، بتدريس هذا الكتاب، بإيجاز في بداية السنة الثالثة (فلسفة إمتياز)

3- Prof. Gruner

وكان بروفسير (قرونه)، وهو من أصل ألماني ولكنه كان متزوجاً من سيدة بريطانية تدرس الأدب الإنجليزي.

4- Prof. Tour Nurdstam

وكان البروفسير نورد ستام قد نال الدكتوراة من جامعة الخرطوم. وكان عنوان رسالته للدكتوراة بعنوان:

الأخلاق لدى السودانيين

أو

أخلاق السودانيين

Sudanese Ethics

5- Prof. Price

وكان هذا البروفسير يدرس الأخلاق بينما كان بروفسير (قرونه) الألماني يدرس المنطق وفلسفة العلوم!

6- Prof. Miller

وهو بريطاني من أصل ويلزي . ومكث في السودان أكثر من نصف قرن من الزمان ، وكان يدرس الفلسفة الإغريقية والفلسفة الأخلاقية ، وكان يلقن الطلاب فلسفة النسبية الأخلاقية بصورة أشبه بطريقة الأيديولوجيين . بمعنى أنه كان يجتهد كثيراً ويتعب كثيراً من أجل إقناع الطلاب بآرائه .

وأما أستاذ الفلسفة السوداني الوحيد ، فقد كان المرحوم البروفسير شاهين ، درس الفلسفة في السوربون وكان يُدرس الفلسفة الإسلامية وكانت هذه الفلسفة غريبة كل الغرابة بالنسبة للطلاب ولم تكن محبوبة أبداً ، لأنها لم تكن مفهومة لديهم ولا حتى للطلاب المتفوقين ! !

وكان هنالك الأستاذ (ناموس Namous) وهو بريطاني من أصل باكستاني ولكنه لم يدرسنا لأنه جاء بعد تخرجي من قسم الفلسفة وكذلك الأستاذ البريطاني أوليفر ليمان اليهودي (O. Lieman) . وكان هنالك غيرهما ولكنني لا أذكرهم الآن .

كانت لنا جمعية فلسفية متميزة للطلاب في قسم الفلسفة وكان يسيطر عليها طلاب ذوي نزعة يسارية (جبهة ديمقراطية) ولكنهم أقصوني من عضوية هذه الجمعية ، بالرغم من أنني كنت طالب الامتياز الوحيد في قسم الفلسفة ، وكنت الأول في كلية الآداب دون منازع ولا فخر ، ولله الحمد والمنة . وقررت الجمعية أن تذهب إلى اليونان في رحلة ذات أهداف فلسفية لمعاينة آثار الفلسفة الإغريقية القديمة هنالك (سقراط ، أفلاطون ، أرسطو) الفلاسفة اليونانيون المتأخرون من رواقيين وميغاريين . . ولكنني فوجئت أنني أقصيت من قائمة الطلاب المرشحين للسفر في تلك الرحلة . . وحزنت كثيراً لذلك وعبثاً حاولت رئيس الجمعية أن يتراجع عن قراره بإقصائي من المشاركة وعندما يئست من ذلك ، ذهبت أشتكي إلى رئيس قسم الفلسفة آنذاك البروفسير كافنديش (Cavendish) الذي أبدى هو الآخر أسفه على ذلك ، ولكنه قال :

There is nothing I can do,

فهذه جمعية طلابية والطلبة وحدهم هم الذين يقررون بشأنها ولكنه أردف قائلاً :

I expect you shall have a great career as an academic and you will sure by able to visit Greece, on your right later on!

وكانت كلمته تلك وطمأنته عزاء كبير وسلوى عظيمة بالنسبة لي، وقللت كثيراً من الشعور بمرارة الظلم والإقصاء اللذين طالما عانيت منهما في جامعة الخرطوم - طالباً وأستاذاً بها! والله المستعان على ما يصفون!!

مهما يكن من أمر قسم الفلسفة، فقد كنا نتأثر بأساتذة آخرين كبار في جامعة الخرطوم. وبعضهم لم يكونوا أساتذة كبار ولكن كان لهم تأثير كبير من الناحية الفكرية علينا ومن هؤلاء الأستاذ جعفر شيخ إدريس، وكان معيداً (مساعد تدريس) بقسم الفلسفة، ولكنه كان يحاضر كثيراً في المسائل الفكرية والفلسفية ومسائل الفكر الإسلامي. أما الدكتور حسن الترابي، الذي عاد محاضراً في كلية القانون ثم أول عميد سوداني لها بعد رحيل الإنجليز، فقد عاد من السربون بفرنسا، قبيل ثورة أكتوبر عام ١٩٦٤ وكان لاعباً أساسياً فيها، وطالما حملته الجماهير الثائرة من نادي الأساتذة بجامعة الخرطوم وعلى طول شارع الجامعة الوريق الندي الأخضر وإلى اتجاه القصر الجمهوري، حتى سقوط حكومة العساكر بقيادة الفريق إبراهيم عبود فيما عرف بعد ذلك بثورة أكتوبر الخضراء (أو أكتوبر الأخضر في غناء الفنان محمد وردي):

أصبح الصبح فلا السجن ولا السجان باقٍ

وكنت عضواً ونائباً للسكرتير في لجنة حافظ الشيخ لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم التي أودعها اللواء محمد أحمد عروة - وزير الداخلية آنذاك - في سجن كوبر والتي حملتها جماهير ثورة أكتوبر الظافرة على أكتافها بعد أن اقتحمت سجن كوبر وجردت السجناء السياسيين وسجناء الرأي الذين كان السجن يغص بهم آنذاك فيا لها من أيام زاهية حلوة مفعمة بالنور والضياء، والآمال العراض العذبة. عندما ظهر د. الترابي في المسرح، سرعان ما أصبح قائداً لتيار الصحوة الإسلامية. وبعد ثورة أكتوبر وإطلاق الحريات كان السودان يمور بالتيارات الفكرية والسياسية والمذهبية، وانتظمت البلاد كلها موجة عارمة من المهرجانات والمؤتمرات والندوات والاحتفالات الفكرية والسياسية. وكانت الخرطوم لا تنام حتى الساعات الأولى من الصباح. وكان السوق الأفرنجي بالخرطوم من أكبر

أسواق المنطقة العربية، لأنه كان سوقاً حراً عالمياً فيه تجار كبار من شتى أقطار العالم. أما البلاد العربية الأخرى فقد كانت ترزح تحت قيود الاشتراكية والقومية العربية لذلك كانت أسواقها باهتة الأنوار، لأنها كانت أسواق مؤممة ولذلك كان السوق الأفرنجي بالخرطوم ولا (الشانزليزيه) بباريس. يفتح متاجره المتلألأة الباهرة الأضواء حتى قبيل منتصف الليل. وكان الأساتذة المصريون والسوريون والعراقيون يشترون لوازمهم قبيل الإجازة من سوق الخرطوم العالمي هذا ويحملونها إلى بلادهم في العطلة الصيفية.

ولذلك عندما ظهر د. الترابي كان له تأثير كبير جداً على الحياة العلمية والفكرية في جامعة الخرطوم. وأصبحت محاضرات اللغة العربية وآدابها أقل بريقاً من محاضرات الفكر والسياسة التي يقدمها الدكتور/ حسن الترابي، والتي كانت تجتذب الآلاف من الطلاب ومن الجماهير من خارج الجامعة.

ومرة أخرى كان قد تبرهن لديّ أن اللغة وحدها لا تكفي بديلاً عن الفكر وإن كانت ضرورية لكل فكر وفلسفة.. وهنا ترجحت لدي قناعات (متى بن يونس) أستاذ علم المنطق ببغداد، على أبي سعيد السيرافي، أستاذ اللغة والأدب العربي ببغداد العباسية أيضاً وأصبحت أكثر رسوخاً في قناعاتي!

ورحت أنطلق إلى أقصى تخوم المعرفة والفكر في قسم الفلسفة، وقسم الرياضيات، وأيضاً في المحاضرات الفكرية العامة التي كان يقدمها المفكرون السودانيون بعيد نجاح ثورة أكتوبر الظافرة!!

لم أكن أنجذب أبداً إلى الفكر الماركسي، لأنه كان يبدو لي مصادماً ومتنكراً للحقائق الكبرى في الوجود، وكنت كثير التفكير في تلك الحقائق الكبرى، منذ نعومة أظافري في مدرسة بربر الأميرية الوسطى، كثير التأمل فيها وقد اهتديت إلى الإيمان العقلي بها وليس الديني فقط. كذلك كنت محباً للحرية، لا أساوم عليها مهما تكن الاعتبارات، وكانت الفلسفة الماركسية تصادر الحريات الأساسية للإنسان، خصوصاً حرية الرأي والاعتقاد وكذلك حرية العمل والكسب، لأنها كانت تُنادي بدكتاتورية الطبقة العاملة ودكتاتورية الحزب الشيوعي، القائد الأمين والوصي الوحيد لثورة البروليتاريا. ولذلك كنت أرنو إلى الفكر الإسلامي والفكر الغربي الحر الليبرالي. ولم أكن أرى أي مناقضة أساسية بين الفكر الحر والفكر الإسلامي، وإن كنت أرفض العلمانية الوضعية، لأنني كنت أؤمن بأن المشرع هو الله سبحانه وتعالى وليس البشر!!

وكنت أرتاد أقصى تخوم الفكر والفلسفة، كما فعل حي بن يقظان، بطل رواية (حي بن يقظان) للفيلسوف العظيم المبدع الطبيب ابن طفيل؛ طبيب وداعية الموحدين بالأندلس، وصديق الفيلسوف الإسلامي العلامة العبقري، ابن رشد، وهو الذي قدمه إلى خلفاء الموحدين بالأندلس، فأصبح فيما بعد أبرز فيلسوف في الأندلس وداعية الموحدين!!

وكنت أناقش البروفسير (كافيندتش) كثيراً في تلك المواضيع الفلسفية، والتي كانت تتعلق بالنهايات القصوى للفكر والعلم والفلسفة. وكان ذلكم باعثاً له أن يقوم بتدريسي مساقاً فلسفياً عجيباً؛ كان له أبعد الأثر في كل حياتي فيما بعد ألا وهو: (Godel's In-completeness Theorem) أي نظرية قودل في عدم اكتمال الحساب (أو عدم اكتمال نظرية الأعداد الحسابية).

نظرية قودل (Godel) في عدم اكتمال نظرية الحساب:

نظرية قودل في عم اكتمال نظام نظرية الحساب (Godel's Theorem of the In-completeness of Number Theory) نظرية عجيبة وذات مدلولات هامة جداً بالنسبة للرياضيات، خاصة نظرية الأعداد والحساب، لأنها تقول – وببساطة – أن نظام العدد والحساب نظام غير مكتمل.. ومعنى ذلك أنه توجد قضية حسابية واحدة على الأقل صحيحة، ولكنها لا يمكن برهنتها ضمن نظام العدد والحساب، ولذلك لا يمكن ضمها إلى هذا النظام، لأننا لو تعسفنا إضافتها (يعني بالعافية) فإن هذا النظام يفقد خاصية أساسية فيه ألا وهي خاصية (عدم التناقض وعدم التجانس وعدم الإنسجام المنطقي) أي خاصية الـ Consistency – فالنظام قبل إضافة هذه القضية الجديدة كان منسجماً منطقياً:

i.e, The system of number theory was consistent.

وبما أن خاصية الانسجام المنطقي (Logical Consistency) هي خاصية أساسية لأي نظام في الرياضيات؛ فأننا لا نستطيع بحال أن نتخلى عنها أو أن نفرّط فيها. ونظام العدد والحساب هو من النظم القديمة والقاعدية في الرياضيات، فإذا أصبحت غير متجانسة منطقياً فإن هذا يُهدد كل نُظُم الرياضيات الأخرى!!

فما هي نتائج هذه النظرية الهامة، وما هي إيحاءاتها الفلسفية والمعرفية؟؟

إن من هذه النتائج والايحاءات، أن قدرتنا على البرهنة في الرياضيات والأنساق

المنطقية لهي قدرة غير مطلقة، ولها حدود لا يمكن تجاوزها. فنحن ننتهي في محاولاتنا للبرهنة على النظريات الرياضية في القضايا الأولية البديهية The Axioms .

ولكن هذه القضايا الأولية الضرورية لا يمكن إعطاء براهين على صحتها؟. . ولكننا نُبقي عليها كبداية للبراهين لأنها تعرف صحتها بنور الحدس العقلي الأولي (The prim-itive intuitions of the intellect).

فهي ' لا مبرهنات ' ولا يمكن البرهنة على صحتها بواسطة المنطق، لأنها مفترضة لكل برهان منطقي ممكن!!

فطبيعة هذه القضايا الأولية اللامبرهنة أنها طبيعية حدسية نورانية فهي جلية وواضحة بنور العقل البديهي وكما يقول الغزالي، وبعده ديكارت بعدة قرون، فهي جلية وواضحة Clear and distinct in the light of reason . فهي قضايا واضحة وجلية في – حد – ذاتها، ولا تحتاج إلى أي برهان منطقي Discursive Logical Proof هذه النتائج التي توصل لها الدكتور / كيرت قودل (Kurt Godel) كان لها صدي عنيفاً، عندما أعلن عنها في فينا (Vienna) في أوائل الثلاثينيات من القرن المنصرم، لأنها كانت تتصادم وبقوة مع الإتجاه الوضعي المنطقي لدي جماعة فينا أو حلقة فينا العلمية (The Vienna Circle) وهؤلاء كانوا يرفضون كل معرفة وراء الحواس. . ووراء المنطق البرهاني والتجريب المحسوس، وكانوا يريدون القضاء على علوم ما وراء الطبيعة وبشكل قاطع ونهائي، فإذا "بكيرت قودل" يفاجؤهم بالبرهنة على أن الرياضيات نفسها – في نهاية المطاف – تعتمد في إفتراضاتها الأولية على الحدس العقلي غير المبرهن وغير القابل للبرهنة أصلا ومن حيث المبدأ : (Un-provable in principle).

وما هو هذا الحدس النوراني ؟؟ أنه سوانحٌ نورانيةٌ وبارقات من ضياء العقل أشبه باللوامع البرقية تأتي وتُشرق على العقل الأولي فيضطر إلى قبولها ويَذعن – إضطرارياً – بالتسليم بها على أساس أنها صحيحة وإن إنكارها يقود إلى التناقض!!

إذن هذه القضايا الأولية، وهذه اللامبرهنات تقع في مجال يتجاوز حدود العقل البرهاني –العقل الحسابي العددي يعني :

It is beyond demonstrative reason, beyond discursive mathematics and logic

فإذا كانت الرياضيات، وكان المنطق يعتمد في تخومه القصوى على الحدس النوراني،

وعلى البصيرة الداخلية، وسوانحها النورانية، والرياضيات والمنطق هي من أقوى المعارف والعلوم التي يمتلكها العقل، ومن أرسخها وأقدمها، فما بالك بالعلوم الأخرى الاستقرائية أو التجريبية؟!!

من أجل ذلك قوبلت نظرية (كيرت قودل) برفض استكباري من قبل جحافل الوضعيين المنطقين في أوربا، في منتصف الثلاثينيات في القرن المنصرم - القرن العشرين ويبدو أن أستاذي البروفسير كافندش كان قد بدأ مشوار العودة إلى العقل وإلى الدين، بعد سنوات قضاها في صحراء الإلحاد المقفرة اليباب، التي هي أوحش بمراحل طويلة من مقفرة أس. تي. إليوت، التي ناقشها البروف عبدالله الطيب كثيراً في (المرشد) رحمه الله رحمة واسعة..!

مهما يكن من شيء، فقد كان ذلك المساق من أعظم وأمتع المساقات الفلسفية التي تلقيتها في جامعة الخرطوم، والذي ساعدني على الفهم له ومتابعة دروس البروفسير (كافندش) حولها إلمامي بالرياضيات البحتة وبالمنطق وبأنني كنت شديد التعطش إلى مثل تلك المعارف الجذرية لأنها كانت تؤكد إيماني بالعقل وبالدين معاً، وكانت نعم المعين لي على الدفاع عن إيماني وعقلي ويقيني في الحياة أمام تيارات اللا عقل والإلحاد والتي كانت فاشية في جامعة الخرطوم آنذاك.

وافترقنا أنا والبروفسيركافندش، تركته في الخرطوم وذهبت إلى جامعة درهم ببريطانيا لدراسة الماجستير في المنطق.. وبعد سنوات علمت أن (كافنديش) قد عاد إلى بريطانيا مؤمناً بالله وبالدين وأنه قبل منصباً في كلية لاهوتية في جنوب ويلز في بلدة لامتر Lampter, South Wales وسررت كثيراً لتلك الأخبار ولكنني ذهبت لدراسة الدكتوراة في الولايات المتحدة الأمريكية، وانقطعت صلتي بذلك الأستاذ النبيل، وذلك الفيلسوف الصادق في البحث عن الحقيقة حتى آخر حياته!!

في مدينة درهم، فوجئت بمقابلة أستاذ سابق لي وهو الدكتور قرونر (Gruner) الألماني وكان الدكتور (قرونر) قد تطوع بتدريسي مساق مدخلي في المنطق، عندما حولت من كلية العلوم إلى كلية الآداب - قسم الفلسفة في السنة الثانية من دراستي في جامعة الخرطوم. وكان علي أن أدرس المساقات التي درست في السنة الأولى بقسم الفلسفة لوحدي.. ولهذه المقابلة مع الدكتور (قرونر) قصة طريفة تستحق أن تروى!

اتصلت بي المسز مور (Mis Moore) سكرتيرة كلية الدراسات العليا بجامعة درهم،

وقالت أن أستاذاً ألمانياً بقسم التاريخ يريد مقابلتي . . وفعلاً تمت المقابلة فإذا بي وجهاً لوجه مع أستاذ سابق فقلت ما أصغر هذه الدنيا؟

- قلت له : وكيف عرفت بمقدمي إلى جامعة درهم؟
- قال : لم أعرف ! !
- إذن كيف طلبت مقابلتي؟
- عرفت أن طالباً سودانياً قد انضم إلى الجامعة فوددت أن أراه وأن أكرمه !
- ولماذا تريد إكرام أي طالب سوداني كيف ما أتفق؟
- لذلك قصة وذكرى حبيبة عندي عن أهل السودان وعن كرمهم وانسانيتهم وتفانيهم في خدمة ضيوفهم ، كنت في رحلة إلى خزان جبل أولياء ، خارج الخرطوم وكنت أستقل سيارتي الصغيرة سيارتي (الفيت) الصغيرة ألا تذكرها؟؟
- بلى أذكرها؟
- قال وكان الوقت خريفاً وقد نزلت أمطار غزيرة ذلك اليوم ، وقرزت سيارتي في الوحل ، ومعي مسز فورنر وابني (فروقري) ولم نستطع أن نفعل شيئاً إزاءها ووقفنا ننظر إليها في وحشة شديدة وحيرة أشد .

وبينما نحن كذلك طلع علينا لوري بدفورد كبير وبداخله مجموعة من الشباب السودانيين . فأوقفوا اللوري . . وذهبوا تواً إلى حيث كانت عربتي مقروزة في الوحل . . . وحملوها حملاً إلى حيث اليابسة حيث وضعوها وحيونا بإبتسامات براقة من البعد وذهبوا في حالهم ، لم ينتظروا حتى أن أقول لهم شكراً جزيلاً؟ . وعجبت كل العجب لتلك الشمائل العالية والأخلاق الرفيعة . . وآليتُ على نفسي أن أكرم أي سوداني أقابله في أوروبا أو أي بلد في العالم .

دعاني وزوجتي إلى منزلهم ، حيث قضينا وقتاً طيباً نذكر السودان والسودانيين وما يتميزون به من إيجابيات كبيرة وبعض السلبيات الكبيرة أيضاً؟ !

وكثيرون من الإنجليز والغربيين الذين جاءوا إلى السودان أعجبوا بأخلاق السودانيين ، ودماثة خلقهم وكرمهم الفياض ، وحسن ضيافتهم ومحبتهم للضيف وترحيبهم به !

والشيء بالشيء يذكر . . فقد وقع في بصري مقال ظريف لكاتبة كويتية بعد غزو العراق للكويت في عام ١٩٩١م أظن إن اسم تلك الكاتبة الكويتية هو "حياة العثمان" .

قالت في مقال بعنوان "المعدن الذي لا يصدأ" إن السودانيين - عموماً - من أحسن

وأكرم الناس الذين قابلتهم في حياتها كلها وأنهم إنسانيون أصلاء يعاملون الناس بأريحية طبيعية، في غاية دماثة الأخلاق وحسن الخلق.. لا يريدون من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً، وأنهم إذا قورنوا بمعظم الجنسيات التي تعرفت عليها في حياتها يتفوقون في حسن الخلق وفي الذكاء.. يتفوقون عليها تفوقاً عظيماً وكانت رسالة ذلك المقال موجهة إلى الشعب الكويتي أن لا يؤاخذ السودانيين بموقف حكومتهم الذي كان موالياً للعراق بعض الشيء في ذلك الوقت.

ذكرني الصديق العزيز البروفسير يوسف سلفاب، أستاذ الكيمياء في جامعة قطر والذي كان أستاذاً سابقاً في جامعة الكويت وقبلها جامعة الخرطوم، أنه حضر محاضرة للكاتبة البريطانية ميلر (Judith Miller) وهي صاحبة كتاب:

Judith Miller: "God Has Ninety Nine Names"

(الله وأسمائه التسع والتسعون اسماً)، قالت إن السودانيين من أحسن الشعوب وأكرمها، وأنهم أخذوا أحسن ما عند العرب وأحسن ما عند الأفارقة السود، لكونهم شعب خلوصي مهجن (Hybrid Race) !!

ولقد تنبأت المسز "جوديث ميلر" إن السودانيين سوف يتمكنون من حل خلافاتهم ونزاعاتهم وحتى المسلحة منها بالطرق السلمية الحضارية في نهاية المطاف، لأنهم أي السودانيين – أكثر ذكاءً ممن يدعوا تلك النزاعات والصراعات أن تدمرهم وتدمر بلدهم الجميل، الغني جداً بالموارد والخيرات!!

فإذا نجحت المفاوضات الجارية الآن في نيفاشا بكينيا، فإن رؤية المسز "جوديث ميلر" تكون قد تحققت تماماً وإني لأرجو المولى عز وجل – من كل قلبي – أن يحل السلام في السودان وأن يتصالح الأخوة السودانيون في الشمال والجنوب حول حل عادل وشامل ومستدام لمشكلات السودان، دون إراقة المزيد من الدماء السودانية الزكية الغالية!! فإن ما يجمع السودانيين أكثر بكثير من الذي يفرقهم، لو كانوا يعقلون!!

أشواق عبد الله الطيب ومعاركه:

عبدالله الطيب، كانت تحركه أشواق كبيرة، وحب كبير.. وآمال وأهداف كبار وغايات سامية عليا.. كانت تلك الأشواق والآمال والغايات تؤزه أزاً، وتغض مضجعه وتؤرق لياليه وتؤجج سعيه نحو الخير والحق والكمال، آناء الليل وأطراف النهار. فكان لا

يرمح ولا يستريح لا يهدأ ولا يدع شيئاً في محيطه أن يهدأ، ضجيج هادر في هدوء وهدوء يخفي وراء ثورة عارمة ورنين صاخب. انعكس كل ذلك في حياته المهنية وفي حياته الفكرية والأدبية وخاصة في شعره في:

* "سقط الزند"

* وفي "أصداء النيل"!

* فما هي هذه الأشواق؟!

* وما هي تلك الأهداف والغايات؟!

* وما هي تلك المعارك الدامية التي خاضها، على مدى نصف القرن من الزمان، منذ عودته حاملاً الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها من جامعة لندن في عام ١٩٥٠م؟؟!

أشواق عبدالله الطيب وحنينه:

في كثير من أشعاره، كان عبدالله الطيب -- رحمه الله رحمة واسعة - يشتكي من أنه لم يستطع أن يتبوأ المكانة اللائقة به في وطنه السودان، وفي محيط جامعة الخرطوم، حبيبته الحسناء التي أحبها من كل قلبه! كان يرى نفسه جديرة بمكانة رفيعة في بلده وبمركز قيادي متميز في جامعة الخرطوم، لأنه جدير لذلك ومستحق له، كونه العالم العلامة والأديب الفهامة والفنان المطبوع والشاعر الفذ العبقري! وحامل لواء العربية في السودان بل وفي الوطن العربي!!: يقول في قصيدة بعنوان (المنى)(١):

يروم من الدنيـــا مكانا ويصطلي

بنيــرانهـــا إن النضـــال عنيف

ويعطو إلى مـا في الغيــوب فـؤاده

وللموت من خلف الغيوب صفوف

رويد المنى ليـسـت تقـــود إلى سنا

ســـوى ظلمـــات هولهن يطوف

وصـبــراً على ريب الزمـان وقـــوة

عليـه، فـإن السيـر فيـه وجيـف

---

(١) عبدالله الطيب: القصيدة المادحة ومقالات اخرى، ص ٦ الناشر- دار التأليف والترجمة والنشر - جامعة الخرطوم ١٩٧٣م.

وتذكرني أبيات عبدالله الطيب هذه، أبيات لشاعر عربي لا أذكر اسمه، طالما كان خالي الأستاذ محمد أحمد عثمان النعيمة يرددها:

يا نفس كم جشمتك الصبر والرضى
وجشمتني أن ألبس المجد معلما
فما استطعت أن تستمرئي مر طعمه
وما استطعت بين القوم أن أتقدما
ويا صدر كم حلت بذاتك ضيقة
وكم جال في إنحائك الهم وارتمى
ويا قدمي ما سرت بي لمذلة يوما
ولم ترتق إلا إلى العز سلما
فسر سيراً إلى الموت واعلم
بأن كريم القوم من مات مكرما
ويا يد ما كلفتك البسط مرة
لذي منة أولى الجميل وأكرما
فلله ما أحلاك في أنمل البلى
وإن كنت أحلى في الطروس وأكرما

فعبدالله الطيب حاول ملياً أن يصعد إلى المجد الذي هو يبتغيه، وأن ينال الخير الذي طالما جاهد من أجل بلوغه، وكذلك كان دائماً يحاول أن ينفك وأن يفلت من شرور كانت تقصده وتتبعه ولكنه، كان يظن في شبابه أنه لم يصب في ذلك نجاحاً يُذكر، على شدة جهاده وبالرغم من تفوقه وإنجازه، فهذه حال الدنيا ولا أسى، لأن الناس دائماً أعداء اللبيب وحساد المتفوق العبقري!

ففي قصيدة "لا تأس" التي مر ذكرها فيما تقدم من هذه الدراسة، نجد أن عبدالله الطيب يواسي نفسه ألا تأسى على ما يلقاه من كيد وما يكابده من عداوات وإحن وحسد من قومه، في الوقت الذي كان يستحق فيه الإكرام والمعزة:

لا تأس فالناس أعداء اللبيب وكم
قد أنذرتك فلم تحفل بها النذر

وكم صبرت على مر الحوادث

والحر الكريم على البأساء يصطبرُ

يا أيها الوطن الساعي تدفعه

كفُ الخيانة والأعداء والقدر

إني كمثلك أبغي النصر مجتهداً

وكيف بالنصر لا عون ولا وزرُ

ولكن بالرغم من ذلك وبرغم الإخفاقات وخيبة الآمال - في وقت الشباب - فإن عبدالله الطيب لا يفقد ثقته بنفسه ولا تُهون عليه مرتبته الرفيعة ومكانته السامقة، فهو ليس فقط سليل الأكرمين من آل المجاذيب ولكنه عبقري زمانه وفريد أيامه، وحامل لواء العربية في السودان وفي الوطن العربي بلا منازع. وهو يعرف لنفسه هذه المكانة الرفيعة ويعرف أنه يمتلك كنزاً ثميناً قيماً قدّره من قدّره وأنكره من أنكره! يقول عبدالله الطيب، في قصيدة 'خمر البيان': :

ألقت إليّ شيوخ يعرُب سرّها

فأنا المجلّي في البيان الأولُ

أثبت كلّ كريمة مكنونة

غراء فيها الجوهرُ المُتنخّلُ

حسّانة ما راء مثل جمالها

غُمدانُ قصر التُبعين وموكلُ

خمرٌ من الشعر الرصين خبأتُه

ما مثلها البردانُ أو قطربُلُ

أغلي بها إغلاه من هو عارفٌ

بخبيئها إن رامها من يجهلُ

وأصونُها حتى يعز منالها

وأبيعُها يوم الفخار فأجزل

فعبدالله الطيب يحمل لواء العربية وينطوي على معرفة الجوهر المتنخل منها، حسّناء ما راء مثل جمالها غمدان قصر التبعين ولا قصر موكل "قصر الخليفة العباس المتوكل؟!' فهي خمر من الشعر الرصين المعتق، لا تبذل إلا لمن يستحقها ويتذوقها، ويقدر نفاستها

وغلوئها . فهي مصانة لا تبذل أبداً للجهلاء حتى يعز منالها ويزداد الطلب عليها في يوم مجد وفخار للأمة حين تعرف قدر هذه اللغة البديعة الشاعرة المبينة الغراء!

فإذن فعبدالله الطيب له رسالة ماجدة وهدف سام رفيع ألا وهو إعلاء لواء العربية في السودان وفي العالم العربي ومقاومة كل محاولة للإغضاء من مكانتها أو أي محاولة لإقصائها أو تهميشها في معاهد التعليم في السودان، الذي كان آنذاك يرزح تحت وطأة الإستعمار الإنجليزي، الذي حاول وما أدخر أي جهد لإقصاء العربية والتقليل من شأنها وإحلال لغة الاستعمار مكانها. فعبدالله الطيب كان يخوض معركة ضروس في التصدي لمحاولات الاستعمار طمس الهوية الثقافية العربية في السودان من هنا كان تصديه لمحاولات "المستر سكوت" الداهية الإنجليزي "النمس" الذي بذل كل ما استطاع من أجل تشكيك طلاب المدارس الثانوية في دينهم وعقيدتهم وفي تراثهم العربي الإسلامي!

يقول عبدالله الطيب، معلقاً على منهج المستر سكوت في تعليم العربية في بخت الرضا في السودان في الخمسينيات من القرن المنصرم:

قال عبدالله الطيب في هذا الصدد إنه يدعو:

"إلى التعريب - في مجال التعليم - وإلى تقديم درس القرآن الكريم وطريقة تعلمه، التي كان معمولاً بها في الزمان القديم، على أصناف العبث التي استعرضناها من مستر سكوت وإضرابه من المغامرين التربويين. ولعمري إن لغة قصار المفصل أقرب إلى فطرة صغارنا من لغة "الجمل جمل حمد"؛ لأن هذه اللغة المفتعلة لا يستعملها أحدٌ في منزله، وإنما يستعمل الناس اللسان الدارج فما معني أن نحيد عن التعليم الفصيح من مصدره الأول وهو القرآن الكريم ثم الشعر الجزل، كما كان يفعل أهل الأندلس عهد الحضارة الذهبي ...

لقد كان تلاميذ الكتاتيب في هذه البلاد في ما قبل ١٩٣٠م بعدها بيسير يحفظون أمثال:

الجَدُّ في الجِدِ والحرمان في الكسل

فانصب تصب عن قريب غاية الأمل

وأمثال:

إنا محيوك يا سلمي فحيينا

وإن دعوت كرام الناس فادعينا

ويرسخ ذلك في نفوسهم لأن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر" انتهى كلام عبدالله الطيب .

إذن ، فقد كان عبدالله ذو أهداف بعيدة المدى في التعليم عموماً وفي التعليم الجامعي وخاصة في إصلاح التعليم في جامعة الخرطوم :

* ففي مجال التعليم العام كان عبدالله الطيب يري أن يقوم هذا التعليم على قاعدة صلبة من :

(١) الثقافة العربية الإسلامية ، وذلك يستدعي أن نؤسس هذا التعليم .

(أ) درس القرآن الكريم ، وخاصة المفصلات من قصار السور حتى الجزء الرابع ، على الأقل ،

- الشعر العربي ، وخاصة الجزل منه وذلك يستدعي تدريس وحفظ أجزاء من المعلقات والعشر الأوائل من الشعر الجاهلي وبعض قصائد الشعر لفحول الشعراء قدامي ومحدثين .
- الإهتمام بتدريس النحو العربي وكذلك الأدب العربي وجزءاً مقدراً من تاريخ الأمة الإسلامية خاصة السيرة النبوية وأخبار الخلفاء الراشدين ومنهجهم في الحكم والحياة .

(ب) العمل على ترسيخ الهوية العربية والقيم الإسلامية الأصيلة .

ورفض الإتجاه الاستعماري الرامي إلى طمس هذه الهوية أو تهميشها واستبدالها بالهوية الثقافية للاستعمار وللغازي الدخيل .

(ج) الإعتزاز بالإنتماء إلى الأمة الإسلامية خير أمة أُخرجت للناس :

فالذي يستبدل الهوية الغربية ، إنجليزية كانت أو فرنسية بالهوية العربية الإسلامية فهو كمن يستبدل الذي هو أدني بالذي هو خير : (قال الإمام البوصيري يرحمه الله)

بشري لنا معشر الإسلام إن لنا
من العناية ركن غير منهدم

كما دعا الله داعينا لطاعته
بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

وقال شاعر آخر :

فــــمـــــا زادني طرباً وتيـــهـــاً

وكـــدت بأخـــمــــصي أطأ الثُّـــريا

دخـــولي تحت قـــولك ياعـــبـــادي

وأن صـيـــرت أحـــمـــد لي نبـــيـــا

وعبدالله الطيب . كان رجلاً معاصراً متحضراً ولم يكن تقليدياً أبداً ، فلم يكن - بأية حال - يرفض إدخال اللغات الأوربية في الجامعات وكذلك لم يكن يرفض إدخال العلوم الحديثة ؛ بل كان يصر عليها كل الإصرار. وعندما كان عميداً متميزاً جداً لكلية الآداب بجامعة الخرطوم ، أدخل اللغات التالية إلى جانب الإنجليزية بالطبع :

١ - اللغة الفرنسية

٢- اللغة الألمانية

٣- اللغة الروسية

٤ - اللغة الصينية

كما أدخل :

١ - علم النفس الغربي

٢ - والفلسفة

٣- والآثار

٤ - والترجمة

وغيرها من العلوم وكان لا يمانع أن يدرُس طلاب الآداب :

١ - الرياضيات

٢ - علم الحياة "البيولوجي"

٣- علم الإجتماع

٤ - علم الأجناس

بل كان يؤمن بتكامل العلوم ، وتكامل المعرفة Integration of Knowledge .

بالرغم من ذلك ، فقد كان يري أن يكون التدريس باللغة العربية لأنها :

١ - أعظم لغات الأرض طراً .

٢ - ولأن التلاميذ يتلقون العلم باللغة القومية أفضل بكثير مما يتلقونه باللغات الأجنبية .

وكان يرى ضرورة ترجمة العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية، لأن تعلم اللغات الأجنبية حتى درجة الإتقان يأخذ وقتاً طويلاً وجهد أكبر. ولقد تنبه الأولون إلى هذا الأمر، فكان مشروع الترجمة العملاق الذي قاده هارون الرشيد وإبنيه الأمين والمأمون في الدولة العباسية الزاهرة!! وأدى إلى أفضل النتائج وإلى الإبداع والعبقرية في وقت وجيز نسبياً. ولكننا أهملنا ذلك فما زالت جامعاتنا بلا إبداع كبير إلى هذا اليوم، لأننا نقضي العمر كله في تعلُّم اللغات الأجنبية وقليلاً ما نبلغ الإتقان المطلق في ذلك!!

عبدالله الطيب والتهميش:

لقد كان عبدالله الطيب يُعاني من مأساة تهميش اللغة العربية والثقافة الإسلامية وبالتالي رفض تهميش الهوية الإسلامية والسخرية منها. كان يعاني من ذلك في حياته الشخصية لأنه كان رمزاً للهوية العربية وللثقافة العربية الإسلامية فقد كان يلاقي أذى كثيراً وعداء وتهميشاً من دعاة العلمانية والثقافة الإنجليزية وسدنتها في جامعة الخرطوم ومن أفراد النخبة السودانية الأولى التي أفرزها الاستعمار، وتخرجت في كلية غردون التذكارية وكان يقاوم تلك الخصومة وذلك التهميش بكل ضراوة وبدون هوادة أو مهادنة. ولذلك لما جاءت ثورة مايو بالتحالف مع الشيوعيين واليساريين، كان عبدالله الطيب أول المستهدفين في جامعة الخرطوم، بالرغم من أنه كان الأستاذ النابهة والحبر العلامة إلا أن أولئك الشيوعيين واليساريين افلحوا في إقناع النميري بفصله – ومعه ثلة من أعظم أساتذة جامعة الخرطوم – وكانت رابطة الأساتذة الإشتراكيين بجامعة الخرطوم وراء تلك العملية المهينة المتهافتة.

لقد كان عبدالله الطيب نفسه أستاذاً متفوقاً ومتميزاً جداً ولقد اعترف العالم كله بعبقريته ونال أخيراً إكرام الدولة له – في عهد الإنقاذ – فصار رئيساً لمجمع اللغة العربية الذي أنشئ بالسودان لأول مرة، كما سمي شارع في قلب الخرطوم بإسمه وكذلك أنشئ معهداً بجامعة الخرطوم يحمل اسمه كذلك "معهد عبدالله الطيب" للغة العربية كما أنشئ أخيراً مركزاً يحمل أسمه. وأما جامعة الخرطوم التي كان مديرها وصار أخيراً وقبل وفاته مديراً لمجلس إدارتها العامة، فقد كرمته:

١ – أولاً بمنحه لقب الأستاذية الممتازة : Professor Imiritues

٢ – وثانياً بمنحه الدكتوراة الفخرية في الأدب!

كما أنه نال جائزة الملك فيصل العالمية، وكان قبلها قد نال جائزة الشهيد الزبير محمد صالح للإبداع العلمي!

وكان لسان حال عبدالله الطيب لحساده وعذاله ؛ أبيات أبي الطيب المتنبيء:

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويأبي الله ما تأتون والكرمُ
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
أنا الثريا وذانك الشيبُ والهرمُ

وكذلك أبياته الأخرى:

أُعادي على ما يوجب الحبّ للفتي
وأهدأُ والأفكارُ فيّ تجولُ
سوى وجع الحساد داوِ فإنه
إذا حلّ في قلب فليس يحولُ
ولا تطمعن من حاسد في مودة
وإن كنت تبديها له وتُنيلُ
وإنا لنلقي الحادثات بأنفس
كثير الرزايا عندهن قليلُ
يهونُ علينا أن تُصاب جسومنا
وتسلمَ أعراضٌ لنا وعقولُ

كيدُ الأفندية وكيدُ المشائخ:

كان الشيوعيون واليساريون والعلمانيون يكرهون جامعة أم درمان الإسلامية ويحاربونها بكل السبلُ. وعندما جاءت ثورة مايو، وكان نميري في أول عهدها متحالفاً مع الشيوعيين والقوميين العرب. كان من أول قراراته حلّ جامعة أم درمان الإسلامية وتفكيكها وتحويلها إلى كلية صغيره للدراسات العربية والإسلامية "يعني معهد علمي صغير تقليدي"، وكانوا قد فصلوا عبدالله الطيب وآخرين من خيرة أساتذة جامعة الخرطوم، وعندما ذهب عبدالله مشتكياً متضرراً من فصله التعسفي إلى الرئيس نميري

أوحي الشيوعيون إلى نميري بتعيين عبدالله الطيب عميداً لتلك الكلية الهزلية، التي أنشأوها بديلاً عن جامعة أم درمان الإسلامية العملاقة.

وعندما عرض النميري ذلك المنصب المتواضع لعبدالله الطيب رد بلباقة ساخرة:

"يا رئيس أنا عانيت من كيد الأفندية في جامعة الخرطوم، حتى انتهى ذلك برفتي منها عاوز دي الوقت توديني إلى "كيد المشايخ"؟! أحسن لي رفتتي دي!!"

وضحك الرئيس وأوصى بإعادته أستاذاً في جامعة الخرطوم!

مهما يكن من شيء فلقد عانى عبدالله الطيب الكثير الكثير من عداوة الأفندية في جامعة الخرطوم ومن النخبة الأولى التي كانت تمسك بدفة الحكم في السودان، فقد كانوا يتجمعون ضده من شيوعيين ويسار وقوميين وعلمانيين ومن سدنة التراث الإنجليزي العلمي في جامعة الخرطوم وبلغة زوجته جريزلدا (Grezelda) فقد كانوا:

Ganging up against Abdullah!!

ولكن عبدالله كان قويا وكان مصادماً ومحارباً فلم يستسلم لهم أبداً، وكان يستعين عليهم بالله وبتفوقه العظيم في العلوم والمهنة الأكاديمية.. ولقد نصره الله عليهم نصراً مبيناً، عندما عُين مديراً لجامعة الخرطوم في عهد نميري، عندما تحرر نميري من هيمنة الشيوعيين وأبصرت عينيه نور الحقيقة!!

فعبدالله الطيب، كان محقاً بعض الشيء في شكاياته من الخصوم والأعداء، ولكنه كان مفرط الحساسية في ذلك؛ فكان كثيراً ما يبالغُ في ذم خصومه، ومن كانوا يناصبونه العداوة والبغضاء!!

ولكننا قد رأينا كيف أن الله نصره على أعدائه فصار مشهوراً ومكرماً على مستوى العالم بأسره!

وأكبر إكرام لعبدالله الطيب شهادة جموع المسلمين له بالصلاح، وحسن السريرة والخيرية عند مماته، فسار في جنازته أكثر من ثمانين ألف من المؤمنين، يتقدمهم رئيس الجمهورية، والوزراء وقادة العمل التنفيذي والتشريعي والقادة العسكريين وكذلك وجهاء البلد وعامتهم. وشهادة المؤمنين مقبولة عند المولى عز وجل ومن شهد له المؤمنون بالتقوى والإحسان عند موته وجبت له الجنة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما قال عن الجنازة التي أثنى المؤمنون على صاحبها ودعو له الله أن يدخله الجنة، قال، صلى الله عليه وسلم:

"وجبت" أي وجبت له دخول الجنة!!

فإنه لا تجتمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلال!!

عبدالله الطيب وآراؤه في عروبة السودان والسودانيين:

قلنا إن واحداً من أهم مفاتيح شخصية عبدالله الطيب، قوة وشدة إنتمائه إلى العروبة والإسلام. فهو يقول أكثر من مرة إنه عربي بالرغم من "سمرة لونه"، أو - على حسب تعبيره، على الرغم من كونه "أخضر اللون". والسودانيون يقولون للرجل الذي لونه أسمر أو أسود أنه "أخضر اللون". وعبدالله الطيب يدافع عن صحة هذا الاستعمال اللغوي ويقول إن العرب كانت تطلق لفظة "الأخضر" على الرجل الأسمر أو الأسود:

يقول عبدالله الطيب في ذلك:

"ورب منكر على الجعليين وغيرهم من بني عمومتهم من أهل السودان عروبتهم لسوادِ ألوانهم، وليس هذا بشيء.. إذ لم يكن العرب في ماضي أمرهم بيضاً ولعل سمرتهم كانت أدنى للسواد لقوله صلى الله عليه وسلم، أنه بُعث للأسود والأحمر من الناس، قالوا الأسود عنى به العرب والأحمر العجم!!"

يقول عبدالله الطيب إن عقيل بن عقلة أبى (رفض) صهر بعض أبناء الخلفاء من بني أمية وقال:

ردت صحيفة القرشي لما
أبت أعراقه إلا إحمرارا

وهجا ذو الرمة بني أمرؤ القيس بالبياض، وقال:

تسمى بني أمرؤ القيس بن سعد إذا اعتزت
وتأبى السبال الصهب والأنف الحمر

يقول عبدالله الطيب أن (بني جمح) من العرب عُرفوا بسمرة اللون وبميلهم إلى السواد في ألوانهم، وبذلك مدحهم حسان - شاعر الرسول، صلى الله عليه وسلم بأنهم بنو جمح الخضر الجلاعيد قال "أومن بني جمح الخضر الجلاعيد

قال الفضل بن العباس اللهبي مفتخراً:

وأنا الأخضر من يعرفني
أخضر الجلدة من لون العرب

من يســـاجلني يســـاجل مـــاجـــداً

يملأ الدلوَ إلى عـــــقـــــد الكرب

فعبدالله الطيب يرى إن العرب العاربة الأصليين كانوا سمراً وحتى بعض أفخاذ قريش كانوا أيضاً خضراً أي سمراً إلى السواد أقرب ومنهم العباس بن عبدالمطلب عم الرسول صلى الله عليه سلم. وعمر بن الخطاب وغيرهم:

وكان السواد فاشياً في الأحابيش وهم قبيلة عربية صحيحة!!

ولقد وصف عمر بن الخطاب بأنه أدلم أدعج يعني أسمراً أميل إلى السواد في اللون. والأدلم هو الأسود الطويل. وكان سيدنا علي بن أبي طالب رجلاً آدماً أي أميل إلى السواد (لون أديم الأرض يعني بني اللون).

واللون الأخضر عندما يشتد يصبح أقرب إلى السواد:

وفي القرآن الكريم ﴿ومن دونهما جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان مدهامتان﴾ (الرحمن: ٦٢, ٦٣, ٦٤)

مدهامتان يعني أقرب إلى السواد في خضرتهن القوية:

﴿والذي أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى﴾ (الأعلى: ٤, ٥)

فإن المرعى إذا قدِم وبلي صار أحوى اللون أي أسمراً أسوداً.

يقول عبدالله الطيب إن عرب الشام وشمال الجزيرة إنما اكتسبوا بياض اللون من كثرة اختلاطهم بالروم والبيزنطيين وكذلك مع النوَر (يعني الحلب) من النبطيين وغيرهم.

العرب أصلهم في السودان:

وعبدالله الطيب لا يكتفي بتأكيد عروبة السودانيين من القبائل العربية في شمال السودان، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إن أصل العرب كان في السودان، وإن السودان الشرقي كان جزءاً من جزيرة العرب، قبل تكوين البحر الأحمر الذي فصل السودان الشرقي من جزيرة العرب!!

وعبدالله الطيب كذلك يدعي أن الخيل العربية كانت أصلاً في السودان الشرقي ومن هناك عبرت إلى جزيرة العرب!

كما يقول عبدالله الطيب إن هجرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن إلى الحبشة المعروفة الآن.. بل كانت إلى السودان الشرقي وإلى شواطيء النيل عند مروي

القديمة، بالقرب من كبوشية الحالية حيث الآثار الموجودة الآن في البجراوية، وفي النقعة والمصورّات ولقد تبع عبدالله الطيب وأيده في ذلك كل من:

* البروفسير حسن الفاتح قريب الله
* والدكتور جعفر ميرغني
* والبروفسير حسن مكي وآخرون،

بمعنى آخر، فإن عبدالله الطيب كان يرى أن السودان هو مركز العالم العربي، بل هو مركز العالم القديم فليس يصح أن يصبح هامشاً! غير أنني أرى أن أستاذنا المبجل كان يبالغ في كل ذلك، وحججه وبراهينه لم تقنعني أنا شخصياً، ولعلي لم أقف عليها كلها والله أعلم!!!

رحم الله أستاذنا العلامة العبقري عبدالله الطيب وجعل قبره روضة من رياض الجنة!!

وسبحانك اللهم ونحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. ونصلي ونسلم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رثاء الأستاذ والأخ الحميم
البروفيسور مندور المهدي

نعوا إليَّ مندوراً فأطرقت ساعةً حزيناً وكان الموتُ حقاً مؤجلا
نعوه فتى قد كان حرّاً وقادراً على الخير نحو الشر لن يتعجلا
ولم يك يخشى أن يرى الناس وجهه إذا قال قولاً أو أراد ليفعلا
ولا خائفاً في الحق لومة لائم إذا ذكروا الحقَّ الضعيفُ فأجفلا
وعهدي به إذ كان حلو فكاهة الحديث يرينا وجهه المتهللا
وكان ذكياً ألمعياً وناقد البصيرة شعر الحسان المتعقلا
وذا قوة في نفسه وتجارب ودقة حس رقة وتأملا
وصاحب تدبير وجدٍّ وعفةٍ وشهماً وبالعرف الحميد موكلا
وقد كان ذا علم وحلم وجانب إلى الله يُلقى عابداً مستبتلا
وكان بليغاً في الخطاب وحاضراً له جوابٍ وفي حفظ المودّة أوّلا
وكنا تصافينا زمان حداثة الشباب وطاب الصفو في الود منهلا
فلم تحدث الأيام بين قلوبنا سوى أن يزيد الود حتى تغلغلا
وحتى عرفنا صدق ما في نفوسنا من الحب لا نخشاه أن يتبدّلا
فجعت بمنعاه وكان نعاه لي مناي فما صدّقت ذلك مؤولا
مضى الجيلُ حتى صرت يا صاح بعدهم غريباً وسال الدمع والقلب ما سلا
عليه سلام الله إن مقامه لدى الله في الفردوس في الدرج العلى
عزاءً بنيه والعشيرة واصبروا فقدتم فتى قد كان في الناس أفضلا
وما هذه الدنيا بدار إقامة ولكننا فيها نجوز لنبتلى
فنسأل رب الناس ستر عيوبنا وصبراً على البلوى وأن نتجملا
ونسأله الغفران والعفو والرضا وعاقبة الحسنى وفي الخُلْدِ منزلا